

أصدر أمير دولة الكويت
مجلس الوزراء الوطني للثقافة والفنون والآداب

عالم الفكر

العدد 1 أبريل 2001 يوليو - ديسمبر 2001

رئيس التحرير

د. محمد الروميحي
mroumichi@ku.edu.kw

مستشار التحرير

د. عبد المنان التميمي

هيئة التحرير

د. خليلون النقيب
د. رشاد جمود الصباح
د. مصطفى سمرفي
د. بدر مسال الله
د. محمد الفهلي

مديرة التحرير

نبال الشنبركة

سكرتير التحرير

هبةعزيز سعود الزروق

تم التخطيط والإخراج والتشيد
بمبادرة الإنتاج في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

الكويت



دولة الكويت برئاسة
عبد العزيز الأحمد الصباح
الأمير
والشيخ صباح الأحمد الصباح
الوزير

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج
الدول العربية
خارج الوطن العربي
دول الخليج العربية
دول الخليج العربية
دول الخليج العربية

الاشتراكات

دولة الكويت

لأفراد
للمؤسسات

دول الخليج

لأفراد
للمؤسسات

الدول العربية

لأفراد
للمؤسسات

خارج الوطن العربي

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

لأفراد
للمؤسسات

00966-0-933-5

شارك في هذا العدد

- د. يحيى حبيب الخولي
- د. محمد مكيال
- أ. حبيب العرب
- أ. محمد عبد الكريم الجراح
- أ. فاطمي طه الجراح
- أ. سمير صالح
- أ. سمير الزين
- د. جاسم الحسن
- د. فوزي البوت

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتميزين ونقبل للتشاور الدراسات والبحوث القيمة وفقاً للقواعد التالية:

- 1 - أن يكون البحث مبتكراً أصيلاً ولم يسبق نشره.
- 2 - أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارفاً عليها ويخضع فيها بتفصيل بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.
- 3 - يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين 12 ألف كلمة و16 ألف كلمة.
- 4 - تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الأقلية الطباعة ولا توجد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 5 - تخضع المواد المقدمة للنشر لمحكمهم العلمي على نحو سري.
- 6 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
- 7 - تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

■ المواد المقبولة في هذه المجلة تعتبر من رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

■ ترسل البحوث والدراسات باسم الأمين العام للمجلس الوطني للشفاعة والتبليغ والآداب

ص.ب. 98613 - الصفاء - الرمز البريدي 11147 دولة الكويت

البريد الإلكتروني: info@wscad.org.kw

أفلاق معروفة

- 7** جدول الشكافية والملاحظة على التصوير
الأسطولوجي للعالم عند برونارد رسل
د. يحيى طريف المحوالي
- 31** البلاغة ومثولة الرئيس الأرمي
د. محمد عسليال
- 97** الحجاج والاستدلال الصحافي
«تأملوا استقصاء نظري»
أ. صبيب أعراب
- 139** مسرحية أرمي ملكا وأرمي في كوتون
د. الأستاذة العالمية والخبيرة القومية
أ. فتحي طالب الحجاج
- 171** سينما المستقل
أ. سمير صالح
- 225** الشؤون لوسطية، ومستقبل
السلطة العربية
أ. سمير الزين
- 277** الدراسة الذاتية للبيئة
عريس وتحليل د. جاسم الحسني
د. فوزي البوت

◆ الفكر ◆

فكرة

هذا الوقت من كل عام تطالع مجلة عالم الفكر قراءها بمجموعة دراسات متنوعة تشكل في مجملها وجبة فكرية سميكة، حيث نجول بين الفلسفة والأدب والسياسة، ونعرج على البهجة ومشكلاتها، وهو دأب مجلة عالم الفكر التي تسعى للحفاظ على المستوى الفني والفكري الذي وصلت إليه - والذي يمثل دافعا ينحو بها إلى الاستمرار في التطور شيئا فشيئا - لذا نحرص المجلة على أن تختار بمثابة مادتها لكل عدد، كما نحرص على الحفاظ على نهجها الذي دأبت عليه في المحاور التي تتبناها، فالطوائف ينتظر الجديد والجديد، وما نحن نقدم هذه الدراسات المتنوعة في هذا العدد، حيث تبدأ بموضوع فلسفي حول جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، وهو من أهم فلاسفة القرن العشرين في المطلق الرياضي. كما يبدأ استنادا للفيلسوف أرسطو - ويعتبر الشكل المنهجي أساس فلسفة برتراند رسل، وتلك الفكرة تبحث عن البهجة، وقد لب هذا الفيلسوف دورا فعّالا في إعادة إنتاج النظريات الفلسفية بنشاط. وعقل متوقد، ثم نعرج في الدراسة الثانية إلى معالجة البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، حيث يتطرق الباحث من مقولة، إن اللغة لا تعتمد جماليتها من تكوينها الذاتي فقط، بل أيضا من علاقتها بالجنس الأدبي، فتصبح اللغة في أفق جديد، تتحدد من خلاله جماليتها وأسلوبيتها، مما يظهر الفروق الفردية بين الأجناس الأدبية المختلفة.

وتتعلق الدراسة الثالثة بمسألة لغوية، وهي الوقوف على معنى مصطلح (الحجاج) وتعدد وتوابع الاستعمالات وثابتهن المرجعيات، وهو موضوع تخصصي دقيق.

بعد ذلك نجد دراسة حول تجارب سمير حجية - المهتم فيها الفشارية - تتناول الأسطورة اليونانية، والقصص العتيق التوراتي.

والدراسة الخامسة تتناول سينما المعتزل، وهي دراسة نقدية للسينما السياسية، تتعامل بداية مع المصطلح والدلالات، كما تتعالج تجربة سينمائية مهمة على مدى تاريخ السينما المصرية، لم تكن بعيدة عن التأثير بالواقع، ويركز الباحث على الاعتقال التعسفي وطريقة التعبير عنه سينماتيا، وذلك ليس بهدف التعرف إلى الدلالات السياسية بل قدر ما تهدف المعالجة إلى المساعدة في بناء مجتمع سياسي يخلو من الاعتقال، ويحضى على التفاعل والتلافح الفكري والسياسي. كما تتضمن الدراسة دعوة إلى تجديد اللغة السينمائية وتطويرها.

وفي منحي آخر، تطرح الدراسة السادسة مسألة الشرق أوسطية، مصطلحا ومفهوما وممارسة، ضمن التغيرات التي يشهدها العالم ومنطقة الشرق الأوسط، على وجه الخصوص، والتي تشكل تحديات سياسية واقتصادية، تواجه العالم العربي في تاريخنا المعاصر. وأخيرا، لدينا دراسة تتناول عرضا ومناقشة لكتاب مهم يعالج السياسة العالمية للبيئة، ويتمحور الموضوع حول كمية إلقاء البشرية من الأخطار البيئية، إنها جولة في معارف متعددة وأفاق فكرية تهم المنطقتين والثقفت والإنسان عامة. حاول الباحثون المشاركون في هذا العدد، من خلالها، أن يقدموا لنا إسهاماتهم التي نرجو أن ترقى إلى المستوى الذي يملطه قارئ مجلة عالم الفكر.

رئيس التحرير

arroubi@knu.ac

بدل المثالية والواقعية

في الصور الأطوار ديم العالم عند برتراند رسل

د . يحيى طريف الخولي

أولاً : مفتاح للشخصية

شكيلة شخصية :

يعد الفيلسوف الإنجليزي، وصالح الرياضيات، البارز برتراند رسل Bertrand Russell (18 مارس 1872 - 2 فبراير 1970) من أهم فلاسفة القرن العشرين¹.

ويمكن اعتباره من أهم فلاسفة الألفية الثانية على إطلاقها. وهذا بالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبه في مبدآن المنطق الرياضي وأصول الرياضيات، حتى أنه يعد الإنجاز الرائد للمعلم الأول أرسطو كان أعظم وأهم تطوير للمنطق هو هذا الذي أنجزه برتراند رسل. والخطوة الانطلاقية الكبرى التي أنجزها عالم الرياضيات الفذ جورج بول G.Boole (1815 - 1864) لم تفتح أكمامها وتلوت أكفها إلا بعد إنجازات رسل العظيم، الذي أجاد استقطاب جهود رواد المنطق الرياضي السابقين عليه والمعاصرين له واستبصارها وتجاوزها داخماً للمنطق إلى الأساطير ليس مجرد خطوة، بل مرحلة جديدة.

وقبل أن يغادر رسل الثلاثينيات من عمره، وبالتحديد عام 1910، وهو عام بدء صدور «بريكينا ما ثيماتيكاً» كان رسل قد احتل مكانته وتربع في عالم المنطق الرياضي على عرشه التكين، فهما بعلي واحدة من أقصى درجات إثبات الذات.

1- كلية الآداب - جامعة القاهرة

229 هذا رأي كثير من الفلاسفة. وقد ذكرني الأستاذ:

Ralph Schoenman, Bertrand Russell: Philosopher of The Century, George Allen & Unwin LTD, London, 1947

لذلك، فإننا نلجأ من المنطق إلى الفلسفة، وجدنا وصل في حل مما يتقارن كواهل الفلاسفة بغير إثبات الذات الفلسفية من إنطلاق البنية الباقية من الجهد والعصر في دفاع مستمته عن الفكرة التي طرحوها أو البناء الذي شيدوه. إن ذات وصل الثبوت إلى أقصى الحدود جعلته بالتقدم الراسخ لا يتصرف البنية من تعديل وتطوير أرائه. والانتقال على ما أتى به ونسب ما أتى الجهد في محاولة إثباته معترفًا بقصوره ومنوهاً إلى ما أخفق في إنجاز - ولعله يحتل مكانه في مصاف أعظم الفلاسفة طرأ لأنه كان سرورًا في الاعتراف بما عني به من فشل⁽¹⁾ فقال عنه الفرد أير إنه ليس أعظم فلاسفة القرن العشرين فقط بل هو أيضًا أعظم من مارسوا النقد الذاتي. وعلى مستوى كل المعصور.

وهو في هذا مدخول برغبة متأججة في الوصول إلى الفهم الفاطح، دفعته إلى الشكل المستديم في كل صغيرة وكبيرة. شك ديكرتي متحيي بشك ليطمح ويهدم أبني. من أجل الهدف الذي نغنيه وصل طوال حياته وهو تحوي الحقيقة أكثر وأكثر. مؤكداً أن هذا النهج الذي ابتدعه ديكرت يمثل من الممكن دائماً استخدمه استخداماً مريحاً ومثمر⁽²⁾. وإن لم يكن تنبيه بالأمر الميسر، فالتناس يكرهون النزعة الشكية أكثر مما يكرهون التحسين العاطفي للأداء المتعاضة لأرائهم⁽³⁾ أو تزعزع أسس ما استكروا واستراحوا إليه. يقول وصل هذا في مقال بعنوان «في قيمة النزعة الشكية» جعله تمهيداً لكتابه مقالات شكية سرورده بهنقل فن يهوان - الألام والوقائع. يتناول الدوايح اللاعقلانية للمعتقدات ليسمح إلى أي من النزعة الشكية سرورية حقاً⁽⁴⁾. فلا غرو أن يرى الفلسفة ونظيرة المعرفة يجب أن تتحدد على أساس الشكل النهائي⁽⁵⁾ وكان تفكيره منذ البداية يسير على خطوط مماثلة جداً للخطوط الديكرتية⁽⁶⁾.

إن الشكل النهائي هو مستحاج شخصية وصل الذي يفتح مغاليل فلسفته وتطوراتها ومتنجاتها الحادة، ومثل بشارت البدايات. فقد كان التشكك في أصول الرياضيات.. في التسليم بديهيات أفليدس بلا بنية ولا إثبات. والذي اعتمد في نفسه وهو طفل يراه في مدارج الصبا ويتلقى دروسه في الحساب والهندسة من أخيه الأكبر. هذا الشكل الذي انتج في أعطاف الطفل برني. هو الذي أدى به في النهاية إلى التنقيب في أصول الرياضيات وتشهيد إنجازاته الشهيرة في هذا الميدان وفي مجال لتطبيقات الرياضي.

والرياضيات بدورها ومنذ البداية هي إطار فكره وحدود عالمه العقلي. ولعل شغفه بها ينبع أساساً من تشوقه الذي يكاد يملأ حيد الصبوحية للوصول إلى نوع من الحقيقة المطلقة الحقيقية⁽⁷⁾. ويمتد وصل دائماً بأنه أتى إلى الفلسفة عن طريق الرياضيات⁽⁸⁾. إنها الدافع العقلي الخالص أو الصوري.

أما عن الدافع الوجداني للفلسفة فقد تأتت بشارته أيضاً من النزعة الشكية. إذ يمكن القول إن وصل ضمن طريقه إلى بدايات التفكير بشكوكه المراهقة المعهودة في المعتقدات

رؤية التحليل والتوليد

الذهنية، ونحصل التكرارات التي دونها آنذاك، منذ الثالث من مايو عام ألف ولصامائة وثمان وثمانين وهو في السادسة عشرة من عمره، وحلته الذهنية هي الشكل التي أدت إلى رفض ظهور الروح لم رفض حرية الإرادة⁽¹⁾. وفي أعقاب فترة وجيزة سلم فيها بوجود الله، انتهى به الأمر وهو في الثامنة عشرة من عمره إلى إنكار وجود الله أيضا. وكان هذا تحت تأثير قراراته لحنون ستيفارنت مل J.S.Mill (1806 - 1872) الذي مارسه فلسفته تأثيرا على عقلية رسل. وقد كان رفيقا لوالديه، وأباه في العمار، ومع ملاحظة أن والد رسل نفسه ألفه كتابا نشر بعد وفاته بعنوان تحليل التعقيد الذهنية⁽²⁾ يرمي إلى مثل هذه الغاية، هطل رسل حتى النهاية ملجدا بتطاع ويضراوة. وإن كان يزعم هي بعض الأحيان أنه لا أدري، لا يتكلم بوجود الله ولا يشك، بيد أن هذه اللاأدري لا تتفق مع منهجية الشكل الباحث عن اليقين، لأسبغها في قضية لها من المتطورة الأنطولوجية ما القضية وجود الله.

هكذا تطالعنا النزعة الشككية متجذرة منذ ما قبل البدايات، شكية منهجية باعثة عن اليقين. وكان برنولد رسل في مطالع حياته ومراحله الفلسفية الأولى يتحرق شوقا إلى اليقين، وفي مراحله التالية ويستيه المتأخرة أدرك تماما أن اليقين في المعرفة وهي الطبيعة لا يسهل إحرازه بل ولا يمكن بلوغه، ويكتفينا الاقتراب منه قدر الإمكان. وفي هذا وذلك، في بلوغ اليقين أو الاقتراب منه كان سبيله هو تحليل أي شيء يبدو موضوع شك أو عيبا ليحيله إلى مكونات لا سبيل إلى الشك فيها⁽³⁾ مبتدعا بهذا مساهما في التفكير لم تعرفه الفلسفة قبل العام 1900⁽⁴⁾، قبل صد إنه ثورة فوضت العالم المألوف، السائل للاتساق الفلسفية الشائعة. وكانت تملأ بها جديدا.

إذن لم يقتصر الأمر على أن نأثرت شكوك الطفل هي بدعيات الفيلسوف إلى برنوكيا ما تيماتيكا، وإنشأت الذات في عالم الرياضيات ومنطقها، ولا على أن شكوك المراهق والشاب قد نأثرت إلى إنجازات رسل الثقلية في الفلسفة، بل إن النزعة الشككية والنهاج الشككي هو لا سواء الذي نادى برسل إلى إتجاره الأعظم الذي دخل به عالم الفلسفة من أوسع أبوابه، وتربح على واحد من أعلى عروش، أي المنهج التحليلي الناقد بأدواته المكننة ونظيمياته المعقدة، سوف يمثنا من أموره تطبيقه على تصور العالم.

هكذا انطلق رسل بذات مثبته تماما، لا تتخرج من التعديل والتطوير والإنهاء والانتقال المستمر على الذات، من أجل الوصول إلى ما هو أفضل وأصوب وأقل... أقرب إلى اليقين، مدفوعة بنزعة شكية متجذرة. فكان رسل دائما وحتى آخر لحظة في حياته المعقدة عقلا نشيطا فعلا منتج وبعيد إنتاج النظريات والتصورات الفلسفية بعدة وجدة لا يغير وجهها أبدا، حتى قال تشارلي ديفر بروود C.D.Broad (1887 - 1971) قوله الشهيرة: «من عادة السيد رسل أن يطرح علينا كل بضعة سنوات بمنهج فلسفي جديدا»⁽⁵⁾، وكما أشار فيلسوف تحليل اللغة الجارية البارز جيلبرت رايل G.Ryle (1900 - 1976)، فإن رسل لم يؤسس مدرسة فلسفية معينة ولم يقتصر إطار تفكير فلسفي محدد بل

فقط انتزع منهاها للتفكير لم تعرفه الفلسفة قبل عام 1900 - كما ذكرنا - ودأب على تطبيقه وتطوير النتائج وتقييمها ومراجعتها، وهذا راجع إلى طبيعة المسائل التي انشغل بها وأسلوبه في تناولها. وهذا في الوقت نفسه أحد الملامح الأساسية في فكر رسل والجدير حقا بالإعجاب⁽¹⁾. ومحصلة كل هذا أن صورت فلسفة رسل بمنطلقات جذرية ومنهليات وتطورات ومراحل متعاقبة، تجعل قول رسل في أية قضية دون ربطه بالرحلة المعينة من تطوره الفكري، يكثر يخلو من المعنى بل الغرض.

ثانياً : أهمية «تصور العالم» الأنطولوجيا منطلق

وإذا وجب على الباحثين في هذه الزاوية أو تلك من زوايا فلسفة رسل أن يتتبعوا مسارها عبر مراحل تفكر رسل وتطوراته، فإن هذا الوجود يبدو أكثر إلزاماً في قضية تصور العالم، لأنها بؤرة محورية في فلسفة برتراند رسل، وبطل «تصور العالم» وتقييمه وتعديله هذا ملابزم الرسل في كل المراحل التعاقبية التي مر بها تفكيره. وبما أنه يرى في تصور العالم منطلقاً أساسياً لفعل التفلسف، إذ يقول رسل: «تختلف الدوافع التي دفعت الناس إلى التفكير الفلسفي في توحيها، ولكن أجدها بالاحترام هو الرغبة في فهم العالم التي كانت الدافع الأول في انطلاق الفكر». «هذه كانت الفلسفة والعلم لا يتميزان عن بعضهما»⁽²⁾.

أجل يشيع أن الابدستمولوجيا هي منطلق رسل الأساسي والذي ظل دائماً شغله الشاغل. ورسل نفسه يؤكد أنه على طول المدى منذ البدايات وحتى النهايات، كان مهتماً على الدوام بالسؤال العمري: إلى أي حد يمكننا الزعم بأننا نعرفه وبأية درجة من اليقين أو الشك؟⁽³⁾ ولكننا سنرى أن الثابت الأساسي في كل التغيرات التي ألمت بفلسفة رسل هو دعواه العميقة - قولاً وفعلاً، منهاجاً وتطبيقاً - لأن تقدم الفلسفة العلمية، تمتص باهتمام لشهادات العلم عن الواقع والوقائع، وتستفيد من مصادره وتتحلى بطياته.

وهذا النزوع العلمي القوي في أصلاب عقلية رسل وفلسفته على السواء يجعل «تصور العالم» هو الإطار الضام للإشكالية المعرفية⁽⁴⁾ والمعرفة يدورها هي المجال المتوسط بيننا وبين العالم، فنن تصوره وإن ندرى عنه شيئاً إلا من خلالها. وسوف نحاول فيما بعد استخلاص دلالات هذا التداخل بين الابدستمولوجيا والأنطولوجيا الرسالية، وبهنا الآن كيف تتضح معه ضرورة تصور العالم، وأنه ركن من أركان فلسفة رسل. وفعلاً عن هذا يرى رسل أن الفلسفة تتميز عن سواها من قضايا العلوم، في أن القضية الفلسفية عامة، لا تتعلق إطلاقاً بأي شيء معين في إطار زماني ومكاني محدد، في الأرض أو في السماء، هذه العمومية تعني أن

رؤية العالم وأثرها في

الفلسفة لتحدث عن العالم ككل، أو أن تصور العالم إطاراً لها، وكانت الفلسفة دائماً «في جانبها النظري» تدين على فهم العالم ككل ما أمكنها هذا^(١٤)، أما في جانبها الوجداني فتتبع فيها رغبات الحياة، ومهام الفلسفة - فيما يرى رسل - لا تختلف باختلاف العصور.

يعنى هذا أن فهم العالم ككل أو التصور العام له مهمة أساسية للفلسفة من حيث هي الفلسفة، والروح الفلسفية تطالب بالاهتمام بالعالم فقط لأنه العالم^(١٥) for its own sake، والفلسفة حين تطلق بنا إلى تصور عام للعالم إنما تصل إلى أقصى نقطة ممكنة في الاعتماد من الموقف الإنساني المحدود المنحصر في أيتها والأزمنة، في المكان المحدود بالزمن والزمكان. كل الأنشطة المعرفية وعلى رأسها العلم تواقع بالإنسان من موقعه الزمانية المكانية وتجعل حياته أرحب وأوسع بأن يتراعى تفكيره إلى سعة الأفق الوجودي فيدرك المحدودية الشديدة للموقف الإنساني المنحصر، فلا ينحصر في موقعه فنيه، التاريخ والجيولوجيا مثلاً يبعدان بالإنسان عن الآن. الجغرافيا والفلك يبتعدان عن هنا^(١٦)، أما الفلسفة في نظرتها الأنطولوجية العامة فينبغي أن تشملها كل هذا وتتجاوز - حين تناصر بوضع تصور عام للعالم أو للكون، فذلك هو «البحث الشامل الذي تتميز به الفلسفة»^(١٧) وأما ولا ينطبقه سواها.

إذن لا محارفة في القول إن تصور العالم الهدف الفلسفي الاستراتيجي لرسل، فبركون تماماً أن «التحليل، هو اعتبار رسل الطبيعة والوجود الهائي إنه أبرز التحليل الشرعي ووب من أربابه، ومن أقدم من استشرى إجاباته ومكتباته، وكان دائم الاستعداد للدفاع المستميت عنه، ويسهب في حين أن رفض الفلسفة التحليلية هو رفض للتقدم العلمي»^(١٨)، وكان رسل بجهارز النطقي للهب يوسي الأصول المكنية لعلمة التحليل القومي.

ومع كل هذا يؤكد أن التحليل القومي وسيلة مفيدة جداً وليست غاية، ولا ينبغي أن يلجأ عن إنجاز الأهداف الفلسفية الكبرى، لذا يشير ألفرد أبير إلى أن نقطة الافتراق الحاسمة بين رائدي التحليل العظيمين الرهفيلون والصمدفون برونارد رسل وجورج إدوار مور (١٨٧٧) G.E. Moore - (١٩٥٨) تتمثل في أن مور أراد أن يهصر الفلسفة على التحليل، بينما رفض رسل هذا^(١٩)، لقد جاهر رسل بأن الفلسفة القوية الخاصة لا تكفي البتة لحل المشكلة الأنطولوجية والمشكلة الأبيستولوجية اللتين وأنهاهما عند رسل متجاورتين معاً تمثلان الهدف الفلسفي الأقصى.

لذلك فكل من رسل قد خلق التحليل وممارسه ودافع عنه بحماسة مستند، فإنه يحمل أيضاً، بهاجم الاتجاهات التحليلية التالية التي تطورت في التحليل تطرفاً متسجراً وأرادت فصر الفلسفة على ممارسات تقنية له في مجالات معينة، واتكزت حقيقة المشكلة الأنطولوجية وحدوى البحث في تصور العالم، من أمثال الوضعية النطقية التي فصرت الفلسفة على تحليل العبارات العلمية، أو فلاسفة الكسوردد الذين صبرفوا النظر عن العلم وفحصوا الفلسفة على تحليل اللغة الجارية.

يرفض رسل هذه الاتجاهات التحليلية المتطرفة، فمثلاً إن التحليل إذا تحول إلى أسلوب فني يصبح هو كل الفلسفة، فإنها لا تستحق إشاعة الوقت، أما إذا كان الهدف من التحليل هو فصل الفلسفة عن العلم الطبيعي فإن هذا الفصل لا ينبغي البتة في شيء. وقد عني رسل بنقد الوضعية المنطقية - التي اعتبرته واقفاً لها - وأوضح رفضه لاستعمالاتهم لنظرية في الأنماط المنطقية والخلو من المعنى. وقد بالتفصيل نظرياتهم في ربط المعنى بالقابلية للتحقق، وأوضح النتائج المدمرة التي تلزم عنها⁽³⁷⁾. أما عن فلاسفة اللغة الجارية، فإن رسل يقول أنهم في أكثر من موضع اتهم قوم ينشغلون بالأشياء التافهة التي يقولها البلهاء، وهذا أمر قد يكون مسلماً لكنه ليس مهماً. وينتهي رسل إلى أن القاطن الوحيد الذي يركز على الفلسفة التحليلية هو أنها تأدت إلى أمثال هذه الاتجاهات المتطرفة حيث أصبحت الفلسفة معنية أكثر بنهم نفسها، وتكررت للمهمة التي اضطلعت بها الفلسفة منذ طاليس وطوال عهودها، وهي مهمة فهم هذا العالم⁽³⁸⁾.

وعلى هذا يمكن أن نكفيهم حيناً كيف أن التحليل اللغوي عند رسل لم يكن سوى وسيلة لفهم العالم، لذلك فصل التحليل عن المشكلات الميتافيزيقية بشكل صريح ومشروع⁽³⁹⁾ وعلى رأسها مشكلة تصور العالم.

تلك هي المشكلة التي كان الفلاسفة العظماء على مدار تاريخ الفلسفة معنيين بها. والعالم الأساسية لتاريخ التنظرة (الأنطولوجية، كما أوضح رسل) كما هو معروف تتراوح بين الواقعية المثالية التي ترى الكون كنه عقلا ولا شيء سوى العقل، وكل ما عدا العقل مظاهر جزئية خداعة لا معنى ولا قيمة لها، وبين الواقعية المادية التي ترى الكون كنه مادة ولا شيء سوى المادة وكل ما يبدو من ظواهر عقلية مجرد وظائف للمادة أو نواتج فزعية لها، هذا فضلاً عن المثالية التي اكتسبت هيلاً وهولاً في الفلسفة منذ أن أرساها ديكارت وهو برسي دعائم الفلسفة الحديثة، وهي ترى أن العقل والمادة كليهما حقيقة كائنة، كليهما جوهري قائم بذاته، والمشكلة هي كيف يمتلآن معاً، وكيف تنكر التأثير العلي لأحدهما على الآخر⁽⁴⁰⁾.

ورسل ليس معنياً بمسألة أي منها، فكما سنرى، سوف يتجاوزها معاً، أنها بما هو مختلف منها حيناً بالتدبر نفسه.

وأهم ما في الأمر أنه مُميز عنها جميعاً في أنه فلسفة علمية أو فلسفة للعلم، على أساس ما افترضنا عليه من ضرورة أن تكون الفلسفة علمية، وأنها لن تعود محدبة إطلاقاً إذا انفصلت عن العلم التجريبي، ولم تلصق لشهادته المظفرة بشأن العالم ولأنه أن تعتمد رؤيته للعالم كأساس الأنطولوجي لها. إن العلم في القرن العشرين طرح أسئلة عالماً حينها تماماً ومقاهمهم ومناهج لم تعرفها الأزمنة الأسبق، ولعل بسبب أكثر خصوصية وإثراء من كل ما اتجه للأفهمين⁽⁴¹⁾.

رسالة الفهم والفهمية

ولا يعني هذا أن معادلات الأقدمين هراء بلا قيمة، بل يؤكد رسل - الذي كان شفيق الحارثي على عرضها ومناقشتها - «أن الزمان على فهم هذه الصور المختلفة للعالم يوسع العقل ويهيئ لقبول هروجن جديدة ربما كانت مثمرة»^(٣٧)

فهل كان الفرض الجديد الذي وصل إليه برتراند رسل في تصوره للعالم كحصان ذري التعددية من أحداث واحدة معاهدة تنظمها تسلسلات القواطين العلوية والعلاقات الخارجية... هو فرض مثمر؟ وكيف وصل إليه؟

بل كيف سبيلنا نحن إليه في خضم التغيرات العاصفة التي هي مناخ عالم برتراند رسل؟

ثلاثاً: إطار منهجي للفهم

مراحل منهجية

قد يبدو أن المتابع لفلسفة رسل على مدار عمره اللطيف سوف يربكه هذه الكثرة في رؤاه الموضوع معين، وتعدد مداخلاته

ومفاهيماته إيما... ولكن على الرغم من الخلاف البنائي في مراحل فلسفة رسل وكثيرة التفاصيل الطاهرة وأن بعضها قد يتقش بعضها... فإنها تشتمل جميعاً متطلقات واحدة وأهداف معينة ومنافع محددة ترشد الباحث لعل أولها وقبلها رأسها جميعاً أن الفلسفة ينبغي أن تكون علمية «لا سيما إذا أخذت في الاعتبار المتطلبات المقصود في هذا المنهج التجريبي فخط، بل لعل الأدنى منافع العلوم الضرورية - المنطق والرياضيات - التي أنجز رسل فيها الكثير»^(٣٨)

كما أن رسل أسدى صلبها محموداً للباحثين في فلسفته إذ كان حريصاً على تضيق المراحل التي مررت بها فلسفته، والتغيرات والتحولات التي آلت بها، وما الذي جناه من كل مرحلة أقبل عليها، وما الذي استلزمه من كل مرحلة غادرها. وقد كرس رسل أعمالاً لهذا^(٣٩)، فضلاً عن تشارف الإشارات الدالة في مواطن عديدة منفردة، وبما يسهم في إيضاح الطريق أكثر أن خلق برتراند رسل الأرستقراطي الرقيق بعبه دائم الاعتراض بل والإشادة بفنخل الذين أخذ عنهم واستفاد منهم وتأثر بهم.

وفضلاً عن هذا وذلك طقوس المكتبة العربية بالدراسة المهمة التي أخرجها الدكتور محمد مهران بعنوان «فلسفة برتراند رسل»^(٤٠)

وإذا شئتم في هذه الكواشف وتلمس الطريق في خضم تصورات رسل، نستطيع أن نحاول تحديد المراحل التي مر بها تصوره للعالم، لتعدها ثلاثاً، على النحو التالي:

ـ المرحلة الأولى «مثالية» تماماً، حيث خطب تصور رسل للعالم كتابة للتمثالية الألمانية عملاً فيها كالمط، وهيجل.

المرحلة الثانية انشائية إلى النفيض تماماً، حيث أصبح تصور رسل للعالم سلقاً في إطار ما يمكن أن نسميه واقعية سلاجية، وواقعية إلى أقصى الحدود.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة والحاسمة حقاً والتي هي الهدف اللزوم، فتكاد تكون مركبة حداثياً بجمع خبر ما في النفيضين وتجاوزهما إلى تصور للعالم هو استجابة أمينة لتطورات العلم في مطلع القرن العشرين، ويبدو قانراً على حل المشكلة الأنطولوجية القديمة، مشكلة العقل والمادة. وهذا التركيب الجدلي يمثلنا التفسير السليم لوقف بورتاند رسل الفلسفي.

هكذا سوف نقدم هذا البحث بطرح تصور رسل للعالم في تطوره عبر مراحل ثلاث يفتح في تفسير ضرورتها النهج الجدلي (الديالكتيكي) الجدلي. إنه مناج، يعرف العقل بحركة الفكر التي تتحدى ضروب الإثبات الجزئية والمحدودة ونزاعها وتذبذبها. وتلك الحركة تتلقت من حد إلى حد آخر وتنتج نحو استيعابها معاً. وهكذا لا يحد الجدل وهو العلاقة المباشرة بين الفكر ومحتواه المتوخى التغير، فأنما خارج للتطوّر بل يتكامل معه، وهو يحول للتطوّر بواسطة تحويلة نفسه، ويصبح بذلك حياة الفكر وحركته الداخلية، الصورة والحتوى معاً¹³⁴. لكل ذلك كان النهج الجدلي ذا عقلانية مشهودة في تفسير التغيرات الواعية في عالم الإنسان وخطى التقدم التكنولوجية، فلا تغيير إلا برفض الأطروحة. رفض ما هو قديم. ولما كان الرفض إسماعلياً إنزاعياً خارجياً، ليس أنها هيكلية، فيكون من المنطقي أن يفضي إلى مركب جدلي بجمع خبر ما في القضية وتكوينها لتجاوزها إلى الأكمل والأشمل والأكفا.

وسوف نتبع الآن تصور للعالم عند رسل عبر هذه المراحل الجدلية الثلاث، محاولين إيضاح العوامل التي دفعت به إلى الدخول في كل مرحلة منها وما الذي أنجزه فيها، وكيف ولماذا خرج من إطارها، وما الذي استبداه منها في مقابل ما نبذ بالكلية، حتى نصل إلى التصور الأخير والعالم للعالم الذي يفترون باسم بورتاند رسل المجد في تاريخ الفلسفة العربي.

الجزء ١ - الأطروحة

تصور رسل للعالم

درج الباحثون في تسمية رسل على إعمال للرحلة الأولى الثانية من فلسفته، انتهاء بالإشارة إليها، وهذا على أساس أنها انتهت تماماً.

يبد أن الطرح الديالكتيكي المتفق عليه بنقض هذا، وبإلزاماً بالتوقف عند هذه المرحلة، فهي الأطروحة التي سوف نقض لنصل إلى مركبة الجدلي.

ومهما يكن الأمر، فإن رسل قد استهل علاقته النظامية الرسمية بعالم الفلاسفة بانطلاقه لقبيل عليها بمصاحف نفسه إلى رحاب الفلسفة المثالية الألمانية على وجه التحديد. وقد دفعته إلى هذه الانطلاقة عوامل خارجية متعلقة بإجواء الفلسفة الإنجليزية في الهزيع الأخير من

رنة المثالية والواقعية

القرن التاسع عشر، وعوامل داخلية متعلقة بشخص وظروف برتراند رسل، يجعل بنا الإشارة لكليهما.

أما العوامل الخارجية، فهي الغزوة المثالية الألمانية التي اجتاحت إنجلترا ذات التقليد التجريبي العريق. مرتين إبان القرن التاسع عشر، والتي تبرز القول إن النهضة الفلسفية في إنجلترا كانت المرة متأخرة للمثالية الألمانية وأنها تغذت من مصادر ألمانية.⁽³⁴⁾

وفي بدايات القرن التاسع عشر انضم الشعراء والكتاب الرومانسيون في إنجلترا إلى زملائهم في القارة واستلهموا خطوطاً مثالية طرأاً من عقلانية التنوير المفرطة وتعلق العلم الحتمي الميكانيكي. وظهرت المثالية الألمانية في أشعار شيلي ووردزورث وكتابات توماس كارليل.

والكسيت قليلاً مع كولريدج S.T. Coleridge (1772 - 1834) الذي درس مذهب كانت بالتفصيل.⁽³⁵⁾ ومع هذا كانت غزوة ضعيفة، إذ تمت على أيدي هؤلاء الرومانسيين مع الشعراء والكتاب، وجميعهم غير متخصصين في الفكر الفلسفي ولا محترفين إياه، لذا سهل اندحارها التام على يد جون ستيوارت مل عملاق التنويرية التطرفة والذي استطاع أن يكون بمثابة فيلسوف إنجلترا الرسمي في زمانه.

وعلى الرغم من اندحارها التام يترق رجل إله - غنوميا في بنائه - بفعل بوهد عميق مع دفاع ووردزورث الماضوي عن الدين، على الرغم من رفضه المثالي إياه وأنه كان يشعر بتجانس عميق مع شيلي في فضائه وهي نقائضه على النقيض أي هي الشبهة الدلالية وهي الإبحار⁽³⁶⁾ أي أن هذه الغزوة المثالية الضعيفة تركت طلائها في أصناف رسل، مما يالما بالغزوة المثالية المكنية.

هبت الغزوة المثالية الثانية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وإن كان يمكن اعتبار كتاب ج. هـ. ستيوارت J.H. Stirling، سر هيجل، ١٨٦٥ هو فاتحة هذه الموجة، ففيه أوضح ستيوارت أن هدف هيجل أو سره هو إعادة الإيمان بالله وطلوع الروح وحرية الإرادة. ومن هنا ناصرت الفلسفة الإنجليزية هذه المثالية في محاولة لإحياء القيم التي عهدها التقدم العلمي. وتبدى ذلك بوضوح في كتابات فرنسيس برادلي F.H. Bradley (١٨٦٦ - ١٩٦٦) وحورن ماكناجارت J.E. McTaggart (١٨٦٦ - ١٩٢٥)⁽³⁷⁾ وأمثالهما من فلاسفة كامبردج العظيم ذوي القدم الراسخ والتفكير الفلسفي الهيب.

وهذا يعني أن المثالية الألمانية عرفت حقاً كيف تلتحم للعامل الإنجليزية المكنية للفلسفة التجريبية المرفقة بأسول تمتد حتى فرنسيس بيكون في القرن السادس عشر وجون لوك في القرن التاسع عشر وديفيد هيوم في القرن الثامن عشر، وصولاً إلى جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر. فضلاً عن أنها معززة بكتاب هيجل العظيم الذي لا يقلت من قبحته القوة - إما ملياً أو إيجاباً - أي من الفلاسفة المعاصرين.

وقد نال رسل بدوره نصيبا وافرا من الأثر الهيجلي في هذه المرحلة المبكرة من حياته التي حملت تصويره المثالي للعالم، ضاعف من سطوة هيجل عوامل عديدة أحاطت برسل آنذاك، ولكنه - كما سنرى - كان دائما وفي كل حال لا يتراجع قيد أنملة عن وعده الصلاد بأن تكون الفلسفة علمية، ويكون تصويرها للعالم بالعلم ومن أجل العلم.

فقد التحق رسل بجامعة كمبرج في أكتوبر عام ١٨٩٠، واختار دراسة الرياضيات وحصل على إجازته فيها بعد ثلاث سنوات. ولكن أسلوب كمبرج في التدريس كان - في رأي رسل - عتيقا غاية في الصوء، ومجرد حشد لأدوات الطولية بحيل بارعة والأعيب، نعلل إهانة لذلك الطالب - حتى بدت الرياضيات بأسرها مثيرة للغشيان والقرف Disgraceful يقول رسل: «لما انتهيت من آخر امتحاناتي في الرياضيات عند نهاية سنتي الثالثة في كمبرج، انقسمت ألا أنظر بعدها إلى الرياضيات وبعث كل كتنبي الرياضية، وهي هذه الحالة النفسية والعقلية واجهتني الفلسفة بكل البهجة التي ينتج بها الهارب من تلق إلى واد مزدهر ضييق»^(١٢٩)

هكذا أقبل رسل بمجاميع عقلية العملاقة ذات القدرات الحساسة على عالم الفلسفة وبدأت علاقته النظامية بها في العام نفسه، ١٨٩٢ - الذي صدر فيه كتاب برادلي «المظهر والحقيقة Appearance and Reality» الذي يعد قمة من قمم المثالية الإنجليزية وأقوى تعبيراتها، وكان أول ما وقع في يد رسل. حتى ذهب إلى هارولد براشر ومساته، هما يشرا في الفلسفة فكان من الطبيعي أن يعطيه «المظهر والحقيقة» الفلسفة تورا لآلة - أي برادلي - أخرج فيها بعد كتابها يؤكد فيه مثالية برادلي الواحدة ومبدأ في العلاقات الداخلية^(١٣٠)

وكما يؤكد رسل، كان برادلي في طبيعة العلاقة الذين ناضلوا من أجل الفلسفة الألمانية وقبولها في الأمة الإنجليزية، ويعترف رسل بأن كتابي برادلي «المظهر والحقيقة» و «أصول المنطق» الصائرين قبله بعشر سنوات، كانا شديدي الجاذبية لرسل ومعاصريه، وأنه على الرغم من الاتصال الحاد عن دعوتهما فيما بعد، ظل دائما ينظر إليهما بعين الاحترام^(١٣١)

طبعي إذن أن يقع رسل آنذاك، في إطار المثالية، ويدرس الفلسفة في سنته الرابعة بهذه الروح، وكان استكناه في كمبرج ماكنابجارت وستوت Stott، ساهما في أن يعرق حتى أذنيه في المثالية الألمانية^(١٣٢). لقد تمت صداقة بينه وبين الهيجلي المخلص الذي يكبره بست سنوات، أي ماكنابجارت الذي جعل رسل يرتاح معه لرؤية هيجل للعالم ككل واحد ومتماثل ينكر حقيقة الجزء أو المادة أو الزمان أو المكان، والحق الوحيد هو المطلق... إنه هيجل، وسوف تكون هذه نواة لتصور العالم، يحاول رسل صياغتها في قوالب علمية خاصة، بعد أن تتكامل الهيكلية بصياغتها الكاتونية، تمثيلا للمثالية الألمانية المتحدة بملاحقها الأعظمين.

لقد تحللت المثالية الألمانية وتأثيرها الكاسح في أول أعمال رسل، أي «مشال في أسس الهندسة» وهو بحث انشغل فيه، فيما بين عامي ١٨٩٤ و ١٨٩٦، ثم نشر عام ١٨٩٧^(١٣٣) وقد نال

دع التحليل والهندسة

عنه شهادة الزمالة من كمبروج، بعد أن ناقشه فيه جيمس وارد والفرد تورت هويتهد A.N. Whitehead (1861 - 1919) وأثريا عليه.

وهو يطرح رسل السؤال الكانطي الشهير: كيف كان علم الهندسة ممكناً وصحيح أن رسل في مراحله المتقدمة أدرك أن الإجابة عن هذا السؤال لا تكون إلا على أساس من اكتشاف القرن التاسع عشر العظيم ألا وهو الرياضيات الحديثة هي مقابل الرياضيات التطبيقية، إلا أنه آنذاك كان أسهوا للطريق الهيجلي والثالثة الأثنية، فلم يلتفت إلى هذا، وانتهى إلى أن علم الهندسة لا يكون ممكناً إلا إذا كان المكان واحدا فقط من التصورات الثلاثة المطروحة، مكان الفيلسوف المستوي أو مكان لوباتشيفسكي المقعر أو مكان ريمان المحدب.

ولأن هندسة ريمان ولوباتشيفسكي لا تستندان البتة عن مقياس ثابت للانحناء، فقد بدت الإقنيدية هي الهندسة الوحيدة الممكنة، وما كانت الثالثة الكانطية تسمح بغير هذا. ولم تكن النظرية النسبية لأينشتاين - التي جعلت من هندسة السطح المحدب- ريمان هندسة تطبيقية - قد ظهرت بعد لتطرح بكل هذا، فتمسور رسل في حينه - أنه حل كل المشاكل الفلسفية المتعلقة بأسس الهندسة.⁽¹⁷⁾

لقد أوصى أسس التصور الهندسي العام للعالم على أساس الإقنيدية، وتبعها لنوال الثالثة الأثنية. كان من الطبيعي أن يتناول في الخطوة التالية من هذا الأساس الكانطي إلى التفسير الهيجلي، فراح إيمان الفيلسوف-المتكبر (1881-1894) في السيفال عديم بنفسه هيجلي أي ديتكنكيك أسس العلوم الرياضية والفيزيائية على السؤال: ما هو تصور للعالم تطبيقا للقانون الهيجلي، كل معقول واقعي وكل واقعي معقول. والعلم هو المعقولة، ذلك ثابت بنهوي في فلسفة رسل من ألفها إلى يلفها. أما كانت المرحلة التي تمر بها

وعلى هذا الأساس جاء مقال رسل آنذاك «في العلاقات بين العدد والكمية»، ليخرج إلى أنها علاقة انفصالات جديدة، وشرح في معالجة مسألة لأسس الفيزياء شأنه شأنه بالمقابلة بين الحركة المطلقة والحركة النسبية. وبأن المادة هي حقيقة لها جبريد غير واقعي، وليس ثمة علم بالمادة - كالفيزياء - يمكن أن يستوفي الشروط المنطقية.

وإذا تذكرنا ترسب كتاب برادلي «المظهر والحقيقة»، في وهي رسل، وجدناه بخلص في النهاية إلى تفسير جدلي أو ملحق ديتكنكيك لأسس الفيزياء ينتقل بين الطرفين المتناقضين: المقولات والإحساسات، ويكون في النهاية مرتبطاً بالمظهر البادي أكثر من ارتباطه بالمتنق التصوري. ليكون منها تحويل المظهر إلى حقيقة، بدلا من أن نبلي الحقيقة أو الواقع Reality أولا، ثم نواجهها بعد ذلك ثالثة لا مخرج منها.⁽¹⁸⁾

أما عن تعريف المادة فهي هي الديقناميكا أشياء بينها علاقات والعلاقات إما مكانية وإما عليّة. ولما كانت العلاقات العليّة هي قوى تسبب حركة فانيها فإن تؤدي إلى تفسير في

العلاقات الكائنية. ونلاحظ أن رسل هنا يعمل بالمفهوم الكلاسيكي للمادة كـ *things*، والمادة كتقود *Force* مؤثرة. وهذا ما سوف ينقضه تماماً فيما بعد. ويستل أي تصور للقوة في الطبيعة وسيكون لهذا اثره الكبير في تصور العالم. المهم الآن أن الحركة بدورها لا يمكن تحديدها إلا في علاقتها بالمادة. على ألا تكون هذه المادة ذات علاقة عقلية، أي ديناميكية، بالمادة التي نبحثها أو بآلية مادة على الإطلاق، وإلا كانت المعادلات غير صادقة. بيد أن عمومية قوانين الجاذبية تعني أنه ليست هناك أي مادة بنهر علاقة عقلية - ديناميكية حركية - بمادة أخرى.

فكيف يمكن حل هذه القضية؟⁽¹⁾ *How Solve This Antinomy?* وإليها لنقيضة أساسية وجوهية لدرجة تجعل قيام علم الديناميكا مستحيلاً فيما له أن المكان والقوة مفاهيم نسبية ولا بد أن نبحث عن صفات أخرى غيرها لتصف بها الأشياء الواقعية. ولكن تحليل رسل إلى أن هذه النقيضة النية من فرضية المكان المطلق التي تجعل الفيزياء الكلاسيكية في الميكانيكا تتصور المادة والحركة في ثابتة هي ذاتها ثنائية الجوهر والعرض. وافترض المكان المطلق هنا يستلزم:

(١) الاعتماد الخاصة ملازمة لكل عناصر المادة.

(٢) الاتصال المباشر شرط ضروري لانتقال الحركة من جسيم إلى آخر. فمن دون الاتصال المباشر للأجسام سوف يتصور أن الجسم أو الشيء يتأخر في موضع هو غير كائن فيه.

وهذا هو ما يؤدي إلى النقيضة المذكورة التي يمكن تفصيل ما تضمنته من تناقضات على النحو التالي:

(١) المادة تحرك مادة أخرى وتتحرك بها.

(٢) حركة المادة هي تغير علاقاتها الكائنية بمادة أخرى.

(٣) تغير العلاقة الكائنية بين أشكال المادة لا يمكن قياسه إلا بعلاقة مكانية غير قابلة للتغير.

(٤) يستحيل أن نعرف شكلين للمادة بينهما علاقة مكانية لا تتغير، إلا إذا كانا غير

خاضعين للعلاقات الديناميكية التي تربطهما معاً. وتربطهما بأشكال المادة الأخرى.

وكما أشار رسل آتفاً، عمومية قانون الجاذبية تعني أن هذين الشكلين للمادة يستحيل أن

يوجدوا معاً، مما يعني أن العلاقات المذكورة في (٤) يستحيل أن توجد.

(٥) لكن تعريف المادة المذكور في (١) يقوم على مثل هذه العلاقات.

ويترتب على ذلك أنه لا يمكن قياس أي تغير في العلاقات الكائنية بين المادة، أي

لا يمكن قياس الحركة ولا المسافة ولا القوة، أي أن تلك النقيضة تعني أن علم

الديناميكا مستحيل.^(٢)

بناء العالم والواقع

وإذا تذكرنا أن نيوتن نفسه قد أحس بالصعوبات الحقيقة بمفهوم «المطلق» في الزمان والمكان والحركة، وأنه ليس واضحا. ولكن لم يكن أمامه مخلص من الأخذ به. فلا خيار إذن أن انتهى رسل إلى أن هذا التناقض أت من مطلعية الحركة، وأن الحل في ديالكتيك المطلب أي في الانتقال الجدلي إلى التقيض، التسيبة. واعتقد رسل أن «تسيبة الكتلة» تعطينا من مطلعية الحركة منطرح من هذا التناقض. وسنطرح تصور العالم بوصفه مادة مكونة من نقاط في للكان عبر أوقات الزمان.

والإلقاء مزيد من الضوء يخصص رسل الفروض للتناقض، أي لقادة المكونة من ملاء متصل Plenum. والمادة بهذا التصور قائمة بذاتها، للكان والزمان مجرد صفات لها - إذن فهي موجودة في كل حيز. ومتصلة بالضرورة بكل الجزئيات الأخرى. هكذا نلاحظ في حجج رسل انتقال ديالكتيكي من للكان إلى لقادة، ومن التفتصل إلى للتصل. بيد أنه يخلص إلى أن النظرية الفجة عن لقادة التفتصل بلا أي انقسام هي أجزاء لقادة لم يعد من الممكن قبولها وأن تجدي فتيلة، والأنتى إلى الصواب أن لقادة كل واحد One Whole حاضر في كل نقطة من نقاط للكان، والواحدية تعني الاتصال. والمادة ليست ممتدة بل هي الحادية لكل امتداد. وعلى هذا نجد مبادئ الحركة في دوام لكل Perennence of the Whole. وليس في صفات الذرات للتفتصل تعاملا كموتادات لينتشر، مما يجعل من الممكن استكشاف هذا «الكان» عن طريق علم الديناميكا. أما عن كيفية استكشاف هذا السمار خارج نطاق علم الديناميكا، فإن رسل يقر بأنه لا يبرهن⁽¹⁴⁾.

هكذا نجد رسل يسيير مع المثالية إلى آخر القدي. حتى يسل في تصوره للعالم إلى نظرية واحدية، مقفيا بالإيمان في إمكانية أن يبرهن بالديناميكا على أشياء شتى بشأن العالم⁽¹⁵⁾. بغير حاجة البتة إلى معطيات الحواس، إلى العناصر التجريبية.

وقد تبدو هذه رؤية فاصدة على الديناميكا، فهي ممتسرة ولا يمكن أن تخرج منها بتصوير للعالم. بيد أن رسل يردف هذا بعنوان ختافي فري «حاشية في منطق العلوم» حيث يوضح أن هناك طائفة من الأفكار البدينية الأساسية، وأن كل علم من العلوم يعمل في إطار فئة فرعية من هذه الطائفة. عبارة عن عدد محدود جدا من الأفكار البدينية الأساسية ويمكن اعتبار كل علم محاولة لبناء الكون أو تصوير العالم بواسطة الأفكار البدينية الأساسية الخاصة به، شريطة ألا تحتوي هذه الأفكار على أي تناقض⁽¹⁶⁾. من هنا كانت جهود رسل المذكورة لإزالة ما بدا له من تناقضات في الديناميكا.

وكان رسل يأمل في كتابة سلسلة كتب في فلسفة العلم لتجبه تدريجيا نحو ما هو أكثر عمية، فنتقل من الرياضيات إلى البيولوجي، ولتأريها سلسلة أخرى من الكتب بشأن المسائل الاجتماعية والسياسية، لتجبه تدريجيا نحو ما هو أكثر تجريدا، مساء أن يحوّل في النهاية - بمعية تركب هيجلية - عملا موسوعيا ينطلي النظرية والتطبيق على السواء⁽¹⁷⁾. .. لولا أن كانت

انتقالاته الجذلية على هذه المثالية ومطابقتها عمالها . وهما بعد ذكر أن كل ما فاته فيها .
وخصوصا بشأن أسس الهندسة . بعد لقوا .

وقبل أن نغادرها معه نخلص إلى أن هذه المرحلة الثانية من فلسفة رسل والتي استمرت فيها بين عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٨ ، كان تصوره للعالم هيها بدوره مثاليا ومثاليا واحدا . فقد رأينا يبحث عن واحدة شاملة . يتاوم من أجلها حتى ثالثة الجوهر والمرض . ولكنه كان أمينا لمبررات العلم الكلاسيكي في القرن التاسع عشر . أو على الأقل متمسكا معه ومع هيرزاته التورتونية . فهو يعالج المادة ككتل . كاشياء . والمادة قوة مؤثرة . ولتكن عامل متفصل عن الزمان . إلى آخر ما رأينا .

على أن العناصر الثلاث والحجم حقا في هذا هو متناهية الذي يطور مدى امتثاله للمثالية الألمانية . فقد كانت محاولة من رسل لإقامة تصور للعالم عن طريق طرح إجابات هيجلية على الأسئلة الكانطية . أو عن طريق تركيب جدلي بين القولات والحدوس .

وكما هو معروف سوف يرفض رسل هذا . أو بالتعبير الجدلي سوف يتلقنه ويتقلب عليه . يرفض تعلما أمثال هذه المناهج المثالية الميتافيزيقية الستة عن مسلمات الحواس وعن الأسس الترتيبية . ويرفض الواحدة رفضا قاطعا ويرفض المادة كاشياء ويرفض القوة مؤثرة . (١) .
والسؤال الآن . ما الذي استبقاه رسل من هذه المرحلة المثالية ولم يلقب عليه حتى مثل كانتا بنويها يصون كيهان فلسفة رسل في نظريته الذي يرمي إلى الجسدي . وصولا للمركب الشامل في تصوره للعالم . فيالطبع لا تعتمد إلا ما استبقاه من عناصر تساهم في تشكيل تصوره للعالم (٢) .

في الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نخلص إلى العناصر الأتيه .

١ - الفلسفة العلمية . وفلسفة العلوم هي لقول بها تصورها للعالم .

٢ - ومن ثم . فإن فهم وضع المادة في ضوء القوانين العلمية المطروحة تعدد عاملا جوهريا ومفروما أساسيا . إن لم يكن هو صلب الموضوع في تصورها للعالم .

٣ - تصور العالم يتأثر عن طريق صياغة المحصلات العلمية بواسطة مناهج فلسفية .

والحق أن التغيرات الجادة في مناهج رسل الفلسفية فيها بعد . كانت مراكية للتغيرات أكثر جدة في محصلات العلوم . وعلى وجه الخصوص العلوم الفيزيائية التي كان رسل دائما يعادها في منزلة عليا وثالثة الأهمية .

على أن التغيير الجاد الذي يرفض نفسه الآن هو خروج رسل من هذه المرحلة المثالية وانتقالاته الجذلية عليها .

١ - سوف نستمر إلى إعتدال العناصر التي استبقاها من المثالية وليست لها علاقة مباشرة بتصوره للعالم . من قبل هذا الذي أشار إليه هيرزوت رسل قائلا «المثالية التي مطروحة على رسل هي مثالية لم يعادها قطعا . بعد رفض دائما رأي جون ستوارت مل في رد حقائق الرياضيات والمثل إلى التجريبية الأسطرالية» .

خاتمة: ٢ - نقد الأطروحة

تصور عالمي للعالم

في دهانات جامعة كامبريدج المربطة، العاصرة يوما بأساطير
الفلسفة وأساطير الرياضيات على السواء، تجسدت عدة عوامل دفعت

بهم إلى الفرار من هذا الأسار الألماني وتقويض التصور المثالي للعالم، أو كما اتصفنا
الانتقالية الجدلية عليه، إلى التقويض تماما، إلى عالم واقعي ساذج يسلم بالوجود كما هو،
فالعالم موجود والفكر موجود وموضوعه موجود وكل شيء موجود، تماما كما يدركه الحس
المشترك من دون أي تمازلات^{١٢١} بل وأكثر من هذا، عالم يتسع لأنماط عديدة من الكيانات ...
كل شيء فيه موجود وجود واقعي حقيقي، الأشياء الفيزيائية والعزليات والكيانات والأعداد ...
وهو وجود مستقل عن أي ذات عارضة.

إنما ثورة شاملة تعني تصورا للعالم واقعي ليس مثاليا، وليس واحدا بل بالغ التعددية،
تحكمه علاقات خارجية ولتست علاقات داخلية، انطلقت من كامبريدج تحت لواء رسل ورفيقه
مور G.E. Moore (١٨٧٣ - ١٩٥٨)، رسل يتكلم بذلك بمصافى الواحدية، وهو يتكلم بذلك
معاقل للتأدية.

وقد بدأت رحلة الخروج من المثالية الألمانية ليكنز في ربيع ١٨٩٨ بمعل
عدة عوامل تجسدت معا، منها أن رسل قرأ كتاب «المنطق الكبير» لبيجل - فخرج باعتقاد ظل
يحتل به دائما وهو أن كل ما قاله هيجل عن الرياضيات لغو ناتج عن رأس مشوشة (أو
مرحلة middle)^{١٢٢}. والواقعة العارضة لكن شديدة الأهمية تتمثل في أن ماكتاجلارت سافر
فجأة إلى أمه في نيوزيلند، فهدت جامعة كامبريدج إلى رسل بتريس إيبيلز، G.F. Leithard
(١٨٦٦ - ١٩٧٦)، هكذا وجد رسل نفسه منكبا على دراسة أعمال ليكنز - ليكتشف أن أساس
الميتافيزيقا المثالية الواحدة هو المنطق الأرسطي الجملي، منطق الجوهر وأعراضه، الذي
ينبغي الإطاحة به لأنه يعجز تماما عن التعبير عن العلاقات.

فقد اتكب رسل في تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر على دراسة الناطقة
والرياضيين الألمان، فتبلورت أمامه أهمية العلاقات في الرياضيات وهي تصور العالم، وبدا له أن
أعمال العلاقات أدت إلى نتائج وبيلة في الرياضيات وهي الفلسفة على السواء، وقد ظل رسل
دائما على اعتقاده بأن العلاقات من أهم موضوعات الفلسفة طرا، وأن معظم الموضوعات الأخرى
يمكن أن تؤكد إنهما، ومنطق العلاقات بدوره أوضح لرسل أن العلاقات ينبغي أن تكون خارجية.

وكلن إيبيلز قد انتهى إلى تصور للعالم يتكر واقعية المادة ويستبعد بها - بتعبير رسل - أسرة
لا مثالية من النفوس هي الوجودات Monads أو الجواهر الفردة، كل منها ذرة روحية لا توافق

لها ولا تتصل بذرة أخرى أو بموند آخر. وبالتالي لاهلاقات عليّة بين جوهرين حقيقيين¹³. هكذا انتبه رسل إلى خطورة الواحدية المثالية من حيث إنها تفكر المادة وتفكر العلاقات الخارجية. فبدأ حملته المضرة على هذا هي سلسلة المحاضرات التي ألقاها في فلسفة ليبنتز آنذاك. وجمّلها كتابه الشهير «عرض نقدي لفلسفة ليبنتز» A Critical Exposition of the philosophy of Leibnitz حيث يؤكد على أهمية القضايا العقلية مقابل قضايا الموضوع والمحمول. وهذا يعني ضرورة أن نعيد العالم المتعدد بالعالم الواحد.

وفي كتابه «أصول الرياضيات» أوضح رسل أن النظرة المونادية والنظرة الواحدة كتيههما على السواء تود العلاقات إلى أشكال من القضايا الحتمية. العلاقة بين طرفين حاصلات داخلية لتيههما. تدخل في صميم تعريف الحد أو الحدين اللذين تربطهما العلاقة. وهما في التحليل النهائي خاصية للكل الذي يضم الطرفين وتحاول الواحدية تفسير الكثرة البادية في العالم بمبدأ «الهوية في الاختلاف» الذي تقدمه رسل بقوة في كتابه النقدي المذكور عن ليبنتز. ودخول الواحدية في ذات الهوية مع المثالية مسألة استقطرها برادلي من فلسفة هيغل. فهي الواحدية ليس هناك إلا الكل وصفاته.. الجوهر وأعراضه.. الموضوع ومحمولاته. أية علاقة لابد أن تترك إلى قضية عملية لتصل في النهاية إلى قضية حتمية كبرى موضوعها هو الحقيقة الواحدة. الكل الأنطولوجي.. فذلك هو تصورهم للعالم.

الكل يكشف عن العلاقات بين أجزائه والعلاقات بين الأجزاء تكشف في طبيعة الكل. فلا يمكن في هذه الحال النظر إلى الشيء إلا في إطار علاقته بالكل. هكذا تبين رسل الشراك الذي وقع فيه بسبب براعة برادلي ونقل حججه الفلسفية. أي شراك العلاقات الداخلية للكل الواحد الذي يميز عنها المطلق الحتمي. وقد حمل كتاب برادلي «المظهر والحقيقة» أخرى عرض لمنطق العلاقات الداخلية. حيث زعم أن التعددية سوف تناقض نفسها لأنها من خلال العلاقات تأتي بالكل الذي تأتي الاعتراف به قبلاً. وينتهي برادلي إلى أنه ليس هناك أشياء متعددة ولا علاقات بينها. بل فقط الكل الواحد. والعلاقات حاصلات داخلية.

وفي النهاية يترك كل شيء إلى أن المنطق الواحد منطلق حتمي يود العلاقات إلى الكينيات. وكل علاقة تتحول إلى محمول يعمل على موضوع. فتخلق كيفية مباشرة له محيطة.. من هنا كانت العلاقات داخلية. ونحن نتصور أن أية قضية تعود إلى قضية حتمية. أي إلى موضوع ومحمول. فإن هذه النظرة إلى القضايا هي التي قامت جميع الفلاسفة المثاليين إلى القول بوحدة العالم وإلى إنكار التعدد.

هكذا تبين لرسول أن الإطاحة بالمنطق الأرسطي وإحلال منطق العلاقات محله.. وهذا ما لابد أن يحدث.. وطبعاً تماماً بكل هذه المثاليات الواحدة وعلاقاتها الداخلية.

رؤية العالم الواقعية

لقد تقوضت الواقعية، واكتشف رسل العالم الخارجي للتعهد فجأة، وتحرر من إسار المثالية التي ترى العالم الخارجي مجرد تصور لذات. لقد اعتبر الفيزيائيون أن كل كيانات العالم المادي أو الفيزيائي وكل كيانات الرياضيات والفيزياء كيانات غير واقعية متناقضة مع ذاتها، فلا واقعي عندهم إلا المطلق. وكانت حججهم هي إنكار واقعية تلك الكيانات هي العلاقات الرياضية⁽¹⁴⁾. لذلك ضحك رسل وبعضها رسل وأخذ بمنطق العلاقات الخارجية أحسن أنه اكتشف العالم الخارجي الزاخر الواقع الذي كان محبوساً منه بسبب إسار المثالية، ولخصه سمادة ضبابية، جعلته مستقبل القرن العشرين وهو مضمع بالثرى أشكال الواقعية وأكثرها تطرفاً، وبهجة فلسفية طافية.

وبهذه الروح حضر رسل - برفقة واينشتاين - المؤتمر الدولي للفلسفة بباريس في يوليو 1900، والتي بحثنا يؤكد فيه هذا التصور الجديد للعالم الواقعي التجريبي التعمدي ذي العلاقات الخارجية إنه عالم مكون من جماع هائل من الجزئيات والنشاط والتعطيات في الزمان والتكان... كل منها وجميعها حقيقي بدلاً من حقيقي المطلق البهيمي.



وكان هذا المؤتمر نقطة تحول هارقة في حياة رسل الفلسفية، كما يؤكد⁽¹⁵⁾. لقد قابل فيه بيانو Poincaré لأول مرة، وأدرك بقية وجراسة شكيب وبنظرة أمهاله وتصوراته التي لم يكن رسل يهتم بها من قبل الاهتمام بالمثل. وأثناء المؤتمر طلب منه رسل مجموعة أعماله، ودرسها جميعاً، ووجد في منطق الرياضيات أداة للتفصيل كان قد طال بحثه عنها، وحين أتى سبتمبر من العام نفسه كرسه رسل لتطبيق هذه الأداة التي استقناها من بيانو على منطق العلاقات، وخصص أسيات سبتمبر الراحة المناقشة هذه الفكرة مع واينشتاين، لذلك يقول رسل: «سبتمبر 1900 كان أعلى قمة بلغتها في حياتي»⁽¹⁶⁾. فمن هذه الأسيات أتت فكرة «برتكيا ماتيماتيكيا» إلى الوجود، وما هتئ رسل يؤكد حتى آخر لحظة في حياته على أن تركيز الاهتمام على منطق العلاقات الخطر الدلالات الفلسفية لهذا العمل الجبار.

بيد أن رسل كان قد عكف منذ أكتوبر 1900 على عمله الأسبق «أصول الرياضيات» الذي انتهى منه في مايو 1902، وهو يحمل عدداً من المحاولات لرد الرياضيات إلى المنطق، وكانت محاولات فجة ومليئة بتصورات تجاوزها، برفقة واينشتاين، في «برتكيا ماتيماتيكيا». بيد أنه يحمل أخرى تجسدها لهذه المرحلة الواقعية من فلسفة رسل.

ويحمل «أصول الرياضيات» أيضاً علامة هارقة تامة وتماثلت فيها بعد، لن نقول في فلسفة رسل بل في فلسفة القرن العشرين عامة ألا وهي تآزر المنطق والفلسفة معاً. قبل هذا المؤتمر كان المنطق والفلسفة يسيران متوازين، ولغضل تأثير بيانو وأيضاً واينشتاين فيه، ثلاثج المنطق والفلسفة. ومنذ «أصول الرياضيات» فصاعداً، سوف تقود حجج تصور برتراند رسل

العالم صحيحاً منطقياً قائمة على أسس المنطق الرياضي، لأن رسل ذاته سوف يحصل تلك البطاقة الباردة المنطقي، «الفيلسوف الذي ينطق الفلسفة»^(٢٠)

لقد انطوى «أصول الرياضيات» على قوة ديمورية هائلة لأسس التصور المثالي الواحددي في العلاقات الداخلية للعالم، وذلك عن طريق إثبات عجز المنطق الحسابي في التعبير عن العلاقات، أو رده إياها إلى كينيات، إن رسل يوضح أسس معالجات العلاقات من طريق هجمة مضادة على وجهة نظر ليهنترز التي عدلها لوطز، ويسمبها النظرية المونادية Monadicist^(٢١) و على النظرية الواحدةية Moristic التي ينسبها رسل إلى برادلي وسمينوزا، وعلى رسل عناية خاصة بنظرة آراء برادلي^(٢٢) فكما أوضحنا، رسل منذ البداية يصدر على أننا إذا استطعنا الإطاحة بالمنطق الحسابي وأحللنا منطق العلاقات محله فقد انهار التصور المثالي الواحددي للعالم من أسسه.

ويستند رسل في هذا بشكل حاسي إلى العلاقة التامكافية Asymmetry نظرية العلاقات الداخلية قد تصدق في بعض العلاقات كعلاقة الحب والكراهية فهي خاصة ذاتية للحد أو الطرف، ولكن العلاقات الداخلية - كما يبرهن في «أصول الرياضيات» - لاتصلح إطلاقاً في التعبير عن العلاقات التي ترسم بنية العالم، خصوصاً علاقة التامكاف - كما أضربنا فحين تكون العلاقة بين (أ) و (ب) هي علاقة قبل أو بعد أول (أ) سبق من (ب) أو (أ) أكبر من (ب)، فهذه العلاقة لا يمكن أن تكون خاصة (أ) لأنها لا توجد إلا من الخارج، وعلى ضوء العلاقة بطرف آخر مثل (ب) ... هذه العلاقات لا يمكن أن تكون كينيات حتمية أو خصائص ذاتية، ولا يمكن أن تكون إلا وظائف علاقية وعلاقات خارجية.

هكذا يثبت رسل العلاقات الخارجية وبالتالي التعليم التعمدي الشامل في تعديته الذي هو تجريبي واقعي، ولا يفوت رسل في مقدمة هذا الكتاب «أصول الرياضيات» الإشارة إلى محاولته الساقطة التي عرضناها لإقامة تصور مثالي للعالم وبالطبع ينتيرها محاولة فاشلة، فيقول: منذ ست سنوات مضت بدأت بحثاً عن فلسفة الديناميكا هياكلتي صعوبات ... منها الصعوبة الخاصة بالحركة المثلثة التي لا تفعل الحل على أساس نظرية للكان العلاقة، وانتهى بي الأمر إلى إعادة فحص ميدان الهندسة، ثم إن فلسفة الاتصال واللاتناهية ثم إلى المنطق الزمني ...^(٢٣)

وكان المنطق هو الذي قام بدوره ليرسم أمام ناظري رسل تصور لعالم تعدي واقعي مستقل عن أية ذات عارضة، فيما يعرف بالواقعية الساذجة Naïve Realism. النجوم موجودة لأنها موجودة والبشر هنالك لأنهم هنالك والتحول الأخضر لأنه أخضر، فائدة حقيقة وعلاقاتها خارجية، هذه الاتكالية الجديدة المتواجدة على مثالية هيكل وكلف، وعالم الواحدية المثالي حيث المادة وهم أو مجرد تصور للذات، وعلاقاتها داخلية، حملت رسل يندفع بطرف إلى هذا التصور الضاد للعالم ويجعله ذا واقعية تتسع لكل ما يخطر على البال، حتى واقعية أملاطون

رياء العالم والواقعي

وصوفيته المستمدة من فيثاغورث . فسلم رسول أنذاك بالوجود الواقعي للكليات والوجود الواقعي للأعداد . وعبر رسول عن هذا في قصة طريقة عن حلم تراهي لعالم الرياضيات . لم تكن الأرقام فيه مجموعات جامدة كما كان يظنها من قبل بل كانت تتغير بالحياة الأعداد العربية مذكورة والأعداد الزوجية مؤنثة . تتراخس وتتشدد . نحن الأعداد التلغمية . . . نشكل عادة هذا الكون . . . ونحيل الأرض بسيطة . . . ونحل أسلافنا فيثاغورث . . . ونعنا بتكرير أعلامون الخالد . . . لا وتسهر أحداث القصة بحيث يدفع في النهاية جيش الأعداد العرصور صوب أستاذ الرياضة في ثورة عارمة . ويستبد به الوعب هنية ما ليت بعدها أن تعاللك تلمسه وصاح بصوت جهوري : ابتعدوا عني فما أنتم سوى وسائل رمزية ملائمة ثم استيقظ من نومه .⁽¹⁾ في إشارة من رسول إلى انشلائته بعد ذلك على الواقعية . بيد أن تصور رسول للعالم أنذاك اتسع تماما للواقعية الأفلاطونية . وشاركه في الحقيقة الأفلاطونية للأعداد فتصورها في خياله تسكن الوجود بعد أن أصبح مضطرب الواقعية متأكرا في ذلك الواقعية مينونغ Meining الذي ملق حوج الذهب الواقعي على العبارات الوصفية . واعتقد رسول أن كل حد يرد في قضية سادقة أو كاذبة له كيان . أي أنه «يكون» بمعنى ما . . . وبهذا المعنى «يكون» أو «يوجد» رجل ونسطة وعدد . رشة وعلاقة وفول . . .⁽²⁾

وظل رسول بنعم بهذا التصور الواقعي الذي لا يترك المجال . يستل قال له وانتهد ذات مرة : إنك ترى العالم كما يترأى في ظهيرة يوم مشرق منير . أما أنا فترأى راتكسا يبدو في بكرة الصباح سادة يحمحو الرد من نور غصيل .⁽³⁾ أرواح يوضح له كيف يستعمل التعلق الرياضي في عمله الطامش كصباح للفن ذي الصباح الكتم . بمعداته من نقاط ولحظات وجسيمات . فلا تعود هي طامة العالم . الطامة هي الأحداث . وهذا ما سوف يطووه رسول . فكما أبطلت كانت من سبانه المتوحدانيقي تساؤلات هيوم عن العطف . أبطلت تساؤلات وانتهد عن الجسيمات والنقاط والمعطيات رسول .⁽⁴⁾ من سبلته على صدر الواقعية الوثير . ليعد وانتهد بعلمه منهاها مستقيا لباء النقاط والجسيمات بوصفها مجموعات من الأحداث كل منها ذات امتداد متناه . مما يعني إمكانية استخدام أصل أولكام بشأن نقاط ولحظات العالم الفيزيقي كما استخدم في عالم الحساب . لكي توفق بين الفيزياء الحديثة التي ابتعدت تماما عن عالم الحس المشترك وبين الإمزات الحسي في كل منسجم .

لقد تبين رسول - بهذا المنطل من وانتهد - أن سلامة تصورات ومفاهيم الفيزياء النظرية واجعة إلى براعة الرياضيين وليس إلى طبيعة العالم الفيزيقي . واكتشف الأبعاد العميقة في تصور العالم التي يبلنها المنطق الرياضي . سعد سعادة بالغة وهو يستكشف القوى الجيوا لواء الأداة البالغة المخطورة . أي المنطق . وأن الأمر لا يقتصر على منطق العلاقات - فئمة ما هو المعنى وأكثر حسما . وعلى وجه التعرير فصل أولكام الحاد والشهير .

ونصل أوكام Occam's Razor هي أسس قاعدة منطقية منهجية للتقليل من الفروض التي لا تدعو الحاجة إليها، أو ما يعرف باسم مبدأ الاقتصاد في التفكير. فإن لم يكن قاعدة أنطولوجية تطبق على كيانات العالم، فإنه قاعدة منطقية تطبق على البيانات التي ندرس بها الكائنات^(١٩). لذلك يقول رسل: «إن قطاعا كبيرا من المرور الذي يلعبه المنطق الرياضي في الأنطولوجيا يكمن في تقليص عدد الأشياء Objects المطلوبة لكي نخرج بمعنى ما من العبارات التي نشعر بأنها معضلة»^(٢٠). وسوف يصبح هذا النصل القاعدة العليا في الفيلسوف العلمي، لأنه التفكير على أن يجعل عالم رسل أصفى وأبقى .. وإلى غير حدود.

لقد أورد هيجل سبلا من البراهين التي تلغي وجود كيانات جديدة وفي بداية الثورة على هيجل، تصور رسل أنه إذا أثبت أن برهان هيجل غير صحيح فالشيء إذن موجود. وكان هذا بوابة تلك الواقعية الزائفة في تصور العالم.

ثم جاء نصل أوكام ليوضح لرسل أن الحكم بالوجود أصعب كثيرا. صحيح أن الكيانات التي يراها النصل غير ضرورية لا يثبت أنها غير موجودة، فالنصل لا يستطيع إثبات أن الأعداد الصحيحة أو أية الأوب غير موجودة .. هذا صحيح، ولكن نصل أوكام ينقض البراهين التي أثبت وجودها، فلا تعود تلك برهانا على هذا الوجود .. فكيف نستقيها؟

وبمعزى الأهم، وبمضيق نصل أوكام، يفقد تصور رسل للعالم تدريجيا ذلك الثراء والرحم الواقعي، وشيئا فشيئا، حتى لا يعود هنالك إلا أحداث متعاقبة تمت بمشاهدة الإقلاخ النهائي عن الواقعية وتصورها للعالم، وهذا في الوقت نفسه تطبيق مستمر وعلى آخر المدى .. أو هو أقصى تطبيق لنصل أوكام الذي حذف كل مكونات العالم، فلم يبق إلا أحداث.

وأخيرا، يفرض منهجنا الجدلي سؤاله، ما الذي استبقاه رسل من الواقعية بعد أن خادها، وطبقا فيما يتعلق بتصوير العالم؟

أول ما يفرض نفسه في صدر الإجابة: المنطق وهو الأداة الفعلية، لاسيما إذا أصبح التحليل منهجا شاملا. وقد ظل رسل دائما مخلصا وخيا لعهد العلم. ولكن في هذه المرحلة التي شغلت العامين الأخيرين في القرن التاسع عشر والقرن الأول من القرن العشرين كان رسل منكسرا للعلوم التصورية، للمنطق والرياضيات، حتى اتجزأ تجلزه الأعظم فيها ورد الثانية للأول، فلم تعد الرياضيات حقائق لا إنسانية مطلقة، بل هي محض تحصيلات حاصل غاوية، ولما برزت هي الأخرى ذلك العالم الذي كان واقعا ولم يعود.

استبدل رسل أيضا العلاقات الخارجية، وبالتالي التعددية الشاملة، وتعاضد رسل في التعددية حتى أصبحت ذرية منطقية. وكانت الذرية المنطقية أعز بذاته إلى قلبه، فيقول: «لم اصنع نفسي بطلاقة فلسفية ولم أرتبط إلا بلافتة واحدة، التي ذري منطقي»^(٢١).

بدء التجاذب والتأنيب

هناك لغة وسل وهنجانشتاين النظرية المنطقية هي لغة التمييز من مثل هذا العالم البالغ التعمدية، لوكون كل ما نقوله في حدود جعل فزية ودوال الصديق المؤلفة منها . ولكن كان رسول يؤكد أن المنطق هو جوهر الفلسفة، فهذه النظرية المنطقية هي منطلق الفلسفة الأنطولوجية التعمدية أو جوهرها .

وحاول رسول أيضا أن يستبقي شيئا من تجريبيته الواقعية، وذلك في أن كل قضية ليست تحصيل حاصل أي [خيارية لا تصديق ولا تكذب] إلا بفضل علاقتها بالخبرة التجريبية . على أن الخبرة بدورها لا تمثل إلا قطاعا بالغ الضخامة . إذ نظرنا إلى قصة العالم بأسرها، على مدار بلايين السنوات .

هكذا استبقى رسول من مرحلته الواقعية عوامل، ربما كانت أكثر كما وأهم كثيرا من تلك التي استبدلها من مرحلته المثالية، ولكننا - على أية حال - في سبيلنا الآن إلى مركبهما الجدلي، فيما يمكن اعتباره بمثابة بيت القصيد . إنه التصور العام للعالم الذي يقترون باسم رسول . عالم من أحداث واحدة محايدة لا هي مثالية ولا هي تجريبية تماما، لا هي عقلية ولا هي مادية . فعلا عسفا أن تكون؟ وما الذي دفع رسول إليها وكيف بنينا؟

علاها : ٣ - المركب الجدلي

تصور العالم من الأحداث جدلية

كما رأينا انتقل رسول من التصور المثالي للعالم إلى التصور الواقعي فحدا . وعلى الرغم من لزحام ذلك العالم الواقعي فقد تشكل هكذا

مرة واحدة بنقلة من الواحدة إلى التعددية ... لو بمصطلحات هذا البحث بانقلابية جدلية . أما عالم الأحداث المركب شديد الخصاصة فقد تشكل على مراحل وشهد تغييرات وتعديلات وخطوات . صلبها حداث مستمر يعارسه نسل أوكام . بداية الثورة على الواقعية المسالجة أو إعلان الرحيل عن عالمها يمكن أن نجده في كتاب رسول البالغ الخطورة «مشاكل الفلسفة» ١٩١٢ ومنه فصاعدا بدأ تصور رسول للعالم يتشكل تدريجيا ليتخذ الصور التي افترت باسم رسول .

يسهل رسول هذا الكتاب بالتساؤل من معرفة يقينية غير قابلة للشك وهذا ينطوي على شك فيما كان يسلم به بلا مناقشة في أصول الرياضيات^(٢٤) وراح يشك في وجود المادة حتى سحب الوجود من الموضوعات الفيزيائية مثل النجوم والأقواب والناقص . لأنها لا تعرف بوجود منضدة إلا عن طريق عملية استدلال طويل غير مباشرة يستحيل أن تكون يقينية . فلا يمكن الجزم إن بوجود تلك التعمدة .

عبر رسول عن هذا في الفصل الأول من الكتاب . يميل هذا الفصل نفس عنوان كتاب برادلي «المظهر والحيثية Appearance And Reality» . مما يذكرنا بفرنسيس بيكون F. Bacon

(1961 - 1966) حين وضع المنهج التجريبي في كتاب يحمل نفس عنوان الكتب المنطوية لأرسطو. أي «الأورجانون» أو «الأداة» في إشارة واضحة إلى أن لأورجانون أرسطو قد أصبح أداة بانية عنا عليها الفكر. وأن التجريب هو «الأورجانون الجديد» «المصدر الحديث».

وبالمثل فعل رسل. وكأنه يريد أن يوضح هو الآخر إلى أن معالجة برادلي قد عفا عليها الفكر. وما هي ذي المفالجة الجديدة للمظهر والحقيقة. إن المفارقة بينهما مصدر مشاكل ومصاعب فلسفية كثيرة، الراسم يريد المظهر. يريد الأشياء على ما تبدو عليه. أما الفيلسوف فيريد الحقيقة. يريد الأشياء على ما هي عليه.⁽¹⁾

وفي بحث الحقيقة، في بحث الأشياء على ما هي، سوف تواجهنا مثالية لن يتخطى عنها رسل بعد ذلك أبداً. وهي أسينية المعرفة على الوجود وخروج الأنطولوجيا من الأبنستمولوجيا، وإرتكان الوجودات بمفاهيمه الإرفاد. فلا مثالا إذن لو قلنا إن تصور رسل للعالم من الآن فصاعداً هو تصور مثالي بهذا المعنى.

يبدأ رسل هذا الطريق بتقرير أن ما نعرفه معرفة مباشرة هو فقط المعلومات الحسية Sense - data كهذه البتة الثبوتية وتلك التنبؤية المصونة وهذا التمس الخشن... إنها نقطة الارتكاز التي قد من أي شكل فتمثلت الكوجيشو العيكراتي. ونشرا الاختلاف التطور والواقع ومسلط الضوء، فلا أحد يرى ما وراء الأظلم بالضيء، لا أحد يتلقى صورة مطابقة من تلك للمعطيات الحسية التي هي البتة الوحيدة لأنها معرفة مباشرة.

أما سائر الموضوعات الفيزيائية كالكرسي الذي أجلس عليه أو النجم الذي أراه في السماء، فتتمتع نعرفها عن طريق الاستدلال عليها من هذه المعطيات الحسية، وطيرة الوهم الفيزيائي بهذه المعطيات هي إحساس sensation. إذن هناك فارق بين المعطى الحسي وبين الإحساس. أي أن رسل سلم بمثابة الموضوع الحسي والفعل الذهني⁽²⁾ وهذا ما أكده الدكتور محمد مهران في دراسته الجادة الشار إليها، وأن رسل في هذه المرحلة ثنائي، ولم يصل بعد إلى الواحدية التي سوف تصبح العلم المميز لتصوره للعالم.

اللون في حد ذاته معطى حسي وليس إحساساً، لكنه ليس شيئاً مطابقاً أو مطابقاً في التضاد. لأنه يتوقف على الضوء، وعلى سلامة أعصاب البصر وعلى أن الراقى لا يرتدي مثلاً نظارة زرقاء وليس مصاباً بالهرقان أو يعنى الألوان، ويعتمد لون التضاد على كل هذه العناصر، والمثل يقال عن التمس، قد تبدو التضاد العين المجردة تالعة طياء، ولكن إذا نظرنا إليها عبر مجهر يبدو سطحها بالغ الحشوة ذا متحنيات ومنحدرات، فهي المظهرين هو حقيقة التضاد⁽³⁾.

المعطيات الحسية ليست هي ذاتها التضاد، التضاد شيء فيزيقي ومجموعة الأشياء الفيزيائية هو المادة، وكل ما ندركه محض مظاهر لها، لكننا نعتقد أنها علامة على الواقع وراءها.

دور العاطية والمعادية

فهل هناك متصفدة؟ وأي نوع من الأشياء تكونه؟ وهل توجد المادة؟ وإذا وجدت ما هي طبيعتها؟

يقول ليبنتز إنها مجمع الأرواح، ويقول باركلي إنها فكرة في عقل الله. ويأتي العلم الحديث بوقاره ورسائنه ليخبرنا أنها مجموعة هائلة من الشحنات الكهربائية هي حركة مقلدة... أما فيلسوفنا برتراند رسل فيقول إننا قد لا نملك دليلاً على وجود المتصفة ووجود الأشياء الفيزيقية، ولكن مهما تشككنا فيها، إن نشك أبداً في وجود المعطيات الحسية التي تجعلنا نعتقد أن هناك متصفة، ونحن نعمل ميلاً قوياً إلى الاستدلال من هذه المعطيات على وجود الأشياء الفيزيقية. كل موضوعات العالم الفيزيقي لا نعرفها معرفة مباشرة، بل فقط نستدل عليها من المعطيات الحسية. وببعض عقلانيتها تماماً أن تتخذ هذه المعطيات علامة على وجود شيء ما مستقل عما ولا يفتني حين تتوقف عملية الإحساس أو الإدراك الحسي للمعطيات المتصورة عنه.⁽¹⁷⁾

هكذا تحولت الأشياء الفيزيقية إلى كيانات مستقل عليها، والمعطيات الحسية الشيء الوحيد الحقيقي الذي نتطرق بوجوده، فلا ضرر أن يعتقد الكونيات القصوى للعالم الفيزيقي بوصفها فيزيقية خالصة.⁽¹⁸⁾

ثم أضاف رسل إلى المعطيات الحسية "المعطيات الحسية الممكنة" *Sensibilia* وهي لها نفس القزلة الفيزيقية والفيزيقية للمعطيات الحسية، أي أنها لم تعط بعد لعقل ما، أو بمصطلحات أرسطو هي معطيات حسية بالقوة، سوف تصبح معطيات حسية بالفعل حين تقع في خبرة عقل ما، تماماً كما أن الرجل يصبح بعلاً حين يتزوج، لذلك يقول رسل إن العلاقة بين المعطيات الحسية والمعطيات الحسية الممكنة تعادل العلاقة بين الرجل والبعلة، يصبح الرجل بعلاً حين يدخل في علاقة زواج، وتصبح المعطيات الحسية الممكنة معطيات حسية حين تدخل في علاقة معرفة بالاكْتِسَاب⁽¹⁹⁾، فقد يرى رسل بين المعرفة بالاكْتِسَاب لهاشور وهي إدراك المعطيات الحسية والوعي بها، وبين المعرفة بالوصف وهي معرفة تلك الكيانات الفيزيقية التي نستدل عليها من المعطيات الحسية.⁽²⁰⁾

إن المعطيات الحسية الممكنة.. وليس المعطيات الحسية فقط.. هي الكونيات القصوى للعالم الفيزيقي، وهذا التمييز بين الاثنين من ناحية، والتمييز بين المعطى الحسي والإحساس من الناحية الأخرى، يؤكد أن المعطيات الحسية ليست ذهنية خالصة مرهنة فقط بالذات المعرفة. بل هي منتزعة للعالم الفيزيقي.⁽²¹⁾ فتصلح تماماً لتصور موضوعي للعالم ولتفسيره، وتجد تمام تبرير أدائها لهذه المهمة هي مبدأ الاتصال أو الاستمرار *Continuity*، أي اتصال المعطيات الحسية عن الموضوع الفيزيقي نفسه. إن رسل يستعمل الاتصال - طبيعياً - بالعنصر الرياضي الذي يعني أن المتصل ليس شيئاً سوى مجموعة من العناصر متوالية ترتيباً معيناً.⁽²²⁾

وهمینا بعد، می مرحله‌ی ثالثیه سوف بهتم رسل اعتماداً شدیداً بهیچا الاتصال خصوصاً إذا تلاخیم مع العلیه. وبعده ان اناط به هذا الدور فی تصور العالم. سوف بهتبره أیضاً مصداقاً من مصداقات البحث العلمي، ویعنی بتفصیلها. وهذا معناه أن الاتصال یلزم بدور جوهري فی انطولوجیها رسل وفي اېستمولوجیته علی السواء. والواقع أن الفصل بین الانطولوجیها والایستمولوجیها فی فلسفه رسل سوف ینفذ لعمدتها إلى حد ما. وهذا هو محور حکمتها بهذالکته. علی ایه حال، فإن رسل یعمد مصداقاً للاتصال، وهو بالطبع اتصال زماني - مکاني، بأنه إذا كان هناك ارتباط علی بین حادثین غیر متجاورین، فلابد من روابط فی التسلسل العلیّ تتوسط بهتوما تجمعهما متصلتين أو تجعل العملية متصلة بذلك المفهوم الرباطي للاتصال، فإذا كان هناك عدد من المستمیع المختلفون، ومن الواضح أیضاً أنه لابد وأن توجد روابط علیاً بین ما یسمی هؤلاء المستمعون المختلفون، ومن الواضح أیضاً أنه لابد وأن توجد روابط فی السلسله العلیه - من قبیل الموجات الصوتیه - فی المدى المتوسط بهتیم، ما داعوا متطرفین فی امکنه شئی. وبسبب مصداق الاتصال لا نشك فی استمراریه وجود شخص ما خلال الأزمنه التي لا نراه فیها.^(۳۱)

ولعب العلیه دورها الکبیر فی عالم رسل، علیما لم تعد قوه مؤثره ولو من بعد أو قوه إجبار Compulsion كما كانت فی الفیزیه، الکلاسیکیه، بل متعبره قوانین المتعاقب.^(۳۲) فقیس دائماً معاملاً تنظیم العالم وتعلیماً عملياً إیراکه. العلیه خطوه نظریه مؤثقه، وغیر شامله لکها فایره علی هذا، فالعلیه بهتبرهها التامع تضم کل القوانين التي تربط الأحداث فی مختلف الاتصالات الزمانيه المکانیه.^(۳۳) ویتبره رسل إلى اعتقادنا الراسخ بأن «کل ما نعرفه عن العالم الفیزیقی یعمد علی افتراضنا بأن هنالك قوانین علیه».^(۳۴)

صحيح أن رسل علی بتفصیل الاتصال والعلیه وما إلیها فی مرحله لاحقه، لکنهما ظاهراً بدورهما الکی ینظم تصور رسل للعالم آنذاك بوصفه مکاناً من معطیات حسیه ممکنه، ومعطیات حسیه تستدل منها علی الموضوحدات الفیزیقیه. هذا بمعیه ظهرات ذهنيه خالصه، فترسل مازال محتفظاً بشائیه سیکوفیزیقیه - كما أضربنا - حین فصل بین الإحساس الذي هو فعل ذهني أو حادثه ذهنيه، وبین موضوع الإحساس - أو معطیات - الذي هو حادثه مادیه، فثبت المعرفه وکانتها علاقه بین ذات وموضوع، خصوصاً حین کان رسل یبحث للمعرفه المباشرة أو المعرفه بالاکتساب والمعرفه بالوصف. وعلى هذا، فإن رسل رفض رسل العقل بوصفه کیهاناً متمیزاً وأحل محله المعرفه المباشرة بوصفها المکونات القصوى للعقل «إلا أنه ظل ثنائياً حتی عام ۱۹۱۹ أو ۱۹۲۰».^(۳۵)

وكانت الخطوه الثانیه فی تصور العالم، انقضي تماماً علی تلك الثانیه حین تقدم مفهوم «البناء المنطقی، Logical Construction».

بناء المنطقية والمنطقية

ومنهج البناء المنطقي، الذي يعد من أهم أدوات التحليل عند رسل⁽¹⁾ هو تطبيق حرفي لقاعدة نسل أوكام الذي يلزمنا بهدف كل ما يمكن حذفه من كيانات مستقل عليها فتكون معرفتها بها احتمالية وموضح ذلك، وذلك لكي يحل محلها ما نحن على معرفة مباشرة وبديهية به. على هذا لا تعود الكيانات التمييزية مستقلةا عليها من المعطيات الحسية، بل هي أبنية منطقية من هذه المعطيات أو بالأحرى من الأحداث.

إن منهج البناء المنطقي يمثل الانتماءة المطلقة والقاطعة من الواقعية السالجة أو الواقعية بشخصها ولحمها، وكان رسل قد استخدمه ليصل إلى أن العدد لا يشير إلى كيان واقعي، بل إلى فئة من الفئات. وقام بتطويره في «برنكيما ما تيماتيكا». وبعد نجاح منهج البناء المنطقي في إيجاد حلول للمشاكل الرياضية والمنطقية، قام رسل - يدعى ولسند من وليند - بعد تضافه إلى مشكلات الفلسفة ببناء⁽²⁾، وعلى رأسها المشكلة الأم هي فلسفة رسل، مشكلة المعرفة.

المعرفة الإنسانية تشمل على كيانات كثيرة لا نستطيع القطع بوجودها، والأفضل أن تتم صياغة المعرفة في حدود علاقات بين كيانات أبسط وأكثر مقولية ولا نستطيع إنكار وجودها. وبهذا نحول ثقلها في الفلسفة، فقد استبدلتها غير الشكل بالشكل، والواضح بالفاضل، واليقيني بالاحتمل، ويغدو ناموسنا **إزاء موضوعات العالم**، حيثما يمكن أن نستبدل البيانات المنطقية من الكيانات المعرفة بدلا من تلك الاستدلالات على الكيانات غير المعرفة، وحتى كيان فيزيقي معقد مثل المجال الكهرومغناطيسي، ينكر أن يتحول إلى بناء منطقي⁽³⁾ فالإلكترونات والبروتونات ليست نسخ العالم الفيزيقي، بل هي أبنية منطقية متفحة ومطورة⁽⁴⁾، ويمكن أن نواصل المسير إلى ما استجد بعد رحيل رسل ونقول إن الكواركات والحلونات بدورها أبنية منطقية.

وعندما حل البناء المنطقي محل الكيانات المستدل عليها، انزاح الاستدلال من تصور العالم، وبالتالي سوف تزدح أمة طوارق بين الذات العارفة وموضوع المعرفة وتتغير الثانية تماما من تصور رسل للعالم «العقل بناء منطقي من الوقائع الذهنية، والمادة بناء منطقي من المعطيات الحسية الممكنة»⁽⁵⁾، فانفتح الباب على مصراعيه أمام تصور محدد لعالم مائة الخلق هي الأحداث.

وكان وليند قد أوضح أن النشاط اللغوية والعمليات الزمانية تتركب من فئات من الحوادث. كل حادثة لها امتداد متناه في المكان وديمومة متناهية في الزمان، ولكن بعد نظرية النسبية لم تعد الفيزياء الرياضية تعمل بامتداد مكاني واتصال زمني، والآن يمكن بناء الأحداث - الجسميات events - particles في المصطلح الزمني - المكاني (أو الزمكاني) للنسبية بنفس طريقة بناء النشاط والعمليات، والبنائات هنا تختلف عن بنائات الرياضيات البحتة من حيث إنها من سلسلة حوادث وجودها مسألة تجريبية، إلا أن المنطق - كما يؤكد رسل - مستند تماما لمواجهة أي مطلب تجريبي لتشرطه الفيزياء، فمثلا كان ثمة خاصية للمادة مهمة تجريبيا وهي أنه لا يمكن أن توجد قطعة

مادة بمنهجها في مكانين في وقت واحد، أو في مكان واحد في زمانين مختلفين، وهذا ما يعرف بعدم قابلية المادة للاختراق *impenetrability*، وهي خاصية مطلوبة في الفيزياء الكلاسيكية والحدوثية. فهل تكفي ملاحظة كريات البليارمو لإثباتها؟ الآن إذا أصبحت المادة بناء منطقيًا من كل الأحداث في حيز معين من المتصل الزمكاني، غير متقاطعة وغير مشظطة فالمادة غير قابلة للاختراق. هذا لأنه من الأسير أن نضع قوانين الفيزياء بطريقة تؤمن خاصية عدم قابلية المادة للاختراق، هذه الخاصية تلزم الآن بالضرورة المنطقية عن تعريف المادة كبناء منطقي، مع ملاحظة أن قطع المادة ليست هي القوالب التي يتم منها بناء الماتر القوالب هي الأحداث.⁽¹²⁾ وقد تم حذف جزئيات المادة والنشاط والحظوظ على السواء.

ومنهج البناء المنطقي من الأحداث بدلا من منهج الاستدلال في المرحلة السابقة من فلسفة رسل، يمكن تطبيقه بالأسلوب نفسه على الأحداث الذهنية. على الرغم من أن علم النفس ليس متقدما بنفس درجة الفيزياء، بيد أن السلوكية - فيما يؤكد رسل الذي يعلق بذولها وانطلاقة علم النفس المعرفي - عند رسل هي ذاتها النظرة العلمية، فكل الأنشطة الإنسانية تولد معها إلى سلوكيات تدور من منهج العلم التجريبي مستوحدة الذات تماما⁽¹³⁾ وقد كانت الذات من ناحية، وعلاقة المعرفة بها هو معروف من ناحية أخرى. **كانت لها** تثير شكوكا حقة، سوف تدفع إذا فكرنا الطابع العلاقي للإحساس، ليست، للإحساسات خاصة علاقية مع الذات، وليست الإحساسات في حد ذاتها معرفة، إنها مجرد أحداث، **والعقل** **يولد** بناء منطقيًا من أحداث فلا تعود الحدوثات *occurrences* عقلية مختلفة اختلافًا عنها عن الحدوثات للمادة، وبالتالي يصبح من الممكن اعتبار العقل والمادة كليهما بناء منطقيًا تشكل من المادة نفسها وهي الأحداث، لكن بقوانين عليا مختلفة.

وهكذا كما حذف منهج البناء المنطقي الجوهر تماما من عالم المادة، حذف الذات تماما من عالم العقل، منتخلص من المثالية الديكارية التي قصمت ظهر الفلسفة الحدوثية. كلاهما الآن أنية منطقيًا من الأحداث. وهذا أمام رسل خلا تواتيا لمشكلة العقل والمادة. وقد كان القضاء على طرفة ديكارت هدفا للتيار التحليلي بأسره⁽¹⁴⁾، وأحداث رسل الحالية تبدو كأنها قد حققت هذا الهدف، لأن بقية مدارس التيار - بمنهجها الردي المذكور في الهامش - لم تخرج البنية عن الواحدية المادة المستهلكة طوال عهد الفلسفة، بمشاكلها وتفرعاتها المعروفة، وقد رفضها رسل ورفض منهجها الردي وراء لا يزيد شيئا عن موقف الواقعية الساذجة، تماما كما أن المثالية لا تزيد شيئا عن موقف الحس المشكوك، ويدت الأحداث الحسابة طرخا مستعدا وخميبا والأهم أنه هو القوائم مع تطورات العلم، الفيزيائي أولا والنيكولوجي ثانيا.



أجل! الأحداث الحالية بوصفها طامة العالم، أو العالم بوصفه نصيبا من الأحداث الحالية ليست البنية من إبداع رسل، مهما قل رسل فريدا في معالجته إياها، وقطعلا عن

فلسفة العقل والوعي

جهود واتجاه الذي كان رائداً هناك أخذ بهد رسل وفكر خطاب كانت الحكومة أي الأحداث التحديد متواترة ومطروحة بوضوح في خطوط من فلسفة القرن التاسع عشر ذات النزاع التجريبي والعلمي، وكانت شائعة بصفة خاصة بين فلاسفة الواقعية الجديدة في أمريكا. على رأسهم ويليم جيمس (1842 - 1910) وأينس تشونستكي وايت (1870 - 1898) ووالف بارثون بيرري (1876 - 1949) وإلى حد ما جون ديوي (1859 - 1952). فضلاً عن نشر من فلاسفة الفكرة الأوروبية أهمهم أرنست ماخ (1838 - 1916).

غير أن برتراند رسل يخلص بالذكر فقط ويليم جيمس وأرنست ماخ وينسب الواحدية المحايدة إليهما. ويطلق عليهما مصطلح أو اسم «عوضية ماخ وجيمس»⁽¹⁾، حيث لا يعود العالم مكوناً من المادة ولا من العقل، بل من شيء مختلف عنهما وأبسط من أيهما وأكثر أساسية من كليهما. ومن هذا الشيء يتكون العقل والمادة⁽²⁾.

إلى مثل هذا ذهب التجريبي المتطرف، فيلسوف الأداة الرائد أرنست ماخ في كتابه تحليل الإحصاء الذي صدر عام 1883 وتوسع بالإنجليزية عام 1897⁽³⁾، حيث قام بتحليل الأشياء الفيزيائية إلى عناصر اسمائها «الإحصاءات» لأننا نكتشفها من الخبرة الحسية، لكنها ليست بـ«أشياء بل هي نتاجات لتشكل النسيج الذي يتألف منه العالم»⁽⁴⁾.

وهذا الذي بلغه أرنست ماخ من خلال الفيزياء. فله ويليم جيمس من خلال علم النفس حين حاول بالاستناد إلى خلفيته الكلية من دراسة الطب وعلم وظائف الأعضاء، أن يخلص علم النفس ويحيله علماً تجريبياً خالصاً مستقلها تماماً عن الوعي وعن خرافة «الذات» حتى «يندو علم نفس من دور نفس»⁽⁵⁾. وكان سبيل جيمس إلى هذا هو التجريبية الحدسية التي تصور العالم علماً من الخبرة الخالصة لا يسمح بدخول أي عنصر لا يقع في التجربة. وبهذا تغدو الخبرة الخالصة هي الخامة الواحدة والوحيدة التي يتركب منها كل شيء في العالم. عقلي أو مادي. وهي مختلفة عن كليهما.

إحصاءات ماخ أو خبرات جيمس أو أحداث رسل، خامة واحدة لا هي عقل ولا هي مادة بل محايدة بينهما. حيث تشكل كلاهما منها. فلا نزع من العقل هو نفسه لقادة أو أن المادة هي ذاتها العقل، هما بناءان متمايزان لكنهما يتشكلان من الخامة المحايدة نفسها، بقواتين أو مستويات عليهما مختلفة. وهذا تصور للعالم يختلف عن الواحدية المثالية بقدر ما يختلف عن الواحدية المادية التي نزع من أن العالم كله مادة خالصة والعقل ظاهرة فرعية أو وظيفة لها. بقدر ما يكون هو ذاته النظرة التعددية للعالم، تعددية تفوق تعددية ذواته.

1 - لاحظ أن رسل كان يربط المادة الأولية والفيزيائية بطلاقة ويقترن بها جميعاً كما يقر «الإنجليزية».

وبعد أن كان رسل ينتقد وإليم جيمس ويرفض خبراته المحايدة، انقلب فجأة في عام ١٩١٩ .
١٩٢٠ تسلّم بها . ومنذ ذلك التاريخ طمساعدا ما حقق رسل بثني على جيمس الشاء الجميل
ويعتبره من أهم الأعلام للمشككون الفلسفة القرن العشرين.^(٢٥)

ومع هذا لا يمكن البشة الزعم بأن انقلابية رسل إلى حيادية الأحداث في هذا التاريخ
١٩١٩ - ١٩٢٠ هو نهاية حال استجابة لتأثير جيمس أو ماخ أو سواهما، بل هو وعد رسل
الصادق . إنه معضى استجابة لتطورات العلم المعظم في الثلث الأول من القرن العشرين.

كانت تغيرات العلم آنذاك عاصفة تحرك معها علم النفس السلوكي لينخدو أقرب إلى ما هو
مادي متعرج، وتحركات الفيزياء الذرية وفيزياء الكوانتم تنخدو أقرب إلى ما هو عقلي مجرد،
التحولات النفسية سلوكيات ملاحظة تجريبيها، ووقائع المادة شحنات كهربائية مستقطعة عقليا أو
رياضيا، فبدت حيادية الأحداث وكأنها تعرض نفسها على عقل علمي بالدرجة الأولى كمثل
رسل، خصوصها إذا فريعت نسبية أينشتين على قمة هذه التأثيرات العلمية.

والواقع أن النسبية هي العامل الجوهرية أو العلة المباشرة التي أدت بربسل إلى هذا التصور
للعالم من أحداث محايدة. وهذا ما يشرح به من الترخ انقلابته الخامسة ١٩١٩-١٩٢٠ إلى
مناصرة جيمس وإلى الإقلاع التام **من الثنائية السيكوهيزنسية** . مسحيح أن نظرية النسبية
الخاصة أعلنها أينشتين عام ١٩٠٥ والعامة عام ١٩١٦، إلا أن عام ١٩١٩ كان حاسما في تاريخ
النسبية، إذا اجتازت فيه اختبارا دقيقا، فرضت بدنه نفسها على المجتمع العلمي بقوة وبجسم،
بعد أن كان الرأي العام العلمي لا يتأهلها تماما.

فكما هو معروف، بعد دحض فرض الأثير، أنكر أينشتين النظرية الموجية في التفسير طبيعة
الضوء وأخذ بالنظرية الجسيمية. وثبعا لها يكون الضوء سجال من الجسيمات (الفوتونات)
خاضعة لقوى الجاذبية التي تتناسب طرديا مع الكتلة وعكسيا مع مربع المسافة، فبذا كان
الضوء جسيمات فلا بد وأن تحديه الأجسام الثقيلة مثل الشمس، عدبا يعرفه عن مسارها الذي
كان سيسير فيه ولو لم تكن هذه الشمس موجودة. ونتيجة لهذا يمكن أن نحسب أن الضوء
الينبعث من نجم في وضع ظاهري قريب من الشمس، يصل إلى الأرض من الاتجاه الذي يجعل
النجم يبدو كما لو كان مائلا قليلا عن الشمس، وبعبارة أخرى تقول إن النجوم القريبة من
الشمس تبدو كما لو كانت قد تحركت قليلا بعيدا عن الشمس، وبعدا عن بعضها البعض ..
وهذا شيء لا يمكن ملاحظته في الأحوال الطبيعية، طالما أن النجوم غير مرئية في النهار
بسبب اللمعان الشديد للشمس. ولكن يمكن تسيورها فوتوغرافيا إبان كسوف الشمس، ولو
صورنا هذه المجموعة من النجوم أثناء الليل - أي أثناء غياب الشمس - يمكن قياس المسافات
على صورتين، وحساب الأثر المتوقع، فكانت بعثة أرثر إرنستون إلى جنوب أفريقيا عام ١٩١٩
لتصوير النجوم أثناء كسوف الشمس، وذلك لمقارنتها بصور النجوم أثناء الليل، وثبتت المقارنة

بحث الفيزياء والفلسفة

وحسابات الأثر المتقطع. وكانت تماماً كما تقياً أينشتاين^(١٢٩) وجاء التحقيق التجريبي من النسبية. وكان هذا الحدث ليسبب وجداً عميقاً في المجتمع العلمي.

يخبرنا آلان وود في كتابه المتبع عن سيرة بورتراند رسل، عن مدة شخص رسل بعناية تفاصيل بحثه أثر أينشتاين، والفعالة العميق بتأثيرها حتى موت عليه لحظة تصور فيها أن أي شيء بخلاف النسبية لا يستحق اهتماماً فقال: «لو أنني لم أنفق كل هذه الأعوام من عمري على أفكاره»^(١٣٠)

لذلك التطلع رسل بمجتمع نفسه نحو عالم من أحداث. لأن هذا هو تصور النسبية للعالم. ونحن نصبح هذه الأحداث مساهمة فإنها فائدة على تأثير تصور العالم بأسره. وظهرت الاستجابة المباشرة لهذا بأن أخرج الذين من أهم أعماله ثواب، ألا وهما «تحليل العقل» عام ١٩٢١ لينطوي على قبول تام بل تسلمهم لا تفندي بالمسؤولية وتفتيح وتطهير للأسس المشتركة بين علم النفس والفيزياء. فتجد نظرة لا عقلية للعقل ثم أضيفه بكتاب «تحليل الذات» عام ١٩٢٧ حيث نجد نظرة لا مادية للمادة. فقد ارتد كلاهما إلى أحداث^(١٣١) وإن كانت النظرة التحصيلية الدقيقة تذهب إلى القول إن رسل «في تحليل العقل» تبنى الواحدة المحايدة بصورة جزئية حاول أن يجدها كاملة في تحليل المادة^(١٣٢). ويمكن اعتبار هذا تنافساً لتأثير

نصرة النظرية النسبية في بحثه أثر أينشتاين. كان الخطر ما في النسبية أنها اعتبرت الزمان الأربع الفئات: فاطلحت تماماً بالانفصال التقليدي بين مفهومي الزمان والمكان. واستبدلت بهما التمثل الزمني - المكاني، أو الزمكاني Spatio - temporal^(١٣٣). وهو ليس كياناً واحداً يحمل محل كيانين وليس شيئاً وليس مسرهما جديداً للحدوثات بل هو نظام من العلاقات بين الأحداث. يهدم تماماً التصورات التقليدية عن التتابع الزمني والتجاور المكاني. وللمادة بوصفها مكونة من جزيئات غير أنات الزمان في نقطة من المكان - وهذا هو الذي أدى إلى حيادية الأحداث. وتبين أن الواحدة المادية والواحدة المثالية كليهما ذات فكرة متراكبة من المادة إذ عاشوا عبيداً لتصور الزمان والمكان ككيانين منفصلين. فتصوروا المادة حدثاً في المكان والعقل حدثاً في الزمان^(١٣٤) وشرغنا النسبية على الإطاحة بكل هذا فلا يبقى إلا الأحداث. المحايدة لا تبقى ولا تتحرك كتظمة ثابتة. إنها توجد ثم تنتهي. فتتحلل قطعة المادة إلى سلسلة من الحوادث والجسم سلاسل من هذه الحوادث. الجسم هو تاريخه. وليس كياناً ميتافيزيقياً يحمل تلك الحوادث. تماماً كما أن العقل هو تاريخ سلسلة أحداث وليس كياناً ميتافيزيقياً. هذا ما شرغنا عليه النسبية^(١٣٥)

وشرغنا عليه أيضاً نظرية الذرة والكماتكم. حيث ارتدت الذرة إلى إشعاعات. إلى سلسلة من الأحداث. ولا سيكون البتة في قلب الذرة. لا وجود للشيء أو للجوهر المادي. وبعد ما تبدي في انظر - بس طريق التوالي. الزمان في النسبية والعلم. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٦٨. ص ١٢٢ وما بعدها.

لنا من حركة دائرية في الإلكترونيات أمكننا أن نقول: «هذا هو الكرسي الذي وأبنته بالأسفل»^(١٢٢) قول مريب لكن غير دقيق بالمرء لأن القطعة النهائية الصغر من الكرسي تتبدل وتتغير فيما ينزل عن جزء من مائة ألف جزء من الثانية، وذلك القول عن الكرسي يشبه القول إن الإنكليز الآن هم الأمة التي كانت على عهد الملكة إليزابيث منذ مئات السنين.^(١٢٣)

أما الخلق فهو أبعد منا عن المادة لأننا أكثر جهلاء به. وظهرت رؤية الكرسي اتصال سببي طويل من سلسلة أحداث تتخلل خلالها الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومضطرب الضوء والعصب البصري ثم الخلق. ومع أي اعتراض لهذه السلسلة من الأحداث، بإفلاق العينين أو حجب الضوء أو تلك العصب البصري سوف تعدم خبرات رؤية الكرسي، وكل ما يعرفه عالم الفيزيولوجي عن الخلق ما هو إلا نتائج سلاسل أحداث واتصالات عظمى أعظم وأطول.^(١٢٤)

قد تبدو الظواهر العقلية كالفرح والحزن والطمأنينة والألم والذكاء... مستقلة عن الظواهر المادية بيد أن كليهما سلاسل من أحداث تنظمها قوانين عليا، مادتهما واحدة هي الأحداث المجردة، والاختلاف بينهما في طبيعة القوانين العليا المنظمة، فهناك قوانين أو سياقات عليا ينظم الأحداث في هيئة صورة ذهنية *images* فتكون ظواهر عقلية وموضوعها علم النفس، وهناك قوانين عليا تنظمها في هيئة *إحساسات* فتكون ظواهر مادية وموضوعات لعلم الفيزياء.^(١٢٥) وهذا يشبه الاختلاف بين تصنيفات *الإنسان* حسب مواقع سكنهم وتصنيفهم أبجديا بتسلسل أسمائهم حسب ترتيب حروف الألفباء، مكتبة البريد يعمل بكتلا التصنيفين^(١٢٦) والعالم بهذا التصور يعمل أيضا بكتلا التصنيفين وتفاعلهما معا، والتطورين التصنيف الجغرافي بما هو مادي منتم لعلم الفيزياء والتصنيف الأبجدي بما هو عقلي منتم لعلم النفس. ويمكن لعلم الفيزيولوجي أن يفسر التفاعل بينهما، حين تظهر مجموعة من الناس إلى الشيء نفسه، فيرون منظورات مختلفة تتفق على موضوع معين، وعلم الفيزيولوجي يقودنا إلى التسلسل العلي للأحداث التي تبدأ من الموضوع وتصل إلى مركز الإحساس، ويظل أعجب ما هي الأمور أن تكون الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة العليا مطابقة للحلقة الأولى.^(١٢٧)

هكذا انتهى رسل إلى تصور عالم هو أبنية منطقية من أحداث مجردة، تنظمها قوانين أو سياقات عليا، فتشكلت الأحداث في خطوط عليا *Causal Line* شبه مستقلة، والخط العلي هو سلسلة من الأحداث، نستطيع أن نستدل من أية عادية في هذه السلسلة على شيء ما يتعلق بحادثة أخرى في السلسلة العليا، والإنذار الحسي بوصفه مصدراً للمعرفة المتعلقة بالموضوعات الفيزيائية يستعمل من دون سلاسل عليا شبه مستقلة.^(١٢٨)

إن الأحداث هي أساس تصورنا للعالم لأنه لا يوجد شيء البتة في العالم ليس قطاعاً من تلك المادة الفيزيائية الأولية الباقية المتعددة، الأحداث.^(١٢٩)

بدء العالمة والوعي

لقد استقر رسل أخيرا على أن الأحداث هي المكونات القصوى أو النهائية للعالم، لأنها حتى ولو كانت ذات بنية، فهي ليست بنية زمكانية، بمعنى أنها ليست أجزاء تتصل ببعضها بعلاقات خارجية عبر المتصل الزمكاني¹¹. بيد أن رسل لا يكت أيدا عن التطوير والتنقيح، لذلك حاول فيما بعد أن يقدم تحليلا للعائلة بوصفها مركبة مما أسماه بالكيهيات التصاحبة Comparent Qualities في الآن الرمكاني نفسه، والتصاحب ينطبق على الظواهر الفيزيائية والتجسسية، أو المادية والمقلية على السواء، فيعقد تعريف العائلة أنها حزمة متكاملة من الكيهيات التصاحبة¹². فطرح كتاب رسل مبحث في المعنى والصدق An Inquiry into Meaning And Truth، عام 1940، حيث نجد العائلة وكأنها بناء معتد يمكن تحليله، إلا أنه جاء في كتاب المعرفة الإنسانية، عام 1948، ليؤكد أن هذه العالمة للأحداث ومحاولات تحليلها لا تتناقض البتة مع النظرة المطروحة في «تحليل المادة» التي تعتبر الأحداث هي المكونات القصوى أو النهائية للعالم، على الرغم من أنها لم تعد بسلطة غير قابلة للتحليل، فهي تظل دائما ما يشغل أصغر قدر مثاه من الزمكان.

الكلان بدور، أو الزمان وهذا الآن مهيان - لا يرتبط بأحداث متسلسلة، بل بالأحداث كمجموعة على، والدور الذي قامت به المقطوعات الحسية للحكمة Semiotelia حين كانت الموضوعات الفيزيائية كيانات مستقلة عليها، أي تحفظ كيان العالم فلا يحتفي بتوقعات معالمة الإدراك كعالم باركلي ولا إنشغالي (رغم، هذا الدور في عالم الأبنية المنطقية تقوم به الأحداث غير المدركة، فتصور العالم هي النهاية كأبنية منطقية من الأحداث التي تقع في مدركتي والأحداث التي تقع في مدركت الأخرى والأحداث غير المدركة، جميعها تنظم في سلاسل على.

وتجما لتظرية العلية للإدراك يتحدد نوع التسلسلة، فإذا كانت إحساسات sensations أي مدركة غير أعضاء الجسم، فالعلة مادية فيزيائية تجعل سلسلة الأحداث منتمة لعلم الفيزياء، وإذا كانت صورة ذهنية images أي مدركة غير علية مركزية في الخ والذاكرة فالسلسلة عقلية سيكولوجية منتمة لعلم النفس، كل الأحداث تنظم في هذين الشكليين، إحساسات وصور ذهنية، والتمييز بينهما يتوقف على طريقة إدراكنا للشيء.

وكأن رسل قد جعل الجسهال الإدراكي للإنسان هو القيهصل بين نوعي الظواهر الأنطولوجية، فيؤكد جهارا نهارا أن التمييز بين ما هو ذهني وما هو فيزيائي يتوقف على طريقة إدراكنا للشيء، وإن هذا التمييز استمولوجي وليس أنطولوجيا، ينتمي لنظرية المعرفة وليس للميتافيزيقا أو نظرية الوجود¹³. فيقول: «عقلي هي أن التمييز بين ما هو عقلي وما هو فيزيائي لا يكمن في خاصية كاشنة هي أي معلوما، بل في الطريقة التي نكتسب بها المعرفة عن أيهما، فالحادثة عقلية إذا استطاع الشخص أن يخبرها مباشرة، وهي فيزيائية إذا

لم يكن ممكناً إدراكها إلا عن طريق الاستدلال»⁽¹⁰⁰⁾.

وأكثر من هذا - وليس التمييز بين الحوادث فقط - هو الذي جعله رسل في مع الإنسان - بل الحوادث بأسرها! ولما كان العالم مجرد جماع من حوادث فهل يحتاجنا أن رسل وضع العالم بأسره في مع الإنسان؟ لتكون واحدة من أعلى نرى المثالية في تاريخ الفلسفة - تميزت بأنها تصور للعالم - تكاثرت - كما يؤكد رسل - أربعة علوم للتشبيد - وهي المنطق الرياضي والفيزياء النظرية وعلوم النفس والفيزيولوجي أو علم وظائف الأعضاء⁽¹⁰¹⁾.

والشكر للهفة حقا هو لمناظم دور الفيزيولوجيا، مفاهيم العالم بأسره قد حل في الخ الذي تدرسه - بيد أن الفيزيولوجيا ليست أقوى أساسا من الفيزياء بحال، فلن نستطيع أن نضيف قيد أنملة من غلواء المثالية - وعالم الفيزيولوجي حين يلاحظ معنا طين ما يراه في معه هو وليس في الخ الذي يلاحظه - إنه أثر بعيد لذلك الخ الفيزيائي الزمزم وعلاقاته به يتم الحصول عليها استدلالا - فيؤكد رسل أنه لا يوجد شيء اسمه عالم المادة مشهور عن خبراتي⁽¹⁰²⁾ سواء أكانت المادة قطعة معدن أو إلكترونات يدرسها عالم الفيزياء أو مع وخلايا حية يدرسها عالم الفيزيولوجيا.

إن مجموعة أو سلاسل الأحداث تصورها الفيزياء الحالية موقوفة لقطعة مادة بناء على ارتباط على هو حلقة أو فكرة كانت في منطقة ما من الخ - وما دمت لا ندم شيئا عن الصفة الكيانية للأحداث الطبيعية إلا حين تكون نهاية حوادث عقلية تقع في خبرتها مباشرة فلن نستطيع القول إن العالم المادي خارج رؤوسنا يختلف أو لا يختلف عن العالم العقلي - فلا اختلاف البتة لأنه لا عاقلين أصلا بل مجاميع أحداث ترتبط بروابط على متطابقة - وكل ما في الأمر أن هناك مكانين - مكان الخبرة لا منهما الطبيعة البصرية التي تحكم بصرية ما هو فيزيائي - ومكان علم الطبيعة الذي يتراكم بواسطة القوانين العلمية ولا نعرفه إلا استدلالا من الخبرات الحسية خصوصا الخبرة البصرية - وهذه الخبرة - التي تحدد على أساسها وجود الموجودات - مكانها الخ - ويعقب رسل على هذا قائلا: «لقد أقررت الفلاسفة بقولي إن أفكارهم في رؤوسهم - وراحوا يؤكدون لي في صوت واحد أن رؤوسهم ليس فيها أفكار قط - ولكن الأدب يعتني من قبل هذه القضية»⁽¹⁰³⁾.

ملاحق: حصيل الجد

ملاحقة علمية

والأدب لا يعنى البتة من بلورة هذه المثالية التي انتهى إليها رسل وهو يرد العالم بأسره إلى التمركز بل ويعطيه داخل الخ - مما دفعه إلى

أن يقول في طرائف كتابه «تحليل المادة» - أجل! تحليل المادة وليس تحليل العقل - يقول رسل: «لعل النظرة المطروحة في هذا الكتاب أقرب إلى المثالية منها إلى المادية»⁽¹⁰⁴⁾ وصحيح أنه ظهر قوته التحليلية الكبرى وكان يجعل أحد مواضعها - ولكن ليس من قلة الأدب في شيء هذا

بدء المثالية والواقعية

الطرح الجدلي لصيرورة تصور للعالم، وإن لم يكن من تمام الأدب وكماله، لأنه بدأ إطاراً ضاماً، ولا بدبل بكافته.

أو لم نر دبل يبدأ تصور للعالم بالطروحة مثالية مفروقة في مثالياتها، ثم ينقلب إلى تضخها بواقعية مفروقة في واقعيتها، ويورد بعمية رقيقه البارزين جورج مور وفشنتشتاين ثورة عظمى تحت لواء التعددية الواقعية التحريمية العلمية، وانطلق تصور للعالم في طريق مدحوق بهذه الثورة المضادة - الثورة التحولية وسلاحها الماضي؛ نصل أوكام، الذي راح يهز ويهز - بتعبير الدكتور زكي نجيب محمود الشهير - حتى لم يبل في العالم إلا أحداث محايدة، كما رأينا.

ولكنه في كل هذا لم يحرر المثالية تماماً أو يرفضها رفضاً ميكانيكياً مباشراً، بل رفضاً جدلياً، إذ لحار بوانها التكري، وهي الواحدة وعلاقاتها الداخلية، وعاد إليها من باب خلفي، فيسبقي مساحة من رحابها لتتضم إلى النهج العظيم لقرون باسم رسل، بعد أن تفاعلت معها عناصر تجريبية وعلمية في مركب جدلي مستجد متكامل ومتأز، وليس مجرد جمع بين الطرفين.

فهو بالتاكيد لم يعد إلى المثالية التي رفضها كما هي طعنوا ورفضونها، أي الواحدة الخالصة ومنطقها الجدلي، بل بلغ مثالية أعظم شأناً وأجل طمراً، إذ تربعت على قمة مركب جدلي مهيبة.

فكان الطرح الجدلي هو القضاء على ثورة هدم المثالية الفريدة، التي سنرى أنها هي الواقعة لروح العصر، وأنها المثالية العلمية التي أصبح العلم بعد تطوراتها في القرن العشرين يرفضها.

بدلية، نشهد في أن رسل ليس البنية التجريبية حاصية، بواصل مسيرة فريدمان يكون وديفيد هيوم وجون ستيوارت مل، كما يذهب نفر من مؤرخي الفلسفة الإنجليزية، إن لم نلغ غالبية مؤرخي الفلسفة الغربية. وكما ذهب أسلاف التحيل الدكتور زكي نجيب محمود في دراسته الرائدة عن بورتراند رسل⁽¹⁾. وربما عرت عليه أوتة - هي مراعاة للتفاوتة - تفاعلت فيها مع الماديين وأحسن أن العالم يرجع كفتهم، أو يبدو وكأنهم على صواب⁽²⁾، ونأزعت فيها التجريبية الخالصة - لاسيما أيام واقعيتها البادية - ما اعتبر تمثيلها المنهجي أي الاستقراء بعيداً في العلية وإطارها الطبيعة مضمرة أولية للبحث العلمي التجريبي لأد من التسليم بها، وهما بعد -سرعان ما فقد الاستقراء هذه التكاية وأصبح مجرد أداة مفيدة للبحث العلمي والتفكير في مقتضيات الحياة اليومية، لا ضير من استخدامها ما دامت مريحة، وإن كانت غير مبررة منطقياً⁽³⁾، وربما ظل رسل دائماً مستعداً للهجوم على المثالية، من حيث كان دائم التأكيد على التجريبية، على أن المثالية التي انطلق منها رسل فعلاً وحاربها دائماً هي مثالية برادلي التي تشكلت في شهادة الحواس وتروى العقل وحده معتمداً على منطقته كقبلا بإدراك العالم، ولا حاجة لمعطيات الحواس، بيد أن التجريبية في حد ذاتها ليست هي المقابل المنطقي

المثالية. ولا شك أن رسل يعرف أكثر هنا كيف كان الأسقف باركلي تحريياً متطرفة ومثالية مشطرها في الوقت نفسه. ولا شك أيضاً «أن رسل تابع باركلي متبعة تامة، فافترض أن الأسس التجريبية الوحيدة لوجود المادة فسررها الإدراكات الحسية»^(١٢١).

ولكن نجسم الأمر لابد من تحديد ما هي المثالية

أما رسل في كتابه بمشاكل الفلسفة، (١٦١٢) الذي يعد من المعالم البارزة في طريقه الفلسفي ومن إنجازاته المثالية أبداً، فما زالت طبعاته لتوالي، ويعرف المثالية بأنها - أساساً - الاعتقاد بأن كل شيء في العالم ذو طبيعة عقلية^(١٢٢) ومن ثم ينكر المثاليون أمثال ليبنتز وباركلي وجود المادة كشيء مختلف بصميم ذاته عن العقل^(١٢٣). ويعتبر النظر عن أن رسل أنكرك في النهاية ذلك التمايز. فإن هذا تعريف أنطولوجي خالص للمثالية. ورسل - كما رأينا - بات أول من ينكر إمكانية طرح السؤال الأنطولوجي طرحاً خالصاً مجرداً تماماً من أية إبعاد إبستمولوجية. لذلك أشرنا منذ البداية إلى النتائج الحاسمة لذلك التجادل بين الإبستمولوجيا والأنطولوجيا الوضعية، أو بالأحرى احتواء الأولى للثانية. والأمر ينحصر في أن تلك النتائج الحاسمة تعني مثالية صريحة.

ففي الطرح الأكثر حداثة والأكثر شمولاً ومقبولية، لا أحد من المثاليين - ولا من مناهضيهم المثاليين الواقعيين - ينكر فعلاً وجود أي من الطرفين: العقل والمادة أو الواقع والشيء، والسؤال المطروح: أيهما الأسبق؟ أيهما الأول؟ وهما: انتم؟ أيهما الذي ينشئ من الآخر؟ إذا كانت الإجابة أن العقل هو الأسبق والمعروفة هي الأسس التي تدرك طوطم وكانت الأنطولوجيا بدورها تالية للإبستمولوجيا ومشتقة منها، فذلك هي المثالية، أما إذا كانت الإجابة بالعكس - أي أن الأولوية والأسبقية للواقع المستقل والمادة الحاصلة والوجود المتعين - والمعرفة أو الفكر مأخوذة ومشتقة منها، فذلك هو الاتجاه الواقعي أو المادي أو التحريبي الخالص الذي يتناول المثالية أو يناهضها تماماً.

لذلك يعرف «المعجم الفلسفي» المثالية بأنها «اتجاه فوائمه رد كل وجود إلى الفكر بلوسف سماني هذا المنطق، فوجود الأشياء مرهون بشئ الإدراك، وتلقايل المذهب الواقعي»^(١٢٤). والواقعية بدورها هي - بوجه عام - تركة تقدم الأعيان الخارجية على الإدراكات الذهنية.^(١٢٥)

فهل كان رسل واقعية أم مثالية؟

يمكن أن نناقش بالتعميل السبب أن رسل لم يعد واقعية البتة^(١٢٦). بيد أن الجدل لا يتسع ولا يحتاج الأمر بد أن رأينا كيف قال صراحة وبصريح ويطمح «لا وجود لمادة متميزة عن خبراتي»^(١٢٧). فمن ينكر بعد كل هذا أنه مثالي؟



وأخيراً، يبقى أجمال ما هي الأمر أن نختم هذا البحث بتبيان أن هذه المثالية الرسالية كانت فعلاً مركية جذالها مهيبة لذاتي أولاً وأخيراً تحتيتها طوطم لوجود رسل الصادق بأن تكون الفلسفة علمية.

فذلك هو اهمية الساذجة والحادية المتعينة والتجريبية الخالصة التي تنفي الذات وتذكر مركزية العقل الإنساني. فتتأخر المثالية على خط مستقيم، كانت هي روح العلم الكلاسيكي الذي توطنه الفيزياء النيوتونية. وذلك العالم الذي هو كتل من المادة على سطح مستو وفدت على قد أنه ميكانيكية منظمة تسير وفقا لقوانينها الذاتية وبمعدل عليها الداخلية في خط مستقيم من مطلق الماضي إلى مطلق الحاضر، بإزاء أي مراقب في أي وضع كان وبأية سرعة كانت وكل ما عليه أن يلاحظه من وراء ستار وبمعيم الملاحظات هي قانون استقرائي، ولم يتدخل العقل في ملحة العلم إلا على استحياء ليخرج بتفسير لهذا التعميم. لذلك حذر بكون من طبة القروض وأعطاه جون ستيوارت مل- وقال نيوتن قوته الشهيرة والفيزيائية، «أنا لا افترض القروض». فلم يكن العلم صنعة العقل الإنساني. هكذا تصوروا - بل محض استقراء للوقائع بموضوعية مطلقة وموهومة تنفي أي دور للذات العارفة.

حتى انطلقت ثورة النسبية والكونية الجديدة ليتقلب تصور العالم رأسا على عقب. فلا بد من خلق أو على الأقل تحديد منظور وسرعة المراقبة. ولا تأتي الملاحظة أصلا في عالم الذرة والكونية بغير فرض يفرضه العقل ويستلزم منه إقناع الملاحظة. تبعها المنهج الفرضي الاستنباطي الذي حل محل الاستقراء في نظرية المنهج التجريبي.

هكذا أصبحت فصول السورجية المعرفية تنجز من قبل العقل الإنساني والواقع الإنساني بحدوده المعرفية. وأصبح العلماء يفسرون كل ما يرونه أو مشاهدين كوقائع العالم التجريبي. بل هم أيضا المعلمون والمخرجون والمؤلفون لصروح العلم المثوبة والوثائق.

لكل ذلك حل قول جورج ج. مارشاليس إن العلوم الفيزيائية مفاسرة الإنسان الكبير، إنها مشاريع إنسانية خالصة. فإذا كانت تفترض وجود عالم فيزيقي مستقل. فإنها أولا وأخيرا تقع داخل أسئلة باحثين من البشر مثقلين بحدودهم المعرفية. فإذا أمكن أن تتداخل عن عالم مستقل فلم يعد ممكنا أن نقيم طبيعته بوصفه مستقلا عن تسارلاتنا^(١٧١). وذلك ما أسرف توماس كون T. Kuhn (١٩٢٢ - ١٩٩٦) في التنظير له وهو يرسم معالم بنية الثورات العلمية. أو إمري لا كاتوش Lakatos (١٩٢٢ - ١٩٧٤) وهو يحدد خطوط برامج الأبحاث العلمية. فتقدم العلم الذي اطرد بمتواترة حسابية بعد ثورة النسبية والكونية علم فلاسفة العلم اللاحقين أن التقدم العلمي متوال. بصميم طبيعته غير مثله وإن يتوقف أبدا. أو ليست النظرية العلمية. من حيث هي علمية قابلة للتكذيب - كما أثبت كارل بوبر k. Popper (١٩٠٢ - ١٩٩٤) أي قابلة لتعريف الخطأ وبالتالي التصويب والافتراء من المعدل. التقدم المستمر. فيقول هيرزبرج: «إن بناء أو نظريات العلم هي أي مرحلة ليست سوى حلقة من السلسلة اللامتناهية لحقات الحوار بين الإنسان والطبيعة. ولم يعد من الممكن أن نتحدث بمساحة عن طبيعة بعد ذاتها. علوم الطبيعة إذن تفترض سلفا وجود الإنسان»^(١٧٢).

هذه المثالية العلمية التي سلوت تعلمها في نهايات القرن العشرين، وترفض رفضاً باتاً صداع الاستقراء المثالي الوفايع العالم في تمصمات تعد كشفاً لحقائقه. وتقرض الذات الإنسانية المعرفة وحدونها ومكانتها على أي تصور لعالم العلم، هي ما كان رسل يستحقها ويرسي الأصول الفلسفية المحيطة لها بتلك المثالية التي رأيناها معه. وإن الطرف في مثاليته بعض الشيء، أو كثيراً من الشيء، فإنها ظلت في كل حال مثالية علمية.

بالطبع، لم تتطور المثالية العلمية إلا هي العقود الأخيرة، وظل العقل العلمي - بصفة عامة - حتى نهايات القرن التاسع عشر السجوا للواقعية المادية التجريبية الخالصة. أو الاستقرائية. ليقدم الثلاث حقاً، بل المبرر أنه هي السنوات الأخيرة من ذلك القرن ضر رسل من هذا إلى مثالية ما بالغة، مما يعني أنه بكل صرامته العلمية وجبروته المنطقي والرياضي منطوق على عنصر مثالي.

فلا نملك إلا أن نشفق مع جيلبرت ويل على أن رسل كان دائماً ذلك المخلوق النادر، الفيلسوف الموزع بين التواضع المثالية والتمسك الطبيعية والنزعة الطبيعية، القمم المثالية لأفلاطون وأينشتاين وفريضة تنازعه، تماماً كما تنازعه وديان فيوم، رسل وجيمس، أو أنه موزع بينهما. وعلز بقاعة الصيا تشكلت عقليته بأصابع جون ستيوارت مل من ناحية ومصمات الرياضة البهنة من ناحية أخرى. وهي سنوات فتاحة الفهم لم يكن مستكناً على قمم المثالية ولا كان هاجماً في وديان التجريبية. وأيضاً لم يكن مقارحاً كليليول بينهما. والحق الصراح أنه كان دائم البحث عن طريق آمن ومعتد بينهما، وبما كان أكثر أولهاها للسفوح، لكنه لم يهجر القمم المثالية أبداً.⁽¹²⁸⁾

لكن ذلك بدأ التركيب الجدلي قسماً محيطاً لموقف رسل لا سيما وأنه يتفق تماماً مع الحكم بأن رسل مكان يأمل في أن يجمع بين منهج مل ومنهج لينتز - أي التجريبية والعقلية - لكي يكشف إطاراً للتألم داخله مكتشفات العلم.⁽¹²⁹⁾

- 1- ارنسٹ رسل برنارد رسل: سيرة حياته ترجمة راسموس هورن، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 1996، ص 17. وانلاحظ ان العنوان الأصلي لهذا الكتاب: *Bernard Russell the Perseus Script: A Biography*
- 2- Bertrand Russell, *The Essence of Matter*, in his, *The Problems of Philosophy* (1912), Oxford University Press, 1957 PP7 - 12.P 2.
- 3- Bertrand Russell, Introduction: On the value of Scepticism, in his, *Scriptural Essays*, George Allen and Unwin, London 1928. PP 11 - 25.P 12.
- 4- B. Russell, *Philosophical Doubts*, in his, *Outline of Philosophy* 1927, George Allen & Unwin 1932 P 1 - 19.
- 5- وما هنا يرى رسل بالتفصيل الصحيح ان تصورنا للعالم وطبيعته ابتدائية بلشأننا ان نبحث طبيعة (وغير مرمية) الدنيا مدعاة للشك العظيم الذي سيغطيها - من طريق الفلسفة العلمية - إلى تصور رسل للعالم.
- 6- د. محمد مبرور، فلسفة برنارد رسل، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1991، ط 2، 1987، ص 589 و 588.
- 7- Bertrand Russell, *My Philosophical Development*, George Allen & Unwin, London, 1928 3rd ed. 1968 p.34.
- 8- ارنسٹ رسل، برنارد رسل ترجمة راسموس هورن، ص 17.
- 9- B. Russell, *My Mental Development*, in: P. A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand Russell*, in the Library of Living Philosophers, Vol. 7, London, Chicago 1954 3rd ed 1954 p. 26.P 7.
- 10- B. Russell, *Logic And Knowledge*, George Allen & Unwin, London, 1956.P 323.
- 11- B. Russell, *My Philosophical Development*, PP 26-34.
- 12- Bertrand Russell, *The Autobiography*, Unwin Books, London, 1957.P 11.
- 13- William F. Allmon, Bertrand Russell, Epistemology And Metaphysics, in Paul Edwards (ed. in Chief) *The Encyclopedia of Philosophy* Macmillan Publishing New York, 1932 Vol. 7 PP 239-250. P 244.
- 14- Gilbert Ryle, Bertrand Russell: 1872-1970, in: George W. Proberts (ed.), Bertrand Russell: Memorial Volume, George Allen & Unwin, London, 1979, PP 13 - 21. P 13.
- 15- انظر مقال سي دي بورد العبد: *C.D. Broad, Some Personal Impressions of Russell as a Philosopher*, in: P. A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand Russell*, P.P 100 - 108.
- 16- وقد ألفتها مترجمة بعنوان: *Sense Remarks on Sense Perceptions*, PP 108 - 121.
- 17- G. Ryle, Bertrand Russell, p. 15.
- 18- برنارد رسل: العقل والذات، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، مراجعة د. زكي محمد محمود، مكتبة الكتب، القاهرة، 1988، ص 77.
- 19- *Postcards from Memory and Other Essays*، الكتاب: *Postcards from Memory and Other Essays*، هو فعلاً أحد قصور الكتاب.

- 16- B. Russell, *My Philosophical Development*, P.11
- 17- لذلك يؤكد تلك الباحثين في فلسفة رسل أمثال كلارك غورنر ومحمد مهران في واحدة من أشهر وأهم أعمال رسل كتابه *التفسير الصحيح للبالغ المتطور*.
- 18- Bertrand Russell, *Our Knowledge of External World*, (1914), George Allen & Unwin, London, 2nd edition, 1936
- 19- برتراند رسل، *العلم والعالم* ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 229.
- 20- B. Russell, *An Inquiry of Philosophy*, P. 247
- 21- برتراند رسل، *العلم والعالم* ص 229.
- 22- المرجع نفسه
- 23- B. Russell, *Some Replies to Criticism*, in his *My Philosophical Development*, Pp. 215 - 230,
- 24- وهذا ما كان رسل معنياً بالرد على نقد طريف الفلسفة التحليلية. مجلة *الكتاب الثاني*
- 25- J.O. Urmson, *Philosophical Analysis: Its Development between the Two world wars*, Clarendon Press, Oxford, 1956
- 26- A.J. Ayer, *The Central Question of Philosophy*, Penguin Books: 1971 - reprinted 1980, P.28,
- 27- Bertrand Russell, *Logical Positivism*, in his *Logic And Knowledge* (Essays 1918 - 1956), George Allen & Unwin LTD, London, 1956, PP. 261 - 323, P. 323-6
- 28- B. Russell, *My Philosophical Development*, P. 230
- 29- د. محمد مهران، *فلسفة برتراند رسل*، رسل، ص 14
- 30- B. Russell, *An Inquiry of Philosophy*, P. 250
- 31- B. Russell, *My Philosophical Development*, P. 254,
- 32- برتراند رسل، *العلم والعالم* ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 222.
- 33- D.J. O'Connor, *Russell's Theory of Perception*, in *Bertrand Russell Memorial Volume*, Pp. 304 - 326, P. 304 - 5.
- 34- أهل أهم أعمال رسل في هذا الصدد:
- 35- *My Mental Development* (٢٠) *فلسفي*، منشور في هامش (٢٠) *My Mental Development*
- 36- إذ صدر كغيره الأول في مجلد (فلسفة برتراند رسل) في إطار سلسلة الفلسفة الأحياء، التي بعدها بول أوتل شلوب
- 37- *My Philosophical Development* (٢١) *فلسفي*، راجع هامش (٢١) *My Philosophical Development*
- 38- وقد صدرت لهذا الكتاب ترجمة عربية لا بأس بها تحتوي فلسفي أوب تطوري ترجمة عبد الوهيد الصعدي، من احدى د. ركني نجيب محمود، مكتبة الأمل للتميز، القاهرة، ١٩٦٠. وقد حازت هذه الترجمة الجائزة الأخيرة من الكتاب (وذكر على الكتاب) مع أنه مهم.
- 39- هذا بخلاف السيرة الذاتية الموسومة هذا التي كتبها برتراند رسل راجع هامش (١٠) *Autobiography*
- 40- كتاب صادر عن دار المعارف في طبعته الأولى عام ١٩٢٦ وطبعته الثالثة عام ١٩٤٦، (مذكورة في هامش ٩) وهو في الأصل مأخوذ من رسالة الدكتوراه التي كتبها وأكمل من الكتاب الدكتور كنة أتمتدنا على هذا الأخير، وأكادها كثيرا بعدا فوق الثقافية. وهذه الدراسة بخلاف دراسات عربية عديدة شاولت رسل قد جمعت لمعاين

B. Russell, The Autobiography, P 143. -33

Ibid, P 148. -34

Gilbert Kyle, Bertrand Russell, p. 19-20. -37

برتراند رسل، أصول الرياضيات، الجزء الثالث، ترجمة د. محمد مرسى أحمد و د. أحمد طه الأماوي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 1، د. 1، ص 36، 40. -38

الرجوع السابق، ص 40، 47. -39

رسل، أصول الرياضيات، الجزء الأول، ص 77. -40

برتراند رسل، اعلام الامم والشمس الشرق، ترجمة طاهر إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص 98، 100. -41

د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 74، 79. -42

برتراند رسل، العقل والفلسفة، ص 77. -43

B. Russell, My Philosophical Development, P 102. -44

د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 78. -45

B. Russell, op. Cit., P.235,236. -46

برتراند رسل، العالم كما أراه، ترجمة د. مصطفى لوطي، كتاب الهلال، القاهرة، 1999، ص 96. -47

د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 79. -48

Bertrand Russell, Approaches And Essays, in 900 Theology of Philosophy, PP 1-6,P.2. -49

د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 79. -50

B. Russell, Problems of Philosophy, p.3. -71

Ibid, P 13. -72

Bertrand Russell, The Ultimate Constraints of Matter, in his: Mysticism And Logic (1918). -73

Pragmat Books, London, 1953. PP 120-130 P. 123. -74

B. Russell, The Relation of Sense - Data to Physics, in his: Mysticism And Logic, PP 136- 170. -75

P 142. -76

B. Russell, Knowledge by Acquaintance And Knowledge by Description, in his: Problems of -77

Philosophy, PP 25 - 32. -78

B. Russell, The Relation of Sense - Data to Physics, P.143. -79

د. صلاح محمود عثمان، الاتصال والثنائي بين العلم والفلسفة، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1998، ص 1. -80

Bertrand Russell, Human Knowledge: Its Scope and Limits, George Allen & Unwin, London -81

1948,P 309-310. -82

Bertrand Russell, An Outline of Philosophy, P 250. -83

B. Russell, The Analysis of Matter (1927), George Allen & Unwin, London, 1954. P.314. -84

B. Russell, Human Knowledge, P.320. -85

William P. Alston, Bertrand Russell, P.240. -86

د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 79. -87

- 84- C.A. Price, *Bertrand Russell's Construction of External world*, P.9-10
وقد قيل بطل هذا في مقاله البالغ الأهمية «النزعة المطلقة».
- Bertrand Russell, *Logical Atomism*, in his, *Logic And Knowledge*, George Allen & Unwin,
London, 1918, PP 321-343 P.326-332.
- 85- W. P. Alston, *Bertrand Russell*, P.240
- 86- Bertrand Russell, *The Analysis of Matter* (1927), George Allen Unwin, London, 1954 P.383
- 87- د. محمد مهزبان، فلسفة برتراند رسل، ص 87.
- 88- B. Russell, *Logic And Knowledge*, P. 328 - 329
- 89- B. Russell, *Behaviorism and Values*, in his, *Seppitral Essays*, PP 89-96 P.89
- 90- كتاب الوصفيين الناطقة من أنصار انحدار المنطق البراني. أي رد. علم النفس إلى الصيغيات مما يعني رد
الظواهر العقلية إلى الظواهر الحسية، وهذه واحدة صادية صريحة، صريح رسل دائما على نفسها ورفض
المنطق البراني في العلوم مؤكدا أن ثمة معاللات هي علم النفس لا تدخل في إطار القوانين العقلية،
إن قانون نفس الظواهر ذات الوصفية الحسية هو واحد يشاري فكر الوصفيين المنطقي هيربرت هيجل يقول
أن يشك أن واحدة شياء القرب في حيزها إلى رسل. انظر
- Herbert Feigl, *Russell And Schlick: A Remarkable Agreement on A Monistic Solution of the
Mind - Body Problem*, in *Bertrand Russell Memorial Volume*, PP 321-338.
- 91- *Monistic Solution*, *Seppitral Essays*, P.77.
- 92- *Ibid*, P. 68.
- 93- د. محمد مهزبان، فلسفة برتراند رسل، ص 97
- 94- هيربرت شليشر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة د. محمد قلبي الشبلي، مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، 1971، ص 779.
- 95- Bertrand Russell, *Philosophy of Twentieth Century*, in his, *Seppitral Essays*, P. 59 et Seq
- 96- Karl Popper, *Conjectures And Refutations, The Growth of Scientific Knowledge*, Routledge &
Kegan Paul, London, 1976, P. 31-36
- ولقد عثر القاصي، قاري، يسمى طريق العوالي، فلسفة كارل بوبر، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة، 1988،
ص 37 وما بعدها
- 97- آكل بوب، حياة برتراند رسل، ص 147.
- 98- Lester K. Born, *From Introduction to the new edition of the Analysis of Matter*
- 99- د. محمد مهزبان، فلسفة برتراند رسل، ص 77.
- 100- B. Russell, *the Analysis of Matter*, P. 382, 383
- 101- برتراند رسل، الطب ياء التسمية، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة د. محمد موسى أحمد، مركز كتب الشرق
الأوسط، القاهرة، 1977، ص 177.
- 102- برتراند رسل، العقل والحادث، ترجمة أحمد إبراهيم الشريفة، ص 707.
- 103- المرجع نفسه، وأجدا
- Bertrand Russell, *Analysis of Matter*, P.385

- 104- Bertrand Russell, *The Analysis of Matter*, George Allen & Unwin, London, 1927, P. 387.
والفصل الأخير من هذا العمل المصنف
Characteristics of Mental Phenomena, P.P. 282-308.
تكوني الفصل هذا. وهو المظهر لفصل الكتاب والمفهوم.
-105- برتراند رسل، العقل والواقع، ص 204.
-106- المرجع السابق، ص 204.
-107- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P. 384.
-108- وقارن: د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 177.
-109- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P. 38.
-110- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 76.
-111- المرجع السابق، ص 117.
-112- B. Russell, *My Philosophical Development*, P.234.
-113- Ibid, P. 16.
-114- برتراند رسل، العقل والواقع، ص 2.
-115- المرجع السابق، ص 204.
-116- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P.387.
-117- د. زكي نجيب محمود، العقل والواقع، فلسفة برتراند رسل، ص 177.
-118- Bertrand Russell, *An Inquiry into Meaning and Truth*, George Allen & Unwin, New York, 1940, P.143.
والمفهوم صمدت لهذا الكتاب ترجمة عربية بعنوان: "في مدح العقل ومشكلاته"، ترجمة ومبسطة
عن: الفيلسوف الشهير البروفيسور ج. إ. راسل، الطبعة الأولى 1996.
-119- د. محمد محمد سليم، برتراند رسل، الاستقراء، ومفاهيم البحث العلمي، دار المعرفة الجامعية،
الاسكندرية، 1997، ص 117.
-120- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 93.
-121- Bertrand Russell, *Mysticism, as her Problems of Philosophy*, PP. 19-24.
-122- Ibid, P. 18.
-123- المجموع الفلسفي، جميع اللغة العربية، القاهرة، 1996، ص 176.
-124- المرجع السابق، ص 76.
-125- د. محمد مهران، سلسلة محاضرات "الفيزياء الطبيعية"، التي ألقيت على طلبة الجامعة في العام الدراسي
1997، 1998.
-126- Joseph Margolis, *Science Without Unity*, Basil Blackwell, Oxford, 1992, P. 17.
-127- جريس هيرش، العلوم في الفيزياء المعاصرة، ترجمة د. فهد السمان، دار طلائع، دمشق، 1996، ص 74.
وقارن من التفاصيل: د. ومنى طربط الحولي، مشكلة العلوم الإنسانية، دار الثقافة، القاهرة، ط 2، 1996،
ص 137 وما بعدها.
-128- G. Ryle, Bertrand Russell, P. 17-18.
-129- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 93.

1. Russell, Bertrand, *The Analysis of Matter*, (1927), George Allen & unwin, London, 1954
2., *The Analysis of Mind*, (1918), George Allen & unwin, London, 1934
3., *The Autobiography*, (1967-1991), unwin Books, London, 1973
4., *Human Knowledge Its Scope And Limits*, George Allen & unwin, London, 1948,
5., *Sight And Knowledge*, George Allen & unwin, London, 1950
6., *In Praise of Idiocy*, W. Norton & co New York, 1915.
7., *My Mental Development* in P.A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand*
8. Russell Vol 4 of *The Library of Living philosophers*, Evanston, Illinois, 1944, 2nd edition, 1946.
9., *My Philosophical Development*, (1959) George Allen & unwin, London, 1969
10., *Principles And Logic* (1918), Pelicans Books, London, 1953
11., *Our Knowledge of External World*, (1918), George Allen & unwin, London, 2nd edition, 1936
12., *problems of Philosophy*, (1912), Oxford university Press, 1973
13., *Scriptural Essays*, George Allen & unwin, London 1920
14., *An Outline of Philosophy*, (1927), George Allen & unwin, London, 1932.
15. مؤلفات رسل، الأصول الفيلسوفيات، ترجمة د. محمد مصطفى أحمد، د. أحمد طه الأزهري، دار المعارف، القاهرة 1954.
16., *الفلسفة العامة للكتاب الثالث الفلسفة الجديدة*، ترجمة د. محمد مصطفى الشاذلي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1997.
17., *الفلسفة العامة للكتاب الرابع*، ترجمة أحمد إبراهيم الشريم، مراجعة د. دكي نجيب محمود، مكتبة الشبيبة، القاهرة 1988.
18., *المعالم كما أراد، ترجمة د. مصطفى طه، كتاب الهلال، القاهرة 1997.*
19., *أعمال الإعلام والفلسف أخرى*، ترجمة شاذلي إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1987
20. Alston, William F., Bernard Russell, *Epistemology And Metaphysics*, in Paul Edwards (ed) in *chief*, *The Encyclopedia of philosophy*, Macmillan Publishing, New York, 1972, Vol. 7, Pp.215-258.
21. Brink, C. B, *Some Personal Impressions of Russell as a Philosopher*, Pp. 100-108 & *Some Remarks on Some Perceptions*, Pp. 109-121 in P.A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand Russell*
22. Feigl, C. A., *Bernard Russell's Construction of External World*, Routledge & Kegan Paul, London, 1953
23. Feigl, Herbert, *Russell And Schlick, Assurmountable Agreement on A Material Solution of The Mind Body problem*, in George W. Roberts (ed.), *Bernard Russell's Memorial Volume*, George Allen & unwin, London, 1979 Pp. 323-338

- O'Connor, D.J., Russell's Theory of Perceptions, in: *Bertrand Russell's Memorial Volume*,
Pp 304-320. -24
- Ryle, Gilbert, Bertrand Russell: 1872-1970, in: *Bertrand Russell's Memorial Volume*, Pp 15-21. -25
- Schlesinger, Ralph, *Bertrand Russell Philosopher of The Century*, George Allen & unwin,
London, 1962. -26
- Spiegel, T., Russell and Bradley on Religion, in: *Bertrand Russell's Memorial Volume*, Pp 130-135. -27
- الزكي، دود، برتراند رسل: مسيرة حياته، ترجمة د. زهير عيسى عوض، الشروق للنشر، القاهرة، المجلس الأعلى
للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨. -28
- د. زكي نجيب محمود، برتراند رسل، سلسلة تاريخ الفكر العربي، دار المعارف، القاهرة، د. د. -29
- د. محمد محمد قاسم، برتراند رسل: الاستشراف ومضاميراته البحث العلمي، دار المعرفة العلمية،
الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٤١٢. -30
- د. محمد هوران، الفلسفة برتراند رسل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦، الطبعة ١٩٨٦. -31
- روبالده ميشال، الفلسفة الانجليزية في حالة رسل، دار المعرفة د. فؤاد زكريا، مراجعة د. زكي نجيب محمود،
الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢. -32
- هيرلر هيرشبرج، الطبيعة هي الصورة، *المعاصرة، ترجمة د. إدريس السبيل*، دار طلائع، دمشق، ١٩٨٦. -33
- هيرلر شيفر، تاريخ الفلسفة الأوروبية، ترجمة د. محمد عيسى الشبلي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤. -34
- هيرلر لويفر، المسار الهندسي، ترجمة البركاتي شامي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٨. -35
- د. صلاح محمود، عشاق الاتصال والاتصال بين العلم والفلسفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٨. -36
- د. دهن طريفه الدوالي، فلسفة كارل بوبر، صبح العلم، نشر الدار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩. -37
- مشكلة العلوم الإنسانية: كونيولوجيا وإيديولوجية، دار الثقافة للنشر والتوزيع،
القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦. -38
- الزمان في الفلسفة والفكر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩. -39

البلاغة ومقولة الجنس الأدبي

د. محمد مشبال*

توطئة

تسعى هذه الدراسة إلى الاستدلال بطريقة
فكرية وكيفية على أن البلاغة العربية -
تحديداً - وإن لم تكن مفهوماً لها في إطار نظرية
الأجناس الأدبية، كما نضجها في الثقافة
التفكيرية الحديثة فإنها امتثلت في بناء جهازها
وتنوع قواعدها وممارستها صقلها الجنس الأدبي
نموذجاً متعال تمثل في الشعر الذي يلتقي في
تكوينه الأسلوب مع أجناس أدبية أخرى
كالمطالعة والتوسل الذين شكلا إلى جانب
موضوع البلاغة. بينما ظلت الأجناس الأدبية
للغاية لها أسلوبها على غاشي الجنس البلاغي.

لعل النظر إلى البلاغة العربية من هذا الزاوية، الذي يأخذ في الاعتبار جميع الأجناس
الأدبية التي ابتدعها الإنسان العربي بما فيها الأجناس السردية من دون مفاضلة، أن يقدم
للبحث تفسيراً جديداً لطريقة البلاغة العربية ويضع أطرافاً جديدة للبحث البلاغي المعاصر.

الجنس الأدبي وجاليات اللغة

لا تستعمل اللغة جالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها
أصواتاً وتركيباً ومجازات ذات طاقّة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من

علاقتها بالجنس الأدبي الذي نؤمن له هي صوغ أبنائها - إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة

في أفق جمالي جديد، حيث يمدح المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها وقول ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت، على هذا النحو تتحدد جمالية اللغة واسلوبيتها ووظائفها التصويرية في سياق جنس أدبي محدد، وكان طلاقة اللغة في التأثير تكمن في الجنس الأدبي نفسه، باعتباره أداة فنية متميزة تناقل بها توصيل رسالة إنسانية.

إن للجنس الأدبي جمالية نابعة من تقاليده الخاصة في التعبير، وهذه التقاليد هي مكوناته الفنية الثابتة التي تعرض نفسها على أي مبدع مهما كانت أصالته في الخلق الفني، كما أنها تعرض نفسها على القارئ في معارسته النقدية والتأويلية، وبذلك يصبح الجنس الأدبي معياراً يوجه الإبداع والنقد معاً، ولأجل هذا فإن ما نسميه بجماليات اللغة ينطوي، على ضرب من الإطلاق يتسع به مدلول «الجمالية» ليشمل أي استخدام في لغة بصرف النظر عن طبيعة جنس الخطاب الذي ينتمي إليه، وغرضنا هنا إثبات أن ما ندعوه بجماليات اللغة، وإن كان يحمل حمرا من السمات الفنية المطلقة غير المقيدة بشروط الجنس الأدبي ومقتضياته، فإنه لا يمكنه أن يظل مفهوماً مطلقاً، إلا يؤكد واقع الإبداع اللغوي أن الممارسة الجمالية اللغوية لا تنفصل عن إطارها الفني الذي يرسم لها حدودها ويحدد لها سننها.

إن الإبداع اللغوي وإن كان خاصية كائنية هي اللغة ذاتها، يوسطها طلاقة من الإمكانيات المحتملة التي يضطلع بها الإبداع باستحضار إمعة، فإن لم يكن له تحقيق إلا عبر وسيط جمالي استقرت أعراقه وتقررت تقاليده، هذا الوسيط هو الجنس الأدبي الذي يقوم في الوعي النقدي باعتباره أداة مثالية اجتماعية تدمن لها اللغة في تشكيلاتها ووظائفها الجمالية، وليس في هذا أي تنكر لدور المبدع في التشكيل اللغوي، وإن تم تأكيد سلطان التقاليد الجمالية الموروثة في توجيه المبدع وصياغة اللغة، وعلى هذا النحو تدب اللغة في تكوين جمالياتها ليعاد الجنس الأدبي، باعتباره سلطة ذات مكونات فنية تتحكم في بنية اللغة ووظيفتها.

وبناء على ما سبق ذكره يظهر أن اللغة نجلوات جمالية، وإن ما يصطلح عليه اليوم بـ «الأدباء» ينبغي ألا يطمس الفروق التعبيرية بين مختلف الأجناس الأدبية، فعلى الرغم من اشتراكها في صفات توحد بينها، فإن الاختلاف بينها يظل «جوهرية» من دونه لتحقيق تلك الأجناس في أداء رسالتها الإنسانية التي تشترك فيها جميعاً بتواضع الأداء اللغوي الخاصة بكل منها¹⁷.

إن الإقرار باختلاف الأداء التعبيرية بين الأجناس الأدبية هو اعتراف بأهمية كل واحد منها في الوجود والتعبير عن الإنسان بطريقه الفنية وتصوير حالته الفياضية باعتباره كائناً تنوزعه أغراض وشروط تتجسد في هذا الاختلاف القائم بين وسائل التعبير في الأجناس الأدبية، ولأنك أنه قد يحدث لأداء تعبيرية في جنس أدبي معين أن تتجاوز نطاق جنسها لتعبر وسيلة من وسائل التعبير في جنس أدبي آخر، غير أنه ينبغي لها أن تخضع في

البلاغة ومكونات النص الأدبي

الحصول النهائية لشروط بنائها الجديد، وهذا هو الذي يفسر لنا لماذا لا يفرضي تقابل الأجناس الأدبية إلى محور العبور القاصلة بينها مائتاً.

وهي هذا النحو لتعبر مواصفة الأسلوب لسياقه الجنسي معياراً جمالياً تتفوق به التشكيلات الفنية المختلفة لغة. فالصور الشعرية على سبيل المثال لا قيمة لها من حيث طاقاتها الشعرية في جنس أدبي مثل المسرح. وإنما تتجلى قيمتها في مواضعها للمكونات المسرحية، أي حلقها من الطاقة الدرامية⁽⁷⁾. كما أن أنواع النجار البلاغي التي تصطلح بوظيفتها التأثرية في الشعر لا تفقد كذلك في جنس الرواية (إلا إذا اندمجت في البنية الكلية للعمل الروائي باعتباره سياقاً أدبياً ذا مكونات سردية أصلاً⁽⁸⁾).

إن مبدأ ارتباط اللغة بسياقها التعبيري فكرة لم يقدمها موروثا البلاغي والنقدي. غير أنه يصعب القول إنها من أصوله التي كان لها تأثير في طبيعة نظرية لغة الأبيات. ذلك أن معظم الباحثين المعاصرين⁽⁹⁾ يؤكدون أن التصور العربي القديم للأدب لم ينجس على مقولة الأجناس، وإنما قام على تصنيف ثنائي تمثل في التمييز الكبيرين: الشعر والنثر. ولا تكاد نجد بعد ذلك أي حديث عن علاقة الأسلوب بالأجناس الأدبية شعرية كانت أم نثرية. إلا ما اتفق لنا العثور عليه من ملاحظات يسيرة ومتفرقة لا تشكل قاعدة من قواعد تفكيرهم النقدي أو الجمالي. ومع ذلك فهذا ينبغي ألا يحول دون العظم التي التفكر البلاغي الموروث باعتباره حصيلة ثمل طويل وعريق في أساليب الشعر. ليسرنا القول عن أنواعه وعن أنه لم يكن للنثر بتأويله المختلفة التي عرفت في أدبنا القديم أمثال المقامة والخطبة والتمثيلية والخرافة والرسالة وغيرها أي تأثير فيه. وهذا إن أعاد غياب مقولة الأجناس عن تفكيرنا القديم. فإنه من جهة أخرى يفيد البسطة التي يتضح بها جنس الشعر في هذا التفكير. الذي ظل منذ بداياته الأولى يتحرك في نطاق جمالياته الأسرى دون أن يعني ذلك - بالطبع - أنه كان يمتدح أنواعه المختلفة كالقصصيات والطرديات واللوحات وغيرها، فقد ظلت هذه الأنواع على هامش القصيدة التي كانت قد استبدت بالنقد الأدبي. ووجهت طرقه وأسس مفاهيمه. ولأجل ذلك أمكننا القول إن التراث البلاغي والنقدي مبين، هي صياغته لتطلعه ومبادئه، لحسن أدبي عام هو الشعر. الذي كان يساوي عندهم القصيدة بأغراضها المعروفة التي لا تذكر أنها كانت تمثل بالنسبة إليهم أنواعاً داخل إطار القصيدة، وهو ما جعلهم في مناسبات كثيرة على إجراء روابط بينها وبين الأساليب التي يختارها الشاعر. وإن لم يفعلوا ذلك فيما يتعلق بالأنواع الشعرية التي انصرفت في شكلها عن بناء القصيدة. وهذا ما يؤكد سلطان الشعر بمفهومه العام على طائفتي البلاغي والنقدي القديم.

ولكن ماذا نقصد بالشعر. الذي نعترض سيطرته على الخطاب النقدي والبلاغي. هل هو النص الثنائي الذي تشكل النصوص الحلقية بالنسبة إليه مشتقات قد تتطابق معه كلياً أو

قيل؟ هل هو الجوهر المثالي الخفي والبنية الكلية، كما تدّعي إلى ذلك النظريات الأنطولوجية التي تعتبر «الجنس» عنصرًا خارجيًا متفانيًا عما يجعل منه مفهومًا تصنيفيًا بالفرجة الأولى ليس همه تقصي البعد الدينامي للمكون التجنيسي»¹²

يقترح شافير Schaeffer¹³ مفهومًا جديدًا يحاول به الإجابة عن سؤال حول ما هو الجنس؟ الذي أثير في الدراسات الفلسفية، حيث أصبح إشكالا أنطولوجيا لا صلة له بنظرية الأدب، ومادامت صيغ الأجوبة المقدمة في هذا الإطار غير مقلعة، فقد عمل «شافير» على اقتراح صيغته المستمدة من الأحداث الإنشائية المرتبطة مباشرة بالحقل الأدبي. وهكذا قدم تعريفًا نفسيًا خالصًا معبرًا بالتجنيس génésique ما مكونا فاعلا في النص يمكن التفلّذ إليه. يقول في هذا الصدد: «يشترن في نظرية الأجناس، بكل بساطة، أن تعني مجموعة من التشابهات التسمية والشكلية وخصوصا الموضوعالية. والحل أنه يمكن تفسير هذه التشابهات على نحو تام بنسبته التجنيس باعتباره مكونا نفسيًا، أعني العلاقات ذات الخاصية التجنيسية، باعتبارها مجموعة من أشكال إعادة استثمار (تكاثر تكون تحويلية) لهذا المكون النصي نفسه. فكلّ كان الأدب بعد تحليلها مؤسسة، فإن التجنيس يمكن فهمه تماما كما لو أنه لعبة من التكرارات والتحاكاة والاقتباس... إلخ. إنه النص في ارتباطه بنس آخر أو بنصوص أخرى»¹⁴.

وبناء على هذا فإن جنس الشئ هو شبكة من التشابهات الموجودة بين مجموعة من النصوص الشعرية، وهذه التشابهات لا شيء أن النص تجربة تكرار للنموذج التجنيسي الذي تكونه طبقة من النصوص، التي يفترض أنها سابقة في الوجود، بل إن هذا النموذج يصير مادة من المواد التي يستلهمها النص، فالتجنيس مكون دينامي¹⁵ يقوم على نظامي التكرار والتحويل، وهذا ما يجعله ذا بعد زمني وتاريخي. ولعل هذا ما دفع «شافير» إلى استخدام مصطلح «التجنيس» بدل «الجنس» الذي اعتبره معياريا وغير قادر على استيعاب المقومات التجنيسية المحددة التي تخضع في النصوص الأدبية المعقدة.

إن النظر إلى الشعر بوصفه جملة من الثوابت والتغيرات، أو المكونات والسمات التسمية المتشعبة، بنأي بمفهوم الجنس الأدبي عن مثاليته أو عن معياريته، ويجعله مكونا نفسيًا ديناميا خاضعا لتحويل المستمر. يقول غاوينسكي Glawinski في هذا الصدد: «لا يوجد جنس أدبي يقول إلى ما يمثل مجال عناصره الضرورية فقط، فهو لا يلحد إذن ثوابته وحدها، إنه يمتلك حقلا هائلا من الإمكانيات الشوعة والمتغيرة والمتعارضة أحيانا»¹⁶.

ومع ذلك، فالقول بمعاينة الشعر لا يتناقض مع التغيرات الهائلة التي خضع لها هذا الجنس من التعبير الأدبي، ذلك أن «الشيء» أعني ماهيته الثابتة، لا يعرف إلا من خلال تغيراته، كما أكد «كارل بوبر» «طالما هي بمعنى ما، هي أيضا تتغير وتطور، وبذلك تتغير التاريخ... فالماهية يمكن تفسيرها بأنها مجموع أو مصدر الإمكانيات القائمة في الشيء» كما يمكن

أليات ومكونات النص الأدبي

تفسير التغيرات (أو التحركات) بأنها تحقق الإمكانيات الكامنة في الماهية أو خروج هذه الإمكانيات إلى الفعل⁽¹⁾.

على هذا النحو يمكننا القول إن للشعر طبيعة ثابتة، يتأثر لنا تعريفها بواسطة تحولاتها الضمني. فتراكم التصور الشعرية المختلفة هو الذي يجعل القبيض على هذه الماهية أمراً ممكناً. وهذا لا يعني أن للشعر مفهوماً ثابتاً لا يتغير عبر التاريخ. فلو افترضنا أن هذا المفهوم غير مستقر مما يتعذر معه وضع تعريف يحدده، وهو ما حمل جاكوبسون Jakobson على تعويض مفهوم الشعر بالوظيفة الشعرية باعتبارها مكوناً نسبياً قابلاً للتعدد⁽²⁾.

ومن الواضح أن ما اصطاح عليه جاكوبسون، بالشاعرية poétique أو الوظيفة الشعرية هو مكون ثابت أراد به تحديد لغة الشعر، أو بتعبير آخر، إنه معيار لتجنيس الشعر. وبجملته القول، لا يقدم الباحث في التفكير الأدبي الإنساني حول الشعر، وجود مكونات ومعايير ثابتة تحدد طبيعته. وإذا كان هذا من النقط التي سنلتحق إليها بتفصيل، فحسبنا الآن تأكيد أن المقصود بـ «جنس الشعر» الذي تصور أن البلاغة العربية تدور له في صياغة أصولها، هو جملة من الثوابت الأسلوبية والجمالية التي تجلت عبر تراكم تصور الشعر باختلاف أنماطها وأشكالها، وسواء اصطالحنا عليها بالشاعرية أو **التجنيس الشعري**، أو غيرهما فإن الغاية واحدة وهي المضي إلى إثبات أن **النظم صيغة يحكم نوعها أو أمثلتها** فكما أن للأجناس الأدبية الأخرى هذه الماهية التي لا تتغير، كما أسلفنا، مع التحولات التي تطبع لها.

١- النظم الأدبي والاختيار الأسطوي

لأنه إن تحديد «الأسلوب» يعد من أبرز قضايا الأسلوبية المعاصرة⁽³⁾، حيث خدمت في هذا الشأن جملة من الصيغ النظرية لكتابة سعياً لضبط هذا المفهوم، الذي أصبح موضوع هذا العلم الباحث، الذي نشأ في حوض اللسانيات، وإن كانت حضوره في البلاغة القديمة، ولا يقدم الباحث في تراث البلاغة العربي أفكاراً صالحة لأن تكون مبدئاً أو أساساً للتفكير أسلوبياً عربي.

وإذا كانت مسألة تحديد الأسلوب لا تعطينا هنا بشكل مباشر، فلا شك أن في تأمل بعض الصيغ النظرية المقترحة لضبط هذا المفهوم ما قد يفتح لنا الطريق لتبين علاقة الجنس الأدبي بالأسلوب أو اللغة بشكل عام.

وربما كان تحديد الأسلوب باعتباره «اختياراً» من بين إمكانيات عدة أو بدائل كثيرة متاحة للبداع، يمثل إحدى أبرز الخصائص لصيغة ماهية الأسلوب الأدبي ضيقاً يقوم على مراعاة البكون التنظيمي، ذلك أن مفهوم الاختيار الذي يفيد اتساع مجال الحرية أمام المبدع في إنشاء الكلام، يفيد من جهة أخرى مجال القيود المفروضة عليه. فالأسلوب هو حصيلة تفاعل المبدع

مع مجالي الحرية والتقييد، فبمقدور ما يكون حراً في الاختيار، تخضع هذه الحرية لمجموعة من الأعراف والتقاليد الأدبية التي يقوم بها الجنس الذي اختار الكتابة في إطاره. وينبغي ألا يفيد هذا أن مفهوم «الجنس» قد يشد إليه الإبداع ويعتقه من حرية الحركة، ولكن ما نتوخى إثباته هنا أن مفهوم «الاختيار» ليس مطلقاً، فالكتاب الذي اختار أن ينشئ أسلوباً ذا مواصفات معينة، هو خاضع بالضرورة لتوجيهات «الجنس الأدبي» الذي اختاره قبل ذلك، وهكذا يكون اختيار الأسلوب عملية تعقب اختيار جنس الكتابة، إذ تصبح خصائص هذا الأخير وسيطاً يعطي على التبدع اختياريه الأسلوبية، وذلك أن الجنس الأدبي بأعرافه وتقاليدته يمتلك وجوداً سابقاً على التبدع والنص المبدع - وبدهي أن يكون له حضور يشكل من الأشكال في الإبداع الأدبي أو الاختيار الأسلوبية.

«إن مفهوم الأجناس حاضر في مختلف التصور على سبيل الإبداع»¹¹، أي أن الجنس الأدبي يشكل «مؤسسة»¹² ذات قوانين بإمكان القراء أن يتوصل بها في التعبير عن نفسه. كما أن بإمكانه أيضاً الاتحاض بهذه المؤسسة ثم إعادة تشكيلها بعد ذلك. وهذا يعني أن الجنس الأدبي يساهم في تشكيل النص، ولا يخلق كاتب في الإفلات من سلالته مهما بلغت درجة ولعبته في التجديد، والحق أن الأجناس الأدبية لها طابع عام وأسس ثابتة بها يتوحد كل جنس أدبي في ذاته ويتميز عما سواه، بحيث يفرض كل جنس أدبي نفسه بهذه الخصائص على كل كاتب يعالج فيه موضوعه مهما كانت أساليبه، ولا يستثنى في الإضافة بهذه الخصائص الفنية كاتب ولا ناقد من الشفاء»¹³.

إن القول بحضور الجنس الأدبي في تشكيل النص لا يعني إلغاء فريدة هذا النص ولعمريه أو دهن الإبداع بمواصفات مقرونة وقواعد جاهزة. وإن كان شيء من هذا يسارخ إليه الفهم ويضع عليه الخطأ الأول وهله، بل إنه يعني أن الإبداع الأدبي لا يتم إلا بالاستئصال لأسسول الجنس الذي يبدع الكاتب في إطاره. وينبغي أن يكون هذا الاستئصال جزئياً¹⁴، حيث إن الكاتب الجديد يسعى دائماً إلى إثبات أصالته - بالتصوير المطبقة تعمل في الواقع على مضاعفة¹⁵ مكونات الجنس الأدبي الذي تتفاعل معه، وهو ما يبدو خروجاً أو انتهاكاً للمعايير التي يفرضها الجنس، ولعل هذا ما حمل صاحبه «نظرية الأدب» على أن يقول إن «الكتاب العظيم - جملة وتفصيلاً - قلما يكون معدني أنواع جديدة»¹⁶، فهم يمتنعون بلا شك الصناعات الأسلوبية، التي تمثل جوهر الجنس الأدبي، ويدركون طاقاته قبل إقداسهم على اقتراح مقومات أسلوبية جديدة يتطور بها الجنس الأدبي نفسه. وعلى هذا النحو يصبح مفهوم الجنس دينامياً ومكوناً نصياً، كما عبر عن ذلك «شليسر».

وبعد القول بمعمار الجنس الأدبي في تشكيل اللغة إقراراً بتعدد الأساليب، إذ يصبح لكل جنس أدبي أسلوبه البنائي الخاص به. وقد عبر «أحمد الشايب» عن هذه الفكرة الفلسفية

الأسلوب ومعناه في الأدب

يقوله: «هالو موضوع هو السبب الأول الذي يقوم عليه اختلاف الأساليب، ويراد بالموضوع الفن الذي يختاره الكاتب ليعبر به عما هي نفسه، علما أو أدبا، نعلما أو نثرا، مقالة أو قصة أو رسالة أو خطابة... فكل فن منها أسلوبه الخاص الذي يلائم طبيعته»^(١).

والحق أن الربط بين الأسلوب والجنس الأدبي يمثل مجالا من مجالات الدرس الأسلوبي المعاصر، حيث تتجاوز الأسلوبية الأدبية دراسة كاتب أو عمل مفرد أو الخصائص المميزة لمجموعة من الكتاب والحفية معينة، إلى دراسة أسلوب جنس ما، أي ما اصطلح عليه ستيفن ارلمان Stephen Ullmann بـ «أسلوبية الجنس». ذلك أنه في دراسته للأسلوب في الرواية الفنية الحديثة، سعی لتوجيه العناية إلى ما أسماه بثوابت اللغة الروائية، أي تلك المشكلات الأسلوبية والطائفات المتعلقة الكامنة في الجنس نفسه^(٢).

ولعل فكرة «أسلوبية الجنس» أن تؤل في الأصل إلى ميخائيل باختين Michael Bakhtin الذي عمل في كتاباته على ربط الدراسة الأسلوبية بمعيار الجنس الأدبي، حيث استطاع أن يخلص مفهوم الأسلوب من بعده الجمالي المطلق، وأن يعديه خارج الحقل الشعري الذي سيطر على اهتمامات الأسلوبيين، وبذلك قدم مفهوما جديدا للأسلوب يابها من تعويض دقيق ومعالجة كاشفة لجنس الرواية. إنه يؤكد «أسلوبية الجنس الأدبي»، ويرى أن «فصل الأسلوب واللغة عن الجنس الأدبي أدى إلى هندسيتين من نوعيهما الدراسة على الفروق الأسلوبية وحدها في الشام الأول. سواء ما حصل منها باعتراف شعري أو بإتجاهات معينة، بينما تم تجاهل الطابع الأساسي الاجتماعي للأسلوب، فصحت المصائر المصهورة للتجهرات الأسلوبية المتصلة بفئاتين معينين وإتجاهات معينة، المصائر التاريخية الكبرى للكلمة الفنية المتصلة بمصائر الجنس الأدبي»^(٣).

إن ربط الأسلوب بقوله «الأجناس» على نحو ما أسفر عنه تحليل «باختين» للرواية، ساهم في تقديم مفهوم جديد للأسلوب تجاوز به الأبعاد الجمالية المقلدة التي اكتسبها في إطار الأسلوبية التقليدية المرتبطة أساسا بالشعر. ووضح أن المقصود هنا بالأسلوبية التقليدية تلك التي أرسى قواعدها على التطور اللساني الوثائق الصلة بدراسة الجملة، وهو ما رشحها لتكون علما خاصا بالشعر دون غيره من الأجناس الأدبية، وهذا لا يضي بالطبع أن الأسلوبيات اللسانية تعمل ممعا من التفكير النابع من صميم الجنس الشعري، ولكن ما اقصده هو أن طبيعة الشعر النوعية شكلت حفلا مائلا نحو هذا العلم الذي بدأ مرتبطا بنفسه الخصائص الأسلوبية لغة الطبيعة»^(٤). بينما كانت الأجناس الأدبية التي تختلف أساليبها عن الشعر محالا بعيدا عن النظر الأسلوبي بمفهومه الدقيق، فإذا شئنا أن نقسم مكافا ما للأجناس الشعرية في خريطة الدراسات الأدبية المعاصرة، فمن المؤكد أن الأسلوبيات اللسانية ليست المكان المثلى.

ولعل شيئاً شبيهاً بهذا قد حصل للتفكير البلاغي العربي القديم، الذي بدأ مرتبطاً بجماليات اللغة العربية، كشفاً عن خصائصها التعبيرية والفنية. فهذه اللغة، التي قال عنها ابن جني إنها «أصوات يجر بها كل قوم عن أغراضهم»⁽¹⁾، تتجول وتطيرها التواصلية الشعرية إلى وظائف جمالية. وفي التفكير البلاغي الحديث يتلمها يشهد كبير. لم يلبث أن تعمق من «أرباب» أو عباحة مهمة تمثل حصة استقصاء دقيق لجماليات هذه اللغة التي وصلت بالحكمة والإتقان. والحق أن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالته النشوء، حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاملاً على أساليب العرب. فهو النموذج الأمثل الذي يستمد منه العالم الحجة لإثبات خصائص العربية في التعبير الجمالي. وهكذا تحولت بلاغة الشعر إلى سند يترافع إليه علماء اللغة والبلاغة للدفاع قارة عن حكمة العربية وثلة من إحصاء القرن. فهل يصدق أن تقول إن البلاغة العربية تدور في صياغة أصولها الجنس الشعر؟

إذا انطلقنا من أن الشعر ماهية ثابتة هي حقيقة وجوده بوصفه جنساً أدبياً متميزاً بأسلوبه عن الأجناس الأخرى. حيث يقوم بناءً على استثمار الإمكانيات الجمالية لمستويات اللغة الصوتية والنحوية والدالية، فإننا سنعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي صدرت عنه معظم أصول البلاغة وسماتها. وشعر بنا الإشارة إلى أن الروابط التي يمكن إيجادها بين الشعر والبلاغة هي ثرائها، لا تتجول مواءم التفكير المنطوق المنظم في بلاغة الجنس الأدبي أو أسلوبه. بل هي تلك الروابط التي يمس القارئ للمعبر إلى إعادة صياغتها وفق ما تفرته له المادة البلاغية للورثة من إمكانيات التشابه والتلاقي بينها وبين الأفكار الأسلوبية الرائعة.

إن وصفنا الشعر بأنه يشكل الجنس الأدبي الأكثر حصوراً في صياغة أصول البلاغة العربية ومفهوماتها، لا يعني حضور أجناس الخطاب الأخرى. ولكنه حضور يتم بواسطة الأسلوب الشعري الذي امتد إلى الخطابة والرسالة والمقامة وغيرها من الأجناس ولم يتحصر في التصيدة فقط.

ولا شك أن هناك اختلافاً واضحاً بين قولنا إن البلاغة العربية مدينة هي أصولها الشعر وبين وصفنا لها بأنها بلاغة «الجنس الأدبي». فإذا كان الرأي الأول صحيحاً، من وجهة نظر هذه الدراسة، فإن الرأي الثاني لا يمثل بالترسية إليها سوى «حلم» نظري يوجه هذه الفاراة في ثرائها البلاغي. ولا فمن يجرؤ على ادعاء أن موروثاً البلاغي الذي نشأ مرتبطاً بأصول الشعر قد تجاوز حدود الجملة إلى التفكير في الأجناس الأدبية؟

ومع هذا فإن القارئ العربي لا يعدم في ثرائه نظرات ثاقبة تشير إلى علاقة الأسلوب بالأجناس فيما يشبه الفكرة النقدية البنية بناء محكم، وربما كان ابن خلدون أوضح من صاغ هذه الفكرة في ثرائها. فهو قد أشكر استعمال «أساليب الشعر» في «الخطابات السلطانية» مثل الإطناب في الأوصاف وشراب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات والنظام النظمية وكثرة

العلاقة بين أساليب الجنس الأدبي

الإسجاع. يقول: «واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للنس الآخر ولا تستعمل فيه مثل التنسيب المختص بالشعر والتصيد والدعاء المختص بالخطبة»⁽¹⁾. ويقول أيضاً: «إن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة»⁽²⁾ مثال الطول في الشعر يكون بخطاب الطول.. أو بالاستقحام عن الجواب لخطاب غير معين.. وأمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومذاهبه»⁽³⁾ غير أن حديث ابن خلدون عن الأسلوب باعتباره صورة ذهنية للتركيب أو طائفاً يبنى فيه الأرب تركيب اللغة ومنه والاً ينسجها عليه. يؤذن بتحديد أساليب الأجناس بتحويلها إلى «أساليب ذهنية»⁽⁴⁾ أو فوالب تستلكر في أذهان الأدباء الذين يعمدون إلى مثلها. وكان لا دور للجبرية المبدع الشخصية في صياغة الأسلوب.

وإذا ما تجاوزنا من الزايق التي يمكن أن نجزم عن تصور ابن خلدون للأسلوب باعتبارها طائفاً كلياً مجزواً في الذهن»⁽⁵⁾ وهو ما يطمس الدور الذي تضطلع به التركيب اللغوية المتعلقة. فإن لتطور العلاقة بين الأسلوب والجنس الأدبي. يمثل خطوة مهمة نحو التفكير في أسلوبية الجنس الأدبي وبلاغته. ذلك أنه بشر حضور الجنس في توجيه الاختيار الأسلوب للمبدع. وهو ما يتجلى في حضور الشعراء للأساليب الغزوة في الإطار الفني الذي يكتبون فيه. وإن كان ذلك لا يتحقق إلا بجهلهم بالشاعر مطالب بالإندياع والخلق. والحق أنه كانت لفرقة ابن خلدون التعليمية آثار في هذا المسور المثل طرحة عن الأسلوب. وحسبنا هنا تلك الوشيجة التي ألح إليها بين الأساليب والأجناس.

وتتمثل خلاصة فكرة ابن خلدون عن صلة الأساليب بالأجناس هي أن لكل جنس أدبي طرفاً واشكالاً فنية يبغي الوعي بها وتمثلها. غير أن هذه الطرق التي اعتبرت أساليب لا تشير إلى الصياغة اللغوية في حد ذاتها. أي باعتبارها جملة من التركيب التي يبدعها الشاعر داخل الإطار الأسلوب التوعوي الذي يتحرك فيه. من هنا كانت نظرة ابن خلدون لمنح الأولوية للطريقة المقررة على حساب السمات اللغوية التي يبدعها الشاعر. ولأجل ذلك انحصر حديثه عن الأسلوب في تلك الطرق التي يمكن تعلمها بكثرة الارتياض في الشعر. على الرغم من وعيه بأن الأسلوب يمثل مجموعة من القومات المميزة لجنس أدبي معين. على نحو ما ظهر في تعريفه بين أسلوب الشعر والرسالة.

والحق أنه على الرغم من اشتراك الأجناس الأدبية في الأداء الشكلي في اللغة بضرورتها وتراكيبها ودلالاتها. إلا أنها تختلف في طبيعة تعاملها مع هذه الأداء. حيث تفرض هذه الأجناس بتكوينها المتميز تأثيرها في تشكيل اللغة بذهنيتها الصوتية والحدوية والمجازية. وهكذا تستند طائفات اللغة إلى الطابع العام للميز للجنس الأدبي. فهللأجناس الأدبية من حيث موانعها العامة أثر في العبارات والتركيب حتى تتلائم وطبيعة الجنس الأدبي المتصوفة

فيها^{٢١}، كما قال «محمد ضيفي هلال» وهو الوالي نفسه الذي عبر عنه صلاح فضل بقوله: «إن الخواص الجوهري لطبيعة رؤية وأسلوب كل جنس من الأجناس الأدبية تنعكس على النسيج اللغوي له وعلى بنية الصورة فيه»^{٢٢}.

ولم يكن تفكيرنا البلاغي والنقدي الموروث يعهل العلاقة القائمة بين الجنس الأدبي والأسلوب أو اللغة. ولكنه لأسباب كثيرة مرتبطة بشروط حضارية، لم يمد إلى طرحها. فقد اطمأن إلى ما حصله من مفاهيم ومصطلحات كانت نتاجا لتفاعله الثقافي مع الشعر عملا بـ «التصديقات» أساسا، ولم يلفت إلى ما كانت لتجيه الثقافة العربية من أجناس أدبية أخرى لها أساليبها الخاصة بها. لقد كان الشعر يكون «الجنس الأدبي» الوحيد الذي ساهم في بناء صرح البلاغة والنقد، دون أن يصبح إشكال «الأجناس الأدبية» موضوعا من موضوعاتهما.

٢- الجنس الأدبي معيارا للغة

لقد أظهرت النقرات السابقة أن اللغة تستمد جانباً من جمالياتها وطاقاتها في التعبير الفني من الجنس الذي قلبي إليه، ذلك أن الإمكانيات التصويرية التي تظفر بها اللغة تؤول إلى ما يمتدح به الجنس الأدبي من ألوان في إضاهاء وتزيدها بما يمكنها من خلق أفاق تشبيهية جديدة. وهكذا التمدد طاقاتها الفنية وتكون «أساليبها الجمالية» وفق تنوع الأجناس وتعددتها.

ولاشك أن هذا التمدد الذي تنسج به اللغة الأدبية، من شأنه إخراج صفات «البلاغة» و«الجمالية» و«الأسلوبية» من نطاقها الواسع والمطلق إلى نطاق محدود يقوم على ضرورة الإقرار بوجود مستويات من «الجمالية» تتباين وفق تعدد أجناس الكلام. وهكذا يصير لكل جنس أدبي صفاته الأسلوبية التي ينبغي للكاتب والنقاد معا الوعي بها. فالكاتب لا ينتسب نصاً من النصوص خارج الأعراف المعروفة في عصره. فهو يلجأ عادة إلى اختيار الكلية في جنس أدبي معين. وهذا الاختيار يشكل جزءاً من مقاصده التي ينبغي للنقاد الأدبي الصبور عنها في وصفه لعمله أو تنقيحه.

إن محاسن «نظرية الأجناس» تتمثل، كما يشول «غراهام هور»^{٢٣} في المبدأ الصحيح والضروري القائل إن كل نوع أدبي يقدم درجة إشباعه الخاصة به، ويعمل حسب مستوى الخاص به، كما أن له إجراءات المناسب له^{٢٤}، أي إن معيار الجنس الأدبي يسمح للنقاد بقراءة النص قراءة صحيحة، وليس له أن يطالبه بما ليس من خصائصه الكونية لأهميته. فكل نص يفتح أمام قارئه أفقاً جمالياً يصبح معياراً موحداً للقراءة. إن الناقد «مطالب بأن يحل مفهوم الجنس حاضرا في ذهنه، عاملا في نتائج بحثه ومكيفا للأساليب المتبعة ومعددا لوظائفها ومتكيفا بها»^{٢٥}.

الاجابة ومناهة النص الأدبي

ويتجني ألا ينهم من ذلك أن مفهوم الجنس الأدبي باعتباره معياراً للقرابة النص، يمثل قواعد تنهت حرية الإبداع وترسم له الحدود، بل هو عبارة عن إطار منهجي يستحضره الناقد في أثناء الوصف، حيث تصير القواعد اكتشافاً لحدود الجنس الأدبي على نحو ما تتجلى في النصوص الأدبية، وبذلك تصبح وطبقته استكشافية، فهو يصف النص ويصور هويته الأدبية مما يتيح بدوره بثور أساس مناسط لعملية التقويم التي تليه^(٢٢)، ومعنى هذا كله أن مفكرة الجنس الأدبي فكرة تنظيم منهجي لا يمكن أن تفصل عن النقد^(٢٣).

إن الجنس عندما يصبح معروفاً من لدن «القارئ» فإنه يصبح عاملاً في قراءته، وكما يقول «فلورينسكي»: «إن القراءة نفسها تتحدد بالجنس، ذلك أن المثقفي، بكيفية جهازه المعرفي لمناطيات الجنس الذي يمثل نص معين، وهو يسمى طوال قراءته إلى تبني موقف مطابق لما يقترحه النص أو يعرضه. وبهذا التطور يغدو الجنس مناسطاً للقراءة، يوجه مجراها أو يحدد هذا الجري إلى حد ما. ولم يكن ليضطجع بهذه الوظيفة لولا التمازج إلى تقليد أدبي مكتوف لدى القارئ... ومع ذلك، فهذا لا يعني إطلاقاً بأن الجنس كيان ذو طبيعة محافظة... فالجنس يصل النص القارئ ويتقيد بعين دون أن يعطيه له كلفة»^(٢٤).

إن الجنس الأدبي بهذا المعنى حاضر في النقد والقراءة، فهو عامل في التواصل الأدبي يرسم «أفق النظرة» القارئ، باعتباره مجموعة من الخصائص النبوية المكونة للجنس أو عرفاً مستقراً وتقليداً شاملاً أو أحياناً إلى حد الأقل إلى التجديد وفق ما يطرا على الجنس من تغيرات تعد مع كل نص جديد، وهذا الأفق قد يتسع أو يضيق، يكون عاماً أو محدداً بشكل دقيق، ففي حالة الشعر مثلاً يكون هذا الأفق موسوماً بصورة عامة، بينما يعمل في حالة «شعر الخمريات» إلى التحدد، حيث يمتدح جملة من السمات المرتبطة بهذا الجنس المعرفي.

إن اعتبار الجنس عاملاً في التواصل الأدبي يعني أنه يمثل ما يصطلح عليه «فلورينسكي» بـ «الوعي الأنثاسي»، ودون أن نعوض في التفاصيل الدقيقة التي يثيرها موضوع الأجناس، لاشك أنه بعد أن قدمنا مجموعة من الأفكار حول الدور الذي يضطلع به الجنس الأدبي في توجيه صيغ القراءة واستدعاء كساية المثقفي، يمكننا افتراض أن البلاغة العربية القديمة، باعتبارها لونا من المعرفة المرتبطة باللغة، كانت تقوم على نوع من الكساية الشعرية بالمفهوم العام لجنس الشعر، أي باعتباره مجموعة من الأساليب التي استقرت في الأذهان وصارت تقاليد وأعرافاً جمالية مكونة الذوق الأدبي المهيمن الذي لم يفلح في زحزحته عن مكانه ما استحدثت من أجناس أدبية في الثقافة العربية. ولعل هذا الافتراض، الذي تسعى هذه الدراسة إلى بثورته بالوقوف على تفكير لرائنا البلاغي والأسلوبي، يحتاج إلى فضاء يمان تشكلت مناهضته الصفحات القادمة.

الفكر العربي في البلاغة

- الفكر العربي

لا شك أنه من الشعر انطلقت معظم الأفكار البلاغية والتشبيهية في التراث، ولئن بحثنا على هذا مستوى القول إن طبيعة هذه الأفكار لم

تكن تخلص للتعبير الشعري، كما يفهمه اليوم، حيث ذهب بعضهم في تفسير ذلك إلى ما شهدت الخطابة من ابتعاث وإدهار في العصور الإسلامية الأولى مما كان له تأثير قوي في صياغة التفكير البلاغي الذي يعد الجاهل أحد معانيه الأوائل⁽³⁴⁾. وقد يرجع ذلك إلى السمة الخطابية في الشعر العربي، التي لم يكن ممكناً فصله عن الوظيفة الإقناعية التي ارتبطت به بحكم الثقافة السامية التي احتلها في سلم القيم الاجتماعية. وحتى عندما تدهورت مكانته في المجتمع العربي، ظل يحارس الإقناع، ولكن هذه المرة بطريقة أخرى. لم ينفصل الشعر العربي عن الحكمة والقل المعاني مثلاً لم ينفصل عن ممارسة التأثير في نفوس المدحون واستجداتهم للمطام.

لما كان الشعر موضوع نظر التفكير البلاغي والتشبيهي، فقد انبثقت منه معظم الأفكار والأمور الجمالية للرواية، حيث تكاد لا نجد أي أثر للأجناس النثرية في مسار هذا التفكير الذي ظلت مفاهيمه ومصطلحاته تهيمن على الفكر العربي. وهذا لا يعني أن طرائق التراث لا يجد فيه أدنى اهتمام بأجناس النثر. فالواقع يؤكد أن هناك نقلاً أولياً لحاية واضحة للنثر. فنذكر من بينهم: ابن وهب الكاتب وأبا حلال المسكري وابن عبد المنصور الكلاعي وابن الأثير. غير أن هذه العناية لا تتجاوز تصنيف أجناسه وتحديد خصائصها الأسلوبية الشكلية التي تميز كل جنس نثري عن الآخر. وتتميز النثر عن الشعر. كما أن هذا الاهتمام بالنثر لم يتجاوز جنس الخطابة والترسل إلى الأجناس النثرية السردية⁽³⁵⁾.

يقول ابن عبد المنصور الكلاعي، وهو من نقاد القرن السادس: «وجدت أبحاث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسل، ومنها التوقيف، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المثلثة والأمثال المرسلة، ومنها القواري والمتمى، ومنها القسامات والحكايات، ومنها التوقيف، ومنها التأليف».

ونلاحظ أيضاً... الأسجاع فوجدتها على ضروب وأنواع. ومنها ما يجب أن يسمى المقاد ومنها ما يجب أن يسمى المضارع ومنها ما يجب أن يسمى المشكل⁽³⁶⁾. ثم أفرد لكل جنس من أجناس النثر والمسجع حديثاً خاصاً، وقد اعتمد في تمييزه بين أجناس النثر معيار القوامات البدئية. فجاء تمييزه شكلياً خالصاً. أما فيما يخص النثر السردية، فقد اكتفى بذكر بعض الأعمال القيمة بقوله: «ومن الحكايات المختلفة والأخبار المزورة الممعة. كتاب (كيلة ودمنة)

34 - مستوف على عبارة مؤلفات النثر - في فترة سابقة من الكتاب

البيان والحوار بين النقاد

وكتاب (الناقد) لأبي الملاء المصري. وقد تكلموا فيه على السعة العيون، وغير التحيوان^(١٢٦). وما عدا تصنيفه لكتاب (الناقد) على (كثيرة ومدة) فإن موقفه من النثر القصصي والسري يبدو عليه مسحة الارتباب. وهذا الموقف ليس فريداً في خطابات النقاد البزوت كما تؤكد ذلك ماقت كمال الروبي التي أظهرت أن تقادماً لم يمرضوا مفهوم واضح ومتكامل للنص بوصفه جنساً أدبياً له وجوده المستقل بين الأجناس الشعرية الأخرى. فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاتهم لأشكال النثر المختلفة^(١٢٧). وقد يرجع السبب في هذا الموقف النقدي من النص إلى افتقاده للوظائف الشعرية المباشرة التي كانت للخطابة والكتابة الديوانية، كما أن أصعابه لم يحطوا بالكثافة التي أسندت للخطباء والكتاب. وما يؤكده موجه للعوام والجهال^(١٢٨).

نعم، قد يكون هذا سبباً مقلداً لتفسير قهاب الاهتمام النقدي بمحصر أشكال النثر القصصي. ولكن ذلك لم يمنع الشعر، الذي لم يكن أسعد حالا من النثر القصصي في المصور المتأخر، من أن يفرض سلطته الجمالية على الكتابة الشعرية والتفدية مما، أي على الرغم من الكثافة للتدوير التي آل إليها الشعر في المصور المتأخر، فإن ذلك لم يكن كافياً للحد من سلطته القديمة التي مازالت تحدث أثرها، إن على مستوى الإبداع أو على مستوى التطور. نجلى ذلك في اعتناء كتاب النثر حذو الشعراء في أساليبهم وأعراضهم إلى درجة كانت تتوارى فيها الحدود بين لغة الشعر ولغة النثر^(١٢٩). كما أن لكتاب القديس والبلغية حول الشعر كانت لا تزال في ظهور متزايد بل إن ما تصوف بها إلى النثر من خطابة أو ترسل، كان ولما تحت تأثير الشعر. فعلى الرغم من العناية الشديدة التي حظي بها هذان الجنسان، فمن نكاد نجهل عن طبيعتيهما الشيء الكثير عدا بعض الخصائص الأسلوبية الشكلية التي تثبت أن النظر النقدي والبلاغي كان يرى فيهما امتداداً للأسلوب الشعري. يقول الكلاسي: «وتأملت... النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم، فأقلت فكرها في هذا الكتاب، لأن كثيراً من العلماء قد عوا بهذا الباب»^(١٣٠). ونعيب ابن أبي الأصعب المصري إلى أن أكثر أبواب البديع نعم الشعر والنثر مما، وظل منها يخص الشعر^(١٣١).

لم يلمح النظر النقدي والبلاغي في اعتبار هذين الجنسين شيئاً آخر مختلفاً عن الشعر، ولأجل ذلك لم تختلف معالجهتهما من معالجهته للشعر إلا إذا استثنينا بعض الأمور الضرورية التي تميزته عنه. فقد خصص كل من أبي هلال العسكري وابن الأثير فصلين في كتابيهما للحدث من الركان الكتابة أو ما يحتاج إليه الكاتب في مكاتباته^(١٣٢). وهي شرائط، إذا تأملتها وجدناها لا تختلف عن تلك التي وضعت للشعر، إلا ما اتصل منها ببعض المكونات الخاصة بجنس الرسالة ولا يشترك معه فيها الشعر.

والحق أن النظر النقدي والبلاغي لم يقل على هذين الجنسين إلا عندما اعتبرهما امتداداً لأسلوب الشعر، لا يختلفان عنه اختلافاً جوهرياً، بل هما أهمل - إجمالاً يكاد يكون تاماً -

الأجناس الشعرية ذات المكونات السردية أو القصصية^(١٢١). فقد عرفت الثقافة الأدبية العربية أجناساً كثيرة لم تظهر بلافتها هي الصياغة اللغوية بقدر ما ظهرت في تعدد مبادئها وتنوعها. من ذلك الأمثال والحكايات والمنازلات والتواوين والمناجيات وغيرها مما «لم يسمح لها النقد بدخول حلبة الأدب لأنها كانت متميزة تميزاً أصيلاً عن الشعر»^(١٢٢).

أقول: بعد هذا، إن الشعر هو النموذج اللغوي الرهيب الذي استأثر بالقدرة والبلاغة وعدد موقفيهما من النثر، فاعتدا ببعض أجناسه وأعمال أجناساً أخرى كثيراً فقد كانت سلطة الشعر الجمالية تعيد إقصاء الاهتمام النقدي بالأجناس الشعرية. فما دام الشعر «صعدة الأدب»^(١٢٣) كما يقول الشمالي، وعن القول الأصمعي: فإن الحديث عن النثر سيأخذ منحى آخر، فهو في الغالب ما يأتي في سياق المناظرة بينه وبين الشعر، أو باعتباره خفية له. ولم يتم تقديره أدنياً وأسلوبياً، فالشعر هو قطب الاستعداد والجناب، من هنا انشأ وجود النثر باعتباره جنساً أدنياً مخصوصاً بنطوي على أنواع لها إمكاناتها التعبيرية الفنية المتميزة.

وإذا رجعنا إلى المؤلفات النقدية الأولى، أي مؤلفات انتقاد القويين، فإننا نجد موقفهم من الشعر واضحاً، فهو مصدر اللغة الصحيحة ومقياس البلاغة والبر، ولا مكان عندهم للنثر^(١٢٤). ولكن هذا الموقف سيظهر نسبياً عند نقاد الشعر الأدباء، فإن قتيبة لا يرى بأساً في أن يعرض فضائل النقدية بالإحالة إلى النثر^(١٢٥) من الرسائل والتهنئات والجرانيات^(١٢٦)، كما أن ابن طباطبائي لجأ إلى الرسالة في حديثه عن بناء الخطبة^(١٢٧)، وهكذا ظل النثر عند نقاد الشعر أشبه ما يكون بخلفية لهذا مفهومهم عن الشعر. فقد نعت قدامة بالذهبي^(١٢٨)، والقصود به طريقة التعبير التي يتميز عنها الشعر. إن النثر عندهم يشمل كل ما لم ينظم في أبيات، ويقصد^(١٢٩) من خطاب وأمثال ورسائل ومقامات وأجوبة القصائد.

لقد كان الاهتمام النقدي بالزوج، الشعر والنثر، يندرج في إطار تحديد ما يميز لغة الشعر عن الكلام العادي أو اللغة الخطبة أو لغة الخطابة^(١٣٠). ويمكننا القول إن تصور القداسي للغة الأدبية كان يعكس اعتبارهم لغة الشعر النموذج الأعلى. فهي تجسد المثال الرفيع للفن اللغوي الذي قامت عليه البلاغة والنقد.

الشعر مقياساً للنقد

أ- مكانة الشعر وأصنافه

تمثل «المناظرة» بين الشعر والنثر إحدى صوغ التمييز بين هذين الجسدين. فقد وقع خطابنا النقدي والبلاغي على كثير من خصائصهما

في سياق ترجيح أحدهما على الآخر. غير أن معظم الخصائص التي أشار إليها النقاد والبلاغيون هي لتعزيز حكمهم لصالح هذا الجنس أو ذاك لا صلة لها بأسلوبيهما، وقليل منها يربط

الثقافة ومعناها الرئيس الأدبي

يقومانها الداخلية. ومع أن محتوى المناقشة التي ردها أكثر من نافذ، لا نعلمنا هي ذاتها. وإنما لا نتكرما نتيجة لنا من إمكانات الوتوف على نظرة القدماء للعامة الشعر والنثر. وإن كنا نلاحظ أن نصيب النثر يظل زاهيا مائلا إلى ما سطته هؤلاء من خصائص الشعر.

وعلى الرغم من ذلك نحن لا نستطيع أن نطرح من أرائهم في تقبيل أحد الجنسين إلى نتيجة عامة ترجح كفة أحدهما على الآخر، فالجميع المقدمة متكافئة، كما أن كثيرا منها يرجع إلى مكانتهما في المجتمع وموقعهما في الثقافة، وهو ما يدل على أن قضية المناقشة لم تكن ذات جدوى لأنها، في النهاية، لا تقدم الأدب ولا تصغر عن طبيعته الذاتية، هالذين ناسروا الشعر وقضوه لا تعوزهم الأدلة، فهو ديوان العرب ومستودع حكمتهم وسجل مفاهيمهم وأصواتهم. كما أن الذين رجحوا النثر كانوا ينظرون إلى ما بلغت الكتابة المبراهية من شأو بعيد، والدرجات التي حظي بها الكتاب في السلم الاجتماعي، في زمن تراجع فيه موقع الشاعر إلى الخلف، وحتى عندما كان هؤلاء وأولئك يتعاملون بأداة مستمدة من الطبيعة الخاصة لكل من الجنسين، فإن ذلك ينبغي ألا يسوغ المناقشة التي تتعارض في جوهرها مع الاعتراف بضرورة اختلاف أدوات التعبير الأدبي، وخصوصية كل جنس في توصيل رسالته الإنسانية وهي أداء تأثيره الخاص به.

ولكن ما هو هذا النثر الذي دخل في النقاش مع النظم الذي كان «علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منعدا، بالتاكيد لم يكن النثر الذي قضى على الشعر من قبيل النثر السردى، الذي جسدهه أجناس أدبية لم تحب باعترااف القدماء، ولم تزل المكانة التي كانت تستوجبها باعتبارها إبداعا أدبيا كمبرها من أنواع الهدايا المعروفة في نواتنا، وربما كانت أقرب إلى جوهر الأدب من بعضها. ولا شك أن هذا ينهض دليلا على أن قضيتهم للنثر أصلا تقدير اجتماعي عام للترسل، هـ «صناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك»⁽¹⁴⁾، وما كانت صناعة القصر من خرافات ومقامات ونوام، لتبوء صاحبها المكانة الرفيعة التي يوصل إليها المعاني في الخطابة والكتابة.

لقد دخل الخطيب أو الكاتب حلبة التنافس مع الشاعر، الذي سادت أحواله وقد كان في أعلى المراتب. وإذا كانت نتيجة الصراع قد تم حسمها اجتماعيا لصالح الأولين، فإن هذا لا يعني أن الكتابة استولت على الشعر وفرضت عليه أساليبها، بل إن العكس هو الذي حصل. فقد خصصت الكتابة لأساليب الشعر وأصبحت لغته النموذج الذي ينبغي احتذائه بلوغ مرامي البلاغة. وقد عبر أبو هلال العسكري عن أن حاجة كل مذايب إلى الشعر ماسة «وافقت إلى روايته شديدة، فهو «ديوان العرب وخرانة حكمتهم ومستنداد أرائهم ومستودع علومهم»⁽¹⁵⁾، ومنه تنزع الشواهد وتؤخذ الطائفة اللغة الوسوسة بالجزالة والصناعة والفحولة والفراة.

لم يكن للكتاب أو الخطيب يد من أن يتكلم على الشعر إن أراد التأثير في النفوس، وليس المقصود بهذا ما يلحان إليه من لطمعين واقتباس للأشعار، بل أن يستلهم في صياغة أسلوبها على ثوابت الأسلوب الشعري التي كانت قد تمكنت من الذوق، وقد نهضت جميع الشروط لاستبعاد الأسلوب الشعري المكتوبة والخطابية، فحين لا تملك إنكار ما تشترك فيه هذه الأجناس من تصوير مواقف واحدة وتولي غايات متشابهة، على الرغم من اختلافها الذي أشار إليه التفاد القديمي، والحق أن الأسلوب الشعري سيصبح النموذج الفني الأعلى الذي ينبغي اتباعه في كل كتابة أدبية تتوخى إحداث التأثير البلاغي المباشر الذي حازه الشعر ودعا من الزمن.

وبعد، أي فضيلة يمكننا إسنادها إلى أجناس نثرية وفعت أسيرة سحر اللغة الشعرية، فأخذت في محاكاتها إلى درجة لم يعد هناك حد فاصل بين النثر والشعر، بل حتى الأجناس النثرية التي سمت بتميزها الأصل من الشعر لم تتج من أسلوبه ولم تغل عن طريقتها في الصياغة اللغوية^{١٢} أو ليست هذه الأفضلية التزعومة للنثر سوى رد فعل مجموعة من التفاد الذين برهوا في فن الكتابة واستحسن عليهم قول الشعر؟ أو ليست سوى موقف اجتماعي من وضعية الشاعر القديمة؟ أو ليست موقفاً دينياً^{١٣} - عند بعضهم - للإعلاء من قدر القرآن؟

لم يكن إقرار بعض النقاد بالانحياز^{١٤} للنثر في الكتابة الجذبية التي احتلها الشعر في النفوس، وجعلت حتى أولئك الذين تصادوا للإيمان إحصاء بلافة القرآن يدافعون عنه في صدور مؤلفاتهم، على بحر صنيع عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»^{١٥}، وغير خلاف ما يشتمل به الشاعر الشعري في جميع حثول الثقافة العربية الإسلامية القديمة: «قال ابن نباتة: من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه. والصحح لا يؤخذ إلا منه. أعني أن العلماء والحكماء والعشقاء والنحويين واللغويين يقولون: «قال الشاعر» وهذا كثير في الشعر... فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة. والشعر هو الحجة»^{١٦}. بل هل يوجد جنس أدبي حظي مثله بأن صار «صناعة براسية»^{١٧} فامت عليها علوم (علم القافية والمروءات والشعر «أي التذوق» وصدرت عنها معظم الأفكار التي تبلورت عند البلاغيين)^{١٨}.

هل يحق لنا بعد هذا القول بأفضلية النثر بالنظر إلى خطابنا النثري والبلاغي الذي يشهد حاله أنه لم يتخلص من سحر الشعر ليرفع الجبال لأنماط بلاغية أخرى كان لها سحرها الخاص؟

٢- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر؟

هناك رأي سائد قديماً وحديثاً يعتبر البلاغة علماً كلياً يشمل الشعر والنثر، ومن ثم فإن التباين السخف والامتناع لا تقتصر على أحدهما دون الآخر، غير أننا وإن جئنا

أدبنا من وعقولنا النص الأدبي

إلى تأكيد هذا الرأي، فإننا نقر بإغفال البلاغيين التصديق بين الأجناس الخطابية، إذ تعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأعلى عليها مقولاتها ومسططحاتها، ورسم لها الطريق الذي يهتلك فيها بعد، على الرغم مما كانت تسود به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس الإبداع الأدبي المختلفة، التي لم يكن لها أي أثر حقيقي في هذه البلاغة. ولكن قد يدرش علينا من يرى في القرآن النص الذي فلم حوله التفكير البلاغي، وكان سببا في ظهور العلوم الإسلامية.

ونحن لا ندفع أن يكون النص القرآني خافزا مباشرا لظهور الدراسات البلاغية منذ القرن الثاني مع مفسرين لغويين: الفراء (٢٠٧هـ) وأبو عبيدة (٢١٠هـ) والأخفش (٢١٥هـ) إلى أن تطورت مع ظهور الكتابات الخاصة بالإمعاز. خلال القرنين الرابع والخامس، ولكن ما نتوخى إثباته هو أن هذه البلاغة التي نشأت حول النص القرآني تدل في أصولها لمبدأ الأسلوب الشعري، الذي ترسخت بلاقته في ذهنية المثقف وتجزرت فيه الذوقية، مما جعل مفسرا مثل أبي عبيدة يفتنه حجة لإثبات أن القرآن نص عربي بحري، على سبيل كلام العرب وطبيائصة^(١)، فلهذا ما هي الشعر من سمات المطلوب الذي يكون الأفق الجمالي للمتلقي العربي، وعلى هذا النحو لم يكن كتاب أبي عبيدة «معجاز القرآن» بحثا في ما يميز بلاغة القرآن عن بلاغة الشعر، بل كان في واقع الأمر للتعامل مع النصين، أو بتعبير آخر، كان تعريفا لنموذجية البلاغة الشعرية.

وكما قال حقا أحد الباحثين عن قرابة أبي عبيدة بأنها «لم يكن حاجتها البحث عن التفكير النوعي وهو ما كان يجب أن يكون، وإنما انصرفت إلى إظهار الثوابت الأسلوبية في النص القرآني، بوصفها امتدادات طبيعية للمكونات الجوهرية الأولية لمطالب النص الغائب (أي النص الشعري)». وعندئذ لا مجال للاعتراض على طرائق القول القرآني، وعلى تركيزه السلفي، وإذا شئنا قلنا إن ما قامت به قرابة أبي عبيدة هي استقراء نموذجي وملاحظات وجيهة للثوابت الأسلوبية في النص الغائب^(٢).

يقول الباحث في دراسته عن أبي عبيدة في «معجاز القرآن» إن اعتماد النص الشعري الجمالي حجة لإثبات أن القرآن لا يختلف في صياغته التعبيرية عما عهد عند العرب، كان نهجا يوحى أهل اللطفي أكثر مما كان في واقع الأمر تقصيدا دقيقا لخصائص النص القرآني. بل إن الاحتكام إلى النص الشعري للدفاع عن أسلوب النص القرآني، إنما يؤكد سلطة النص الشعري، ونسبته من ذهنية المثقف، ويؤكد في الوقت نفسه أصلية هذا النص ومعياريته، وهكذا تتحول «القرابة بالمعاقلة» كما اصطلاح عليها الباحث إلى دعم للثوابت الأسلوبية التي رسمها الشعر، ولعلنا كشفنا نوعيا لأسلوب القرآن، باعتباره نمطا جديدا يحمل بلاغة مميزة، إنها قرابة شاعت الدفاع عن أسلوب القرآن فوفقت في تعجيد أسلوب

الشعر، لما يهوزه من تأثير في نفوس المتلقين، وبذلك كانت إشباعاً للتذوق المتلقي واستجابة لمعايير الجمالية.

إن القراءة البلاغية التي تعتمد الشعر حجة لإثبات شرعية الأسلوب القرآني، فتنبه السامع على العائب، منطلقة من قيمة هذا العائب وسلطانه على المتلقين، وإن كانت تتوخى الدفاع عن القرآن وإظهار خصائصه التعبيرية، فإن للنهج الدفاعي الإقناعي قاعدته هي حقيقة الأمر إلى مناصرة النص الحجة، أي الشعر باعتباره معياراً أسلوبياً متفهماً عليه، ونتيجة لذلك فإنها لم تفلح في ضبط الخصوصية الأسلوبية للقرآن، لأنها قيدت نفسها بالإجابة عن إشكالات محدودة تمثل في أن أسلوب القرآن مماثل لأساليب العرب المتداولة في شعرها، ولم يخرج عنها، في ظل هذا الشرط، لم يكن ممكناً تقديم قراءة خاصة لأسلوب القرآن وما يتميز به من أسلوب الشعر، والسؤال الذي يبرز نفسه الآن: هل نجحت «القراءات» البلاغية الأخرى (وأعني بها دراسات الإعجاز) أسلوب القرآن في ضبط خصوصيته، باعتباره إمكانية أسلوبية نوعية تتميز عن لغة الشعر؟

لقد صدقت «القراءات» البلاغية الإعجازية عن مبدأ تنويع أسلوب القرآن على بقية الأساليب البشرية، فراحتم لتلخيص مواضع الإعجاز والتنويع، وفي نطاق هذا التلخيص صنعت بلاغة الإعجاز القرآني وصيغها خصوصاً من أدوات التحويل والتشويق، جعلها تتجاوز الإطار الوصفي الضيق الذي رسمت نفسها فيه عند من أجهل التمييز، ليعبر أن هذه البلاغة، في خصوصها لهذا التلخيص - مبدأ الأكثلية، لم تنجح نفسها الاقتراب الحقيقي من أسلوب القرآن والتكلم عن خصائصه المتميزة، إنها كانت معنية أساساً باستجلاء مواطن الإعجاز البلاغي والتفوق الأسلوبية، ولعل الرغبة في الإقناع التي جعلت أياً منهجية على الاستناد مباشرة إلى حقيقة الشعر، غافلاً بذلك عن أن أسلوب القرآن أصل بذاته، أن تكون قد صاحبت جميع البلاغيين المدافعين عن إعجاز القرآن، وفقدانهم إلى أن يجعلوا أسلوبه امتداداً لأسلوب الشعر، إنما يبرز إمكانية أسلوبية نوعية واحدة؟

هذا ما يستلزمه بالتحديد، فإن أهم مصنف بلاغي في هذا الباب، وهو كتاب «دلائل الإعجاز» فيصرف النظر عما يؤمن به عبد القاهر من تفوق بلاغة القرآن، فإن القارئ لا يعثر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب هذا النص الجديد، وكأن عبد القاهر يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني، فالإقناع وطبيعة التلقي وسلطة جمالية الشعر على البلاغي تقدمه، كل ذلك يقتضي منه أو يدفعه - على الأصح - إلى البحث عن التفوق في الجهة نفسها التي كان الشعر متفوقاً فيها - على هذا النحو ظلت هذه البلاغة هي الأخرى أسيرة جماليات الشعر من حيث أراحت أن تثبت جمالية القرآن، ولم يكن ممكناً لهذه البلاغة أن تتطلع إلى جمالية نوعية أخرى لأسباب يرتبط بعضها بسياق التلقي

البلاغة ونظيراتها في النثر

وشرائطه. ولأجل ذلك وجدنا الباطلاني يثير تلك المناقشة بين القرآن وقصيدة من أحوال⁽¹⁾ شعر امرئ القيس لإثبات تفوق البلاغة القرآنية، وهو في الحقيقة مجز عن ضيق أسلوبية القرآن. على الرغم من إقراره بأن نظم القرآن حسن متميز وأسلوب متطهر⁽²⁾. وذلك لأن القيد الذي صدر عنه لم يكن البحث عن الخصائص المارقة، بل البحث عن الأفضلية. وإن يتم الإقناع بأفضلية التعبير القرآني إلا إذا كان لهذا التعبير ما يناظره في ذهن المتلقي. وهكذا كان اتجه الإقناعي المنحكم في الدرس البلاغي الإحصائي طريقاً لإثبات التشابه، مرة أخرى وليس التمايز النوعي.

إن مكانة الشعر في نفوس المتلقين وتجذر معانيه الجمالية في ذهنيتهم وتشبعهم بأصنافه وطرقه التعبيرية لم يجعل بعض البلاغيين يتخذونه معياراً للدفاع عن النص القرآني فقط، ولكنهم لم يسلموا من تأثير صيغه الجمالية حتى وهم يحاولون إثبات إعجاز النص القرآني وأفضلية أسلوبه على أسلوب الشعر. لم يستطيعوا إذن تبين ما للأسلوب القرآني من خصوصية نوعية، أي باعتباره جمعا غير شعري، وما استقر في كتاباتهم من أساليب التعبير القرآني لها ما يناظرها في أسلوب الشعر⁽³⁾. فهي وإن كانت تكشف عن بلاغة القرآن المعجزة، فإنها - من وجه آخر - تظهر توفيقاً مادية الأسلوب الشعري في التفكير البلاغي، الذي لم يطلع في صياغة سمات أسلوبية خاصة من صميم النص القرآني، مما هو إمكانية أسلوبية نوعية متجذرة في النثر وليس الشعر.

يرى سيد قطب⁽⁴⁾ أن البلاغة العربية لم تستطع أن تتجاوز في تفسيرها بلاغة القرآن «مقاسق تركيبية وألفاظه، أو استثناء نظمه لشروط المصاحبة والبلاغة المعروفة، مع ضرب من الإدراك لواضع الجمال الكثرية. وتعليل كل موضع منها تعليلاً متفرداً، إنها لم تستطع تجاوز المظلمة الجزئية إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله». من هنا يرى أنه يلزم منهج جديد لدراسة النص القرآني من أجل الكشف عن خصائصه الفنية المعبرة التي ظلت مغلقة خافية.

إن مثل هذا المنهج لم يكن قائماً في البلاغة العربية القديمة، فالبلاغيون - كما سبق هذه الدراسة - لم يتجاوزوا في تناولهم لأساليب القرآن ما استقر في عقل بلاغة الشعر من صور بلاغية حزئية، وهم بذلك يؤكدون ارتباط التفكير البلاغي الموروث بالشعر الذي قد يكون مسؤولاً عن هذه «المظلمة الجزئية» المشار إليها. فهذا الجنس الأدبي ينقله وأسلوبه، أو إن شئت قلت، بكوناته الجمالية الخاصة، كان قوية خصبة لنماء بلاغة نمت النص إلى مجموعة من السمات الأسلوبية التي لا تتجاوز في الغالب إطار الجملة أو البيت الشعري. إنها بلاغة «اللفظة المسمدة» والنكتة النادرة والمصورة المتقدمة، تلك التي تعرضت في حيز الأسلوب الشعري، العليل.

خصائص الشعر والبلاغة

١- الشعر واللغة

لقد أصبحت اللغة موضوعاً شتافسماً معظم الاتجاهات النقدية والأسلوبية المعاصرة التي عتبت بالشعر. وفي من البين أن الاهتمام النقدي المتزايد بمشكلات لغة الشعر - إننا يرجع في الأصل إلى سيطرة النموذج القصدي على العلوم الإنسانية ومنها الدراسات الأدبية، ولكن هذا لا يعني أن إشكالات اللغة صار حكرًا على النقد ذي الوجهة الأسلوبية، فالمقصود إلى ضرورة توسع أداء الأدب قائمة حتى عند النقاد الاجتماعيين^[١٧]. كما أن فرائض النقد العربي كاد يثقل جهوده على قبة وحيدة من التفهم التي يركز بها الأدب والمعلقة في الأسلوب القوي.

ومع ذلك فإن النشاط النقدي حول مفهوم اللغة الأدبية يرجع أساساً إلى النظرية الأدبية المعاصرة، وإن كانت جنوداً معتدة في التراث البلاغي. وإذا ما صرفنا النظر عمناء عن العوامل المباشرة التي أثرت في سيادة مفهوم النقد الأسلوبية المعاصر وطورة مقولاته، وهي عوامل معروفة الآن، وسعينا لننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، فلنلاحظ أننا سنتهي إلى نتائج تعزز تصورنا من الصلة الوثيقة بين البلاغة ونقد الشعر.

يلعب بعض الباحثين تحول البلاغة العربية من كونها معرفة فلسفية إلى معرفة أدبية بالسلطة التي فرضها الشعر عليها هذا التحول يكلف السهولة التنفيذية التي طضع لها هذا العلم العتيق. فقد كانت عملية تحويل البلاغة إلى المجال الأدبي، التي شهدتها عصر ما بعد شيشورين تامة في العصر الوسيط، حيث أصبح تراث هذا الفكر مع الأسلوبية في اصطلاح العصر وحظي بالإجماع. إن تاريخ هذا الفكر، الذي بدأ رحلته الطويلة بوصفه فكراً فلسفياً، هو في خطوطه الكبرى تاريخ التحول نحو فكر أدبي^[١٨].

لم تكن البلاغة في العصر القديم مرادفة لنظرية الأسلوب، فقد أشار بول ريكور Paul Ricoeur إلى تعدد الحالات التي كانت تشعلها بلاغة أرسطو. وهي نظرية للحجاج - التي تمثل المحور الأساس - ونظرية الأسلوب ونظرية تأليف الخطاب، وما تقدمه لنا الكتابات المتأخرة في البلاغة لا يعدو أن يكون مجرد بلاغة مفيدة... فقد أصبحت تقتصر على نظرية الأسلوب ثم بشكل الضيق على نظرية المجاز^[١٩]. لقد تقلصت البلاغة إلى أحد أجزائها المتمثل في الأسلوب أو العبارة Elocutio. وبذلك صارت مرادفة للأسلوبية، وبعد أن كان مفهوم البلاغة طامحاً على الإقناع عند المفكرين الأوائل، أصبح هيماء بعد بديد - هي تجويد الكلام - البلاغة هي اختيار التعبير بالخروف الذي يمكنه خدمة الوظيفة الإقناعية التي نراجعت إلى موقع خلفي. وإذا أصبح الخروف علامة أساس في مفهوم النمل البلاغي، فقد حول المنظرون في هذا العصر، البلاغة إلى إشكالات أدبي طالع^[٢٠].

البلاغة ومكوناتها الأدبية

ومهما تباينت الأساليب الداعية إلى أصول البلاغة بمعناها القديم، فعلم انتقال موضوعها من الخطابة إلى الشعر، أن يمثل عاملاً في تفسير تحولها من منطلق شامل إلى نظرية هي الاستعارة والكتابة^(٢٠). لقد أدت سلطة الشعر على البلاغة إلى التحلل التوازن بين أجزائها لتحل محل الجزء الخامس بالأسلوب، وسيمتد تيار الاختزال الجارف إلى أن أصبحت البلاغة هي المحصلة النهائية نظرية هي الاستعارة فقط.

على هذا النحو، كان الشعر وراء هيمنة الاستعارة على الفكر البلاغي الحديث لثمة بذلك نهاية مرحلة أساس في تاريخ العلم. إن ما كان يسمى بلاغة أصبح مجرد نظرية حول الأسلوب الشعري. وفي سياق هذا الوضع، لم يكن جائزاً الحديث عن البلاغة بمعناها الكلاسيكي ولا بمعناها الشامل لجميع أجناس الخطاب، فبعد «شيشرون» و«ابن رشد» من «كتشيليان» إلى «فونتايني» أحكم الشعر سيطرته على مقولات البلاغة.

لقد شهدت المرحلة الثانية للبلاغة سيطرة المفهوم الروماني للشعر المتعارض مع البلاغة الإقناعية. وهكذا صارت البلاغة، التي تحظى بالقدرة، هي تلك التي تنفي المحسنات أي بلاغة تجويد الكلام وخلل انماط قوية جميلة^(٢١). لم تعد البلاغة فناً يسهر الوسائل التقنية من أجل غاية خارجية، وهكذا انقلب الموضوع الجديد للبلاغة بالأدب، ويتعبر الوضع، إن «الكلام غير القيد وغير المعالي» من الذي سيخلق موضوع البلاغة التي أصبحت نظرية حول لغة نقليها في ذاتها والأصل «النهج»^(٢٢). إنها لغة الشعر كما استقرت خصائصها في تصور الشكلانيين والأسلوبيين، هذه أصبحت النموذج القسري للبلاغة في مرحلتها الثانية، حيث لم يعد وصف الصور مصنوحاً بوصف تأثيراتها. فموضوع البلاغة هو معرفة اللغة التي يتم تنويعها في ذاتها^(٢٣).

لقد توخى تودوروف Todorov من قراءته لمرحلة تطور البلاغة تفسير اعتداد جذور التصور الشكلاني النهائي للغة الأدبية في ثروت هذه البلاغة، وهو التصور الذي يركز على مفهومات البلاغة والنقد الأسلوبية اللذين أحكما نظريتهما لغة الأدبية في إطار اعتبار الشعر متبعاً للجماليات، أو كما قال «فاليري»، هو «الأدب وقد اختزل إلى جوهر مبدئه الدينامي». ولا غرو أن يصبح بعد ذلك «النموذج القسري للأدب»^(٢٤). وإن يعتبره أحمد الشايب «أدخل في باب الفن وأشد تشبهاً له»^(٢٥).

والحق أن النظرة الأسلوبية المعاصرة للغة الأدبية قام بصياغة مفهوماته في ضوء اعتباره لغة الشعر النموذج الأعلى^(٢٦)، وأسلوبية الشعر المعيار الذي ينبغي أن تقاس عليه جمالية الأجناس الأدبية. وقد توجب على ذلك ضرر يائن بالأشكال التعبيرية النظرية التي تقوم بخصائص أسلوبية متميزة، غير خاضعة لمظاهر بلاغة الشعر.

وبعد «الانزياح» من بين تلك المفاهيم التي صاغتها الأسلوبية المعاصرة لوصف لغة الشعر وتحديد خاصيتها الثابتة، فهو لا يدعو في حقيقته أن يكون أداة إجرائية تنحصر في نظرية الشعر ولا تمتلك فيها كفاية استيعاب الأجناس الأدبية الشعرية. ويرتقب على الشول والانزياح اعتبار لغة الشعر أولى مستويات اللغة، ذلك أنه كلما تحققت أكبر قدر من الخلق للمعابير القوية العانية، انضمت اللغة من جوهر الشعرية، ومغزى هذا التصور الذي يبنى مفهومه العمالية على أساس الانزياح هو نفي صفة الفن عن الأجناس الشعرية المعروفة بافتراق لغتها عن الشكل التواصل العاني واعتبارها أدنى منزلة من الشعر.

إن وصف أسلوبية الانزياح للغة الأدبية بأنها انتهاك لنظام اللغة العادية صورتها وتركيبها ودلائلها، لا يترجم الخاصية الأدبية للأجناس الشعرية. إنه وصف لطبيعة لغة الشعر. وفي هذه الحال لا ترقى هذه الأجناس في نظر أصحاب هذا المفهوم إلى تمثيل جوهر الأدب. ولعل هذه النظرة القائمة على التفضيل الأسلوب الشعرية أن تهدر ما للتطوي عليه الأجناس الأخرى من خصوصية أسلوبية.

إن الفارقة بين الأجناس الأدبية غير مقبولة: فكل جنس أدبي جماليته الخاصة، فهو أن مفهوم الانزياح الذي صاغ لتسوره الأدبية على أساس الخلق اللغوي، يفضي إلى اعتبار جمالية الشعر معياراً نموذجياً، في حين نتواجه بمعالجة الأجناس الشعرية إلى موقع أدنى، وهو ما يتنافى مع الرسالة الإنسانية للفن، ووضعت في تاريخ الحضارة البشرية.

وليس الانزياح المفهوم الوحيد الذي يكتشف لنا سلطة لغة الشعر في صياغة مفاهيم الأسلوبية المعاصرة حول اللغة الأدبية. هناك أيضاً مفهوم «الوظيفة الشعرية» الذي صاغه «ياكسون»^{٢٢}، وتردد بعد ذلك بشكل لافت للنظر. وإن كان بعضهم قد اعترض على المصطلح مقترحاً «الوظيفة الأسلوبية»^{٢٣} حتى لا يوهم بأنه مقتصور على الشعر. والحق أن هذا الاعتراض ليس جوهرياً، ذلك أنه من منظور هذه الدراسة، تعدو تسمية «ياكسون» أكثر وفاء للواقع ولا نعدو أن تكون التسمية التي اقترحها ريفاتير Riffaterre تدوياً للمشكل وضلعاً للحقيقة. إن «الوظيفة الأسلوبية» على نحو ما قدمها «ريفاتير» ليست إلا تنوعاً آخر على «الوظيفة الشعرية»، وكلاهما يمثل لغة الشعر ولا يحيل إلى خصائص الفن الأسلوبية.

إن مفهوم الوظيفة الشعرية، على نحو ما تطور في الدرس الأسلوب المعاصر، يقوم على جنس الشعر، فهو الخطاب الذي يستمد منه أصله الجمالي، على الرغم مما يوجد من سمات مشتركة بين أنماط الخطاب المتممة، ويمثل الميار اللساني الذي تتحدد به الوظيفة الشعرية في عملية إسقاط يقوم بها المتكلم لبدء التكاثر من محور الاستبدال على محور التركيب، بحيث يصبح مبدأ التكرار السمة الأساسية في الخطاب الفني، فالعلامة

الأسلوب ومفهوم الجنس الأدبي

اللغوية تلتفت على ذاتها، ولا تحيل على السياقات الخارجية إلا على نحو ثانوي، ونتيجة لذلك، تتزلق الوظيفة المرجعية إلى موقع خلفي غير لافت.

إن هذا النوع من الخطاب الذي يهتمي بعلاقاته الداخلية بواسطة خلق رسالة لغوية غير متعمدة، يختزل في حقيقته ماهية الشعر، والقصود بالذاتية هنا جنس الشعر في أصله الجمالي الذي رسمته الممارسة الشعرية في تراكم نصوصها، وليس المذهب الجمالي الذي قد تفرع إليه خصوص هذا الجنس الأدبي في إحدى مراحل تطوره.

هكذا يختزل مفهومها الانزياح والوظيفة الشعرية في أصولها الجمالي ماهية الأسلوب الشعري، على نحو ما تختزلها معظم الفهرومات الأسلوبية التي تبلورت حول اللغة الأدبية في إطار الأسلوبية المعاصرة. وقد اقتصرنا عليهما، دون غيرها من الفهرومات، لاشتهارهما وبهيمتهما في جل الأقطار الأسلوبية والبلاغية الحديثة.

إن مفهوم اللغة الأدبية، على نحو ما تم طرحه في نظرية الأدب الحديثة، لا يبدو أن يكون في الأساس بحثاً في خصائص لغة الشعر، وبذلك يتم اختزال الأدب في أحد أجناسه ويغدو الحديث عن طبيعة الأدب سرداً لتفصيلات الأسلوب الشعري⁽¹⁴⁾. وقد حاول بعض الباحثين⁽¹⁵⁾ الأسلوبيين انتزاع هيمنة لغة الشعر على مفهوم اللغة الأدبية في آفاق الاهتمام بلغة النثر، باعتبارها لغة هنية يبغي تدوير جميعها الأسلوبية، غير أن هذه التحولات ظلت سجيئة للقياس الشعري هي تصورهما من الأسلوب والانتزاع في بكوة تصورهما للغة النثر بمراعاة الأصول الجمالية للأجناس النثرية، وهكذا لم يتجاوز الاهتمام بقدي بلغة النثر، عند هؤلاء، آفاق تطبيق مقولات بلاغة الشعر على جنس أدبي نثري ذي تكوين متميز.

ويتميز «ميتاتيل باحثين» الناقدة الأسلوبية الذي دعا بوضوح نظري إلى ربط دراسة اللغة الأدبية بأسول الجنس الأدبي ومكوناته، فقد لاحظ أنه، بعد الفترة التي شغل فيها النقاد مع لغة النثر، كأنها لغة عملية تواصلية لا يمحج اعتبارها فناً لغوياً، أعقبتها فترة أصبح فيها ممكناً طرح قضايا تحليل أسلوبية النثر الأدبي أو الرواية تعديداً، غير أن هذه المكانة التي أخذت تحتلها لغة النثر الروائي في الأسلوبية – كما يصيف باحثين موضعها – هي التي أظهرت عجز الأسلوبية التقليدية عن الإكمام بالخصائص الأسلوبية للغة الجنس الروائي⁽¹⁶⁾.

وبناء على ذلك دعا «باحثين» إلى أن تحليل أسلوب الرواية ينبغي أن يقوم على مراعاة إمكانات هذا الجنس الأدبي بوصفه عالماً لغوياً متعدد، لا يقوم على لغة واحدة كما هي الحال في الشعر، فهناك كلام الكاتب وكلام الرواة والأجناس الدخيلة وكلام الشخصيات. هذا التعدد اللغوي ينطوي على تعدد في الأصوات الاجتماعية وفي الأساليب، وتظهر أصالة الجنس الروائي في أن هذه الوحدات الأسلوبية غير المتجانسة تآلف فيما بينها، حيث تدخل

الرواية هي نظام هي محكم، وتضلع لوحدة أسلوبية عليها هي وحدة الكل. وهذه الوحدة العليا لا يمكن مطابقتها مع أي من الوحدات التابعة لها أو معادلتها بها^(٣٧).

إن التحليل الأسطوسي للنثر الروائي يتبني إذن أن يراعي سمته الأسلوبية الجوهرية المتمثلة في اقتران لغات وأساليب متعددة في وحدة تنظيمية عليها وهوار اجتماعي، وبدهي أن أسلوبية الشعر التي قامت على وحدة اللغة وهربية الشاعر كفنية والكلامية تعجز تماماً عن مقاربة الأسلوب الروائي الحواري أساساً. وقصارها أن نعالج لغة الرواية أو أسلوبها وفق مقولاتها المعهودة، ولكن بالتأكيد أن يكون ذلك هو الأسلوب الروائي الحواري في تنظيمه الكلي المعقد الذي يميزه عن أسلوب الشعر.

لقد انطلق مباحثين، في بناء فكرته من ضرورة التفريق بين الأصول الجمالية والأيدولوجية المكونة لجنس الشعر والنثر الروائي، هذه التفرقة لا مناص منها إذا شئنا صياغة أسلوبية تستوعب لغة النثر الروائي المبالة في خصائصها للغة الشعر^(٣٨).

يظهر، مما سبق مناقشته، أن الأفكار والمباحث التي تبلورت في نطاق الأسلوبية والبلاغة مبنية على أصولها لجنس الشعر، الذي استولى عليهما إلى درجة أن تناولهما للنثر لم يتجاوز الثيمات السفرى التي ارتبطت بالأسلوب الشعري كمرافقة الانزياحات وسير الطاقة التأثيرية للصورة الجوهريّة من تشبيهات واستعارات وغير ذلك من الطرق المتأهولة في تحليل لغة الشعر. ويظهر هذا القول أن المدرس الأسطوسي، على الرغم من دعوته لتناول قضايا اللغة الأدبية، ارتبط، بشكل وحيد من أشكال هذه اللغة ويتمثل في الشعر. وذلك لا اعتبار جوهري نعرض له فيما يأتي.

على الرغم من أن التنظيم الجمالي للغة بعد فاسما مشتركاً بين جميع الأجناس الأدبية اللغوية، فإنه أظهر في الشعر من غيره، فهذا الجنس الأدبي بمكوناته المتمثلة في شكله المنظوم أساساً يفرض انتباهاً خاصاً ومباشراً إلى النسيج اللغوي^(٣٩) وهو رأي يؤول إلى «كولريدج» الذي اعتبر الشعر أكثر إثارة للفتنة من النثر^(٤٠) فهو يتميز عنه بأن اللغة التي يديرها «تتأتى من الكل كما أنها تتأتى من كل جزء من الأجزاء على حدتها»^(٤١)، فمع أن «كولريدج» يرى القسيمة بنية عضوية تتأزر أجزاؤها في تكوين منسجم بحيث لا تكون لهذه الأجزاء المستقلة بذاتها أية أهمية، إلا أنه يرى أن الصورة الكلية لا تتحقق إلا بأن يكون كل جزء منها مثبهاً للانتهاء أي حياً ومجهزاً.

إن تحديد الاختلاف بين التنظيم اللغوي في الشعر والنثر، على الرغم من ضعفه^(٤٢)، استلزم بالاعتماد انقضاء الأسطوسيين، بل صار قضية جوهرية في بعض التصورات الأدبية. نخص منها حركة الشكلانيين الروس الذين كادوا يقصرون نشاطهم النقدي على إشكالات لغة الشعر ولغتها عن لغة النثر^(٤٣).

الأساطير ومظاهر اللغة الشعر

ويكاد معظم الأسلوبيين بأنظارهم المختلفة ينشغون بأن وظيفة لغة الشعر تتمثل في تركيز الانتباه على العلامة اللغوية بذاتها. ومن هنا فهي تتنافس مع التوجه الحقيقي نحو هدف ما. وقد عبر «سارتر» عن ذلك واصفا الشعراء بقوم يتفرغون باللغة عن أن تكون متخفية. «وفي الحق أن الشاعر أبعد ما يكون من استخدام اللغة أداة. وقد اختار طريقه لاختيارا لا رجعة فيه. وهو طريق فرضه عليه مسئلة الشعري في اختيار الكلمات أشياء في ذاتها وليست بعلامات لعان»^{١٣٨}.

وإذا كان من الصعب تحريد لغة الشعر من وظائفها التوضيحية، فإنه ينبغي ألا نكيس التوسيل الفني على التوسيل التفني الذي يسود اللغة العادية. وقد كان لانتباه لغة الشعر عن أن تكون أداة ناعمة في خدمة أغايات خارجية أن أصبحت تنظيمها قطريا مطلقا بمعنى من المعاني. وإن كانت نسطح بوظائف أخرى: «إن الشعر هو نوع من الكلام.. الذي يجعل «الإشباع» أو «التألق» هدفه الغالب»^{١٣٩}. أو هو «الكلام الرقيق اللطيف» والشكل^{١٤٠}.

في الشعر تصبح الكلمات ضايات في ذاتها. ولأجل ذلك كان التركيز فيه على التسجيع القطعي الذي يهلك نوعا من السحر أو الإشباع يضيق بالخيال مع الترجمة. إن الشاعر يجعل التنظيم القطعي هدفه الأول. فهو يحرم على التفتت البسيط في المبالغة، إنه يوفر في قصيدته كل المعلومات التي من شأنها أن تجعل العلامة الزمعية تستنفذ النظر وتجتنب التأمل. أما التأثير فإنه لا يعتمد إلا على جعل التنظيم القطعي صفة ملحوظة. لذلك اتنا عادة ما نعتبر العلامة اللغوية في الشعر أبرز الشيء انتشارا إليه، دون أن نغفل هذه العلامة إلى ذاتها.

وقد أشار صاحبها نظرية الأدب إلى أن لغة الشعر تشدد على وهي الإشارة ذاتها على ترمز الصوتي للكلمة. وقد وضعت جميع أنواع الصنعة لتفتت النظر إليهم كالوزن والسجع والأنماط صوتية مكررة. وهي صفات وإن كانت موجودة في لغة الشعر. فإنها أقل كميّا. كما أنها في الشعر أكثر تنظيما. «لوضعنا قسرا في حالة من الوعي والانتباه»^{١٤١}. هذه الفكرة الشائعة الآن، تمثل عماد تصور الشكلانيين للغة الشعر في اختلافها عن لغة الشعر أو اللغة القياسية. وقد وجدت صيغتها العلمية المحكمة عند كل من «هاكيسون» و«جان موكاروفسكي» Jan Mocarowski. ولم يعد عنها حتى أولئك الذين دعوا إلى تعاضد الشكلية لبناء نظرية إلى لغة الشعر على أساس مختلف. على نحو ما نجد عند يوري لوتمان Jurgen Lotman الذي اعتبر «التكافؤ» Equivalence أحد البادئ التكوينية للشعر. فالشاعر يلجأ إلى جميع مظاهر التكافؤ الإقناعي والفنولوجي والنحوي لجعلها مثيرة للانتباه^{١٤٢}.

وكان «أحمد الشايب» يرى أنه على الرغم من اشتراك الشعر والنثر في كثير من العناصر، إلا أن «هذه المظاهر الظاهرية التي تذكر في الأسلوب الشعري إنما تعد فيه أقوى مظهرا وأحسن ملاحظة»^{١٤٣}. فالشعر إذن يقوم على إثارة الوعي بالمظاهر اللغوية المنظمة تنظيميا

جمالية لافتة، وذلك بالتوسع في دلالات الألفاظ، وصيغها وتركيبها واستفاد طاقات اللغة في التعبير واستغلال إمكاناتها الإيحائية. وبذلك تختلף اللغة في الاستفاد الشعري عن استخدامها في الأجناس الأدبية الأخرى. وقد وقف سعيد غنيمي هلال، على فرق دقيق بين لغة الشعر ولغة السرح، حيث رأى أن اللغة في الشعر تعتمد «طاقات الصياغة وإشعارات اللغة الإيحائية، بينما تعتمد اللغة في السرح على «امتداد الأبعاد النفسية والاجتماعية من خلال موقف إنساني تقوم الصلوات فيه مقام الاستدلالات الشعرية التحليلية لوقت هو احتشائي بطبيعته، ولغة السرحيات محددة بالمشكلة المدني للشخصيات في حوارها»⁽¹³⁾.

ويظل الوعي بأصول الجنس الأدبي ومكوناته مقدمة ضرورية لتحديد خصائص اللغة على نحو ما يتم استغلالها في الأدب بأجناسه المختلفة، ولعل الشعر الذي اختلفت طبيعته عبر الأزمنة وحامت حوله تصورات جمالية واجتماعية متباينة، قد ظل له ثابتة الوعي المتمثل في أنه كيفية خاصة في التعامل مع الكلمات.

لما كان إذن التنظيم اللغوي، بجميع مستوياته ومختلف تشكيلاته، مكوناً شعرياً، في المقام الأول، فإن ذلك كان داعماً لنا القول بوجود صلة وثيقة بين الأنظر الأسلوبية أو البلاغية وبين جنس الشعر.

٢- صفات الشعر وعلاقتها

نحاول الآن التعرف بعض خصائص الشعر التي كانت وراء صياغة النظر البلاغي العربي القديم، ودرجيه أداته الوصفية والتأويلية. وقد نعال أحد السبل المؤدية إلى الوقوف على هذه الخصائص في مقابلة الشعر بالنثر، والمقصود بالنثر في هذا السياق، الخطابة والقرصن، وكان الأجناس النثرية الأخرى لا وزن لها ولا يصح مقابلتها بالشعر.

وإذا كان بعض علمائنا الأسلاف قد اعتبر الشعر والنثر «في طرفين ضدتين، وعلى حافتين متباعدتين»⁽¹⁴⁾، فإن بعضهم الآخر أطر بداخلهما وتعامل أساليبهما «ففي النثر ظل من النظم ولولا ذلك ما جف ولا حلا ولا طاب ولا تحلى، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله ولا عذبت موارده ومصادره»⁽¹⁵⁾. ومع ذلك تظل للشعر أساليبها التي تعد أصولاً في طبيعته. يقول ابن رشيق في تحديد خصائص الشعر: «فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ، وإبداعه، أو زيادة فيما الجحف فيه لغيره من المعاني، أو نقص مما أظاله سواء من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه من وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن»⁽¹⁶⁾.

لقد ارتبط الشعر عندهم بـ «ضرب القل» و«تأزاع تشبيه» و«توشية لفظ» و«مدح مأمول» و«ترقيق غزل» و«هجو مسيء»⁽¹⁷⁾ و«بهات لغزاً» و«علن تستفاد» و«لفاظ ترويق» و«عذب»⁽¹⁸⁾ كما

البيت الشعري

ارتبط عندهم «بالجواز والتسليم»، فيما سمي بمذهب المبالغة أو الغلو^{١٢٠}. يقول ابن أبي الحديد «الشاعر أن يبالغ ويوغل حتى يدخل في الإحالة وليس ذلك للكاتب»^{١٢١}. وذلك لأن الشعر يتألف على «المبالغة والتعظيم لا التصاغة والتحقيل»^{١٢٢}.

إن الرّبط بين الشعر والتصوير اللّغوي يمثل إضافة أخرى إلى ربطهم الاستيعادي بينه وبين الوزن. فبعد الظاهر الجرجاني يرى حذف المفعول سمة شعرية^{١٢٣}. ومثل هذا الرّبط يذكرنا بالمبالغة التي أضافوها بين التشبيه والشعر، ذلك أنه يروى أن عبداً الوحمن ابن حسان «رجع إلى أبيه حسان وهو صبي يهكي ويقول «لنفسى طائر» فقال حسان «صمه يا بني» فقال: «كأنه مطلق في بُردى جهرته وكان اسمه زهور» فقال حسان: «قال ابنى الشعر ورب الكعبة»^{١٢٤}.

يقول ابن رشد «إن الأمور التي تقوم بها الصنائع صنفاً: أمور ضرورية وأمر تكون بها أتم وأفضل»^{١٢٥}. ويصطلح على الأمور الضرورية بـ «المكونات» والأمر للتمعة بـ «السمات». ولما كان الشعر صناعة كباقي الصناعات، فإنه ينس على جملة من المكونات الضرورية التي تعطي سماتها. وهكذا يتحدد جنس الشعر العربي الذي صدرت عنه الملاحظة بهذه السمات الأساسية في ارتباطها بالمكونات التي يمكننا صيغتها في ثلاثة عناصر تحسنت في معالجة الأسلوب الشعري الذي شكل أساس الخطاب البلاغي والفنّي الموروث.

أ- صيغة البيت الشعري

يرسم ابن خلدون حدود صناعة الشعر قائلاً: «هو كلام مختص شتما متساوية في الوزن متحدة في الصرف الأخير من كل قطعة من هذه القطعات بعضهم بيتاً.. وينفرد كل بيت منه بإلفاظه في تراكيبه حتى كأنه كلام واحد مستقل عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء. فمحرمي الشاعر على إسقاط ذلك البيت ما مستقل في إلفاظه ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك...»^{١٢٦}.

يشير ابن خلدون هنا إلى أحد أبرز مكونات الشعر العربي: لتتمثل في البيت الشعري المستقل بذاته ومعناه. وكان صناعة الشعر تقوم على العناية الدقيقة ببناء البيت وإيوائه تصبیه من الجهد والرعاية والإحكام حتى يصير مكتملاً بذاته لا يحتاج إلى غيره من الأبيات الأخرى. إن القصيدة العربية عبارة عن أبيات مستقلة بذاتها تشكل محور إبداع الشاعر والفنّان. فلم يكن الشاعر العربي معنياً بوحدة القصيدة أو صورتها الكلية بالشكل الذي دعا إليه الرومانسيون. فوحدة البيت كانت تغلبه عن التفكير في مجال أرحب. وقد يوجه نظافته إلى إحكام مبنى القصيدة كالتفنن في الطابع وإحسان التخلص والختام. غير أن ذلك لا يتجاوز الهيكل الشكلي للقصيدة، ولا يغطي قوامها على وحدة البيت أساساً. وإن اجتهد بعض القدامى في التماس الوحدة بين أقسام القصيدة أو قصائدها.

إن وحدة البيت التي شغف بها الشاعر العربي، واستأثرت بصناعة النقد والبيان لا تنفي أن يكون الشعر العربي قد حرص على توفير ألوان من الوحدة¹¹⁴ التي لا تشبه تلك التي دعا إليها النقاد الرومانسيون. كما أنها أكثر عمقا من تلك التي استوفقت ابن قتيبة وابن طباطبا وحلّزما القرطاجي. ومع ذلك فإن وحدة البيت نطل الأصل والعماد هي صناعة الشاعر والناقد معا.

لقد نظر مجموعة من نقادنا القدامى إلى سمات الشعر في ضوء معيار وحدة البيت، وكان ما تتميز به لغة الشعر من سمات، إنما أعلتها مكونات البيت الشعري الذي نحول إلى سلطة جمالية تعمل على توجيه الصياغة التقوية وحرص الاختيار الأسلوب. وهي هذا الصدد نسوق ما قاله أبو إسحاق الصامي في تبيين الوشاح بين سلطة جمالية البيت الشعري والسمات الأسلوبية التي تستلزمها: «الشعر يشي على حدود مقبورة وأوزان مقبورة وفصل أبياتا، كل واحد منها قائم بذاته، وغير محتاج إلى غيره. إلا ما ينقل أن يكون مضمنا بأخيه، وهو عيب، قلما كان اللغز لا يمكن أن يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل، احتيج إلى أن يكون الفصل في المعنى فالعند فيه أن يتلطف ويدق، ليصير المضمي إليه والتلطف عليه بمنزلة المناظر بذهيرة خافية استثارها... ثم إن للمناظر وقفات على إيجاز الأبيات قد وضعت لإزالة الغنى والغلظة بالمعنى وهي مثل ذلك بحسن خفاء الأثر وبعد الترميز. ويقول أبيتاً: «الشاعر إنما يسوق القصيدة بهذا مينا، فهو يجمع فيها حته وفكره على كل بيت منها فينهره ويبلغ لوانته منه: «وإنه من الأوزان والتشابة في ذلك» وإشفاق يفرسان له بأكثر حدود الشعر. فكانه إنما يحذوه على مثال أوزانهم هي قائم»¹¹⁵.

يحسن بنا الإشارة إلى أن كلام أبي إسحاق الصامي يورد في سياق بيان أسباب تقوى عربة المترسل على عربة الشاعر. وهو ما أتاح لنا التعرف على بعض سمات الشعر التي تميزه عن سمات الرمائية، دونما أن يعنينا فيما الأفضلية في حد ذاته. ويمكننا توضيح السمات الأسلوبية لكل من هذين الجنسين ومكوناتهما، على نحو ما تم استخلاصها من مقالة الصامي بهذا الجدول التوضيحي:

الشعر (القصيدة)	النثر (الرسالة)
استقلال الأبيات	ترابط الفصول واتحادها
القراءة المجزأة	القراءة المتصلة
التنقيح الخاص	التنقيح العام
التعبر	الطول
التمويه	الوضوح
الابتداع	4

أدبنا ومفهوم البيت الشعري

إن شكل البيت الشعري بقبوله، فرض على الشاعر العناية المتزايدة بالتصحيح اللغوي، وذلك بتوفير وسائل تكليف المعنى وتلطيفه، كأن يتم التجويد إلى ضروب من الإشارة وأنواع من الإيهامات والتكبيهات^(١٢٠)، أو استئصال ما تزخر به اللغة من إمكانات تركيبية، إذ «الاشك أن بناء البيت قد أرفق الاستعداد الطبيعي في اللغة للتفنن في التركيب من تقديم وتأخير وحذف وذكر ... إلخ»^(١٢١)، أو التجويد إلى صور التوسيع في المعاني والمصروف والتحرر^(١٢٢)، مما لا يجوز لغير الشاعر، أو التوسل بالإيهاز. ولأجل ذلك اعتبر «البيت السائر» من خصائص جودة الشعر.

لقد كان قضاء البيت الشعري إذن محور إبداع الشاعر، فهو يعتمد إلى بذل ما في وسعه لكي يفرغ فيه طاقته الخلاقة، ويدهي أن تتركز العناية هنا على اللغة بجميع عناصرها، إن هذا القضاء القيد يصرح شروطاً إبداعية خاصة تتعلق في التصوير الدقيق والتكثيف الذي يتوجه به الشاعر إلى مثل خاص يساهم بدوره في تشكيل المعنى، وهذه الشروط تختلف عن تلك التي يلتصقها قضاء النثر المستمر ذي الفصول المتصلة والطويلة التي يجد فيها الكاتب نفسه طليقاً، يضرب بها، وشعاعاً وبعد نفسه تارة ويُصغره أخرى^(١٢٣)، ويدهي أن تتسم الكتابة الشعرية في مثل هذه الشروط بالسلاسة والوضوح، ولا يضلح فيها «التظيم اللفظي» بالوظيفة نفسها التي يهيم بها في الجنس الشعري.

إن هذه الوثيقة القائمة بين مكونات الشعر الشكلية والسمات الأسلوبية اللغوية التي كشف عنها نقادنا القدامى، أشار إليها النقاد المعاصرون حينما يرون «فراهم» هو أن الشعر بما له من تنظيم شكلي صارم مستقل عن معناه، يجذب إليه الإستماع اللفظي، لذلك يطلب من الكلام في التنظيم أن يكون من نسيج لفظي أرق من نسيج النثر الذي يقرأ دون كشط من الاهتمام الدقيق... إن اتفد المدقق في لفظ الشعر يبدو دائماً طبيعياً وملائماً، فالتنظيم يأخذ عادة بجرعات كبيرة، وأخصاها لتحليل معاني يبدو نوعاً من الحذقة أو تحريضا لنوع خاص من الدراسات الأكاديمية»^(١٢٤).

هل يجوز لنا القول بعد هذا إن البلاغة العربية، إذ ارتكزت على الأسلوب اللغوي، فإنها كانت تعبر عن خصوصيات الشعر بخصوصياته ومعاييرها؟

أدبنا ومفهوم البيت الشعري

بشكل «الفرض الشعري» أحد مكونات الشعر العربي سواء بوصفه موضوعاً يداعبه الشاعر، أو «شكلاً أدبياً» له تقاليد ومفوماته الأسلوبية، والفرض الشعري بهذا المعنى ذو تأثير واضح في الصياغة اللغوية، فهو يلتقي مع معيار «البيت الشعري» في أن كليهما يساهمان في الكشف عن خصوصية الأسلوب الشعري الذي اقتصرنا صغور البلاغة القديمة عنه.

وإذا تناولناها عما يمرضه الغرض الشعري باعتبارها «شكلاً أدبياً» من سمات أسلوبية تنطبقها القدماء كالتواضع بين المعاني والاستهلال والخروج والانتهاء... إلخ، وأخضرنّا الغرض بوصفه موضوعاً، فإننا نجد لموضوعات الشعر العربي تأثيراً هي الصياغة اللغوية المختارة، ذلك أن المدح والهجاء على سبيل المثال باعتبارهما موضوعين شعريين، يعلمان على الشاعر لونا خاصاً من البناء اللغوي الذي يعتمد تأثير التركيز والتفاد إلى النفوس والعبورية بين الناس.

وإذا كانت مكانة الشعر تتجلى في قوة تأثيره وسهولته⁽¹⁴⁴⁾ وسرعة ولوجه⁽¹⁴⁵⁾، فإن من مظاهر ذلك في المجتمع العربي إطلاق القاب على الأشخاص أو القبايل بألفاظ الشعر، فقد قيل لبيبي تيم: «صباحي الطلام» ملى أن قال فيه: امرؤ القيس:

أمرؤ حشاً امرؤ القيس بن حجر
يتو تيم فصباحي الطلام⁽¹⁴⁶⁾

وهذا يبين أن الطاقة الأسلوبية للشعر لتعمل في الصيغ التصويرية المركزة سواء كانت ألفاظاً مفردة أم مركبة، فالتأثير الشعري يكون بإحكام صفة البيت والتوفيق في اختيار الألفاظ والوقوف على «الثلث السائر والاستمالة الرائعة والتشبيه الواقعي»⁽¹⁴⁷⁾.

على هذا النحو يبدو أن لأقوال الشعراء بوصفها موضوعات، تأثيراً هي الاختيار الأسبوبي للشعر، التي يصرح إلى خلق نمط من الشعر ينجح إلى التركيز والإيجاز الشديدتين، ولأجل ذلك استمدح الشاعر الذي يكتب بالبيت الواحد من شعوره بل ونصف البيت بل بربعة⁽¹⁴⁸⁾، ولقد أصبحت صفة الإيجاز مياراً للتجويد يستلزمه التقاد في موازناتهم ومعارناتهم بين الشعراء، كتفضيل ابن جني بيت أبي تمام على بيت للملكي اشتركا في معنى واحد، إذ كان أبو تمام قد «حاز» في مصراع واحد⁽¹⁴⁹⁾.

لقد اعتبرت «الأغراض» من أركان الشعر وأصوله⁽¹⁵⁰⁾ ومقاصده⁽¹⁵¹⁾ التي بني عليها، وليس قيامها هي الأغراض الشعرية إلا سمة عارضة وطارئة، ولا ينبغي أن تعد أصولاً فيها. وبذلك كان «الغرض» مكوناً شعرياً ارتبط بعنصر الشعر وأصبح من تقاليد الفنية التي يتوارثها الشعراء دون أن تكون لها أي صفة مرجعية أو محتوى خطفي نصديقي، فامرؤ القيس وهو الملك بن القلاء احتذى سبيل بن الضيئ بالبحر⁽¹⁵²⁾، كما أن شعراء الغزل نظروا إلى المرأة بوصفها نموذجاً شعرياً أكثر مما نظروا إليها باعتبارها حدثاً حقيقياً.

وعلى الجملة لقد كان «الغرض الشعري» مكوناً من مكونات الشعر العربي، الذي يلعب كثيراً من الظواهر اللغوية الأسلوبية التي لجأ إليها الشعراء، وبذلك أسهم في الكشف عن طبيعة الأسلوب الشعري الذي صارت سماته موضوع اليلالة والتفد.

٢- معايير الخطبة

لا شك أن ثمة علاقة وطيدة بين الخطبة والبنية، فلما كانت وظائف اللغة متعددة، انعكس ذلك على بنى الكلام حيث ارتبط اختيار النمط التصوري بنوع الخطبة المقصود توصيلها في الرسالة القوية. ويذهب أنه لا تستقل الرسالة بوظيفة واحدة، فقد نجد في الرسالة الواحدة وظائف عدة، ولكن ما يميز رسالة عن أخرى هو طبيعة النظام التراتبي الذي تتخذ هذه الوظائف المنوية داخلها، حيث يهيمن بعضها على الآخر فيما يشبه تقديمها إلى الواحة أو تراجعها إلى الخلف، هكذا نجد في النص الشعري هيمنة الوظيفة الشعرية، بينما تهيمن في النص الخطابي الوظيفة الإقناعية. فالشاعر يلجأ إلى تكثيف وسائل التعبير الجمالي بصورة غير مألوفة قصد وضعنا قسراً في موضع الاتياع أما الخطيب الذي يتفاد الإقناع، فإن وسائله التعبيرية مختلفة عن تلك التي يستخدمها الشاعر.

وربما كان الفلاسفة المسلمون^(١٢) أوضح من وضع الحدود بين الخطابة والشعر في مبرراتها التقدي والبللغية، فعلى الرغم من إقرارهم بوجود تشابه بين الشعر والخطابة في كثير من وجوه الاستخدام القوي للتسمة بالانفعال والتصور، لما يحتاج إليه الخطيب في العبادة من وسائل «التحجيل» الضرورية في تحقيق الإقناع، فإن وجوه الافتراق بينهما تظل واضحة في نظريتهم. فهم يرون أن الخطيب ينبغي له الإكثار من استحداث التهجييات والاستعارات وكل ما هو خاص بالشعر، كما ينبغي أن يكون خطابه لها قدر أشد قريباً إلى الأفهام وشبهتها حتى لا يقع في كلامه غموض أو غرابة مما يحد من سمات الشعر.

على هذا النحو تحدد وظيفة «التحجيل» سمات الشعر المتمثلة في التجو، إلى صور البديع بشكل لافت للنظر يثير التأمل الذهني والوجداني، كما تعدد وظيفة «الإقناع» سمات الخطابة التي تعتمد إلى الاستعمال الحقيقي والمنطقي للغة، ولا تلجأ إلى الأسلوب الشعري إلا مضروب من الاقتصاد حرصاً على إيقاع التصديق. وكما أن الشعر يتوخى بالإضافة إلى التحجيل، التأثير في سلوك الجمهور الثقافي، من هنا حاجته إلى وسائل الإقناع. فكذا الخطابة في حاجتها إلى وسائل التحجيل لإحداث الانفعال للصلاب للإقناع. وبذلك يحو كل منهما وظيفة الآخر ولكن في موقع ثانوي.

وعلى الجملة فإن «التحجيل»، يمثل وظيفة الشعر الأصلية التي تفسر لجوءه إلى جملة من السمات الأسلوبية التي ارتبطت به وأصبحت من مبادئه التي شكلت موضوع البلاغة. ويبدو أن هذه السمات قد تشكلت في خطابها البلاغي والتقدي في مجموعة من الأصول ذات الطابع الكلي.

٢ - أصول البلاغة عند القدماء

إن معظم الأصول الجمالية، التي تبلورت في إطار البلاغة والتقد القديمين، تعتمد جذورها في جنس الشعر. فما كان يهم البلاغيين والنقاد القدماء هو إنشاء بلاغة للشعر، ولعل قارئ

کتاب «مناهج البلاغه وسراج الأدباء» الذي أقر فيه حازم بأن «علم البلاغة يشتمل على صناعاتي الشعر والخطابة»⁽¹¹⁾، سيلاحظ أنه خاص بجنس الشعر. ولا يذكر الخطابة إلا عندما يقرنها بالإقناع الذي تستلحق به عن الشعر. وإذا كان الطائي لا يصد في الموروث البلاغي عبارة بالخطابة تذكر على سبيل المثال الجاحظ والعسکري وابن وهب، إلا أن هذه العبارة كانت طبيعية في سياق المكانة التي احتلها هذا الجنس في المجتمع الإسلامي واقترب من معناه الأسلوبية من الأسلوب الشعري.

ولم يكن حضور الخطابة في الثقافة العربية وتأثيرها في موروثها البلاغي يعني أنها كانت تزامم الشعر، ذلك أن تسمي التصور الخطابي إلى التفكير البلاغي، كما تشهد على ذلك عناصر عمود الشعر⁽¹²⁾، إنما هو أمر راجع في الأصل إلى ما يتسم به الشعر من نزعة خطابية، فالتصنيف العربية ارتبطت منذ النشأة بالإشهاد والتغني بالقيم الخلقية والفتاح عن القبيلة ثم عن الأمة بعد ذلك، فكان الشاعر لسان قومه المخد لأتباعهم والمعبود عن حكامهم، ولأجل ذلك حرص على أن يظهر لتصنيفه كل ما يتضمن لها التأثير والعبودية، ولكن هذه «الخطابية» لم تكن سوى شعبة أسلوبية يولد بها الشعراء دون أن تطلق على السمات الشعرية الخاصة.

لم تكن السمة الخطابية أو التعليل الخطابي -سواءً أعمد أو أعمد- من بين سمات كثيرة اعتبرت من قوانين الشعر العربي. فبين أن القيم بالسمة الخطابية هذا أن حازم القوطاني ربط بين الشعر وهذه السمات الأسلوبية، وهو ما يكشف عن طبيعة رؤيته لأهمية الشعر التي تتحدد عنده في إبداع اللغوي وإحكام المعاني. ويبدو أن يتم ذلك بالاستعارات والتشبيهات الطفلة أو توليد معنى واختراعه واختيار البناء الملائم، وعلى العجلة تشكل السمات الأسلوبية الضرورية معياراً جمالياً في الشعر.

يقوم الشعر - في نظر حازم والملازمة المسلمين - على «التمكك» و«التخييل» والتزين بفيدان أن الشعر في جوهره تصوير أو تعليل، والفرض من هذا التصور أحداث خرب من التأثير في التلقي. ولا يتم في الشعر ما يحتوي عليه من مادة، فهو كلام مغيب يتقياً منه المتلقي الاستجابة الجمالية. والتخييل، وإن أضاف التأثير، فهو يدل أيضاً على التشكيل أو المصفاة الجمالية المؤثرة. وبذلك يلتقي مع مفهوم الحكمة بالعرض الواسع الذي لا يقتصر على علاقة التصوير بالواقع، أي كون الشعر قولاً مغيباً لا يخلص ليعاري الصدق والكتب، بل يشتمل عملية التأليف الشعري كلها⁽¹³⁾. ويتحقق القول الخيل بجملة من «الحاسن التأليفية» أو الصيغ البلاغية الشعرية:

- حسن التأليف وتلاؤمه، ويعني به التناسب المصنوعي أو صور الموازنات المصنوعية. ويقع تحتها جميع صنوبر الجناس، جناس الأصوات والألفاظ مع مراعاة الاستخفاف والانسجام.

الأساليب ومفهوم الأسلوب الأدبي

« حسن الوضع القطعي » وهو أن يأخذ في الكلام بين كلم تتعاقب في مواد لفظها أو هي صيغة أو هي مقابلها فتحسن بذلك صياغة الكلام^(١٢٢).

« التسهل في العبارات وتركه التكليف والاستعجاب والطلاقة والجزالة ».

ومن السمات الأسلوبية النحوية التي تشتهر بها المحاكاة الشعرية فتصير القوى تأثيراً « بالقاسية بين بعض المثالي وبعض، والمقارنة بين ما شاظر منها^(١٢٣) » فالتفوس في نظر حازم القرطاجني شذويع للمتشابهات والتضاديات، وهو يرى أن لظاهر القوميات بطنى الحسن على الصورة البلاغية، من ذلك تضافر « التقابل » و« القلب » أو تضافر « التجنيس » و« الاستطراد^(١٢٤) ».

وتقع تحت باب محاسن المحاكاة الشعرية حيلة أخرى من السمات النحوية، مثل الطائفة والمقابلة والتقسيم والتفريع^(١٢٥)، حتى إنه يمكننا القول إن مفهوم « المحاكاة والتسهيل » على نحو ما صاغهما حازم بخصان جنس الشعر ولا يستوعبان أساليب الأجناس الشعرية.

لم ي طرح حازم إذن عن نظار نقد الشعر وبلاغته، وهناك اعتبرت مجموعة من المفهومات والأسلوب الجمالية التي قام بصياغتها، مستمدة من الشعر ومضخمة بروحه، من ذلك مفهوم « الترافية » و« التعجب » اللذان لا يطرأ منهما شعر جيد، فلوما يمكن حومر التصوير الشعري الذي عبر عنه حازم قائلًا، و« التعجب (أو الترافية) يكون باستدراج ما يشبه الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثله، فزودها صيغته مستطوية على كنهه كالمصراع في مشرقين في جهة لطيفة قد اتسب بها أحدهما إلى الآخر ويظهر ذلك من النظم التي من شأنها أن تستغريها^(١٢٦) ».

الشعر « في نظر حازم والملاسة الملموس » صياغة نحوية أسلوبية أحدث فيها الشاعر جميع ضروب الإبداع التي من شأنها أن تثير في المثلي الاستطراف والتعجب، وعلى الرغم من أن ثلثنا المتفلسمين هموا إلى تحديد الشعر ضمن مفهومات كلية مستعارة من أرسطو، بعد أن طوعوها لواقع الشعر العربي آنذاك، فإنهم ساءوا بالإضافة إلى ذلك مفهومًا أقرب إلى طبيعة التفكير النقدي العربي الذي كان ينظر إلى الشعر في صلبه بالغة، هذا المفهوم اصطلاحوا عليه بـ « التعبير » وهو إذا تأملته وجدته لا يشرق عن مفهومات أخرى كان لها صدى في تراث البلاغي والنقدي، نذكر منها « المجاز » و« البديع » و« شجاعة العربية » و« النظم ».

يرى ابن رشد أن الشعر يتخلق بواسطة « التغيرات » التي يلحقها الشاعر بالأقوال الحقيقية، وذلك باستخدام أساليب تتعلق بالجانب الصوتي والتركيبى والدلالي، يقول في هذا الصدد « وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال، وما جرى من هذه التغيرات فليس فيه معنى الشعرية إلا الوزن فقط. والتغيرات تكون بالتوازي والمواظفة والإبدال والتشبيه، وبالجملة بإخراج القول غير معرج العادة مثل القلب والحذف، والزيادة والتقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب، ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملة من التقابل إلى التقابل، وبالجملة بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازاً^(١٢٧) ».

بعد مفهوم «التغيير» وجها آخر للمفاهيم السابقة التي توسل بها النقاد المتكلمون في نظرتهم للشعر. غير أنه يتميز عنها بكونه مصطلحا إجرائيا يضبط علاقة الشعر باللغة الشعرية التي لا تتقوّم بـ «التغييرات»، فإن كانت «الحكاية» و«التخييل» و«الغاية» مفاهيم لتحديد الشعر في علاقته بعلوم الأشياء المتينة، ومن حيث علاقته بالمتلقي، أو في علاقته بذاته باعتباره تشكيلا جماليا، فإن مفهوم «التغيير» متضمن في كل هذا، ولكنه يظل اصطلاحاً لضبط طبيعة العلاقة بين الشعر واللغة في الاستخدام الشّري. تقول دافنت كيمال الروبي: «وقد تكرر استخدامهم (أي الفلاسفة) لهذا المصطلح ولعمدته دلالاته. فهو يدل أحيانا على (المجاز) بأوسع معانيه. من حيث التوسع في الدلالة وتجاوز المؤلف في اللغة تركيبيا، وقد يدل على الاستمارة وحدها دون التشبيه أو كليهما معا»^{١٢٣}.

إن الربط بين مفهوم «التغيير» والشعر هو الربط الذي أقامه الوعي الشعري العربي بين ضروب المجاز والشعر. فقد رأينا حسان من قبل يعتبر التشبيه مدخلا للقصيدة على نظم الشعر. وهذا يُلحظ أن الشعر يحقق بتنظيمه الفني أو أسلوبه اللغوي الذي يعاين القواعد القياسية لتنظيم اللغوي. هكذا يصبح مفهوم «التغيير» نظريا لمفهوم «المجاز» كما أورده أبو عبيدة وحده ابن قتيبة بقوله: «وللغريب المجازات هي الكناية، ومغلغلة، طريق القول وما حذو، فيها: الاستعارة والتشبيه، والطلب، والتقديم والتأخير والجدب، والتركيز والإضافة»^{١٢٤}. وكلاهما يتقاطع مع مفهوم آخر هو «البديع» الذي استعمل على «شأن كثيرة وإن كان في البداية قد حصوه ابن المعتز في خمسة مقومات. ويرى أحد الباحثين أن ابن المعتز «فسر عنوان البديع على الشعر على الرغم من حرصه في أول الكتاب على إيراد ما وقع فيها في الشعر أيضا.. وهذا يؤكد إحصاءه بأن صور البديع هي صور شعرية أصلا على الرغم مما دفعته إليه حاجة الصراع من البحث عنها في الشعر. وجعل الفارق كعيا والواقع أنه نوعي. إذ إن الشعر يحتمل درجات من الخلق والتفريد تتوفى الوظيفة الخطافية»^{١٢٥}.

إن وجود صور «البديع» و«التغييرات» و«المجازات» في الشعر لا يعني أصليا الشعري. فهذه الأصول البلاغية التي ينسبها للشعر، الذي صنعنا من قبل إلى تحديد خصوصيته الأصلية التي تملك في تلكه اللغوي وسياقته المحكمة اللذين يقتضيان لنا من القراءات الشعرية في الدقة والتغيير.

وربما كان مفهوم «النظم» الذي صاغه عبد القاهر الجرجاني يحد في تلك المفاهيم المشار إليها. فهو أدلة نظرية وإجرائية لتحديد نوع اللغة والكشف عن تجلياته الأسلوبية ذات الصفة الإبداعية. إن «النظم» يختلف عن مفاهيم «المجاز» و«البديع» و«التغيير» في كونه مفهوماً يتحسر في الجانب التحوي من اللغة، ولكنه يلتقي معها في نظركه للشعر باعتباره نوعاً من الاستعداد اللغوي المعاني للقواعد القياسية.

البلاغة وعلمها الأدبي

لقد كان عبدالقاهر يسلّم بأن «النظم، معيار شعري، وإن اعتبره الأصل في الإعجاز، إنه وسيلة لكشف تنوّع بلاغة القرآن، ولكنه ليس وسيلة لتعريف أسلوب النص القرآني نوعياً من الأسلوب الشعري. إن «النظم، صورة فائقة على التحيز أو هيئة أساسها الفكر والروية وليس مجرد النسيج الذي لا يحتاج فيه شيئاً غير أن تعطى لفظاً على مثله»^١. ويمرّ على أمثلة لهذا النوع من التعريف الذي يخلو من النظم بالدقائق الدقيقة، من التثنية، ولكنه يرى في النظم معياراً جمالياً شعرياً لا يتناسب النشر الذي يكون فيه الكلام مسترسلاً مطوّلاً ينعكس على بعض من غير تعبير دقيق أو تدبر في نظم العاني.

إن مفهوم النظم الذي صاغه عبدالقاهر، صياغة نظرية محكمة استناداً إلى وظيفة العلاقات الشعرية والدلالية، يحتلّ في كتابه موضعاً جدياً في علمها الأدبي، التي تطرّفها إلى بعض سماتها. ولا يصرّح بمفهوم «شعابة العربية» الذي صاغه ابن جني عن تطلق هذه التسميات والأصول البلاغية التي اعتبرها الشعر نوعاً من الإبداع اللغوي الذي يطرح عن نسق القواعد القياسية.

خلاصة

حاولت في هذا التأمّل النظري طوّرة مجموعة من الأفكار التي تكوّن السياق الذي نصّره عنه في قراءة تراث البلاغي. ويمكن صياغة عدم الأفكار في حلّيات عامة. على النحو الآتي:

١ - إن لكل جنس أدبي جماليته أساساً بلاغياً التعميد. وهذا ما يجعل اللغة خاضعة في شكلها ووظيفتها لكونيات الجنس الذي تنسب إليه. ولعل هذه الفكرة أن تصبّح الباعث المعاصر في إعادة قراءة مبروراته النقدي والبلاغي. على نحو يكشف عن أصوله الجمالية ويخضع بتفسيرها.

٢ - اعتبرنا الشعر الجنس الأدبي الذي خصصت له التصورات النقدية والبلاغية الموروثة. على الرغم من اضطلاعها برصد أنماط تعبيرية أخرى تمثلت في القرآن والخطابة والتوسل. فقد كان الأسلوب الشعري معياراً جمالياً يوجه الأنظار وتتعاظم إليه الأصول والمبادئ، مثلاً كان معياراً في حل الأنظار الأسلوبية والبلاغية المعاصرة.

٣ - لقد صدرنا في هذا البحث عن مبدأ بأن اللغة أداة أسلوبية في جميع أجناس التعبير الأدبي. غير أن هذه الأداة تظل مشروطة في تكوينها الجمالي والوظيفي بمكونات السياق الجنسي الذي تستخدم فيه. وبناء على هذا اعتبرنا النسيج اللغوي أظهر في الشعر من غيره من الأجناس الأدبية الأخرى التي لا تعمل فيها اللغة إلى أن تصبح مكوناً جمالياً ضرورياً. إن الشعر نظامه ووظيفته يفرض العناية الدقيقة بالنسيج اللغوي.

٤ - إن التفاعل بين الأجناس الأدبية لا يتناهى مع تمايز كل جنس بأسلوبه الخاص. وإذا كان البلاغيون القدماء لم يصنعوا اليد على هذه الخصائص المبرزة، فقد كان لعنايتهم الكهيرة بالشعر الأثر القوي في صياغة أصوله الجمالية وسماته الأسلوبية. التي لم يحظ بها جنس أدبي آخر.

- 1- محمد حليمي هلال، قصصها معاصرة في الأدب والفن (ص ١٧).
- 2- يوم التاريخ ملاحظة مثالية هي دراسة محمد طوح أحمد، لشعيرة القناد العرب المحدثين القصيدة بصفة «قصيدة» العدد ١ الثالث والربع، ١٩٩١.
- 3- هناك مفهوم «المسيرة الروائية» الذي صاغه محمد أنصار نصراً واحداً من مجموع جماليات اللغة السبغها التصويري الحسي، انظر كتابه «بناء الصورة في الرواية الاستعارية».
- 4- انظر عبدالسلام المصري، الأدب والعدالة (ص ١٠٠) وشكري عبد، مشكلة التصنيع في دراسة الأدب، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ١٢، ١٩٩٢.
- 5- انظر لتأسيس هذا المصطلح في دراسة شافير،
Du texte au genre - portugais 53, 1983.
- 6- المرجع نفسه.
- 7- المرجع نفسه (ص ٧).
- 8- المرجع نفسه.
- 9- Les genres littéraires, sa théorie littéraire (p.27).
- 10- بولس الألبورتوجيا (ص ١١).
- 11- انظر (p 45-46) Questions de poétique.
- 12- انظر على سبيل المثال:
Style in Language, ed. by Thomas A. Sebeok, 1960.
Linguistics and literary style, ed. D.C. Freeman, 1970.
- 13- محمد الهادي الطرابلسي، «تحدث في النص الأدبي» (ص ٣٠٠).
- 14- رونية وليد، وكوسيتز وايز، نظرية الأدب (ص ٣٣٧).
- 15- محمد حليمي هلال، الأدب القناري (ص ١٢٧).
- 16- نظرية الأدب (ص ٦١٢).
- 17- Schaeffer, Du texte au genre (p 17).
- 18- نظرية الأدب (ص ٦١٢).
- 19- الأسلوب (ص ١).
- 20- Stephen Ullmann, style in the French Novel (p. 35, 36).
- 21- الكلمة في الرواية (ص ١).
- 22- ليزبوت الأبحاث الأسلوبية بارادكسها على دراسة الوسائل التعبيرية اللغة الطبيعية للفرنسية والألمانية والإنجليزية، عند قام «شارل مالي» بخصص القوة التعبيرية في اللغة الفرنسية وتبين بذلك علما أسلوبيا لغويا لا يفسر بالأسلوب الأدبي انظر:
- Bully and The Structural origins of Structural Stylistics.
in, Linguistic Theory and Structural Stylistics, by, T. Tylor.
- 23- الفضائلي ج، التحليل محمد علي الكبار، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ (ص ٢١).
- 24- المقدمة (ص ١٧٧).
- 25- المرجع نفسه (٩٩١ - ٩٩٢).

- 46- التراجع نفسه.
- 47- التراجع نفسه.
- 48- قصصها متناصرة في الأدب والشعر (ص: 187).
- 49- نظم الأسلوب: مبادئ وإجراءاته (ص: 296) الطبعة الأولى، دار الأفاق الجديد، بيروت، 1980 (ص: 296).
- 50- مقالة في النقد (ص: 107).
- 51- محمد الهادي الطرابلسي، بيروت في النص الأدبي (ص: 188).
- 52- حطير السمع، مقدمة في نظرية الأجناس الأدبية، مجلة المعرفة، العدد 107 - 1977 (ص: 9 - 10).
- 53- مثلاً من محمد هيمى هلال، الأمت المقارن (ص: 129، 128).
- 54- Les Genres Littéraires (p: 91).
- 55- انظر: صفائي، محمود، المتكبر الملاهي عند العرب، المسمة وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قرطاج، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981 (ص: 188).
- 56- انظر: أحمد كمال التروبي، الموقف من النص في تراثا القديم.
- 57- أحكام مشكلة الكلام (ص: 48، 49).
- 58- التراجع نفسه (ص: 1).
- 59- الموقف من النص في تراثا القديم (ص: 129).
- 60- الوقت من النص في تراثا القديم (ص: 128).
- 61- نجد هذه العلاقة بين أي جانب من جوانبها، وقد أشار إليها بعض الباحثون معاصرون مثلكم من بينهم زكي ساروق، وعبد المجيد كرككو وشكري عباد.
- 62- أحكام مشكلة الكلام (ص: 49).
- 63- تدوير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إحصاء القرون (ص: 14).
- 64- النثر السائر، ج 1 (ص: 96) وكتاب التصانيف (ص: 129).
- 65- نستلقي هذا إشارة إلى الكثير إلى أسلوب المقامة «النثر السائر» ج 1 (ص: 39) وإشارة إلى ولقد إلى اختلاف التحولات القصصية من الحكاية الشعبية في شخصيات كتاب الشعر (ص: 39، 37) وانظر تحديد القصص.
- 66- لبسة المقامة في دهر الأرابي، مثلاً من أحمد التروبي، مروج سلق (ص: 128).
- 67- شكري عباد، مشكلة التصنيف في دراسة الأدب (ص: 107).
- 68- بلقاء الشعر، ج 1 (ص: 78).
- 69- أليساندرو، على جدول المثال الأصمعي وابن سلام الجعفي.
- 70- ابن قتيبة، الشعر والشعراء (ص: 20).
- 71- عباد الشعر (ص: 40).
- 72- نقد الشعر (ص: 18).
- 73- أحمد الطرابلسي، نقد الشعر عند العرب على أواخر القرن الخامس (ص: 114).
- 74- يرى عبد الحكيم راضي في كتابه نظرية القصة في النقد العربي، أن البناء القديم ليس هو فقط مثاليًا، تتعرف فيه قصة الأمية، كما أنه قد جاء في كتاب أمت التروبي، نظرية الشعر عند البلاغة المسلمين، أن هؤلاء كانوا لغة الشعر، مما يربطها مع لغة العلم (البرهان) وأمة الحضارة.
- 75- ابن سنان، صفائي، سر العمادة (ص: 188).

- 55- كتاب الصناعات (ص 149).
- 56- ويحيى بن حمزة القزويني، الطراز، ج ١ (ص 31) والقزويني، شرح ديوان الحماسة، ج ١ (ص 17، 18).
- 57- انظر (ص 11، 9).
- 58- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1 (ص 136).
- 59- المرجع نفسه.
- 60- أبو حنيفة، مختار القزويني، ج ١ (ص 14).
- 61- أحمد يوسف، نيلو الخطاب الفيلالي وسطوة النص الكتاب «القراءة بالمعكاة» (سفال)، عدد 2، 1999 (ص 72).
- 62- مختار القزويني (ص 139).
- 63- المرجع نفسه.
- 64- انظر على سبيل المثال كتابي: «مختار القزويني» الخطاطي، والمكتبة في مختار القزويني، لفرحاني صبيح.
- 65- 2002 رسائل في مختار القزويني.
- 66- التصوير الفني في القزويني (ص 31).
- 67- محمد المصطفى، سلسلة في نظرية الأدب (ص 199).
- 68- انظر: (1) La Rhétorique et la Novélisme (p. 12) ;
- 69- انظر: (2) Le Mensonge vive (p. 13) ;
- 70- انظر: (3) (p. 11) ;
- 71- انظر: (4) (p. 13) ;
- 72- انظر: (5) (p. 52) ;
- 73- انظر: (6) (p. 54) ;
- 74- انظر: (7) (p. 55) ;
- 75- انظر: (8) (p. 56) ;
- 76- الأسلوب (ص 29).
- 77- بحث جون كوهن أحد علماء الأسلوب الذين اعتبروا لغة الشعر المعيار النموذجي للتعبير الجمالي وبشاركه هذا الرأي جل الأسلوبيين القسطنطينيين.
- 78- انظر: Michael Riffaterre, Essais de Stylistique Structurale. ولد عام الدكتور محمد الحمدي تاريخياً فصولاً من هذا الكتاب في مؤلف بعنوان «مناهج تحليل الأسلوب» راجع المصنفات (26، 27).
- 79- بحث هذا المؤلف بين اللغة الأدبية ولغة الشعر في تعداد صياحي نظرية الألفاظ (ص 32، 33، 181).
- 80- انظر: Dr. Lodge, From The Novelist's Medium and the Novelist's Art to, Essays in Stylistic Analysis, de, by Horowitz, Rudolph (p. 50-61).
- 81- الكتابة في الرواية (ص 6).
- 82- مرجع سابق (ص 70) وانظر أيضاً المصنفات الألفية 22 و 109 و 181 و 220 و 221. وقبل أن أعظم الكتاب بشعر حول هذه المسألة.
- 83- من المعروف أن «باششترين» ارتكز على الأسلوبية الحديثة على الأساليب اللغوية. وبذلك فإنّ الباب للظواهر السيميائية الدلالية. انظر المرجع السابق. وأيضاً كتابه: «دلالة لغوية وفلسفة اللغة» و«شعرية دويغلسكي».
- 84- برامبر هو - مثلاً في اللغة (ص 128).

- 94- مثلا من «ديفيد ديتش» - «مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق» (ص 111).
- 95- المرجع نفسه (ص 188).
- 96- محمد مصطفى، الأسلوب (ص 41).
- 97- نظرية المنهج النقدي (ص 17).
- 98- ما الأوب (ص 8).
- 99- غرامر هو - مرجع سابق (ص 122).
- 100- «الكور شافونسكي» الفن بالمطبخة تكليفا، «عزير اللطائف» العدد 1، 1987 (ص 117).
- 101- نظرية الأوب (ص 22، 23).
- 102- «المطر» - Structure du Texte Artisanal (p. 83-85).
- 103- الأسلوب (ص 17).
- 104- فسادا، مفسدة في الأوب والنقد (ص 122).
- 105- الكوروفي، شرح ديوان العاصفة ج 1 (ص 24).
- 106- أبو حيان التوحيدي، التاميمات (ص 122).
- 107- ابن رشيق، المصنف ج 1 (ص 116).
- 108- التاميمات (ص 18).
- 109- عبد العزيز الشرحاني، التوسيلة (ص 122).
- 110- دراسة من «صبر» (ص 98) وفي «صبر» (ص 122) وفي «صبر» (ص 122).
- 111- «النقد» - «البحر» الرابع «البحر» - «النقد» الرابع «البحر» - «النقد» (ص 122).
- 112- الكوروفي، مرجع سابق (ص 122، 123).
- 113- دلائل الإحصاء (ص 122).
- 114- عبد القاهر الشرحاني، أسرار البلاغة (ص 122).
- 115- تقييبي، كتاب الشعر (ص 122).
- 116- المقدمة (ص 122).
- 117- «الكور شافونسكي» هو - دراسة له «عزير» - «النقد» المقدمة بين النظرية والتطبيق والعمارة الشعرية - استعمال من «الوحدة» هي المقدمة العربية، «النقد» مجلة فصول العدد 1، العدد 1، 1987.
- 118- رسالة من «الكور» بين الشاعر والمترجم (ص 122 - 123) وقد أورد الكوروفي هذا النص مقلداً طبعه.
- 119- «النقد» شرح ديوان العاصفة ج 1 (ص 122، 123).
- 120- ابن أبي الحديد، المطالب الدائر (ص 122 - 123).
- 121- «الكور» - «النقد» - «النقد» (ص 122 - 123).
- 122- «النقد» - «النقد» - «النقد» (ص 122).
- 123- «النقد» هو - «النقد» (ص 122، 123).
- 124- «النقد» ج 1 (ص 122).
- 125- المرجع نفسه (ص 122).
- 126- المرجع نفسه (ص 122).

- 117- المرجع نفسه (ص 177).
- 118- طه أحمد إبراهيم، تاريخ الفقه الأمامي (ص 97).
- 119- الشرح ج 1 (ص 40)، تحليل معناه، طبعه في: المؤسسة العامة للتحقيق والطباعة، بغداد، 1429.
- 120- المعتمد ج 1 (ص 120) وفوائد الشعر (ص 78 - 79).
- 121- ابن أبي عمير، مخرج حديث (ص 8 - 20)، 209.
- 122- المرجع نفسه.
- 123- الفتاوى المالكية، نظرية الشعر عند المالكية المسلمين (ص 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103).
- 124- انظر - (ص 19).
- 125- انظر المروغي، مخرج حديث.
- 126- انظر نظرية الشعر عند المالكية المسلمين (ص 94 - 95) و (ص 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103).
- 127- حازم القرطاجي، معراج المفاتيح (ص 371، 372).
- 128- المرجع نفسه (ص 38).
- 129- المرجع نفسه (ص 11).
- 130- المرجع نفسه (ص 14 - 15).
- 131- المرجع نفسه (ص 90).
- 132- تبيين كتاب الشعر (ص 177، 178).
- 133- نظرية الشعر عند المالكية المسلمين (ص 95).
- 134- تأويل مشكل القرآن (ص 9 - 10)، 177.
- 135- محمد العمري، المقام الشفيعي، والقام الشفيعي، في القام القيلاني (سأل) العدد 8، 1441، (ص 14).
- 136- دلائل الإعتبار (ص 97).

أولاً: باللغة العربية والعراقية

(أبراهيم السامرائي)

في لغة الشعر، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

(أبو نوار)

ديوان أبي نوار مشرح المصطب التبريزي، تحقيق محمد عبد عراب، الطبعة الرابعة، دار المصادر، القاهرة، 1983.

(أبو حمزة)

معان القرآن، تحقيق طاهر سركازي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

(أحمد الشاذلي)

الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأسلوب الأصايب الأدبية، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1989.

(أسعد الطرابلسي)

مقد الشعر عند العرب، حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة إدريس طعناج، الطبعة الأولى، دار توطئة الشعر، الدار البيضاء، 1992.

(أحمد كمال الزوين)

الوقوف عن القصص في تواتر القصائد، دار المؤسسة العربية، القاهرة، 1991.

مطوية الشعر عند الملائكة، تحقيق منير أبو بكر، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، 1981.

(أحمد كمال الزوين)

إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صابر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة.

(أبي إسحاق المصري)

تحرير التمهيد في صناعة الشعر والنثر، بيان إعجاز القرآن، تحقيق عتيق محمد شوقي، المجلس الأعلى للدراس الإسلامية، القاهرة، 1982.

(أبي الأثير، حماد الدين)

القال الشاعر في أدب الكتاب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي ويحيى طيفلة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، القاهرة.

(أبي رشيد)

شعرى كتاب الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، 1984.

(أبي رشيد)

العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونظمه، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، 1981.

(أبي ميان الشاذلي)

سر القصيدة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

(أبي طهطا)

جواهر الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر التاج، مطبعة الديني، المؤسسة السعودية للمطبوعات، توزيع مكتبة المراجعة والطباعة، 1988.

(أبو طهية)

الشعر والشعراء - تحقيق أحمد شاكر - دار المعارف، القاهرة، 1967 .

تأويل مسائل القرآن - تحقيق أحمد مطر - الطبعة الثانية، دار التراث، القاهرة، 1997 .

(أبو بكر - عبد الله)

كتاب اليربع - تحقيق الخطاط يوسف كراتيوت، منشورات دار الحكمة، طرابلس - ليبيا

(أبو عبد - الكلب)

البرهان في وجوه البيان - تحقيق علي محمد شريف - الطبعة الأولى - مكتبة الشريعة، القاهرة، 1979 .

(أبو حنيفة - أبو حنيفة)

الأمم والقبائل - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت .

التأصيلات - تحقيق علي شلق - الطبعة الأولى - دار الفکر للطباعة والنشر، بيروت، 1987 .

(أبو منصور)

بليغة الشعر في محاسن أهل العصر - تحقيق منير فليحة - الطبعة الأولى - دار الكتب - الطبعة الحجر - الأولى، بيروت، 1987 .

(أبو القاسم)

قواعد الشعر - تحقيق ومصادر عبدالقادر - الطبعة الأولى - دار المعرفة، 1977 .

(أبو حنيفة - أبو حنيفة)

الصوران - تحقيق عبد السلام - دار الفکر للطباعة والنشر، بيروت، 1987 .

(أبو كعب)

حياة اللغة الشعرية - ترجمة محمد الزكي ومحمد السري - الطبعة الأولى - دار التراث - دار البيضاء، 1989 .

(أبو القاسم - أبو حنيفة)

مدائح الملقاة وسراج الأبداء - تحقيق محمد الحبيب بن الطرمجة - الطبعة الثالثة - دار الفكر العربي الإسلامي، بيروت، 1987 .

(أبو أحمد - أبو حنيفة)

في معرقة دار القبيح - الطبعة الأولى - عالم المعرفة، جدة، 1981 .

(أبو عبد - ديبش)

مدائح القدر الأمي - ترجمة مصطفى جوري - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(أبو الحسن - أبو الحسن)

الملك - في الجدار الفراء - تحقيق محمد خلف - دار الفکر للطباعة والنشر، بيروت، 1987 .

(أبو القاسم - أبو حنيفة)

مدائح في علم الآلة - ترجمة محمد البكري - الطبعة الأولى - دار طرطوط الدار البيضاء، 1987 .

(أبو عبد - أبو حنيفة)

مدائح في علم الآلة - ترجمة محمد البكري - سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1987 .

(أبو عبد - أبو حنيفة)

مدائح في علم الآلة - ترجمة محمد البكري - الطبعة الثانية - دار الفكر العربي، القاهرة، 1987 .

- (الورثاني، بدر الدين)
الربيعي في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة.
(سند مستوح)
الأسلوب - دراسة لغوية إحصائية، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981.
(الصفاكي، أبو يعقوب)
محتاج العلوم - الطبعة الأولى - مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1957.
(سميرة، أبو بشر)
الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الجامعي، مصراني الأول والرائع، مصر، 1977.
(السيد إبراهيم محمد)
القصيدة الشعرية - دراسة أسلوبية، الطبعة الثالثة - دار الأندلس، بيروت، 1987.
(سند مطلب)
التصوير الفني في النثر، دار الشروق بيروت ودار الثقافة والبيضاء، 1984.
(شكري، عبد)
الفن والإبداع - معان على الأسلوب العربي، الطبعة الأولى، التوزيعات برس، القاهرة، 1984.
دائرة الإبداع - مقدمة في أصول النقد، الطبعة الأولى، دار إيمان المصرية، القاهرة، 1987.
دوسلي الشعر العربي، الطبعة الأولى، دار الفكر، 1996.
(شوقي، صيد)
البلاغة تاريخ وتطور، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، 1987.
(الصافي، أبو إسحاق)
رسالة في الفرق بين الموزون والقفا - تقديم وتحقيق محمد بن عبد الرحمن الهداوي، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدة، طرانة عديدة، لفرانكا النادي، الطبع الثاني، 1990.
(طلح أحمد إبراهيم)
تاريخ النقد الأدبي عند العرب - من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
(عبد الحكيم، راضي)
مطوية كتبه في النقد العربي، الطبعة الأولى، مكتبة الجامعي، مصر، 1980.
(عبد القادر البغدادي)
طرائق الأدب، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول، 1979.
(عبد القادر الجرجاني)
دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، الطبعة الأولى، مكتبة الجامعي، القاهرة، 1982.
أسماء البلاغة، تحقيق وهار، الطبعة الثالثة، دار المسعود، بيروت، 1987.
(عبد الله القدسي)
المنظونية والتفسير - الطبعة الأولى، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1988.
(عبد النعم، كريمة)
مدخل إلى علم المجال الأدبي، الطبعة الأولى، دار الثقافة والقاهرة، 1983.

(العسكري، أبو هلال)

كتاب المتعاضدين الكتابية والشعر، تحقيق محمد طيعة، الطبعة الأولى، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٨١.

(فراخار، هو)

مقالة في النقد، ترجمة محيي الدين صبيح، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق.

(فدروس)

اللبث، ترجمة عبد الحميد الدواغلي ومحمد التهامي، الطبعة الأولى، مكتبة الأديب المصرية، ١٩٥١.

(القاضي، المرحلي)

الوسيلة بين الثاني وخمسة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد النجاري، منشورات المكتبة المصرية، صيدا، بيروت.

(قدامة بن جعفر)

مدد الشعر، تحقيق جمال مصطفى، الطبعة الثالثة، مكتبة الخارجي والقاهرة، ١٩٩٥.

(كامل، بوير)

دوس الأبولوغيا، ترجمة عبد الحميد صبيح، الطبعة الأولى، دار الساطي، بيروت، ١٩٩٧.

(الكلاعي، محمد بن عبد القادر)

إحكام صفة الكلام، تحقيق محمد بوير، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

(كامل، بوير)

في البداية الإبداعية للشعر العربي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.

(كاشي، عبد الباق)

التراكيب القوي للأدب، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة مصر، ١٩٧٠.

(كاشي، أبو الطيب)

شرح ديوان القاضي، عبد الرحمن البوقري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠.

(محمد، أنثي)

بداية الصورة في الرواية الاستعمارية، الطبعة الأولى، مكتبة الإنريسي، طرابلس، ١٩٩١.

(محمد، حمادة عبد الطيب)

النوع والدلالة، الطبعة الأولى، مطبعة الديبة، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٤.

(محمد، حطاي)

لمسات، النص، مدخل إلى أسرار الخطاب، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١.

(محمد، طيبي هلال)

الأدب الفارسي، الطبعة الخامسة، دار العودة ودار الثقافة، بيروت.

طعنا، منشورة في الأدب والفن، دار النهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة.

(محمد، مناج)

تحليل الخطاب الشعري، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

(الزواوي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن)

شرح ديوان العبدية، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجول، القاهرة الأولى، بيروت، ١٩٩١.

(ميدخليل أو حسين الكوراني)

مشكلات علم الجمال الحديث، قصايا وأغان، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1967.

(ميدخليل باخثير)

الكتابة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1966.

الاركانية وعلمية اللغة، ترجمة مصطفى البكري، وهي المبد، الطبعة الأولى، دار لوطيان للنشر، الدار البيضاء، 1966.

(أحمد أبو زيد)

إشكاليات القراءة والبنات القبول، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 1997.

هنريش بلوت

البلاغة والأدبية، ترجمة محمد المصري، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1969.

(يحيى من حمزة الطويل)

الطراز القصص لأسماء الملاحة وعلوم حقائق الإحصاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980.

تاليا: واللغة الأجنبية

أ - الف

- R. Chapman, *Linguistics and Literature* (Louvain, 1971, Librairie Universitaire Paris).
- S. Chapman, ed, *Literary Style, a Linguistic Study* (London, 1973, Oxford University Press).
- U. Eco, *La Pragmatique linguistique* (France, 1982, Éditions Nathan).
- V. Flusser, *La Rhétorique et La Nouvelle Rhétorique* (Genève, Éditions Perspectives (Paris, 1982, Les Belles Lettres).
- Groupe (1980), *Rhétorique Générale* (1982, Le Seuil).
- R. Jakobson, *Huit Questions de Poétique* (1977, Le Seuil).
- J. Lotman, *La Structure du Texte antique* (1973, Gallimard).
- J. Molinot et J. Tassin, *Introduction à l'analyse linguistique de la poésie* (1982, Presses Universitaires de France).
- A. Moussier, *Reflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe* (1982, la Faculté des lettres et des sciences humaines de Rabat).
- Karl Popper, *Deconstruction*, la construction (Néa édition, 1983, p. 1).
- P. Ricoeur, *Le symbole vive (poésie, 1975, Le Seuil)*.
- M. Riffaterre, *Essai de stylistique structurale* (1971, Pléiade).
- T.A. Sebeok, ed, *Style in Language* (New York, 1968, John Wiley).
- T. J. Taylor, *Linguistic Theory and Structural Stylistics* (1983, Pergamon Press).
- T. Todorov, *Théorie du Symbole* (1978, Le Seuil).
- *Symbolisme et Interprétation* (1978, Le Seuil).
- *Littérature et Signification* (1987, Larousse).

- E. Varga, *Théorie de la littérature* (Paris: 1981), connaissance des langues, Picard.
 S. Ullmann, *The Image in the Modern French Novel* (1983, Oxford Blackwell).
 - *Style in the French Novel* (1979, Cambridge).

٥- الفنون

- G.Gracier, *(La Mécanique narrative)* in *Communication N°36*
 M. Glawinski, *Les genres littéraires* in *Thèmes littéraires: problématiques et perspectives* (1999, presses universitaires de France).
 J.M. Schaeffer, *De l'écrit au genre*, in *Poétique*, N°73, 1983.

ARCHIVE

الجدل والاستدلال الجدلي ، « عناصر استقفا ، نظري »

أ. حبيب أعرابي

• إن شرح وتوضيح الجدال يمكن أن يتيح الفرصة لشكلية تبين بديهية. وتوضح طابع الضرورية المنطقية للنتيجة فيه. [لا أن الوهم يبدأ حينها بعمل التنظير ما هو خاص وكأنه صام. إن كل جدال لا يمكن أن يخلص طابع الصرامة الظاهر في حد ذاته. فالقضايا لا تكون أن يشرح بها كلها. وينتهي اللغة على الرغم من أنها جدلية. لا يمكن صياغتها وفق النموذج العلمي. بل ولا حتى وفق نموذج الجزم الذي يعبر عن معناه. والذي يبدو أنه لا يعود إلى السياق لأجل ذلك.

Michel Meyer: Logique, Language or argumentation.

Harvard University .

Paris, 2 rue d'Alger 1963, P. 118.

هو

يعتبر مفهوم الجدال (الحاجة) من المفاهيم الثيرة للاقتباس بالنسبة للباحث من حيثته وتدفقه. ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها

• تعدد مظاهر الجدال وتنوعها (الجدال المبرمج، الجدال الضمني، إلخ).

• تعدد استعمالات الجدال ولها من مرجعياتها، الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة،

المنطق، التعليم، إلخ.

• بأحد في القضية وحده - الملكة القوية

- خضوع الحجاج في دلائله لا يميز نشاط اللغة الطبيعية من رغبة وإيونة تداولية. وكذلك من تأويلات متعددة، وطوعية استعمالية.

ومن هذا المنطلق، سيكون من العسير علينا التطلع، تلقائياً، إلى تحديد سريع ودقيق كل الدقة لعنى الحجاج أو المحجاجة، وحتى إذا أخذنا مفهوم الحجاج بمعنى من معانيه العامة، فهو غير ما تخفي تعبيراته وسياقاته على ذلك المعنى طابع النسبية والإشراطية. وإذا ما حاولنا إحقاق الحجاج - كمصنف فائق الذات - بالمنطق، فإن آلياته وصفه الممكنة لا تحتمل التشكيلة المصارمة. وربما يحتاج الحجاج إلى إظهار بعضي طابع به - وهذا ما حاول بعض الباحثين تناوله - حديثاً - في صيغته «نظرية الحجاج»¹⁷.

وعلى المستوى الإجمالي، نجد كل حجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة. ومن خصوصية الحقل التواصلية الذي يتبع في استراتيجياته الفردية والجماعية. ولا غربة، والحالة هذه، أن هناك حجاجاً خطابياً (كاتباً) وحجاجاً خطابياً (بلاغياً) وآخر قضائياً أو سياسياً أو فلسفياً، إلخ.

وبما لذلك، يصبح الحجاج - عملياً - بعداً من أبعاد الخطاب الإنساني الناتج باللغة التكوينية والمنطوقة. كما أنه فعالية لسانية - منطقية ضمن هذا الخطاب. ويقدر ما تتباين وتعني الشكل ومضامين هذا الخطاب، فهو ما يتحدد وتباين فيه درجات الفعالية الحجاجية على مستوى البروز أو على مستوى الإضمحلال. وكذلك على مستوى الإنشاء والاشتغال.

وإذا صح ما قلناه، فإنه من المفيد جداً، لأجل الاستيعاب، والتوضيح، أن نتبين وضعية مفهوم الحجاج في مجالات الاستعمالية الأساسية للمعنى أوسع الأفاق لدلالاته. وإذا كان اهتمامنا النظري والتطبيقي يتوجه، بشكل أساسي، إلى الاستدلال الحجاجي في الفلسفة وخطابها، فإن البحث هنا يميز مفهوم الحجاج ومختلف استخداماته وحفوله أمر لا بد منه. إلا أن مثل هذا البحث قد يتسع ويتشعب، وهذا يقتضي منا حصره في خطوات وعناصر أولية تشكل خطبات، لا سيلها من مقاربات واشغالات.

إن الوظيفة الظاهرية واللمعية للحجاج قد لا تتحدد إلا في سياقاتها الخاصة، كما سيبحث هنا ذلك فيما بعد. ومع ذلك، فإنه من المفيد لنا أن نعود إلى معرفة تمهيدية حول المعنى اللغوي لهذا المفهوم قبل تناوله تناولاً حقيقياً موسعاً.

١- المعنى اللغوي للحجاج

في لغتنا العربية، نجد الحجاج والمجاجة مصدران للفعل حاجج. وفي «لسان العرب» لابن منظور جاء مايلي:

- حاججته أي ظففته بالعجيج التي أدليت بها.

الباب السادس والاربعون

- الحجة هي البرهان أو ما يدفع به الخصم. وتجمع الحجة على حجاج وحجاج. ويقال حاجة معالجة ومعالجة اي نازعه الحجة.

- الاحتجاج هو التخاصم. والرجل المحتجاج هو الرجل المحتدل.

- الاحتجاج. من احتج بالشئ اي لطفه حجة. ويقال أنا حاججته فلانا معالجة وحجيجه اي مغالته بإظهار الحجة التي تعني «الدليل والبرهان»^(١٢).

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات الأساسية أن لفظ الحجاج أو الحاجة يحمل في معنونه دلالة ومعنى مستخدمين مما يشكل سباقه أو شرطه التخاطبي. والممثل في «التخاصم» و «الاحتجاج» و«المحتدل» كعمليات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية.

وهي اللفظة الفرنسية. على سبيل المارنة. نجد لفظة Argumentation تشير إلى عدة معاني مقاربة، أبرزها على الخصوص. حسب قاموس «روبير» مايلي:

- القيام باستعمال الحجاج.

- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.

- فن استعمال الحجاج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

وهي القاموس ذاته نجد. Argumenter، تشير إلى الدفاع عن اعتراضي أو أطروحة بواسطة حجاج، أو عرض وجهة نظر مدعومة بمجموعة من الحجج.

ولا شك أن المعنى التقني للحجاج في المنطق لا يختلف في الجوهر عن معناه في العربية. على الأقل في وظيفته التوسعية والمجدلية.

٢- الحجاج كإستراتيجية في «نظرية الحجاج»

قديمًا كان مفهوم الحجاج ذا معاى عميقة عضوية واستيعابية لمجالات وأعمال تتطلبه واستمدعيه. أما بعض الأبحاث والكتابات الحديثة فقد جعلت منه موضوعًا خاصًا بها. وقد تقاطعت هذه الأبحاث مع اللغويات والمنطق والفلسفة... إلخ. فهي منظر بعض هذه الكتابات نجد الحجاج أو الدلائل يشير إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معًا، مهما كان متلقي هذا الخطاب. ومهما كانت الطريقة المثمرة في ذلك. وهذا المعنى هو الذي يأخذ به أبرز منظري «نظرية الحجاج» المعاصرة كشافهم بيرلن C.H. Perelman وميشال مايلير M.Meyer، حيث يقول الأخير - «يعرف الحجاج عادة بكونه جهدًا إقناعيًا (إفهاميًا)، ويعتبر البعد الحجاجي بعدا جوهريًا في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه»^(١٣).

ومن هذه الزاوية، يصبح الحجاج بعدا جوهريًا في اللغة ذاتها، مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة إستراتيجية معينة تعمد إليها، لغويًا وعقليًا، إما لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا. وهذه الإستراتيجية هي الحجاج ذاته. وهي تستمد خصائصها ووظيفتها من التحفل

الذي تتحقق فيه ويعطيها الشرعية. وقد يكون هذا الحفل هو الحياة اليومية للناس وفيهم، أو يكون هو الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتعجزها.

ويترتب على ما سبق أن الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ضيقة، وإنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة تعينه هذه الأخيرة العناصر الأولية والفاعدية لكل حجاج. أي عناصر الاستدلال والتأويل.

إن الخروج من الدلالة الظاهسية للحجاج إلى دلالة النظرية والاستعمالية الواسعة والمتنوعة، أي إلى مضامينه الشعبية، سيضطرنا إلى الاعتراف بوجود أكثر من سياق لهذا المفهوم وأكثر من حفل وفيه له. فهناك - على سبيل المثال - حجاج خطابي (بلاغي) وحجاج قضائي (قانوني) وحجاج فلسفي أو رياضي. إلخ. ومن ثم، كان من البدعي، أيضا، أن يكون للحجاج كخطاب وكمضامين استدلالية إقناعية علاقات متعددة ومتجددة سواء مع البلاغة الكلاسيكية والحديثة أو مع المنطق والبرهان، أو مع اللسانيات والندائيات.

ونلاحظ، حاليا، أن كل جنس من الأجناس المعرفية السالفة يسمى - بأبعائه - نحو ضم الحجاج إلى حضوره الخاصة، ومعارفته من زاوية الحدائق والنتيجة لذلك، انشأت مفهوم الحجاج، وطعم بمفاهيم ووظائف وتطبيقات مطابقة لما زالت هي **تجدد مستمر**.

ومع ذلك، تبقى هناك عدة تساؤلات يطرح بعضها هي هذا الموضوع: هل الحجاج له معنى واحد عام، وكل، وإن كان يتحقق وينشأ في حقول عديدة وتختلف على تقدير أولئك حقول ومجالات الحجاج لا تقتضي بنا إلى القول بوجود عدة أنماط وأنواع من الحجاج، ليس هناك فرق مفهومي وتبني بين الحجاج البلاغي والحجاج الفلسفي أو بين الحجاج الرياضي والحجاج الفلسفي، مثلا؟

وهما كانت الأجوبة المفروضة لتقديمها عن هذه التساؤلات المشروعة، فإنه ميدانها يصعب علينا فصل الحجاج عن حفل تعينه، وعن خطابه المرجعي، ولا سنكون كمن يبحث عن حجاج استعمال وطاليس، أي مجرد من أسباب وجوده. وهذا مجال، كما أن تركيز النظرية والتناول على الحجاج الفلسفي دون ما يوازيه ويحاذيه أمر يقلص من بعد النظر. ومن وضوح العالجة، لذلك، فمن اللائق القيام باستقصاء نظري يربط الحجاج بالفلake الأساسية، وماهم تعنيته فيها¹³. وإذا افترضنا سلوك هذه الطريق فمن أجل إضفاء أكثر وأعمق لدلالات الحجاج وثراء خصائصه، وهذا أفضل مما لو سلكتا طريقا مستقيمة تبقى على عرض أنماط لتأويل الحجاج، وتعليقها بمعزل عن الخوض في سياقاتها ومراجعياتها الأصلية.

وسنركز، من الزاوية النظرية، على وضعية مفهوم الحجاج وعلاقته بكل من الندائيات واللسانيات، ثم بالبلاغة والخطابة، ثم بالثقافة. وأخيرا بالفلسفة. وفي مجال الفلسفة سنتناول بالبحث والنقضي موضوع الحجاج الفلسفي، وكذلك الاستدلال المجازي، من حيث دواعي اللجوء إلى هذا المفهوم الأخير. ومن حيث مسوغاته وتجلياته.

٧٥٠: الجدل في التداولية والنسب

بدأ أن الحجاج يعتبر ظاهرة متجسدة في الخطاب، وبه يلتفتل، فهو متلبس بالنسبة لسانية وأسلوبية، ومن نتائج هذا الأمر، إن مقارنة هذه الظاهرة مقارنة لسانية فعدت حاليا مسألة طبيعية إن لم تكن ضرورية.

غير أن علاقة النسب بالحجاج تظهر شذوذاً كبيراً، وأبرز هذه الشذوذات يمكن طرحها كالتالي: هل مقارنة الحجاج هي مهمة ملزمة على النسب العامة أم على التداولية، أم على الأسلوبية، أم على البلاغة؟ وإذا كان النص الحجاجي هو - لسانياً - نص متميز عن باقي الأجناس النصية الأخرى، فهل نولي اهتمامنا لبيئته الصحاحية وعلاقتها الداخلية أم لقيمته وفعاليته الصحاحية من خلال فاعل ذاته أو نواته مع محيطها الخطابي؟ وإذا كان من الصعب جدا احتزال الظاهرة الحجاجية في النطاق اللساني المحض، أو في النطاق العقلي والفكري المحض، فإن التداول اللساني لها هو نفسه ملتقى تقاطع مقاربات متباينة أشد التباين.

لقد اعتاد اللسانيون النظر إلى الخطاب اللغوي الحجاجي كخطاب يتوفر على خاصيات بذائية وبرافعة تحمله محتملاً من غيره من الخطابات السردية، الحكائية، الإخبارية، إلخ^(١)، وتستمد من المقاربة اللسانية، وحسب الأدبية إلى التعامل، لذلك، مع نوع خاص من الخطاب والتكلم.

وإذا كان هذا الخطاب محمداً بهذه الحجاجية الشبه، فهو خاضع لغشياً لتكثات سيميولوجية لسانية:

- المرسل --- الرسالة --- المستقبل (جاكسون Jacobson)
- التعبير --- المعنى --- الإقناع والانفعال (بوهلر Bühler)
- المخاطب --- الخطاب --- المخاطب (أوستن Austin)

أ- الجدل والتداولية

يترتب على إدراج الحجاج ضمن النوات السابقة، أننا حتى لو رصدنا الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو صوره البذائية الاستدلالية، فإننا ستكون ميدانياً بصمد رصد أفعال كلامية أو تكلمية لها مرجعية أو سياق مشترك بين التكميم والاستمع، أو بين المخاطب والمخاطب، وإلا واجهنا أزمة على صعيد التراكبات والمظاهر التواصلية والتأويلية.

ولئن كان البعض يعتقد أن دراسة الحجاج في الخطاب اللغوي هو شأن التداولية Pragmatique فإن لهذا الاعتقاد ما يبرره، إذ، بالفعل، نجد الخطاب الحجاجي يطضع ظاهرياً ويأطرها لقواعد شروط القول والتلفي، بمباراة أخرى، إن كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة النصدية والتأثير والفعالية، وبالتالي، قيمة ومكانة أفعال النوات الخطابية.

هكذا ينتمي القول أو النص المحاسني إلى مجال التداوليات، إلا أن مجال التداوليات هو مجال واسع من جهة، ومشعب من جهة ثانية. وبالتالي يجوز القول بوجود تداولية البلاغيين وتداولية اللسانيين وتداولية المناطقة والفلاسفة، إلخ. هكذا، نذهب إحدى الباحثات إلى القول: «التداولية كبحث في قمة ازدهاره، لم يتحدد بعد في الحقيقة، ولم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد اعتراضاتها أو اصطلاحاتها»¹⁷. وبخمس النظر من تداخل الاختصاصات المقاربة للتداولية، فإن هذه الأخيرة تحاول الإجابة عن أسئلة مهمة مثل:

- من نتكلم؟ وإلى من نتكلم؟
- ماذا نقول بالضبط، حين نتكلم؟
- ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟
- كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

والمتمم في الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار مقاصد التكلم وأفعال اللغة وبمعناها التداولي والسياق، إلخ. ويصرف النظر هل التداولية هي قاعدة اللسانيات أم العكس، فإن الأسئلة المطروحة سابقا تطبق على كل أنواع الخطاب والتكلم، بما فيها الخطاب المحاسني، إن هذا الأخير ينطوي على إبعاد للتداولي على عدة مستويات، فعلى مستوى أفعال اللغة التداولية هي احتجاج صائب الأفعال «المرضية» والتي تستعمل، حسب أو مثين Axiom... «العرض مفاهيمي، وبسط موضوعي، وتوضيح استعمال كلمات ومبسط، مراجع، مثال ذلك، الكد، والتكر، والجواب، والاعتراض، وهب، ومثل، وفهم، ونقل القول»¹⁸. وعلى مستوى السياق هناك لغوات وتعايير وصيغ تضمني السمة الحجاجية على لخطاب ما، مما يجعل الحجاج يكون ضمنيًا أو صريحا. هكذا، نجد معايير إنجانية موجهة إلى ربط قول ما بما في الخطاب وبكل السياق المحيط. من هنا نعتبر على «أجيب» و«استبط» و«استخلص» و«اعترض»...، وتلك هي هذه المعايير لربط القول بالأفعال المناطقة وأحيانا بالأفعال اللاحقة...¹⁹. لكن هناك مستوى آخر يتعلق فيه البعد التداولي للخطاب المحاسني، ويتمثل في المستوى الحواري أو التحواري سواء كانت ذات هذا التحوار مضمرة أو مستعدة الأصوات والأمارات. وبهذا الصدد تقول فرانسواز أرمينكو Françoise Armingaud ما يلي:

«بعد الحوارية مكونا لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لخطبتين توجدان في علاقة حالية، ويقدم البعد الحواري من خلال العنود التالية: «كل لفظ يوضع في مجتمع معين، لابد أن ينتج بطريقة شاذية، تتوزع بين اللطفتين الذين يتمرسون على شاذية الإساءة وشاذية المرض، على حد تعبير فرانسيس جاك F.Jacques²⁰. ومن هذا المنطلق، فإن الظاهرة

التيار والمساعدة الذاتية

التطاعلية الحوارية تعتبر صميمية في كل خطاب على الإطلاق، إلا أن الاتجاه الحجاجي الذي تأخذ هذه الظاهرة بهيوز موضوع أكثر على صعيد التواصل الفكري، وهذا ما اتضح مع التداولية التفاعلية لدى كارل أوتو أبل K.O.Abel، والتداولية التفاعلية لدى يورغن هابرماس J.Habermas، إن أساس الحجاج، إذن، في منظور بعض الاتجاهات التداولية هو الحوارية، وما تتطلبه من عمليات حجاجية تتنوع وتنبأين تلقائياً بشروع وتنبأين أنماط التشاور ومراتب الحوارية. وقد شكل هذا الأساس دافعاً دفع بعض الباحثين إلى إجراء تصنيفات ضمن الفعل الحواري تحت مبرر مراعاة الشروط الموسيوية - لسانية لكل صنف وأبعده التداولي الخاص. وقد ذهب الأستاذ طه عبد الرحمن إلى الاعتقاد بأن «الحوارية تقسم إلى «الحوار» و«المحاورة» و«التحاورة» وكل منها يخضع لمنهج حجاجي استدلاكي وألية حجاجية وبنية معرفية وشواهد نصية»¹⁷. غير أن مثل هذا التصنيف للفعل الحواري - الحجاجي، وما يترتب عليه من تصنيفات منهجية، قد يستقلنا في زعرة تفاضلية وتفسيرية، أو موجهة بخلفيات أخلاقية غائبة، والحقيقة أن الحوارية وحجاجها هي ذاتها من نتائج «المعملة التواصلية» ومن ثم فمن الصعب جدا حصر كل اتجاهات المناقشة والتخاطب الحجاجي، حتى ولو حاولنا أن نضع لذلك قواعد ومبادئ، أو مستويات كذلك التي سماها «كرايس» Gries بمبادئ المناقشة القائمة على «التعاون». وهذه المبادئ أو الحكم في أربعة وتتضمن كلها التالي:

١. مبدأ النكم: اشتمال المساعدة المنقولة على كمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان.

٢. مبدأ الكيف: المساعدة في النقاش تكون حقيقية لا تؤكد ما يعتقد صاحبها أنه خطأ، ولا تؤكد ما هو في حاجة إلى حجج.

٣. مبدأ العلاقة: النكم في صميم الموضوع، وعند الضرورة.

٤. مبدأ الطريقة: الوضوح في الكلام، وتجنب الالتباس في الحديث، وكذا تجنب الكلام الغامض، مع توجيه الاختصار والتهجئة¹⁸.

وهذه المبادئ لا يمكن اعتبارها تداولية أو حجاجية محضة، لأنها تعتبر عديداً المعنى خارج نطاق النشاط الخطابي باعتباره نشاطاً عقلياً. وهذا النشاط بدوره ليس معزولاً عن مضمونه الموسيوي - أخلاقي والتواضعي (المعرفي)، والدليل على ذلك، أن كل مناقشة أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر وتواصل معه.

٥ - المجال والتفاعل

بالموازاة مع تناول التداولية للظاهرة الحجاجية، هناك المطالبة اللسانية التنظيمية لهذه الظاهرة، فالمطالبة اللسانية تلك، قد حاولت أن تعالج الحجاج كظاهرة لسانية نصية لا يمكن

لتفسيرها دون إبراز موارث المتكلمين، وأدوارهم في اتصال الكلام. وبالإضافة إلى ذلك، هناك التوقف عند العناصر والروابط الحجاجية باعتبارها أدوات لغوية، ثم تشريح سلاسل الحجاج داخل النصوص والأقوال.

إن التحليل اللغوي للحجاج وممارسته قد اتخذ من النصوص وكيفية إنتاجها موضوعه الرئيس. ويسمى هذا التحليل إلى صوغ قواعد ومعايير قراءة النص الحجاجي اللغوي (بمساعدة علوم أخرى). يصرّف النظر عن التحليل الأصلي لهذا النص. فليس يكون نصا صحافيا أو أيديولوجيا أو أدبيا أو فلسفيا... ونجد بذور هذا التحليل عند «J. بينفنيست» Benveniste، والذي صنفه «أ. ديكر» O. Ducrot وآخرين.

هكذا نفهم من بعض أبحاث «J. بينفنيست» أن اللغة لا يمكن أن تتحقق فعليا إلا بواسطة التلفظ Enonciation. وحينئذ تتحول اللغة إلى خطاب يحدد علاقة بين متكلم ومستمع. ويرى هذا اللساني أن «الفعل الفردي الذي ستمثل بواسطة اللغة، يجعل من المتكلم قبل كل شيء، ما يشبه الحيد الثابت في شروط التلفظ الضرورية. فقبل التلفظ لا تكون اللغة سوى عبارة عن إمكانية لغوية. وبعد التلفظ تصبح بمثابة الخطاب الذي يصدر عن متكلم في شكل صورة ناطقة لتسويف مستلما بحيث للخطاب أثر ارتجائيا»⁽¹²⁾.

ومن جملة ما أكد عليه «بنفنيست» أيضا هو أن التلفظ «يظهر وحدة العلاقة اللفظية مع الشريك سواء أكان شريكا لفظيا أو فكريا. فربما أو فكريا». وهذه الخاصية تطرح بالضرورة ما يمكن أن نطلق عليه: الإطار التشخيصي للخطاب⁽¹³⁾. ومن بين أشكال الخطاب يتخذ التلفظ «صورتين» ضروريتين: إحداهما بمثابة مصدر التلفظ والثانية بمثابة هدف التلفظ. إن السكينة تتعلق هنا ببنية الحوار.

واستنادا لأفكار «بنفنيست» حول التلفظ والتكلم والخطاب يستتصور «أ. ديكر» O. Ducrot أن الخطاب الحجاجي وراء ذات متكلمة أي له مصدر أو مصادر. فالتكلم - داخل الخطاب - هو المصدر المسؤول عن الخطاب. بصفة عامة، وعن حجاجه بصفة خاصة. لكن «ديكر» يميز بين التكلم والتلفظ. وهذا الأخير، باعتباره مجردا، هو المسؤول عن منظوق (قول) أو أكثر. وهو الصوت المتحدث باسم التكلم للتعبير عن رأي أو أطروحة (مواقف خاص) ضمن الخطاب الحجاجي ككل. وفي هذا السياق أيدع «ديكر» مفهوم «التلفظ» - متعدد الأصوات، لحل مشكلة تحليل بعض الأقوال التي لا تعترف بالضميمة، فن نسب فيها الكلام، هل لتكلم واحد، أم لأكثر من متكلم»⁽¹⁴⁾.

وعلى عكس الاتجاه اللساني الذي يجعل دلالة (معنى) القول تتعارض مع قيمة القول، ومن ثم تعارض علم الدلالة مع التداولية، يذهب «ديكر» إلى الاعتقاد بأن المعنى لا يحدد من دون الرجوع إلى مقاصد القول وحاجاته⁽¹⁵⁾.

النهار والاستدلال اللفظي

وهذا الطرح اللساني لا يفصل فصلاً باتاً بين البعد التداولي والبعد الدلالي في الخطاب. إلا أن «ديكرو» يرى أن هناك فرقاً واضحاً بين الاستدلال العقلي وبين الخطاب. فالأول لا يشكل خطابه، لأن كل قضية من قضايا الاستدلال تحول بوجودها إلى حالة واقعية أو افتراضية من حالات الواقع. هكذا يقول صاحب هذا الرأي: «بالنسبة لي، إن كلاً من الاستدلال العقلي والخطاب ينتميان إلى نظامين مختلفين إطلاقاً، أي نظام ما نطلق عليه عادة «المنطق» ونظام ما أطلق عليه «الخطاب»»⁽¹⁾.

ويريد صاحب هذا الكلام أن يستنتج نتيجة منهاها: إن الخطاب اللفظي يتوهر على خاصية حجاجية مباشرة له دون أن تغير هذه الخاصية معايير منطقية خارجية. وبحاج هذا الخطاب يتجلى في العلاقات بين المقولات والأقوال. وهي علاقات مكونة لتلك الأقوال وتوجيهها، في مجتمع ما، توجيهها معينا.

ويطلق «ديكرو» و«ج.ك.» أسكوسبر، على هذا الحجاج الخطابي اسم «الحجاج داخل اللغة»⁽²⁾. بعبارة أخرى: فالأمر يتعلق هنا بحجاج يمكن عثه «منطق الكلام» أي تلك القواعد الداخلية للخطاب. والتي تتحكم في ترابطه وتسايله⁽³⁾.

وهي هذا الإطار. فإن كثيراً من أقوال القول لها وظيفة حجاجية عندما تهدف إلى توجيه لفظي نحو نتيجة معينة أو عرقه وبها.

والجديد عند «ديكرو» - «ج.ك.» - أن تلك الوظيفة الحجاجية تنحصر على خصائصها في بنية الجملة ذاتها. بعبارة أخرى: «... إن القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هي خصوبة الطروحات التي يقدمها فحسب بل إلى الجملة بإمكانها أن تشتغل على مؤثرها وتعاير أو صيغ. والتي، بالإضافة إلى محتواها الإخباري. فهي تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه اللفظي في هذا الاتجاه أو ذاك»⁽⁴⁾.

إن هذا الطرح، الذي يجعل استعمال الحجاج ليس متصراً بضاف إلى اللغة بل يسري فيها سرعاناً طبيعياً. سوف يميز بين الدليل (الحجة الفاعلة) وبين الحجة العائدة، من جهة. وسوف يولي اهتمامه التحليلي لإبراز نظام وترابعية الحجاج (حجاج قوية. حجاج ضعيفة) أو (حجاج علواً. حجاج سفلى) بالنسبة لنتيجة معينة طبعاً، من جهة ثانية. وعندما تكتمل هئة من الحجاج (A) علاقة بين مراتب الحجاج. إذ أنه تسمى هذه العلاقة «سلماً حجاجياً». ويمكن تقديمه هي المخططة التالية⁽⁵⁾:



إن تتبع ورصد السلالات الحجاجية ورصداً أساسياً هو رصد علاقاتها وترتيبها على أرضية المشهورات اللسانية الدالة على الحجاج (حش، لكن، إذا - فإن، عندما، ... إلخ). وهو على الخصوص، ورصد لا يندى الجملة الواحدة أي ما يشكل قولاً أو منطوقاً له معنى.

أما خارج نطاق حجاج الجملة أي في إطار النص كمتنوية نهائية أو «لا نهائية» من الجمل والفقرات، فإن الأمر لا يتعلق بسلم الحجاج، بل بـ «التحليل المنطقي» للنص، وهو تحليل تتواحه فيه الطريقة البرهانية (الحجاجية) المتضمنة والكاملة هي النص، كمكوناً ذاتياً فيه. مع نموذج من نماذج الاستدلال العقلي التي صاغها المنطق⁽³⁴⁾.

والآن، فتسأل: إذا امتكث كل من التداولية والسمانيات نواصي حجاج الخطاب، فملاكاً تبقى من هذه الظاهرة البلاغة والأسلوبية؟

والواقع، إن الفعالية الحجاجية كفعالية خطابية لا تظهر وتتجسم لنوايا إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية. فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكورية كمتطلبات جمالية وأنيمة يتكسبها مبدع الحجاج وعلاقاته الداخلية. هكذا، تكافؤ قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى نص آخر، فالأساليب ومعارف البيان والتبيين تقوي الحجاج وتزيد من فعاليتها، أي لعمل لصالح التأثير والإشاع. **لذلك، يمكن النظر إليها كعناصر أدبية وخطابية قائمة الذات** كما يمكن النظر إليها في علاقاتها بأموارها الحجاجية وقيمتها الإقناعية. إلا أن عرض البنية الحجاجية لنص ما يتطلب الاختصار والإبصار والتمرية. ولنتضح تلك البنية ومكوناتها الوظيفية والعلائقية فمن اللازم إبعاد المقاييس والبلاغيات والصور التي لا تشكل الحجاج ذاته بل «إخراجها» واستعراضها فقط.

ومع ذلك، فبعد عني بعض البلاغيين والأسلوبيين بتحديد وتصنيف أنواع الحجاج والأساليب الحجاجية، خاصة في مجال الخطابة. ولأنك أن أنماط الحجاج وأساليب الحاجة هي عديدة جداً، مما يصعب على المهتم بها حصرها وتسميتها تسمية نهائية. وقد حاول ج.ج. روبريو، J.J. Robrieux أن يفعل ذلك في كتابه «عناصر الخطابة والحجاج»⁽³⁵⁾. كما حاولت ج. روس J. Ross أن تبرز البنية المنسوبة بين المبادئ المنطقية وقواعد البلاغة الفلسفية والحجاجية، عارضة بعض هذه المبادئ والقواعد (الأساليب) في كتابها: «المنهج الفلسفي»⁽³⁶⁾. وبالإجمال، فإن اللغة، باعتبارها نفساً دالاًها لفظياً استراتيجياً هي التواصل الإنساني، تتنقل عن باقي الأنساق الدلالية الأخرى بكونها - على حد تعبير د. بارط - تمدنا بالمدى، بل هي نموذج الفنى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن اللغة الثقافية بطبيعتها تؤثر، ووجدت تأثيراً، فخاصية الفنى وخاصية التأثير في اللغة الطبيعية تفسران لماذا لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والمحاكمة، ولماذا لا نخلو أساليب التعبير والقول من أعمال استدلالية وأدوات لغوية نحوية - لسانية تفضل أجزاء الجمل وتجميعات الجمل - وتشتبهها العقول والمخبر المتعارف عليها لدى جماعة بشرية معينة.

النقد والاعتدال في النقد

وإذا كان التعبير عماده الجميل، وهي بدورها عمارتها المعنى، فإن اختيار مناسبات التعبير وكيفية استعماله أمور تبقى من اختصاص التكلم ونوعية أسلوبه. فالأسلوبية اللغوية تنطلق من الأسلوب باعتباره من وجهة نظر البعض، فإثما على استخدام الموارد الإبداعية للغة لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الشاعرية⁽¹³⁾. وبمثل التداخل الوجود بين القول المكتوب والقول المنطوق، وإحالة أحدهما إلى الآخر. لا نستطيع إجمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تدخل سواء هي إيصال المحتويات والدلالات، أو هي تحقيق التأثير. وهذه الظواهر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة وتلغيم الأصوات اللغوية وإيقاع العبارة ونبراتها، والاستعارة والاستشفافيات، وبإي الطاقات الإبداعية والتعبيرية التي تلعب أدواراً متناقضة بالنسبة لوضع الحجة، أو بالأحرى، لتبيين الحجج داخل فضاءية معينة. ومفسر هذا التناقض هو كون المضمون العقلي والمنطقي لاستعمال الحجج لا يستطيع أن يستغني إطلاقاً عن التعبير والصيغ الأسلوبية. كما أن الألباب التعبيرية والأسلوبية، وإن تفاوتت في درجتها، لا يستطيع أن تؤثر وتنتج من دون مضمون، أي من دون نسبية المعاني والأفكار، ومن دون العلاقة الحسية باعتبارها علاقة عقلية قائمة على أعمال قسمة بين النفس والعقل.

ثانياً: الدين والخطابة

إذا كان هناك من لا يميز بين الخطابة والبلاغة، فإننا في التراث العربي نجد هناك طرقاً وأصنافاً بين كل منهما. فالبلاغة تعتبر الشمل وأعم من الخطابة والتي هي جنس من أجناس التواصل وهي القول. إلا أن الخطابة كانت شبيهة الارتباط بالشعر عند العرب، ويمكننا، بهذا الصدد، الإدلاء باللاحظات التالية:

- إن مفردة الخطابة، هي العربية، مأخوذة من خطبة، أخطب، خطابة... وهي ذات موضوع وذات وظيفة أيضاً، هما موضوع ووظيفة الخطبة.
- إن الخطابة، بما أنها نوع من القول، فإن هذا القول له بقاء وأسلوبه. وأهم ما يميز هذا الأسلوب الخطابي هو أنه إقناعي وبلاغي. أما «أرسطو» فقد فصل بين الخطابة (الريطوريكا) وبين الشعر (البوتيقا)، فالخطابة هي منظور «أرسطو» هي «قوة تكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المبررة»⁽¹⁴⁾. وهذا الإقناع الخطابي يتطلب قواعد ووسائل يمكن أن نعتبرها منهجية - بلغة اليوم - تدخل في صميم بنائها. ومن عناصر الخطابة عند «أرسطو» هناك: وسائل الإقناع أو «البراهين» والأسلوب أو البناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول ثم الإلقاء⁽¹⁵⁾.
- هكذا، نجد هناك علاقة تؤثر وتباين بين الخطابة والفلسفة داخل الفكر اليوناني، إذ انعكس هذا التوتر - مثلاً - في موقف «الفلاتون» من الخطابة السفسطائية... أما في الثقافة

إن النوع ورمز السلاسل الجماعية رمزا لسانيا هو رصده علاقاتي وفرتيمي على أرضية المشيولات اللسانية الدالة على الحجاج (حتى، لكن، إذا - فإن، عندما... إلخ) وهو على الخصوص رصده لا يتعدى الجملة الواحدة، أي ما يشكل قولاً أو منطوقاً له معنى.

أما خارج نطاق حجاج الجملة أي في إطار النص كمتوالية نهائية أو «لا نهائية» من الجمل والفقرات، فإن الأمر لا يتعلق بسلم الحجاج، بل بـ «التحليل للتطقي» للنص - وهو تحليل لتواجه فيه الطريقة البرهانية (الحجاجية) للضميمة والكلمة في النص، كموتادها فيه. مع نموذج من نماذج الاستدلال العقلي التي صاغها المناطقة¹³⁷.

والآن، تسائل: إذا امتلكت كل من الدلالية واللسانية مواضيعي حجاج الخطاب، فماذا تقيس من هذه الظاهرة للبلاغة والأسلوبية؟

والتواقع، إن الفعالية الحجاجية كمتالية خطابية لا تظهر وتتجسم لغويا إلا بمهارات أسلوبية وتثيرات بلاغية. فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكارية كمتطلبات جمالية وأدبية يتليها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية. هكذا، تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى نص آخر. فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوي الحجج وتزده من فعاليتها، أي تعمل لصالح التأثير والإقناع. لذلك، يمكن النظر إليها كأواهر أدبية وخطابية فاقمة الذات. كما يمكن النظر إليها في علاقتها بالذوات الحجاجية وقيمتها الإضاحية. إلا أن عرض البنية الحجاجية لنص ما يتطلب التخصص والعمق والتدبر، ولتوضيح تلك البنية ومكوناتها الوظيفية والعلائقية ضمن اللازم إيراد التعابير والبلاغات والصور التي لا تشكل الحجاج ذاته بل «إخراج» واستعراضه، فقط.

ومع ذلك، فقد عني بعض البلاغيين والأسلوبيين بتحديد وتصنيف أنواع الحجج والأساليب الحجاجية. خاصة في مجال الخطابة، ولا شك أن أنماط الحجج وأساليب الحاجة هي عديدة جدا، مما يصعب على المهتم بها حصرها وتعميقها تعريفا نهائيا. وقد حاول ج.ج. روبيرتس J. J. Roberts أن يفعل ذلك في كتابه «عناصر الخطابة والحجاج»¹³⁸. كما حاولت ج. روس J. Ross أن تبرز الصلة العضوية بين المبادئ التطبيقية وقواعد البلاغة الفلسفية والحجاجية. عارضة بعض هذه المبادئ والقواعد (الأساليب) في كتابها «التأليف الفلسفية»¹³⁹. وبالإجمال، فإن اللغة باعتبارها نسقا دلاليا لفظيا استراتيجيا في التواصل الإنساني، تتقوى عن باقي الأنساق الدلالية الأخرى بكونها - على حد التعبير من - بارزة، «معدنا بالفضي، بل هي نموذج للفضي» هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن اللغة اللفظية بطبيعتها تؤثر، ووجدت، لتؤثر. فخاصية اللفظ وخاصة التأثير في اللغة الطبيعية تفسران لماذا لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والجماعة. ولماذا لا نطوّر أساليب التعبير والقول من أفعال استدلالية وأدوات لغوية نوعية - لسانية تفضل أجزاء الجمل وتجميعات الجمل - وتستعملها العقول والتأثير للعارف عليها لدى جماعة بشرة معينة.

البلاغ والاعتدال في الباري

والثاني راجع إلى التلطف، وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة تجري على قوانين اللغة، وتكون سليمة عن التافهه^(١٢١).

واستناداً إلى ما ذهب إليه قطّاب البلاغة العربية هي تعريفاتهم وأبحاثهم استخلص «أبو نيس» أن «البلاغة تهدف إلى أمرين: الوضوح (الارتجال) والتأثير (التلغيع)^(١٢٢)». ويقوم من هذا القول أن البلاغة هنا قد أخذت كمحدد أساسي للخطابة، لأن الخطابة تحتاج جمهوراً معيناً، ومن ثم حاجتها للبلاغة لإقناعه والتأثير فيه. ومن منطلق أن الخطابة تحتاج للإبلاغ فإنها تحتاج بالتالي للصور البلاغية والصحج والحجاج. فالتأثير والاستمالة يتطلبان الإبلاغ والوضوح وأساليب الإقناع. ومن هذا المنطلق، يجب الإقرار بوجود حجاج بلاغي يعد عناصره الأساسية هي المادّي البلاغيّة كأدوات إقناعية مثل الشاهد والاستشهاد والحجة والدليل والاستدلال، إلخ.

«فالحجج، هي «البيان والتهيج» كان يرى أن الشاهد هو عنصر من عناصر الحجاج. كما أنه مرادف للحجة والدليل والبرهان. إن مفهوم الشاهد هنا دلالة بيانية وبلاغية. وكذلك أنه محاولة عقلية ومعتوية. إذ به يحصل التصديق والاستدلال والخير والبرهنة على صيغة. فالحجاج البلاغي القائل على الشاهد اعتبر عند «الجامع» ومن هنا عدوه دعاية لإرساء الحقائق وصرح المعلم. هكذا يؤكد «الجامع» أن «مداد العلم على الشاهد والمثل...»^(١٢٣). ويستمد «الجامع» دور الشاهد «بأنه في العلم (الخبر الصادق) ومن عادة العرب في هذا المجال. وكثيراً ما كان هذا الكاتب يحصل من الحجة والدليل والشاهد أشباه مترادفة ومتطابقة. إذ يقول في هذا الإطار، «وكان تلغيع الكندي الشاعر، واسمه محمد بن عيسى. كان الدهر مقتناً، والقناع سيماء الرؤساء. والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة الناطقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقتناً»^(١٢٤).

وهنا يصبح الدليل أو الحجة متمثلين في أقوال يستعمل بها. ولا يطالها الشك، أو حالات وأفعال تقوم مقام المرجع والهدوء. وكذلك على ما يؤكد هذا، قول «الجامع» أيضاً، «والدليل الواضح، والشاهد القاطع، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصدى، وأعطيت (جوامع الكلم) وهو القليل الصالح للكثير»^(١٢٥).

ونلاحظ أن إدراج مفهوم الحجة بمعنى الشاهد والاستدلال والبرهان ضمن دائرة البيان والبلاغة الإقناعية، هو الذي جعل التواميس العربية تذكر هذه المفردات أو المفاهيم بمعنى واحد، ولا تميز بينهما تمييزاً دلالياً أو وظيفياً.

وإذا كان الحجاج البلاغي قد تعدى نطاق الخطابة ليجد مكانته التهجية في حضرة العلوم والكثافة، فإنه مع ذلك قد بقي محتفظاً بخصائصه الأصلية. كسب تأييد التلغيع في شأن تقنية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك التلغيع عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً،

حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة - الخطاب - بهذا المعنى يصبح القول إن الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معاً - إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية - أو بين التبرير العقلي والمحسنات البيانية.

وإذا كانت أساليب الحجاج البلاغية تتميز بمظاهر أدبية وفنية، فإن سرعان ما اعتدلت اليوم إلى جل أنشطة اللغة والقول - وهي هذا المعنى يقول م. مايبير M. Maier - «إن كل شيء عند أضحى «تواصلاً» من الصداقة إلى الحب، ومن السياسة إلى الاقتصاد - حيث نجد العلاقات تتنام وتفسح بناء على فشل أو نجاح البلاغة»^(٣١). وهذا يدل على أن وراء كل حجاج بلاغة - والعكس صحيح - لأن مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع.

إن البلاغة هي قبل كل شيء عتاد بلاغي وفناني يتوسله الخطيب - أو القائل عموماً - لغرض موضوعه أو رايه أو قناعته - ولأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه - إلا أن الصور البيانية والتحويل المجازية والقوية (هن الإيصال) وحدها لا تحقق التصديق والتأويل ما لم تستند بأدوات ترجيح الرأي وتسويحه عقلياً - وهذه الأدوات هي التي يوفرها الحجاج أو المحاجة -

هكذا - فالبلاغة قد تؤثر وتستعمل وتتمتع - ولكنها لا تقنع وتضمن إلا إذا تلاصحت مع الحجج والمحاجة - وإذا كانت ج. روس تعتقد أن «الصور البلاغية هي عملية أسلوبية تشغل الخطاب ولها وظيفة إقناعية»^(٣٢) - فإن عدم الصور - على الرغم من أهميتها - لا تستطيع أن تصمد أمام العقل النفاذ والشك الوطاد - ما لم تكن مدعومة منطقياً بالحجج المنطقية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة - ويمكن القول إن الحجاج ينشئ ويصوغ الرأي المناسب والمضام - أما الأسلوب البلاغي فهو يعرض هذا الحجاج وموضوعه في صور وثقافات لتنسيبها جمالية الإيصال والتلقي -

صحيح - إن البلاغة تشكل إمبراطورية واسعة - على حد تعبير ش. بيرلمان - والأساليب الحجاجية ما هي إلا روافد من روافد هذه الإمبراطورية - لذلك لا يجوز إطلاقاً اختزال البلاغة سواء كفن الكلام والقول أو كمباحث ومراسلات في مفهوم الحجاج والمحاجة البلاغية -

ويترتب على كل ما قلناه سابقاً أن هناك حجاجاً يمكن نمته بالبلاغي أي هناك صنف من الحجج يخضع في منأه وتوجيهه لقواعد البلاغة والبيان - ويتسم هذا النوع من الحجاج بالسمات التالية :

- اندماجه عضوياً بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق -
 - اشتراطه لزميتين هما إرادة التكلم (المؤثر والمنفع) وإرادة التلقي (التأثير والقتنع) -
 - خضوع حجيجه للقرائية والتنظيم - القوة الضعف - البدء الختم - الإبطال - الإثبات ... إلخ -
 - اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإقناعي أو التجميع بين البيان والبدع -
 - عدم قابليته للقولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية - -
- ويمكن اختصار أهم أهداف الحجاج الخطابي والبلاغي في العناصر التالية :

البيان والخطابة

• التأثير في المتلقي (السامع أو القارئ) وجعله يتفهم مع الخطاب اعتقاده واقتناعه الخاص أو:

• التأثير في المتلقي لجمته يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريد به الخطاب.

• استمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذمياً ومخاطبة (عقلاً وقلباً) لكسب تأييده وتوافقه الضمني أو الصريح.

واعتباراً لخصائص الحجاج البلاغي وأهدافه، فإن الحجاج، سواء كان استدلالاً أو سجالاً، في الحقل التواصلية والمعرفية الأخرى مثل السياسة والقضاء والفلسفة، لن يتخلص كلية من رؤيته البلاغية والخطابية. فالحجاج الذي يتغذى من ثقافة الطهيمية وهاجس الإقناع والتأثير سيظل دائماً محتفظاً بقدر معين من البلاغة والخطابة.

وقد لا نبالي إذا قلنا إنه، باستثناء لغة الرمز والدلالات الواحدة، لا تكاد تظهر على لغة طبيعية لا تفرق من لغة، فإنها إلى الإغراء. وهذا النزوع هو الذي يبرز ضمناً أو صراحة وجود البلاغة والحجاج البلاغي. لذلك نجد «ج. يودريو» يؤكد أن «الإغراء هو أمر بدائي في اللغة وكل خطاب يتواطأ في هذا الاستنتاج، وفي هذا الانحراف الإغرائي. وإذا لم يفعل ذلك بنفسه فإن هناك من سيفعله مكانه»^(٣٠).

لقد سطنا هذه المواقف لتؤكد المنهج البلاغي

• إن تحليل «المنهج الحجاجي» أو «البنية الخطابية» أو «الخطابة الحجاجية» في خطاب أو نص ما، خاصة النص المكتوب، على الرغم من اهتمام القارئة السطحية بما هو شفاهي - ليس إجراءً مبهماً ولا في متناول الجميع، فعندما تدخل الأبعاد التداولية والكتاتبية والبلاغية - الأسلوبية والتسميحية في منوجات النسل المنطقي لتضاهك أوضاع الحجاج وتنفذ وظائفها وأمارتها.

ويزداد الأمر تعقيداً عندما تتأرجح الحجاج بين الإضمار والظهور أو بين الإغفاء والبروز، ومهما قيل، إذن، عن تعقيد ذلك التحليل ومحاولة تعميمه، فإن النتيجة لن تكون سوى «قرارات» خاصة أو فرضيات لطرافة صغرة عن حنوس عقول نيرة.

• إن السمة الحجاجية في «الخطابة» أو في «بنية الاستدلالات» والقائمي، داخل التسموس، لا تتجلى ويهيس كشفها إلا إذا كنا أمام القول المنطقي المكتوب. أما القول المنطقي الشفاهي، حتى وإن كان تحتفظ لطافات اللغة، فهو لا يشكل أرضية لتحليل معمق ومتناسك بل يمثل زائداً من الأمثلة والحالات المتفرقة. وماعدا في حالات نادرة جداً، يعني الخطاب الشفاهي من تشوهات وتشكلات تنعكس آثارها على التساقطية البنائية. وعلى ضوابطه ومساراته الحجاجية^(٣١).

• إن الأطروحة التي اعتبرت الحجاج خاصة مباحثة لكل تعاطب لغوي (ماهر، وديكرو) لم تراخ في تحليلاتها الفروق الواضحة بين الأداء الشفاهي والأداء الكتابي، بين الاستعمال

التواصل الفعّال والحي للغة وحجّاجها وبين الاستعمال التقني والمفرد من هذه اللغة. وهذا يفسر لماذا يسهل انتقاء بعض التجميل والصيغ وتحليل مضمونها الحجّاجي. ويصعب ذلك حينما يطول الحديث أو النصّ طويلاً مفرطاً.

ثالثاً: الحجّاج في القضاء أو الحجّاج القضائي

إذا اعتبرنا مع «ش. ميريلمان» أن الحجّاج يطبق كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإقناع والإقناع مهما كان التقني ومهما كانت الطريقة للثبوت¹⁰⁹، فإن مجال القضاء يعتبر من المجالات التي تتطلب الحجّاج والحجّاجة. والقضاء المقصود هنا ليس قضاء التشريعات وصوغ القوانين، بل هو قضاء إصدار الأحكام، أي قضاء المرافعة والدولة.

أ. خصائص الحجّاج القضائي ومميزاته:

إن مجال المرافعة والمداولة هي النشاط القضائي تتميز بالسمات والتأويلات والمحاكمات. فهي الجلسات القضائية تدخل أطراف أساسية هي القاضي أو القضاة، والمحامي والمدعي العام... إلخ. وحتى تأخذ الأحكام الصادرة عن القضاة صبغة شرعية عادلة يفسح المجال - غالباً - لخطابة الإقناع والتبرير. فالمهمة هي قبل كل شيء، خطابة ومحاكمة، والدولة هي الأخرى تبرير وحجّاج. وقد كان «أرسطو» من أنشأه الأوائل الذين صنّفوا أنواع الخطابة، إذ ميز فيها بين الخطابة الاستشارية والخطابة القضائية والخطابة الاحتفالية.

إن الحجّاج القضائي ينحدر بدوره - إن - من الخطابة القضائية والتي تتميز بمهامها وحالتها وبمضمونها وأسلوبها. وعند «أرسطو» تشكل الخطابة القضائية من القوانين والشهود والاعترافات والأقوال المحكمات، والتي هي بمثابة شواهد وحجج جازمة¹¹⁰. أما القاضي الخطابي، الذي يعتمد الحجّاج القضائي، فهو يهتد بهد قائم على الاحتمال والترجيح أثناء المرافعة القضائية¹¹¹. ولعل الداعي إلى وجود هذا القاضي وهذا الحجّاج هو ضرورة التبرؤ من التهمة «بالاحتجاج» والأدلة الثبوتية. أو ضرورة تبرير الأحكام والتأويل الفلّوتي المطلوب في نازلة معينة.

ومن وجهة نظر أخرى، يمكن اعتبار القضايا القضائية بمثابة مشاكل تتطلب حلاً أو حلاً لصياغ في صورة قرارات وأحكام قضائية، فالحجّاج، إذن، يكون مسؤولاً بوجود مشاكل تقضي للنقاش. وفي هذا السياق يقول م. ماير: «بمجرد ما تطرح المشكلة فإن إمكانية الرأي المعارض أو إمكانية النقاش تصاحب هذا الطرح... عندما تتألف مشكلة ما في سياق معين تصبح الحجة هي الجواب المناسب للنتيجة»¹¹². وهكذا، فالمشاكل والمعضلات التي تواجه الناس أفراداً أو جماعات تضطّرها إلى الاستئناس، على الأقل، بأرائين لمحاولة حلها هما، اللغة والمثالي (التأويل).

إن التأويلية أو النقاشية تقومان بدورهما على المسألة وطرح الفرضيات أو الأطروحات

البلاغ والاعتداء اللغوي

- التأثير في المتلقي (السامع أو القارئ) وجعله يتفاسم مع الخطاب باعتباره واقتناعه الخاص أو:

- التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريد الخطيب.

- استمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهنيا وعاطفيا (عظما وقلبا) لكسب تأييده وتوافقه الضمني أو الصريح.

واعتبرا لخصائص الحجاج البلاغي وأهدافه، فإن الحجاج، سواء كان استدلالا أو سجيلا، في الحقل التواصلية والعرفية الأخرى مثل السياسة والقضاء والفلسفة، لن يتخلص كلية من رؤيته البلاغية والخطابية. فالحجاج الذي يتغذى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير سيظل دائما محتفظا بقدر معين من البلاغة والخطابية.

وقد لا يتألم إذا قلنا إنه، باستثناء لغة الرمز والدلالات الواحدة، لا نكاد نغش على لغة طبيعية لا تتزع من لقاء دائها إلى الإغراء. وهذا النزوع هو الذي يبرز ضمنا أو صراحة وجود البلاغة والحجاج البلاغي. لذلك نجد، مع بودريوز، يؤكد أن «الإغراء هو أمر يداني في اللغة وكل خطاب يتواطأ في هذا الاستمالة» وفي هذا الانحراف الإغرائي. وإذا لم يفعل ذلك بنفسه فإن هناك من سيفعله مكانه⁽¹⁾.

لقد سطنا هذه المواقف لتؤكد المناهج التالية:

- إن تحليل «المسار الحجاجي» أو «البنية الخطابية» أو «الأسلوب الحجاجي» في خطاب أو نص ما، خاصة النص المكتوب، على الرغم من اهتمام الناقرة اللسانية بما هو شفاهي - ليس إجراء ميسرا ولا في متناول الجميع، فعندما تتداخل الأبعاد التداولية واللسانية والبلاغية - الأسلوبية والسيميو-لغوية في منوجات النسل اللغوي تتشابك أوضاع الحجاج وتتعقد وظائفها وأدواتها.

ويزداد الأمر تعقيدا عندما تتأرجح الحجاج بين الإضعاف والتطهير أو بين الإغفاء والبروز. ومهما قيل، إذن، عن تعددة ذلك التحليل ومحاولة لتعميده، فإن الحاصلة لن تكون سوى «قرابات، خاصة أو ظرفيات للقرابة صائرة عن حدوس عقول نيرة».

- إن السمة الحجاجية في «الخطاب» أو في أبنية الاستدلالات والمقاسي، داخل النصوص، لا تتجلى ويظهر كلها إلا إذا كنا أمام القول اللغوي المكتوب. أما القول اللغوي الشفاهي، حتى وإن كان تحفقا لطافات اللغة، فهو لا يشكل أرضية لتحليل معمق ومتناسك بل يعمل دائما من الأمثلة والحالات المتفردة. وماعدا في حالات نادرة جدا، يعاني الخطاب الشفاهي من تشوهات وتشكلات تعكس آثارها على اتساقه البتائية. وعلى ضوابطه ومساراته الحجاجية⁽²⁾.

- إن الأطروحة التي اعتبرت الحجاج حاصية مياطنة لكل تعاطف لغوي (ماهير، وديكرو) لم تراخ في تحليلاتها الضروقات الواضحة بين الأداء الشفاهي والأداء المكتوب، بين الاستعمال

للحقيقة واليقين، كما أنه لا يحاول ويحتج ليقين ويمتنع وإلا كان خطيباً عمومياً، إن القاضي يختار القوانين التي يراها ملائمة للحالة أو النزالة المصعوبة ويقوم بتأويل تلك القوانين في اتجاه تبرير الحكم تبريراً مدعماً بالحجج المتناسكة. فاستدلال القاضي - إذن - لا يقوم على استنباط نتائج معينة من مقدمات يقينية وإنما يقوم بالأحرى على تعيين بعض المقدمات والوقائع لترتيبها ربطاً حجبياً بالقواعد والقوانين القانونية، إنه بهذا المعنى، استدلال تراجمي أو تهنيري. أما الحكم والقرار (خمسلة التبرير) فهو قرار توافقي يمثل ترجيح القاضي أو إجماع الهيئة القضائية. وهو نتيجة تحكم التمييز وإعمال التبرير المقبول والمقبول معاً.

ويمكن أن نستخلص مما سبق أن الحجاج القضائي كفعالية عقلية وقولية يعتبر هي بعض جوانبه قريباً من الحجاج الخطابي ومن الحجاج الفلسفي أيضاً. فهو يجمع بين الإقناع والتأثير من جهة، وبين الحجة العقلية والاستنباط المنطقي من جهة ثانية، أي بين الصرامة المنطقية للمنطقية وبين إقناعية البلاغة والبيان. وفي هذا المنحى يقول ج. إزار G. Izard أحد المحاضرين الفرنسيين المرموقين: «إن الهدف من الدفاع هو الإقناع. وقاعدته العليا هي الوضوح. ومثل الدفاع هو إنشاء تسلسل في غاية الوضوح وتلصق منطقي جيد: إنشاء شخص ودحض متكامل للاعتراضات حتى ينطبع هذا التبرير المتسلسل في ذهن القاضي ولا يترك أي مجال لأي مذبذبة». ولا يخفى أن هذا لا يتصور إلا في ظل وجود كنهين اثنين: فالتسلسل المنطقي في أثنى التحصيل وتكثيف وتام بتجميع الدلائل في جعل وكلمات متسلسلة...^(١٦).

إن الكلام السابق يجعل من حجاج خطاب أحد أطراف القضاء ومنازلته، أي الدفاع، حجاجاً خطابياً (بيانياً) ومنطقياً هي أن واحد. إنه حجاج يجمع بين التعليل والتسديد والإقناع. وباعتبار أن القضاء يعمل على تطبيق القوانين والمسايطير في ظل شروط عادلة تلتزم الوافية والتعاضد على مستوى تفسير الوقائع والقوانين، فإن عملية التفسير والتأويل هذه تقوم على أساس الحجة أو البرهان، الذي لا يرقى إلى مستوى البرهان المنطقي الضمني الضابط، كما أن الحجة، في هذا المجال، لا تنزل إلى مستوى الصور البيانية والبلاغية المبهمة بالهم الجمالي والإستعصي فقط. إنما بالأحرى، أمام حجاج قضائي يصغي طابع الصلح والعلاحية على أشكال الأدعاء والتبرير والمحاكمة. وفي ما تروى وتوطد في ظل القضاء والتقاضى من عادات حجاجية.

٥- اللغة والجدال

إذا كان القضاء، كما لاحظنا، يستدعي حجاجاً خاصاً لتسوية الأحكام المتعارضة وحجاجاً خاصاً بخطاب الترافعة، فإن التشريعات التي تكلم القضاء وأطرافه قد تطورت في الأخرى على نوع من الحاجة الفقهية. وهذه الحاجة الأخيرة هي استنباطية وتفسيرية فقط. وليست برهانية.

البيان والاستدلال بالبيان

يقينية. وهذا راجع إلى طبيعة الفقه ذاته والذي تحدث عنه «الفارابي» فالتكلم «وصياغة الفقه» هي التي يشعر الإنسان على أن يستلزم تقرير شيء مما لم يصرح وأصبح الشريعة بتحديد على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير. وأن ينحصر في ذلك حسب عرض وأصبح الشريعة بالغة التي شرعها هي الأمة التي لها شرع⁽¹⁷⁾.

إننا هنا أمام نوع من استنباط المجهول من المقوم وفق قواعد قياسية طابها جدول واسع تولد عنه فقه إسلامي متعدد المذاهب حول موضوع إرساء المبادئ والأصول ومناهج النظر. ومع الفيلسوف ابن رشد تكمن محاولة تأسيس الشريعة والفقه الإسلاميين على الاستدلال والبرهان بدل الجدول والحجاج الكلاميين.

صحيح. إن الفقه الإسلامي قد توطئت قواعده مع القياس البنيوي ومع سلطة النص. إلا أن ابن رشد - المقتنع بالبرهان كدالة للعلم واليقين بدل الحجاج المنطقي إلى الظن - قد رأى في «البرهان العقلي» و«التأويل العقلي» أصول العمل لاستنباط الأحكام والحقائق الشرعية.

وهذا ما عبر عنه هذا الفيلسوف بقوله: «وليس يقال أن يقول: إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة. إذ لم يكن هي المصدر الأول. فإن النظر أيضا في القياس العقلي وأنواعه هو شيء استنبط بعد المصدر الأول. ولا يرى أنه بدعة. وكذلك يجب أن يعتمد في النظر في القياس العقلي⁽¹⁸⁾. إننا هنا إزاء إشكال فإن مصدر القياس العقلي «برهان» أم «كلامي» - يعني. ومع ذلك. فإن القياس العقلي مهما أريد له أن يكون قائما على الاستنباط والاستدلال المنطقيين فإنه. معكم ثوابت الفقه وحفل بنائه وتداوله. لن يكون إلا نشاطا جدليا حجاجيا وبلاغيا معياريا.

بابعا - جدلا الفلسفة: معبراته وألياته

أ- جدل الجدلا في الفلسفة

إذا كان الحجاج قضائية خطابية وتداولية وبلاغية. فإن القول الفلسفي يشكل حثلا وإنجازا خاصا لهذه الطغالية. ولا يتعلق الأمر هنا بمقاربة فلسفية خارجية للحجاج أو للخاصية الاستدلالية. بل بمعد جوهرية في الفلسفة سواء اعتبرناها معرفة أم تفكيريا. وعليه. فمن المجال تصور مذهب فلسفي أو تحليل فلسفي معمم الحجاج والحجاج. بصرف النظر عن أساليب هذا الحجاج وطيمته.

وعلى الفلسفات التي فضلت هي أسطورية. الاستراتيجية الشذائية والاستعارية⁽¹⁹⁾. أو الاستراتيجية الشعرية والخطابية⁽²⁰⁾. لا تفلو كلها من الخاصية الاستدلالية والحجاجية بوجه من الوجوه.

نقول، إذن، إن التفكير الفلسفي هو تفكير عجاجي بالمشكل، ولكن أي عجاج يتم اتبعه واعتماده هي الفلسفة؟¹⁹⁴ وهل يجوز الحديث عن الصحيح في قول الفلسفة وإنتاجها، أم من الدلائل والبراهين؟ وهل هناك طريقة أو استنتاجية خاصة بالفلسفة في استعمال العجاج ومنطقتها؟ ثم ما الذي يضطر الفيلسوف وحتى المتنقش إلى الاستدلال عجاجي؟

نعم هي حاجة إلى طرح هذه التساؤلات، إذن، من أجل استجلاء وضعية العجاج في الفلسفة لأهداف نظرية وأخرى تطبيقية أو تعليمية.

وقبل بحث وبسط أجوبة لتلك التساؤلات، نود الإشارة إلى أن قضاء العجاج الفلسفي هو الأشكال القولية الفلسفية للمشكلة من موضوع قد تطول وقد تقصر، أي سواء كانت مطلقة أو مقطعية.

كما يتعين التأكيد على أن الممارسة العجاجية والاستدلالية في الفلسفة، ليست مقصورة لذاتها. ومن ثم فهي ليست معزولة كلياً عن الإجراءات والأبعاد الأخرى في هذا النمط من القول والفكر. وبعبارة أوضح، تكون الممارسة العجاجية الفلسفية مبررة بغايات بعضها تعليمية وعقلية (إقناعية، حوارية...) وبعضها منهجية وفكرية (سجالية، جدلية، تحليلية، نقدية...). وكل ذلك في ارتباط عضوي مع ما تتطلبه روح التنقش من وضع الإشكالات فلسفياً ومعالجتها معالجات منطقية، اللغة وتشديد الأمور، حقائق والمواقف والمفردات تشديد معاده الصحيح والاستدلالات المنطقية... لهذا السبب، قد لا يستقيم الحديث عن العجاج في الفلسفة دون إثارة علاقة «العجاج الفلسفي، بالمعقولة والقيمة والمنطق والبالغة... إلخ».

ولذا كانت الفلسفة، إجمالاً، هي خطاب العقل والعضوية، عمار لازماً عليها بالتالي اعتبار العجاج الفلسفي شرطاً حاسماً لهذا الخطاب المعقول. ومن هذا المنطلق، يرى ولوطيو العقلانية الفلسفية أن خطاب الفلسفة هو خطاب الدليل والبرهان. لا خطاب الحجة والقيمة. من ذلك أن العجاج هو مطلوب عند صاحب الإيمان والاعتقاد، والذي لا يرضى باعتقاد وإيمان ما لم يتسمه معه الأمر. ومن ثم، يتوجب على المعتقد إقناع الآخر بالحجة والصحيح حتى يتفوق إيمانه هو. وإن يكون سوى إيمان المحتج والمباشر إلى الإقناع بالصحيح.

وهذا الصدد يقول هـ. غريني H.Grenier: «عندما أجعل على الإقناع فاني أرتب في اهتمام اعتقادي مع الآخرين، علماً بأن التفكير عندي يعني التفكير مني»¹⁹⁵.

إن غاية الفلسفة عند مناصري العقلانية ليست هي الاعتقاد. وبالتالي الإقناع واستمالة الآخر، بل هي إرساء الحقيقة. وتفكير الحقيقة هو تفكير الدليل والبرهان. لا تفكير العجاج والتعليل. وإذا كانت الأطروحة الفلسفية تحتاج إلى إثبات وتصديق، فإن «الحجة لا تعد الأطروحة سوى بدعم سطحي، ولأنني، إنها تضر بها أكثر مما تقدمها»¹⁹⁶. فالحقيقة التي تشهدها الفلسفة، إذن، بحاجة إلى الدليل (البعد العائلي) لا إلى الحجة، طالما إن كل حجة هي حجة في صيغة الجمع.

البرهان والاستدلال اللغوي

وبمثل هذا الموقف، تداعيات إستيمولوجية ومنهجية قد تعود بنا إلى خلاف الأفلاطونية مع السفسطائيين أي إلى صراع فلسفي / خطابي، وحتى خيبون الأمر جهداً، يتعين القول إن بعض المفاهيم والقولات سواء داخل المقارسة الفلسفية أو خارجها، يتعين فهم شتيان حصولها الاستدلالية، خاصة إن الفلسفة، على الرغم من معنوياتها وعلاقاتها اللغوية، فهي مدونة بالكثير لغة الطبيعية، وما تتيح به هذه الأخيرة من استعارات والكليسات. وبناء على ذلك، فالخطاب الفلسفي هو خطاب برهاني، ولكنه برهاني بالمعنى «الحازي» أو التشبيهي لبرهان لا بالمعنى الحرفي والدقيق له.

ومعاقبة التسلسل الإشكالات الحياة والوجود والفهم، وما يطبع الوضعية الإنسانية من مفارقات، يجعلان عمل الفيلسوف أقرب إلى اللغة الطبيعية والوعي والتفكير منه إلى لغة الأبنية الرمزية والصورية. فالحديث عن الدليل والبرهان هي الفلسفة، أو الحديث عن الحجاج والمحاجة فيها يتطلب الاحتياط من الانزلاق نحو انحرافين ممكنين هما: شكلانية الاستدلال وبلاغية الخطابة.

ب- البرهان والحجاج اللغوي: نظائز أم قاطع؟

إذا سلمنا بوجود حجاج فلسفي فهو، عموماً، حجاج تسويي وإنشاء السلاحية (التصديق) أكثر منه حجاج تقييري. أو حجاج الإنجاز وإنتاج مفسر، والذين استلزامهم الوجه البرهاني بالمعنى اللطفي والرياضي، لدى بعض السلاحيين¹، يتم إفرادهما إلى الإعتقان بنموذج البرهان والاعتقاد ببعض ملامحه هي غير سيادة الأصلي. وبين البرهان كسلطات عقلية تزيد التعليل من قس اللغة وتعاليمها ومن تعدد الرؤى التحليلية والتأويلية.

وربما يصح القول إن هناك استدلالاً بالبرهان والاستدلال بالحجة (الحجاج). فالفلسفة، بوصفها تصوصاً ومنهجاً، تستدل بالحجة لا بالبرهان أو الدليل. وما يدعم هذا الكلام هو أن البرهان محكوم بمعايير هي غير معايير الاستدلال بالحجة والحجاج. فالبرهان إما أن يكون صحيحاً وإما أن يكون خاطئاً، والحالة الثالثة إما منعدمة أو معقدة بشروط، والبرهان يكون صحيحاً بصحة نتائجها وكفائتها الذاتية، أي استقلالها عن دعم أو تقوية خارجية. كما أن صدق البرهان هو صدق قضائها وما يلحقها من علاقات، ومن لم، لا تقاس قيمة البرهان برأي أو موقف الآخر منه وتقييمه له. بل قيمته مياضلة له.

فالصدق الداخلي في البرهان وقابليته الرمزية (تحرره من ليس الدلالة والتأويل) تجعله أنسب لبعض التمثل والبراهينيات دون غيرها. أما الاستدلال الحجاجي فهو لا يملك صرامة وإلزامية البرهان ولا موضوعية وقوة الدليل. إن صلاحية الحجاج الفلسفي تقاس بمعايير خارجية أي بمعايير قوته أو ضعفه، كفايته أو عدم كفايته، نجاحه أو فشله (في الإقناع). فطاية الحجاج، إذن، ليست هي الصواب أو الصحة بل التأثير والتقبل².

وهناك من يذهب إلى القول إن «مضامين الخطابات الفلسفية لا يمكن اختزالها في خطابات وانسقة منطقية، وكل محاولة في هذا الاتجاه هي مجرد وهم»¹³¹، ومن أسباب تعذر إخضاع العمل الفلسفي للنسبة المنطقية هو كون هذا العمل يتجلى في إضفاء البص، بشكل شمولي، على الواقع ووضعيته. إننا أمام تناقض وتعارض مسارات المفاهيم أكثر مما نحن أمام تماسك فنيا منطقية صرفة.

وقد لاحظ ج. غ. غرانجر G.G. Granger، يقول: «أن البرهان» في الفلسفة هو بدوره مفهوم فلسفي. إلا أنه مفهوم «رخو» إن لم يكن استعاريًا. والذي يجعل «البرهان» في الفلسفة برهانًا ميتا ورخوا، هو كون مادته الفكرية تعتبر غاية جداء أي عبارة عن نشاط خطابي لا يخلو من بلاغة وبراعة أسلوبية.

وإذا كان لابد من المقارنة بين البرهان الخطابي والبرهان الفلسفي، فإن هذا الأخير لا يمكن أن يقتزل في قواعد بنائية أو علاقات رمزية وحيدة الدلالة، مثلكم لا يتطلب تسلسلا صارما للتضاهي. وما يعنى التشاؤم بين البرهان الحقيقي والبرهان الفلسفي (الحجاج الفلسفي) هو أن هذا الأخير يشتمل على الأساليب والوسائل والإشكالات لا على الأوليات والأكسيومات كما هي النطق والرياضيات.

وهي السياق نفسه، لا يجوز أن ننظر من الاستدلال الحجاجي في الفلسفة ما ننتظره من الاستدلال في الخطاب الفلسفي، لهذا السبب الذي لا يجوز من دون برهان أو من دون دليل، فالبرهان معناه اليقين والصدق، والدليل معناه التحقق والموضوعية، ولأنك أن التباين الواضح بين البرهان والاستدلال الحجاجي في الفلسفة هو الذي شجع ج. غ. غرانجر على الاعتقاد بأن «خصوصية الاستدلال الحجاجي العقلي الفلسفي لا تكمن في البرهنة، بل في الإظهار» أو ربما «الوصف»¹³². ويوافق هذا الفيلسوف الإستمبولوجي ل. غنتنشتاين، حينما اعتبر هذا الأخير أن الفيلسوف يبين ويظهر بواسطة المفاهيم أكثر مما يبرهن بواسطة التضاهي والحساب.

إلا أن تحليل «المعرفة» الفلسفية من جفاف البرهان وقطره الدلالي ومعاييره الصورية، واكتفائها «بالإظهار» والوصف، وإضفاء المعنى على الواقع المعيش ليس مبررا لتوجيه تلك «المعرفة» نحو وجهة فلسفية مذهبية خاصة، كما أن مثل هذه المقارنة لا يجب أن يفهم منها أن هناك مفاضلة بين ما تقوم به الفلسفة وما يقوم به النطق أو الطبع. ذلك أنه مهما حاولت الأساق البرهانية أو الاستدلالات العقلية أن تستمدع عن نموذج النسق اللغوي أو المعنوية المنطقية، فإن هذه الأخيرة تبقى هي المرجعية الأولى لاشتغال العقل وعملياته. وهي الأكثر شيوعا رمزيا وتواصلها. لنقل إذن، إن الفلسفة تستدل عقليا بالعجج المنطقية والخطابية وتحلل الأفكار بالأفكار، لكنها لا تستدل بالبرهان العقلي المنطقي اللطع

الجدال والاستدلال الجدلي

الدلالة، ولا تستدل بالدلائل الواقعي الموضوعي الذي يؤسس القائلين، هكذا يتبين لنا أنه من الأنسب اعتبار التفكير الفلسفي تفكير (أو معرفة) استدلال احتجاجي أو تفكير احتجاج على الطريقة الفلسفية.

ج - الجدال الفلسفي ومعرفة الحق والوجود

إن المرء لا يمكن أن يرضى لا مباليا تجاه ذلك المنظر الجينيالوجي التيشوي، الذي يجعل حقيقة الأشياء، تكاد تكون في متناول اليد والأصابع، عندما نعود إلى أصل نشوئها الأول، وكيف صارت على ما هي عليه، وهذا المنظر الجدلي والخلقي قد زعزع مفهوم الحقيقة ذاته حينما حلل، لنتبينه، جينيالوجيا أصولها التاريخية والاستعارية التي طأها النسيان، وفي المجال الذي يخصنا، يعود القول إننا قد نسبنا كون الفلسفة كانت هي أصلا جدلا ومناقشة قبل أن تصبح اتسافا ومثونا، وقيل أن تكون هذا المذهب أو ذلك، هذا الاتجاه أو ذلك.

فالفلسفة الأولى (الابتدائية) كانت خطبا عنها لفظيا أدواته الجميع العقلية والاستدلالات العقلية الكلامية في مواجهة خطاب الاعتقاد الأسطوري الذي لا يفسد ولا يفتح، بل يتحليل ويسود، وينخرس في الوجدان والمشاعر الفردية والجماعية¹¹

وعلى الرغم من أن عددا من الفلاسفة اليونان قد حاولوا أن يرسموا الحدود الفاصلة بينهم وبين الجدال - خاصة الجدال السفسطي - فإنهم في أعمالهم الفلسفية، لم يمارسوا سوى الجدال والاحتجاج، إن الحقيقة، التي مجدها أفلاطون، و أنطه الذي كان «الوسط»، يعتقد أنه يشهده ويثبته. هي أمور لم تر النور إلا مع التلم الحديث، فالبعد الجدلي والحواري في الأعمال الفلسفية هو بعد لا أحد يستطيع إنكاره. ويمكن القول، والحالة هذه، إن الاحتجاج الفلسفي لا يتجلى وينفتح إلا مع ممارسة الجدال العقلي والتفكير بمعنى التداولي لا بمعنى الداعي أو الدعاوي.

هكذا، إذا لم يرتبط الاستدلال الاحتجاجي بالبراهين والحسابات الصورية فلأنه يرتبط بالجدل والمناقشة أو بالمواجهة بين الأفكار والأطروحات (الدعوى). والحقيقة أنه منذ أفلاطون، وأرسطو - (أي منذ أعمالهم نفسها) والاستدلال الاحتجاجي يمارس في الفلسفة كضرورة بهدف إضفاء التصديق على أطروحة ما، وذلك عن طريق حشد التعليلات والمؤيدات والجميع المدافعة عن أطروحة صاحبها، أو الدافعة والمصدحة لأطروحة الخصم، أو القسوة والكلمة لأطروحة الخصم.

وما دام مطلق الاستدلال الاحتجاجي هي الفلسفة هو الأطروحة (الوقف) المراد بسطها واقتباسها مع الآخر، بغض النظر عن الإشكال الذي استدعاه وتطويعه. فإن على هذه الأطروحة أن تأخذ بدين الاعتبار مختلف الاستجابات العقلية لها، مما يعني أن عرضها هي

مشهد فكري حوارى، جدلي (قاضي) صراحة أو ضمناً هو أمر لا مفر منه. وقد لاحظ R. Blanché أنه «عندما يمرض فيلسوف ما، فكرته، فهو يفعل ذلك، غالباً، عبر الحجاج، إنه يمتسك بأطروحاته ويدافع عنها. لكن هذه الأطروحة ليست مجانية بل يكون قد توصل إليها بعد تأمل طويل»⁽¹⁴⁾. والامتداد للحوار في الفلسفة، بصرف النظر عن مظاهر أساليبها، لا يمكن أن ينفصل على وجهه من دون الاستناد إلى أرضية حوارية جدلية بالمعنى التداولي والتواصلي لهذه الأرضية.

وبالرجوع إلى تسموس الفلاسفة نجد أن عرض الأفكار فيها، ونسجها نسجاً عقلانياً، خطابياً كان ولا يزال خاصتها لإكراهات اللغة الطبيعية، وهذه الإكراهات تعرض على استدلالات الفيلسوف العقلية درجة كبيرة من اللزوم والبراهمية. لهذا السبب، سيكون من الصعب الظن أن لعبة إنتاج التسموس الفلسفية هي لعبة متعالية أو خارج نطاق التحليلات العلمية (الإستمولوجية، اللسانية، التداولية... إلخ). وعندما نقول إن لغة هي الفلسفة بعدا حوارياً نطلب حجاجاً ومعالجة دون إنكار ما لهذا البعد من أثر على وضع الحقيقة في القول الفلسفي. فإن هذه الحوارية أو الجدل بشأن بطبيعة خلاقة وإشكالية، حسب خصائص الفضاء الثقافي الذي يفكر فيه الفيلسوف، وحسب الاختيارات الخطائية والأسلوبية لدى هذا الأخير.

ونستطيع القول إن ما يطوي عليه تفكير الفيلسوف من حوارية وجدل لا يخضع لنموذج من البرهنة الصريحة والتصارف. فهذه الحوارية وذلك الجدل ينتهيان صوب الأطروحات في شكل أحكام وجدل تؤكد أو تنفي. وقد تسبق أو تراقب أو تعقب هذه الأطروحات سلسلة من الحجج. هي أيضاً أفكار وقضايا لغوية. وعندما تتحرك محلة التفكير الفلسفي الحوارية والجدلي، وتتجسم في خطاب عقلي متعاضد، يصبح من الصعب الإفصاح عن كل الضممرات والفتنصات الحجاجية التي يوجهها المحلل أو المحللون سواء للأخوين أو لذاته، لهذا، في مجال الفلسفة، أمام بنات وعلاقات رمزية، ولا أمام تداعيات تطبيقية «تتارة» بل نحن أمام نسق من الأفكار والمفاتي التي تأخذ برقاب بعضها البعض، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. إنها أفكار ومعاني منسوجة نسجاً عتبقوها لا تعدد فيه البدايات (كل كلام لا بداية له) ولا النهايات. كما لا يحدد المصوح عنه والسكوت عنه وباقى «المناورات» اللغوية إلا على سبيل الافتراض والاحتمال. ومع ذلك، فما من قارئ لتسموس الفلاسفة إلا ويشكك شعور قوي إزاء ما تكتفه هذه التسموس من إرادة عميقة في إشراك الآخر بخصوصيته أو كونهته كمنصت متلق أو كمتجاوز معانف... وإذا لم يكن الأمر كذلك فلأجل من يستدل ويحاجج الفيلسوف؟ ولن يضرب الأمثال ويتسائل ولماذا يثبت وينفي، وينقد ويرجع ولماذا يستشهد ويملح ويحلل ويفسر؟

الحوار والاستدلال الهجائي

ويكفي أن نعتبر كون الفلسفة تشكل النقيض السالب للعنف والإكراه لثباته لنا دور الحوار والجدل التحاريري. وما يتبع ذلك من نقاش وسخط التحديد العنف وتحجيم أخطاؤه... ولعل هذا هو ما عناه أحد الفلاسفة عندما قال: «إن العنف هو مشكل بالنسبة للفلسفة (...)»^(١) والنتيجة المفارقة هي، إذن، أن العنف لا معنى له [لا بالنسبة للفلسفة. هذه الأطروحة التي تعتبر رفضا للعنف (...)، فالعنف هو نقطة بداية للفلسفة وغايتها التصوري^(٢)].

ولأجل تحقيق تلك الغاية النبيلة ليس هناك أنبل من وسيلة غير وسيلة خطاب لتناقض والحجاج والإقناع. كما يكفي أن نعتبر الفلسفة هي طريقة في طرح المشاكل أو الإشكالات طرحا حثريا لثباته لنا أن حل هذه الإشكالات أي تحليلها تحليلا عقليا، يقتضي التحاور والجدل بالمعنى المصريح للتحاور والجدل أو بالمعنى التصوري والإبداعي لهما، ألم يجعل أفلاطون من الحوار وسيلة عظمى لعرض آرائه الفلسفية؟^(٣)

ولكن يتعين علينا الإشارة إلى أن الجدل في «التفكير فلسفيا» أو «المواجهة» في الخطاب الفلسفي هي «مواجهة» حوارية تداولية لا «مواجهة» بلاغية أو برهانية. وهذا ما أثار انتباه أحد الباحثين القاريين حينما قال: «لما كانت الفلسفة خطابا طرهيما، فلا يفيدنا تقليد أهل البرهان في صلب الاستدلالات صورية، لا هي ارتقت بها إلى درجة البطلان الرياضي ولا هي هدتها إلى سبيل التوجيه إلى العمل. والتحق إلى الفلسفة الواجبة بأصولها الطبيعية والتداولية (...)» لا يعني إلى مسالك الرجوع بغيرها^(٤).

ونحن لا نهمنا أن تكون الفلسفة تداولية أو عملية نسب في مجرى القيم والأفعال، بل ما يهمنا هو معرفة رسوخ الاستدلال الحجاجي في الخطاب الفلسفي وقبامته على أرضية الحوار والجدل، ولأننا أن السمة الحجاجية في الخطاب، ذلك، تتضح نفسها بأمارات قابلة للتحليل والنهم سواء أكانت ذات المخاطب (الفيلسوف) ذاتا موحدة أم منشطرة، والتنامي في الإجازات الفلسفية التنصية ممثل للتحاور ودال عليه، لأنه آلية حجاجية.

إن التماس هو طريقة حجاجية تستهدف إثبات الفهر في تأليف النص متكاملا مستهدف، إرادة تحقيق التميز والأصالة، والتماس نفسه يأخذ عند «ديريدا» J. Derrida، مثالا، شكل تقديم عندما «يفتح تصورا جديدا لتاريخ الفلسفة والتصورات التي تشطب تعارض المنعمر والنفط، والتي ترتبط بالتصور الجديد للنص، تسبق للقيمات، لعبة مفتوحة / مغلقة، فالتص لا يملك أبدا واحدا، جذرا واحدا»^(٥). ولأننا أن التقييم المشار إليه هنا هو عبارة عن تماس مضمر أو صريح، والواقع، إنه ما كان لعملية التماس المصريح أو الضمر أن تحظى بأية قيمة لو لم تكن مظهرا من مظاهر التحاور والحاجة، وهناك من يرى أن «المحاور يدمج في نصه نصوصا مغايرة سابقة، مماثلة أو مبانة»^(٦) (لمصطفي نصه بصيغة القابرة الصميمة) (٦٣)، إتنا، إذن، أعلم جدلية الأطر والرفض.

وهكذا. يمكن القول إن ظاهرة التماس هي التماس الفلسفية هي ظاهرة تقدم لنا دليلاً حولها على الترابط بين الفعالية الجدلية - الحوارية والفعالية الاستدلالية الحجاجية داخل النص الفلسفي. أي داخل الفلسفة وهي إنجاز بنجز بالفعل.

د- الحوار الفلسفي والخطبة: أية علاقة؟

نقد رأينا كيف أن الخطبة تلجأ إلى الحجاج لغرض الإقناع العقلي والعاطفي معاً. فالحجاج البلاغي الذي يسم الخطبة، منذ أن وجدت إلى الآن، يعتبر إجراء خطابياً استراتيجياً إذا ما رام المتكلم التأثير في المخاطب (المتلقي) واستماعته لأخذ قرار ما، أو اتخاذ موقف معين، أو القيام بعمل ما. لذلك فالصوغ الأسلوبية والصور الاستعارية والبيانية تعتبر من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية الحاجة الخطابية.

أما هي الفلسفة، كمعرفة أو كتفكير، فتجد التقاطع والتكامل بين البعد التحليلي (العقلي) والبعد الخطابي أمراً لا شك فيه. ومن البدهي أن تكون هناك إذن، «خطبة فلسفية، لأن أفكار الفيلسوف ومبادئه لا تعرض عارية من متطلباتها اللغوية والأسلوبية. لكن «الخطبة الفلسفية» وبلاغتها لا تقوم استراتيجياً بتحقيق آثار عاطفية مباشرة أو توجيه سلوك المتلقي توجيهاً مباشراً وفعالاً.

إن بلاغة الفيلسوف ليست ما يصرحها في سعي هذه المعرفة أو التفكير إلى جعل المتلقي يتقبل «حقائقها» التي لا يتوفر الفيلسوف على وسيلة أخرى للتعبير عنها غير اللغة ومطابقتها التواصلية والاستدلالية. وهناك من يرى أن الخطبة الفلسفية هي خطبة غير مباشرة، إذ لا يمكن عزل مضمونها عن صورها. فهي جزء لا يتجزأ من العمل الفلسفي ذاته.

وقد بين ج. غ. هراتجر - مثلاً - أن الخطبة الفلسفية تقوم بـ «هيئة الأوضاع اللسانية باستعمال الحوار والاستقراءات العرضية (...) لتثبيط التفكير»⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه يلاحظ الفكر ذاته أن الخطبة الفلسفية تقوم ببنية وحدات الدلالة بحيث تعيد استعمال مضامين اللغة المتداولة استعمالاً فلسفياً يلائم وظيفة الفاهيم باعتماد الصور التشبيهية والاستعارية...⁽²⁾. إلا أن بلاغة الفيلسوف لا تشبه بلاغة الخطيب إلا في ملامحها العامة، وليس في كيفية تعبئتها وفي مسوغاتها وأغابها. نقول هذا لتجنب كل حباله في إبراز مكانة البلاغة في الكتابة الفلسفية، خاصة عندما يفهم بعض الباحثين من «البلاغة الفلسفية» تلك الصور البلاغية المعتادة هي الأدوات الأدبية والخطابية المصروفة⁽³⁾.

هكذا، علينا أن نقر بأن الفيلسوف يشبه، ويمتعب، ويصف، ويحل... أي يفهم التصورات الأولية، ويستشكل القضايا، أو يجعل استدلالاته الحجاجية تصدر عن العقل دون أن تتجاهل متطلبات التفكير.

وليس غريباً أن نجد العصور البلاغية وتحفظاتها الأسلوبية تحظى بميزة مركزية في النصوص الخطابية من النوع الإشعاري والصحافي والأدبيولوجي. وقد استلهمت بلاغة هذه الأجناس الخطابية بعض ملامح خطابها من بلاغة الشعر والخطابة. وإذا كان هناك من فرق بين خطاب بلاغة الفلسفة وخطاب البلاغة كالبلاغة، فإنه يمكن في كثير من خطاب بلاغة الفلسفة ليس مقصوداً لذاته ولا انحصاراً، ولأنها حتمياً، يتجلى في خطاب بلاغة الشعر أو الخطابة، وما ذكر بهما من أجناس قولية. فهو خطاب يتدرج ضمن صميم نسج دلالة ومحتوى هذه الأقوال والكتابات.

إنه فرق بين بلاغة كائنية وأيد منها وبين بلاغة عرضية وثأوية. ففي النص الشعري، مثلاً، نجد الحاجة إلى التخييل والتصوير تولد الحاجة إلى الجزأ لأغراض دلالية. كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين قائلاً: «الاستعارة تعمل المعنى عبر محور الاستبدال، وهو اختيار شيء لوضعه في موضع شيء آخر، في حين أن الكناية تعمل المعنى عبر خط آخر هو التجاوز، وكلاهما، أي محور الاستبدال والتجاوز، يؤثر في البعد الدلالي للنص (الشعري)»¹⁷⁴.

وإذا ما عدنا إلى بعض الفلاسفة مثلاً فنجد أن توظيف الطاقات الخطابية البلاغية للتعبير عن أفكارهم، قول بحث لنا القول إننا أمام مفارقة مملوكة أي هل عقلانية ومعتزلية الفلسفة تتطلب نصب العداة إتمام تصويرات بلاغية وخطابية؟

إن الاعتقاد في وجود مفارقة من هذا القبيل واضح. بل بدء إدراك وضع الحقيقة في الفلسفة أولاً، ثم من سوء فهم العلاقة بين الفلسفة والبرهان العقلي، وبين الفلسفة والخطاب البلاغي ثانياً. وإذا ما تأكد لنا - مثلاً - ثبوت ذلك أحد الباحثين - أنه «لا يمكن التفكير في الاستعارة داخل الخطاب الفلسفي بوصفها محضاً بلاغياً، بل بوصفها مكوناً داخلها من مكونات (...) وربما كانت إحدى ركائزها»¹⁷⁵، فإن المسألة لا تتعلق بـ «نثر عقل» بين النزوع إلى التجريد والنزوع إلى التشخيص، بل تدور حول الأمر بالهوية الصائفة، لدى جل الفلاسفة، بين الطبع إلى نموذج معرفة فلسفية خاصة وخالصة، لا قبل سوى معقدات واحدة (الحقيقة، العقل، البرهان...)، وبين واقع حال الأعمال الفلسفية النحرة، هذه الأعمال التي لا تبدو أن تكون خطابات عقلية منطقية، لا تقوى على تجاوز إمكانات اللغة الطبيعية من حيث الدلالة والتعبير والتداول، وأمام هذه الحقيقة، يجد كل فيلسوف نفسه مجبراً على اقتسام ما يدور في ذهنه مع مخاطب منظر أو محتمل. وفي هذا الإطار، لم يكن قد نيتشه F. Nietzsche يهتف من الرؤية العمالية حينما قال: «كلما كانت الحقيقة التي نريد تعليمها أكثر تعقيداً كلما يجب علينا أن نزيهاً لإغواء الحواس»¹⁷⁶. والحقيقة المقصودة هنا هي الحقيقة الفلسفية «المجردة»، والتعليم الذي يمارسه صاحبها هو علاقة بين الأنا والآخر، أما التزيين المطلوب فهو تزيين عبادة البلاغة وأساليب اللغة.

خاتمة: «الامتداد الحجاجي»، مفهوم ومنهجية

يشعر بما يصح القول بوجود «حجاج فلسفي» يصح القول
أيضا بوجود «استدلال فلسفي» وحتى بوجود «استدلال
حجاجي» فلسفي، لكن ما المقصود بـ«الامتداد الحجاجي»؟

ولذا هذه الصيغة التركيبية دون غيرها؟

إن مفهوم «الامتداد الحجاجي» - إن صح اعتباره مفهوماً - هو مركب أو مكون من فئتين:
أحدهما هو «الاستدلال» وهو اسم معنى لكنه كلي، أما الثاني فهو «الحجاجي» وهو نعت يشير
مفهومياً «الحجة» و«الحجاج». لكن مفهوم «الحجاجي» بهاء النسبة الشدة فيه، هو ملحق على
الاستدلال وصفة تلميحية له أيضا. وإذا كان مفهوم الحجاج قد حظي في القنرات
السابقة، بحث وافر من إيمان المنظر والإيضاح، فإن مفهوم الاستدلال لم تلامسه تلكها إلا
عندما تناولنا الحجاج في الخطاب النفسي وعلاقاته بالبرهان والبلاغة، إلخ.

وراء شاعرتنا النظري الاستقصائي مع مفهوم «الامتداد الحجاجي» - فون غيره - سبب
رئيس، يتعلل في علامته ومواسمته للتوظيف في مجال الفلسفة والتقصيف. وهذا التوظيف هو
الذي أباح لنا الجمع بين كل من الامتداد والخاصية الحجاجية دسجا نعرف مسبقا ما قد
يثيره ذلك من اعتراضات، خاصة من طرف كل حريص على نقاوة مفاهيم المنطق الصوري.
وتجنب كل التباس أو غموض محتمل يتعين علينا، إذن، القيام بالتوضيحات التالية:

١- الجزء اللغوي - البياني للاستدلال

إن مفهوم الاستدلال عند العلماء والبلاغة العرب - عدا أهل المنطق والبرهان - كان يتم استقصاء
القول فيه ضمن إطار علم البلاغة وعلم المعاني والبيان. بعض ذلك - إنهم قد ميزوا بين الاستدلال
أو التماس البني على «الحد» (المنطقي) وبين الاستدلال البني على اسم ميثاقية (بلاغية) - فقهية،
نحوية، إلخ). والاستدلال البنيقي، إن صح التعبير، هو ما يشكل «هلا أو دالة»، بمعنى البينة
والحجة. كعنايير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصديق الخير، وفي المنطق العربي اللغوي -
البلاغي نجد مفهوم الاستدلال (المرادف للقياس أيضا) لا يخرج عن حضيرة التشبيه والتوصيف
والاستعارة. ومن ثمة، فهو ليس عملية عقلية استنباطية محضة، بل عملية «خطابية» يتم بموجبها
إنعاش علامة مادية أو معنوية وجعلها شاهدا ومثالا على شيء، أو صفة من صفاته، لذلك
قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة ويشكل أهم عن دائرة المجاز.

لكل الاستعارة التي عرفها عهد القاهر الجرجاني بقوله: «... إنها دالة على حكم ثبت للمنط، وهو
نقله على الأصل اللغوي وإجراؤه على ما لم يوضح له، ثم إن هذا النقل يكون في الغالب من شيء بين

ونلاحظ، في ضوء ما سبق، كيف وظف مفهوم الاستدلال نوعيًا عقليًا، لكنه في أرضية معرفية استدلالية أو معرفية تركيبية. وبذلك صار حجة ودلالة عقلية - بيانية. فالحديث عن طرق التقدير على الحقيقة المعالجة أو على صديق تلازم المعاني ووضوحها في ظل قواعد معينة، هو ما جعل مفهوم الاستدلال، ذاته، لا يخرج عن دائرته الفلسفية - المنهجية. ولأنه إن وراء كل ذلك إشكالية العلاقة بين النطق والتعمق، وبين الفكر واللغة، ونحن ندرك أن عدم رسوخ مفهوم الاستدلال على أرضية اللغة الطبيعية ودلائلها. وهذا لا يعني عدم انحياز هذا المفهوم نحو النطق وصورة.

٢- الجزء العقلي - المنطقي للاستدلال

لقد جرت العادة أن يحصر مفهوم الاستدلال أو الاستدلالات في مجال النطق خاصة النطق التصوري الذي أرسى «أرسطو» قواعده في «تعليلاته» الأولى والثانية. فالاستدلال عند «أرسطو» هو تفكير عقلي بواسطة يتم إنتاج العلم. ولكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الفراغ، بل من معارف سابقة أهمها «البادئ» وال«تتميمات» أو حتى معلومات شائعة. وبهذا التصدد اعتمد «أرسطو» بالكثر تصور الاستدلال أهمية وهي المسور الفلسفية. ومن ثم، يصبح الحديث عن الاستدلال الشائعي الذي يعرف بهذا «أرسطو» بأنه «قول مؤلف من الأقوال إذا سلم بها لزمت عنها بالضرورة قول آخر»^(١). وبالإضافة إلى الاستدلال القياسي، هناك أيضا الاستدلال الاستقرائي (الثام والناقص). وعموما، يمكن القول إن العلاقة وطيدة جدا بين الاستدلال والقيل والاشتهاء. هكذا يقول محمد عابد الجابري:

«والفصل العقلي الذي ينتج العلم، بالاستناد إلى معارف سابقة هو الاستدلال Razonnement. وعلى الرغم من أن الاشتراء نوع من أنواع الاستدلال فإن الاستدلال الأمثل عند «أرسطو» هو السطوحسوس أي القياس الجامع»^(٢). وكتمودج عن سطوحسوس أرسطي مهلي:

كل البشر فانون

كل الإهريق بشر

إذن كل الإهريق فانون

فيما نلاحظه - في هذا المثال - هو أن الاستدلال قد تشكل من مقدمتين (الثانية مستطبطة من الأولى). ثم من نتيجة لازمة وضرورية، إلا أن أحد اللاتطقة للمعاصرين وهو جان لوكاسييفيتش J. as Lukasiewicz، يرى أن هذا النمط من الاستدلال ليس أرسطيا حقيقيا. ويقول ج. لوكاسييفيتش بهذا الصدد: «إن «أرسطو» لم يتم أبدا بصياغة استدلالاته العقلية في

البيان والمقتضى في الـبيان

صورة استنباطات. ولكن دائما في شكل الضمعات (اقتضابات) يسبقها تلازم المقدمة وتربطها. ونأتي النتيجة حسيطة لذلك¹⁷⁴. فهل العلاقة بين قضايها (مقتضعات) الاستدلال هي علاقة استنباطية أم تضمنية؟

إن وراء هذا التساؤل مشكل علاقة مادة الاستدلال (الغنى والدلالة) بصورة (التلازم الصوري المحض). لذلك نجد أحد الإيستيمولوجيين الغربيين المعاصرين- القريب من الفلسفة التحليلية- وهو ج.ج. غرانجر G.G. Granger، يحاول أن يحدد تفسير جان لوكا سيبيش لقياس «أرسطو» الذي اعتبره تضمنيا على طراز العلاقة: $(P \supset Q) \rightarrow P$ ، لأنه لكي تكون العلاقات استنباطية في قياس «أرسطو» يجب أن تكون مقتضعات صادقة لا مستحيلة المصدق، وقابلة للتمييز الكمي (الصوري حقا). ويعترض ج.ج. غرانجر على هذا الرأي بقوله: «بالنسبة لطابع الضرورة في الرابطة القياسية ذاتها (الضرورة الاستدلالية انطلاقا من مقتضعات)، فإنها تظهر حينما يكون كل نموذج للمقتضعات هو أيضا نموذج للنتيجة. وهنا، لا مجال لافتراض كونية القدمات ولا اتسامها بالضرورة»¹⁷⁵. إن جان لوكا سيبيش لم يكتفِ بالاشتراطات الاستدلال الأرسطي المتمثلة في مبادئ العقل (خاصة مبدأ عدم التناقض، والهوية، والثالث المرفوع، ثم هي التعميمات وقيام العلم على البحث في ماهية الوجود مما هو موجود، إلخ) وعدم التناقضات بكل فئته هو الذي قاد ج. لوكا سيبيش إلى إصدار الحكم التالي: «إن «أرسطو» وإنتاج الأرسطية لم يكونا صورتين Formalistes. وقد سبق لنا أن سجلنا أن عبارة «أرسطو» لأطروحاته لم تظهر بمظهر المصدق الدقيق، والحالة العبرة بقوة عن عدم هذا المصدق، هي الانقسام التمييزي بين الصور المجردة والصور المعينة لقياس»¹⁷⁶.

وعندما نتأمل الجدل الذي أثاره استدلال «أرسطو» وهو جدل مازال مستقرا، سنرى كيف يجوز جذب هذا الفهم إلى المطلق وحتى إلى الجبر والحساب، مثلما يجوز أيضا جذبه إلى حصول البلاغة والدلالة أي إلى قضاء اللغة الطبيعية.

٢- الاستدلال القطعي، استدلال جان لوكا سيبيش

إن ما هو حجاجي يعني هنا مباشرة إلى الحجة والحجاج. والحجة ليست استدلالا أو قياسا بالمعنى المنطقي الدقيق لهذين المفهومين¹⁷⁷. فالحجاج، كما رأينا، هو شديد الصلة بـ «الخطاب»، و«البلاغة»، و«الجدل التحويلي»... أما نهاية الفعل الحجاجي فهي ليست «المصدق الدقيق»، ولا «البرهنة القاطعة». وإنما هي الإقناع والإقناع. ومن ثم ارتباط هذا الفعل بالثنائي وبالأخر. فالحجاج، في تفكير ما، لا يمكن أن يستغني عن التناقض والجدل. كما أن كلا من التناقض والجدل لا يستغنيان عن معارف وموارد فكرية سابقة. لذلك، قد

لا يصلح الحجاج لإنتاج العلم (القوانين) ولا لإثبات نتائج بديهية (بالمعنى الرياضي مثلاً). إن الحجاج يسوغ ويدعم ويظهر، وصلاحيته مقيدة بفيود الاحتمال والنسبية. هكذا، فالفعل الحجاجي، على الرغم من محاولة البعض القيام بتنظيم خطاطته الممكنة، هو متأثر حتماً بكل ما يحويه «الخطاب المنفوخ» من طاقات محارية وإصغارية وتواصلية... وبالتالي تداولية.

أما علاقة الفلسفة بالحجاج فقد فصلنا فيها الحديث سابقاً، وقد وصلنا إلى نتيجة ثابتة وهي أن الفلسفة بنصوصها ومترجمها لم تفلت من الممارسة الحجاجية إطلاقاً. وإذا كانت هذه النتيجة تكاد تكون بديهية، فإن ذلك لا يجب أن يشكل مبرراً لاستخلاصات قد تكون مغلوطة. بعبارة أخرى، فالممارسة الحجاجية هي الفلسفة لعملها الحاجة إلى اقتسام الحقيقة وصراعة معطولة التفكير وليس الحاجة إلى اقتسام قناعة أو اعتقاد. ولعلنا غاية الفلسفة التأثير في المواقف والمشاعر، ولا التحدث على الفعل المباشر. ذلك الفعل السامع في تناقضات البوم التي لا تنتهي... لقد سبق ليليز باسكال B. Pascal أن تحدث عن فن الإقناع واعتبره مرتباً باستعداد الأبطال ورواج الأشياء. كما لاحظ أن النفس تتلقى الآراء على طريقتين أساسيتين: **عما الإدراك والإرادة**¹³. وإذا ما استقلنا هذا الرأي في فن الإقناع على الإقناع الفلسفي وحجاجه، فيمكننا إسقاطاً فهو ملائم. ذلك أن الحجاج الفلسفي له قيمته الخاصة (تتمثل في كون خطابه يتوخى إضمار كل عقل مهين للتفكير العقلاني، ومن ثم فالطريقة الفلسفية ليس هدفها هو التأثير في الأشخاص، بل منح الأفكار قوتها الإحصائية)¹⁴.

وهي ضوء ما سبق، نعتقد أن العمليات الحجاجية في أي خطاب فلسفي، حتى ولو كان خاضعاً لصراعة منطقية - استدلالية (على الطريقة السبينوزاوية)، هي عمليات تأتي لسد ثغرات عرض تلك الصراعة، أو دعمها، أو تفادك عجزها الإقناعي... كما أن العمليات الاستدلالية في خطاب فلسفي خاضع لتنظيم بلاغي - حجاجي (على الطريقة نهشتوية، مثلاً) هي عمليات جاءت لتضفي طابع الصراعة العقلية والمنطقية عليه ولتسد ثغرات ذلك التضخم وتطلقه. التأسيس في الفلسفة، إذن، هو العقل والاستدلالات. ولما كانت تلك الاستدلالات هي الخطوة أولاً (ولعلنا رمزية ولا عبورية بعض)، ولما كانت مادتها هي المفاهيم والإشكالات والواقف الفكرية، ولما كان النقطة يأخذ بالحسبان، فإنه من الطبيعي أن تكون استدالات حجاجية في سياق خاص.

١ - الاستدلال الفلسفي: مفهوم ومنهجية

لقد توضّح لنا الآن لماذا وقع اختيارنا على مفهوم «الاستدلال الحجاجي» دون ما هو قريب منه من مفاهيم مثل: «البنية الحجاجية» أو «البنية المنطقية»، أو «المسار الحجاجي» أو

النقد والاستدلال الجدلي

«الأسلوب البرهاني الحجاجي»... وعلى الرغم مما قد يبدو من اختلاف بين عمليتين عقليتين وخطابيتين متساويتين في الاستدلال الحجاجي، فإنه اختلاف سرعان ما يفقد قوته عندما يتعلق الأمر بالفلسفة، وعندما يباشر في سياق فكري محدد ومشخص. وهذا السياق ينطوي على عمليات وشروط أخرى جوهرية تستدعي ذلك الاستدلال ويستلزمها، أهمها: الفهمه والتسلسل على الطريقة الفلسفية.

إن فحسنا عما فعلنا به، وما سنقوم به لاحقاً، ليس هو البحث في موضوع الاستدلال الحجاجي بحثاً نظرياً صرفاً، وإنما هو استقصاء خطابات هذا الفهم ومخالفاته من ناحية أبعاد التعدد. وهذه الخطوة نريدنا جسراً ومعبراً نحو توظيف الفهم نفسه في حقله الفلسفي - الأمبريقي. هكذا، يصبح الاستدلال الحجاجي - فلسفياً - هو أكثر من مفهوم ينصب على موضوع ملموس أو مجرد محدد الخصائص. إنه يصبح بالأحرى طريقة ومنهجية عامة ومرة.

وعلى هذا الأساس، نستعمل الاستدلال الحجاجي في الفلسفة وخطابها بالمعنى التالي: تلك المنهجية أو الطريقة العقلية التي يمتلكها الفيلسوف أو المتكلم لأجل إرساء «حقيقته» في صورة إثبات أو نفي أطروحة أو قضية ما، أو كيفية من كينيات مغالجتها. وما يقتضيه ذلك من مختلف العمليات العقلية - المنطقية، المتعارف عليها من جهة، ثم تبرير تلك «الحقيقة» تبريراً حجاجياً أو بالتحقيق ذلك من مختلف الأساليب الإقناعية - الإلزامية الملائمة للخطاب الفلسفي عمومًا من جهة ثانية. والواقع، إن الاستدلال Raisonnement والحجاج Argumentation يلتقيان ويتفاعلمان تكاملياً في الفلسفة - إنتاجاً وتعليماً - ضمن مدار واحد، ومركز هذا المدار هو عرض الحقيقة العقلية - الفلسفية عرضاً استدلالياً متماسكاً توأكيه إجراءات حجاجية معروضة في وشاح مع إنجازات استاتية وبلاغية وتداولية وغيرها.

هنا، نوظفان وموضوعات الاستدلال الجدلي في الفلسفة

إن الفلسفة التي تشكلت وتجمعت في خطاب فكري خاص سرعان ما تحولت إلى إرث معرفي وفكري ناقضه الأجيال. وقد شاعت وعلمت باعتبارها استعمالاً خاصاً للمفاهيم، واستعمالاً خاصاً

لغة. وكذلك طرحا خاصاً للمشكلات. ثم - بالطبع - باعتبارها استعمالاً خاصاً للبرهان، أو بمجازة أدق للاستدلال الحجاجي، وعلى الرغم من تنوع مظاهر القول الفلسفي وشهرته، فإن الأداء الكتابي لهذا القول (تصريح وأعمال، مذاهب وأساق) سيظل هو المجال الأنسب لمعالجة كينيات اشتغال الحجاج بطريقة فلسفية.

ومن المسلم به أن الظاهرة الحجاجية هي الكتابة الفلسفية لها ما يسوقها من البواعث والغايات، ولها ما يترجمها من شروط الوجود والرسوم. وإذا كنا نعرف أن هناك عدة محاولات ميتا - فلسفية قد سمحت إلى مفارقة تلك الظاهرة الحجاجية. فإن هذه المحاولات ما فتئت أن تحولت إلى عطلات شبيهة فلسفية بمورعها. ومن هذا المنطلق بالذات، تبقى كل نمذجة للاستدلال الحجاجي الفلسفي هي أقرب إلى مجموعة فرضيات للفهم والفراغ، منها إلى إجراء منهجي دقيق وصارم. وعليه، فمن المنطق لأوانه الحديث الآن عن وجود ما يمكن نعتة بـ "نظرية الحجاج الفلسفي".

ونحن، في هذا النضار، ملزمون بمراعاة لبائن المقاربات التي انبثقت من ظاهرة الحجاج الفلسفي موضوعها لها، حتى نتمكن حدود كل مفارقة على حدك، وأثارها على تعليم وتعلم الفلسفة، مثلاً، عقل سبيل المقارنة. نجد هناك من يربط وجود الحجاج الفلسفي - في حمولته التحليلية والبلاغية - بضرورة ترويض المفاهيم الفلسفية وتماصها لإغناء الدلالة والنس على المعنى أو على جزء منه (ج. غ. فرانجر، ١٩٨٨). وهناك من يبرز وجود ذلك الحجاج بضرورة المعالجة العقلية (اللامرئية) للمشاكل والمسائل المتناصلة هي وجود الإنسان... هذه المشاكل والمسائل التي لا تحتمل أجوبة نهائية وإطلاقاً (م. ماير، ١٩٨٦). كما أن هناك من يبرز وجود نفس الحجاج بالحاجة إلى إعفاء الصلاحية والتصديق على الأطروحات الفلسفية. بغض النظر عن نوعية هذه الأطروحات، ويستعملها (م. كوشيتا، ١٩٨٩).

هذا، وإذا كان أ. فيكر، ومنه لسانيون آخرون، يربطون المعالجة الحجاجية بمصدرها، أي بالذات المتكلمة، فإن هذا الساني لا يحصر الحجاج في الاستدلال العقلي وحده بل يعممه على شتى العناصر التي يستعملها المتكلمون للتأثير على بعضهم البعض بطريقة صريحة أو ضمنية. ومع ذلك، فإن أي صوغ للثيمات القوقية الخاصة بالحجاج الفلسفي في شكل جداول وسلاسل عامة، وعلى قاعدة لسانية فقط هو أمر سيكون، من الناحية التطبيقية، مغفراً ومعضماً لبائن أبعاد وقيم النص الفلسفي المحددة لتلك الحجاج.

والسمة للعقدة والمتعددة الأبعاد للنصوص الفلسفية المبثوقة في الأساق الفلسفية لا تمنعنا من القول إن هذه النصوص قد شكلت ميداناً بواسطة لغة متفصلة. كما أن معقولياتها هي معقولة خطية. لأنها صادرة عن ذات متكلمة متكلمة يحدث ذلك في باقي اجنل النص المضافة.

إلا أن الأدبيات الفلسفية - الكتابية خاصة - قد اختارت وكبرت استراتيجيات فكرية عقلية استدلاكية أكثر منها جمالية أو شعرية. ومن ثم، لا غرابة أن تلقى الحجاج الفلسفي مثل اللغة الفلسفية مداراً لتداول استدلال العقل مع حجاج النطق، والتخاطب بوجه عام. ولا أدل على ذلك من أن القضايا في الفلسفة هي أفكار ومعاني. والتقدميات أو النتائج هي أطروحات ومواقف في صيغة أفكار وأحكام مسبوبة في جعل ووحدات لفظية. كما أن العجج والدلائل

الفكر والاسئلة الاربعة

هي بدورها أطوال مختلفة وأفكار مفسرة... مسلما ان الزوابط بين الأفكار أو بين الحجج وموضوعاتها هي روابط لسانية لها وجه «منطقي» وعقلي.

ولما لذلك كله، علينا أن نقر بأننا أمام حجاج «برهاني» مجازا لا حقيقة، وأنا أمام أعمال لسانية تركييبية وتدولية ذات وظيفة حجاجية فعلا، إلا أنها خضعت للنسبة الفيلسوف والشيطان عيانه.

ففي النصوص الفلسفية تلحظ الأطروحات والأحكام بشتى أنواع الاستنتاجات والاستقرارات، وبما في الاستدلالات الحجاجية على قاعدة تدابير لسانية وأسلوبية. وهذا التلاحم الطبيعي هو الذي حدا بفريدريك كوسيطا إلى القول: «في النشاط الفلسفي هناك امتزاج بين الأطروحات وبين عمليات التدليل (الحجاج) عليها»⁴⁰. وإذا كانت كل عملية استدلالية داخل نظام وترتيب الحجج تعني وراءها توحد الأفكار والماني مع فعالية الخطاب والفة، فإن ما يجعل الاستدلال الحجاجي ذا ماهية فلسفية يكمن في مكان آخر.

إن الاستدلال فلسفيا بالحجج هو إجراء لا بشكل سوى وجه واحد من وجود الخطاب الفلسفي المأخوذ بعين المراهقة والتفكير الفلسفي، فالماهية الفلسفية للاستدلال الحجاجي مستمدة، قضاها وعضويا، من طريقة خاصة هي إدراج المقام أو إعادة استعمالها، وطريقة خاصة هي الساطعة كما سبقت الإشارة إلى فلام، ويتم كل ذلك في ظل سياق ومرجعية متضعة بالتجسس والتماثل الذي لا يسمح بالانفلات والتفوق حيث يأخذ التلاصق في الفترة نفسها أو مع نواحي الحجب التاريخية.

وفي ضوء ما سبق ذكره، فإن كل مقارنة للحجاج الفلسفي، ولو لأغراض قرائية، يعجز عن تقدير ومراعاة تفاعلاته وعلاقاته، ستظل مقارنة ثالثة، بل ومغلوبة، وستكون النتيجة أسوأ إذا ما تحولت تلك المقارنة إلى المقامات الطبيعية نزع صوغ «براهينهم» محيط بكل أسرار الاستدلال الحجاجي الفلسفي.

والواقع، إن هناك مشاكل كبرى تطرح، خاصة على مستوى القرارات التطبيقية، يصعد استكشاف مظاهر وخصائص الاستدلال والحجاج في أجزاء ومقاطع فلسفية متسوية لصاحبها، وربما إن أقصى ما يمكن حثه من هذه القرارات هو تنويع وتخصيب أنماط الفهم والتأويل لا للأساس الفلسفية وأعمالها الطويلة بل للحظات من لحظات نسج بعض نصوصها، والجهد الذي يبذل لتحليل أحوال الاستدلال الحجاجي، في عمل فلسفي ما، لن يتمدى عتبة التقديرات والحدوس الذكية. وعلى هذا الأساس، لا حاجة إلى إهداء خضوع ذلك الجهد لقواعد ومبادئ ومساالك منهجية دقيقة جدا.

إلا أن ما قلناه أننا لا نقبل أن يشكل طريقة التردد عملية الكشف عن اشتغال الاستدلال الحجاجي الفلسفي، داخل نصوص معينة، لفرصيات وتداعيات متهاشة، لما أوججت، هنا،

إلى اتخاذ بعض الاحتياطات اللازمة، واستثمار بعض التوجهات المعينة على ذلك الكشف. والسجاعة مع ذلك، يجرى بنا التنبية إلى أنه في مجال الفلسفة بالذات، يحتاج القارئ أو المحلل إلى الفصل، داخل النصوص المنطقية أو الطويلة، بين ما يشكل موضوع الاستدلال المحجّاجي وما يشكل أساليب وعتاد هذا الاستدلال. وبالإجمال، فنكتسب ما نلحظ أن ذلك الموضوع يتشكل من أطروحات ومواقف مفهومية أو منظورية. متلما قد يتشكل من أساليب حجاجية مرجعية... ومن الناحية الإجرائية يضم الحجاج الفلسفي موضوعه (مادته) ووسائله الخاصة عندما يأخذ ذلك الحجاج صورة الترويج والتسويق العقليين. وذلك لا يعني أن كل ما يقال في تلك النصوص لابد أن يخضع للشرعة والتدليل. فهناك منظورات ومقاطع نصية عديدة متروكة من دون تدليل صريح وبارز لأسباب قد تعود لأغراض التخاطب. وقد تعود لعادات أسلوبية تخص شخصية المتكلم.

هكذا، فإن السمة الإضمحارية والضممية المرافقة لكل قول أو نص نسج باللغة هي السمة نفسها التي تطبع عمليات الاستدلال المحجّاجي في الإنحرافات الفلسفية. إلا لا تنكشف تلك العمليات ولو أحققنا بكل شفافية (إلا بكيفية تمهيدية بمد أنشطة الفهم والصفحة البعيدة، ومن هنا، ربما سيكون من المفيد، منهجياً، تركيز الجهود على الاستراتيجيات الإجمالية لتلك العمليات لتجنب مزالق التواءات المنهجية والتلاعبية تطوّر التمس الفلسفي⁽¹⁴⁷⁾ وسيكون من المفيد أيضاً تجنب إغراق كل صياغة عقلية ونسقية لتجليات الاستدلال المحجّاجي الفلسفي. طالما أن استراتيجيات وأساليب إنفاذ التصديق غير متطابقة ولا متماثلة في جميع الأدوات الفلسفية. لكن من الخطأ الاعتقاد بأن هناك فلاسفة قد فاقوا على نهج تفكير الاستدلال العقلي بينما آخرون دأبوا على نهج تفكير استعماري (بلاغي). إن مثل هذا الاعتقاد لا يبرره سوى وهم الإقرار بوجود فلسفة برهانية وأخرى أدبية بلاغية.

ومثل هذا الاتجاه هو الذي نلحظه عند الفيلسوف، وهناك عدد من النصوص الفلسفية لا تلحظ إلى الاستدلال العقلي ولا إلى العرض النفسي. ولكنها تستعمل الأشكال الشرطية (الحكمية) النعريفية. ويحركها منطق ضمير المتكلم ومنطق ذو طبيعة استعمارية⁽¹⁴⁸⁾. فهل معنى هذا أن «اسبينوزا» أو «أرسطو»، هما أكثر إخلاصاً لروح الفلسفة من «نيتشه» أبداً، إن طريقة التبرير والاستدلال العقلي تتوقف في جزء كبير منها على اختيارات المتكلم وعلاقته بالمخاطب وحتى على منظوره الخاص للفلسف. مما يتطلب استبعاد كل مخالفة أو تعبير معاري في هذا المجال.

لنفس الهم أن يكون حجاج الفيلسوف صاعطاً (مباركس...) أو محسوب الطغوات (اسبينوزا...)، أو حتى تعبيرياً (نيتشه...)، إنما الهم هو عمق النظر وأصالة على مستوى الفهم وإبداء المرافقة، أي ما يحدد ذلك الحجاج.

البرهان والاستدلال الحجاجي

لبي أن نشير إلى أن الاستدلال الحجاجي في الفلسفة يأخذ هذه التسمية من العقل الفكري والمرعي الذي تلمس فيه وليس من مدونة تدوين أساليب الحجاج. هكذا، يتبين علينا تجنب الفصل بين نصوص «برهانية» وأخرى حجاجية. وبخاصة أن البرهان في الفلسفة كما بينا ذلك سابقا، هو برهان مجازي واستعاري فحسب. وليس من الصائب اعتبار نصوصنا لاسيونا أو لعلاطين آخرين استلهموا البرهان الرياضي هي نصوص برهانية بالمعنى القاطع والصارم الشامل لمفهوم البرهان.

والحال أن سيادة التماسك والاتساق المفاهيمي والاستنباط (اللفظي) الصريح، واستنباط الاستطرادات التناسلية أو البلاغية، ليس دليلا كافيا على أننا أمام نصوص برهانية وغير حجاجية. كما أن وجود نصوص فلاسفة آخرين استلهموا أو ألدعوا التعبير البلاغي والاستعاري ليس دليلا هو الآخر على أنها نصوص حجاجية بحتة.

وما يمكن التأكيد عليه هو أن هناك في العمل الفلسفي شيئا ما، يراه تيريزه والاستدلال عليه، أي الاستدلال على صدقه ومطابقته. وهناك بالولاء مع ذلك وسائل وعمليات لا معدود عنها لتفعيل وتجاح ذلك التبرير بهدف الإقناع والإشباع مما. أما الكشف عن المضمون الحجاجي لتلك الوسائل والعمليات فهي مهمة القراءة النجربة والناويل للفتح.

ومن الصعب جدا إحصاء تلك المهمة الكثيرة لتمهيد معنوس أو لقاعدة مطلقة. ويبدو أن أكبر عامل أمام هذا النزوع التحليلي هو مجموعة الأساليب اللغوية. وتعدد وتنوع النصوص والإنتاجات الحجاجية ذاتها. وبالإضافة إلى ذلك هناك عامل آخر يتمثل في عدم تطابق وتعامل استعمال الروابط والشبكات المنطقية أو الحجاجية، والتي تنظم أجزاء الكلام وعلاقات العمل والمتطورات على صعيد اللغات المعروفة بولها، أو على الأقل على صعيد تلك اللغات القادرة. فضلا على احتضان خطاب الفلسفة.

الهوامش والمراجع

- 1- بعد العجاج مدوره ومعالجته في كل أشكال الخطاب والخطابة. وما تشتمل عليه من جدل ونسوز وإقناع... أما نظرية العجاج، فإنها تجد إرصاداتها التطورية الأولى عند الفيلسوف أرسطو، في كتابه «الريطوريكا». وستلتهم هذه النظرية ابتداءً بوجود مع الباحثين ش. برونشاك Ch. Bronckha، وأولييفيت ليتكا O. Tytka في مؤلفاتهما هندية أو إنجليزية مثل «مبحث العجاج» - «البلغة والفلسفة» - «محل العجاج» - «الأمبراطورية العجاجية» - «بلغة العجاج» - وفي الفلسفة الانشائية الأنجلوسكسونية، خصوصاً سيغلبي موضوع العجاج بمقالة قيمة جداً.
 - 2- محمد، الحادي العربية، إلى منظور الأوربي المصري، دار «مجمع» دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٢٥.
 - 3- Le grand Robert Dictionnaire de la langue française T. I Paris 1989, P. 515.
 - 4- Mayes (Michael): Language, Language of Argumentation, Bucher University Press, 1982, P. 136.
 - 5- إن العقائدية الراسخ في حيازة المعارضة، ومطهراتها الإجمالية، إلى الأمن النظري، ثم حاجة هذا الأمير بدوره لتلك المعارضة، هو الذي كان وراء الكلام بهذا الاستقصاء، فالعاجية النظرية العجاج والامتثال العجاجي ليست مضمومة لهما، كما أنها وإن كانت تدور في فضاء الإشكالات فكلية فهي لا تقوم إيات أو على فرضيات محددة، إنما بدوفاً هو، بالآخر، ربط المصور الطبيعية والعسوية بين عناصر العجاج النظرية وعناصر الفلسفة الإمبريقية.
 - 6- إن المسألة تتعلق بالمشاكل التي يطرحها على أساس المعطى الواقعي، على كل خطاب متجسد في نص ما (إياتي العام القصر) وليس بالمشكلة الكلية، فهذا إشكالا بين الباحثين الخطاب النصي، هكذا نجد ج.ب. برونشاك J.B. Bronckha، مثلاً، بعد أن يخطب في أربعة هي السور، التحليلية، المتأملية - العنصرية، ثم النظرية، ويهيئ هذا التمهيد، على أنسب أساسه داخلية، وإذا كانت السورين المتأملية - العنصرية وكذلك النظرية هي الأكثر اهتماماً بالعجاج، فإن أشكال السورين الأخرى لا تلغ تماماً عن عناصرها، فالحاجة، ولذلك، فإن السورين العجاجية بدورها لا تلغ عنها كلية بعض عناصر الإخبار أو السور... بالنسبة للتصنيف الذي قدمه ج.ب. برونشاك لأشكال الخطاب والأشكال النصية
 - 7- J.F. Bronckha: Language et représentation in "Sciences Humaines" N°21 Hors série Juin - Juillet 1998, Académie, PP. 20-23.
 - 8- أرمينكو (فرانسواز) الفأقية الثقافية، ترجمة سعيد علوش، مراكز الإعلام القومي (د. ت)، ص ١١.
 - 9- أرمينكو (فرانسواز) نفس المرجع، ص ١٦.
 - 10- نفس المرجع، ص ٦٨.
 - 11- نفس المرجع، ص ٨٨.
 - 12- هذا (عند المرجع) في أصول الحوار ونحوه، علم الكلام، المؤسسة الجديدة للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ٨١.
 - 13- Cossette (Frederic): Elements pour la lecture des textes philosophiques, Bouché, Paris 1989, PP. 187 - 188.
- أعطى كذلك أرمينكو (فرانسواز) المرجع السابق، ص ٨١، حيث نجد «الفاعل الحوارية» عند «كروني» Giron، قد صيغت في صيغة حكم خبر عنها والقدال الأمر «يجعل» متطابقاً... لا تلي ما نلاحظه... في «البلغة والفلسفة» - «محل العجاج» - «الأمبراطورية العجاجية» - «بلغة العجاج» - «مبحث العجاج» - «البلغة والفلسفة» - «محل العجاج» - «الأمبراطورية العجاجية» - «بلغة العجاج» - وفي الفلسفة الانشائية الأنجلوسكسونية، خصوصاً سيغلبي موضوع العجاج بمقالة قيمة جداً.

- Meyer (Michaël) *Questions de rhétorique. Langage, Raison et séduction. Librairie Générale*
 Française Paris 1993, P. 7.
 Rasi (Jacqueline), *Les méthodes en philosophie*, Op. Cit. P. 123.
 Cail par Meyer (Michaël) *Questions de rhétorique* , Op. Cit. P. 125.
 إذا كان الخطاب الشعائري قد يتطلب من الزائد، التي تشكل مصدره اعتماداً استراتيجيات شعائية، في
 مناسبات محددة فإن عدم لوقت هذا الخطاب على هذه المناسبات يجعله يجعل منه خطاباً دائماً
 لاخرافات إيجابية وسلبية ثقافية ودية وهذه الاختراقات للغة تغطي التفكير من منظوراته الجماع
 والاستدلال الزائفي والتدريس على مستوى خطراته وفشلاته هكذا، فالتحليل العمومي أو غير سياسي، مثلاً
 أثناء مناسبة ثقافية خاصة، ان اللغة الخاصة الجماعية مع ما يشهده من حديث الجيران عن بعضهم
 البعض أو مع ما يتصور به الآخر هي وصية من وصيات الطبع
 Meyer (Michaël), *Logique, Langage et argumentation*, Op. Cit. P. 112.
 العمري (محمد) في ملأه الإفراج... مرجع سابق، ص 78.
 نفس المرجع، ص 81
 Meyer (Michaël) *Logique, Langage et argumentation*, Op. Cit. P.127.
 Blanchot (Robert) *La communauté*, P 1 F Paris 1973, pp- 238- 239.
 Ibid. P. 236
 Cail par Blanchot (Robert), Op. Cit. P. 116.
 الفيلسوف (أو بعض) اختصاص الفنون، التحليل وفنونهما وتحتل مكانة مركزية في الفكر العربي، القاهرة
 1988، ص 99.
 ابن رشد (أبو الوليد) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق محمد عصفار
 المؤسسة العربية للدراسات والنشر- الطبعة الثانية - بيروت 1981 - ص 98 -
 نجد مثل هذه الطريقة الفلسفية هي الكلمة عند كثير من الفلاسفة المشهورين بها مثل: هراقليتس، فيثاغورس،
 شلبيوس (Schleier) وبشكل أعمد عند الفلاسفة المعاصرين، فمثلثي (Moralistes)، ب، وبشكل (B. Pascal)، من
 كبير كبرياء (Kierkegaard) وغيرهم.
 هذه الاستراتيجيات التفسيرية تعتمد على عدد من المصطلحات الإغريقية مثل باراميتوس، والبروتو، فيثاغورس،
 وكذلك عند الفلاسفة، محدثين مثل ر. شار (R. Char) وإلى كل من كل من الفكر والفلسفة لا يتناول على تحليل
 كل منطيات وتسمية عقل النضج الفلسفية -
 إنه من الصعب جداً أن نصف التفكير الفلسفي بأحد المعتقدات «التيولوجية» فيحظى بإجماع جماعة
 الفلاسفة، وهناك عدة أساليب تحول دون ذلك، وإذا كنا نذكر ما قد يراه مفهوم «المنهج» الفلسفي من
 تعصب والارباب، فليس لمجرد هذا من انبعاث القول في هذا المجال نعلمنا مع روح الفلسفة ومنطقها
 Gennep (Henri) *La connaissance Philosophique* Ed. Masson et Cie, Paris 1923, P. 141.
 Ibid. P. 150
 إن الذين يدافعون دعماً ما حاراً من أطروحة التماثل الفلسفية بالسمية البرهانية والبنائية، مثلاً على
 العقلانية الرياضية، هي صرامتها ومطروقتها، هم غالباً ما يتعاملون من طريقة تفكير الفلاسفة العقلانيين
 أمثال: ديكارت، لافانت، ديكوت، ديسكارت، جود، على صحة هذه الأطروحة، وبعكاز هذا المنهج يلتصق بعضهم

من المعصية قبل الكشوفات الإيمانياتوية المعاصرون. وفيما ذا يهتدق التعليل ونظرية المحتاج من نظريات
تعليلات الأبحاث البنية - فلسفية في قضايا عديدة منها هذه القضية والذات.

Blanchet (Robert). Le néoconservatisme. Op. Cit. P. 223.

-33

Georges (Gilles - Gervais) Pour la connaissance Philosophique. Édition Odile Jacob. Paris.
1988. P. 211.

-34

Paul. P. 214.

-37

في هذا الإطار ينسب ب. فرنس P. Vernant - ... وهكذا إلى جانب الوعي الديني الذي ظل وألفه على
طائفة جديدة من المعارف، وإلى جانب المعتقدات الشاملة التي يمتلكها المجتمع دون أن يوضع أي سؤال
بمستحقها. عرض مفهوم جديد عن الحقيقة نفسها وألك ذلك، أنها حقيقة متحركة في مقابل المجتمع، وهي
التي تقيم معايير صلاحيتها على طوقها البرهانية الداخلية، بخلاف عن مفاهيم الحقيقة - (الاشكال الفلسفي).
إعداد وترجمة ج. السلام محمدعلي، ومحمد سميلا، دار لوفيل للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء
1997، ص 17.

Blanchet (Robert). Le néoconservatisme. Op. Cit. P. 230.

-38

Wieland: L'exposé de la philosophie. Seuil édition. Vrin Paris, 1983, PP. 28 - 39.

-40

له (عبد الرحمن) في أصول الحوار والمعتقد على الكلام... نقل ذكره من ١٠.

-41

مقالة لوفيل - روي المير، يدعي إلى حقيقة واحدة هي: ... ما حجة ابن رشد كغيره من الذين الشكفي.

-42

الطريق الشوق الحقيقة الأولى (الاشكال الفلسفي) ١٩٨٥ ص ١٠٠

له (عبد الرحمن) ربيع سبيل ذكره من ١٠

-43

Georges (Gilles - Gervais) Pour la connaissance philosophique. Op. Cit. P. 205.

-44

Paul. P.P. 205 - 206.

-45

إذا كان العلاقة الفلسفة مع الحقيقة والبلاغة قد يحصل إعتدالاً هي مطالب المحتاج الفلسفي واستغناءه فإن
ذلك لا يبرر الاحتجاج إلى ربط علاقة الحقيقة بين المحتاج الفلسفي وبين صور البلاغة ومعتقداتها. وليس
مثل هذا الاحتجاج حد ج. روس R. Ross - والتي أقت على تلك الاستغناء دون تعصب لنظر
Rass (Jacques) Les méthodes en philosophie. Op. Cit. P.P. 20 - 23.

-46

الحول (البراهين) الأسلوبية ونظرية النص - الإنسانية العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت،

-47

1997، ص 98.

-48

مضيف (عبد الحول) مصادر طيات الخطاب الفلسفي من الاستعمال الداعوي للغة والاستعمال الاستشاري -
مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد مروج ١٠٠، ١٠٩، بيروت، 1997.

-49

ميشال (فرديناند) ما وراء الحبر والنشر، ترجمة جريلا فالور متفكر، الطبعة الأولى، بيروت، 1996، ص 179.

-50

المرحلي (عبد القاسم) أسرار البلاغة... مصدر سابق، ص 33٠.

-70

نفس المصدر ص 3٠٠

-71

أورده محمد عبد الحلي في مؤلفه بعد العقل العربي 7، بداية العقل العربي - المركز الثقافي العربي،

-72

الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1997، ص 99

-73

السلوكي (محمد بن علي) - محتاج العلوم - مصدر سابق، ص 178.

-74

الحلي (محمد عبد) - الترجع السابق - ص 1٠7.

- 78 Luksemburc (Jan): *La Sollogique d'Aristotele*, Traduction de C. Zaslowsky. Armand Colin. Paris 1932, P. 22.
- 79 Ouzanger (Hélène, Gerson): *La théorie Aristotélicienne de la Science*. Aubier Montaigne. Paris, P. 138.
- 77 Luksemburc (Jan): *La sollogique d'Aristotele*, Chel. P. 25 .
- 76 لقد لا يمكننا ان نفرق بين الحقيقة والاستكمال والتدليل ليس شيئاً واحداً، هذا الذي كثيراً من البلاغيين والعلميين. وهذا هو الجوهر الذي تكمنه الحقيقة والمحاكاة وكثير من الفلاسفة. فالمصالح عند أرسطو، مثلاً، أنواع. لكنه لا ينحصر إلى نتائج بديهية ولا تأسيس عليها، لأن تلكها طبيعة نظمية أو عقلية أو تطبيقية أو استدلالية. لذلك رسم أرسطو، مثلاً فاصلاً بين المصالح والاستدلال القرصاني. وهذا المنظر -المخططة- المعاجية هو الذي قد اثيره موزيني H. Cornu إلى الشكل في مناقشة العقلانية المعاجية، طالع ان كل حقيقة هي مجموع، كما قال بوليتا ذلك في فترة سابقة.
- 79 كرسون (أندريه) بالمثل، حقيقة - فلسفة - منطقية - ترجمة ليد. رصدا - منشورات مودسات - الطبعة الثانية، بيروت 1999 - من 1971.
- 80 Polchard (D) et Wazemeyer (J): *Methodologie philosophique*. P.U.F. Paris 1992, P. 1331.
- 81 Cornu (Pédane): *Éléments Pour la lecture des textes philosophiques*. CP. Cael. P. 143.
- 82 إن هذه الاستدلالية البديهية العقلية قد تكونت بهذا هذا هو الذي جعل استدلالية تلكها كل التغيرات المعاجية في نفس فلسفيها. وكذلك استدلالية العقلية هذه التغيرات في كل المنهجية عبر المعاجية. أضف إلى ذلك أنه إن الكشف عن الاستدلال المعاجية نحن كرسون هو حصل بدرجة في إطار منظومة العناصر المشككة للوحدة قوامه ونسجل مقارنة من طابعه.
- 83 Cornu (Pédane): *Éléments pour la lecture ... op. Cit*, P. 143.

مصريتنا أوديه ملكا وأوديه فم كهلون بين الأسطورة اليونانية والنقبة التوراتية

دراسة مقارنة

أ. محمد عبد الكريم الجراح^١

أ. فتحي طالب الجراح^٢

المقدمة

ليس من شك في أن سوفوكليس (496 - 406 ق.م.) قد بنى مصريته أوديه ملكا وأوديه فم كهلون على الأسطورة اليونانية، ولكن الألفاظ تظهر بعد الدراسة - كما سيوضح - أن هناك تشابها بين أحداث القسريتين وبين ما جاء في التوراة.

ومن هنا نبه على عبدالواحد وافي إلى وجه الشبه بين ما جاء في الأساطير اليونانية، وما ورد في القصص الدينية المذكورة في الكتب المقدسة^٣. ويذهب فرويد إلى تبيان وجه الشبه بين أسطورة سرجون الأكدي وميلاد موسى عليه السلام، ثم يذكر رأي فليشه وألك الذي جمع أسماء مستوحاة من عالم الأسطورة أو الشعر، وتطويع طابعهم القصة في كتابها أو هي أهم اجزائها ومنها اسم أوديه^٤. يستخلص من هذا أن هناك تشابها بين قصة ميلاد موسى وميلاد أوديه بملاح عاملة. ولد موسى عليه السلام ونشأ وأصبح نبيا في مصر أيام الدولة الحديثة عصر الإمبراطورية المصرية 1875 - 1087 ق.م^٥. وهذا يتوفا إلى تاريخ تحرير الأسفار حيث تمت المقارنة بها هي هذه الدراسة. وهذه الأسفار (الخروج والعدد والتثنية ويشوع). وبناء على ذلك فالسؤال الذي يدور في ذهن القارئ، هل أطلق سوفوكليس على التوراة؟

١ - وزارة التربية والتعليم - الأردن.

٢ - كلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن.

قدم ويهايون فرضيته الوثائقية لأسلوب الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية)، وقوام هذه الفرضية أن تشكل هذه الأسفار تم من خلال أربعة مصادر مستقلة من بينها هي الأصل وهي: اليهودية، من الملكية الموحدة، يهوذا وسلاطة داوود ٩٠٥٠ - ٩٥٢ ق.م. الإلهيومية، مع التكية المنفصلة وبنوة إسرائيل ٩٥٢ - ٧٢٢ ق.م. التثنية، من إصلاحات، يوشيا ٦١٨ - ٦٠٨ ق.م. التكنوتية، مع مراحل النبي من القدس وما بعد، كما بين ويهايون ورافاد مدى إسهام مصادر الأسفار الخمسة الأولى في مجموعة الماثورات القوية عن الأنبياء كما في سفر يشوع^{١١}، فالأسفار السابقة ألفت قبل عهد سوهوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق.م.).

وفي الحقيقة يمكن أن يبرز التشابه بين أحداث التسميتين وقصة موسى وهرعون من جهة، ثم رحلة موسى بين إسرائيل من مصر من جهة أخرى، كما سيوضح، إلى ثلاثة افتراضات هي: أولاً، تأثر سوهوكليس بالتوراة، ثانياً: التأثر بقصة شعبية مصرية أو يهودية أو كليهما معاً، ثالثاً: التأثر بمصدر يوناني، ولذلك لابد من مناقشة هذه الافتراضات، فليهما يخص الافتراض الأول، لم يثر الباحثان على رأي يشير إلى أن سوهوكليس قد اطلع على التوراة، ولكن هناك تفاصيل دقيقة متشابهة بين ما جاء في التوراة والتسميتين، علاوة على توافق التناظر في مواد أحداث التسميتين وقصة موسى وهرعون وخروج موسى من مصر، كما سيوضح، وهذا يمكن أن يبرز الافتراضين وقويته.

أما فيما يتعلق بالافتراض الثاني (القصة الشعبية) والجملي وارم لكنه غير مرجح لسببين، الأول، أن القصة الشعبية لا تحفل كثيراً بالتفاصيل التاريخية، بل بالأساطير والقصص العظيمة على تعدد الروايات وتباين الأحوال، الثاني، لم يهتم للمصريين بقصة موسى وهرعون لأن المصريين كانوا يعبون اليهود خدما، وما هو معروف أنهم لم يسيئوا انتصارا لليهود على المصريين ولذلك لم يهتدوا من الآثار المصرية أثر عن ذلك، وإن كان الافتراض نفسه سبب تأثر سوهوكليس، فهذا يستدعي تبيان الصلة الحضارية بين اليونان ومصر التي كانت الوطن الأول لبعثة موسى عليه السلام، وهل احتك اليونانيون باليهود؟ وما ينبغي التنبه إليه أننا لم نعمل في حدود معرفتنا إلى ما يؤكد استماع اليونانيين للقصة من اليهود، على الرغم من حصول الاحتكاك بينهما كما سيوضح.

إن البكر ملمح يدل على التواصل الحضاري بين مصر واليونان أن هوميروس أشاد بمكانة مصر بعد توسع إمبراطوريتها الأولى أيام تحتمس الثالث، وإمبراطوريتها الثانية على يد رمسيس قبل حرب طروادة بأكثر من مائة سنة، إلا امتزجت دعاء المصريين بدعاء الآخرين أجداد أخامنون، وهذا بين صلة حرب طروادة بمصر^{١٢}.

لقد تطورت العلاقات المصرية اليونانية في عهد الفرعون المصري، بسماتيك الأول فأقام التجار اليونانيون مدينة في مصر عرفت باسم تيرايطيس، واستخدمهم بسماتيك مرتفعة هي الجيش، ضمن معسكرات، وفي فترة لاحقة اتحد المصريون واليونانيون ضد العدو الفارسي في عهد إيناروس أحد أمراء بسماتيك الثالث وبعد الانتصار بقي عدد كبير من الإثليين في

مسرحية أوديب ملكا باليهود في مصر

مصر^(١). وهذه الأحداث المتأخرة من الاحتكاك المباشر بين اليونانيين والمصريين كانت في عهد سوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق م).

وهي خصم الأحداث السابقة يتبادر إلى الذهن السؤال هل احتك اليهود باليونان؟ نعم، هذا هو بمسائله الأول يقوم بإصلاح المعابد ويتزايد في عهده دخول الأجانب إلى مصر أمثال السوريين واليهود^(٢). بحيث ينشئ اليهود لأنفسهم مستعمرة في الفنتين وبينون ممهدا لأنهم ياهو - وهو - يهود في الشوالات^(٣). فمعنى ذلك أنهم كانوا يعيشون في مصر في هذه المستعمرة جنبا إلى جنب مع اليونانيين - إذ إن بمسائله الأول أقام اليونانيين مستعمرة في الفنتين^(٤).

ومن خلال هذه المحطات والعسكرات نشأت المدن الإغريقية على شواطئ المتوسط وكونت بداية الوحدة الهلنستية الإغريقية، لتشكل فيما بعد نواة ارتكاز للمصر الذهبي الهليني في القرن الخامس قبل الميلاد - ومن هذه المدن وصل بعض عهاينة الفكر والفلسفة اليونانية إلى مصر، وأخذوا عن الكهنة المصريين كثيرا من العقائد والشرائع^(٥). ويرى محمد يوسفي هيلان أن المصريين أول من عرف علم المعرفة بعصمه نقل إلى بلاد اليونان^(٦).

وهذا يشير إلى حصول التواصل الثقافي بين الحضارتين - فمما يدل على الأثر المصري في المسرح الإغريقي مسرحية هيلان ليونيد^(٧) - معتقدا على قصة أحد الكهنة المصريين في حقبة هيلان، وهذه القصة وردت في تاريخ هيرودوت^(٨).

أما فيما يتعلق بسوفوكليس وهيرولوت فقد كانت تحصيلها علاقة مميزة إذ إن سوفوكليس كتب في ٤٤٩ ق م أو نحوها قصيدة لليونيد^(٩)، كما أطلع سوفوكليس على تاريخ هيرودوت وعرف من خلاله العمليات الحسابية التي نتج عنها بناء الأهرام^(١٠)، فتشال مصرع الذي كان على شكل أحد رايض رأسه رأس الإنسان عوف عند الكتاب الكلاسيكيين باسم سفينكس (Sphinx)^(١١) وجد في أسطورة أوديب فالتصال أعلام الإغريق بمصر ليس جديدا فهو ميروس شاعر الإغريق الأول صاحب الإلياذة والأوديسة بحيرا هيرودوت أنه عرف مصر وسمع من كهنتها عن تاريخ بلادها^(١٢).

وهما يدل أيضا على التمازج الثقافي بين الحضارتين أسطورة طيبة - فوالد أيسس المصري زيوس كبير آلهة الإغريق ووالدته آيو الأميرة الإغريقية ابنة الآلهة الإغريقي أيناغوس، النجب أيسس المصري هناك لدس ليبيا - متزوجا بوسيدون إله البحر الإغريقي فانجب منها توام أجيلور وبيلوس، فانجب الأول كلدموس الذي أسس مدينة طيبة الإغريقية، وانجب الثاني من زوجته المصرية أنخينوني ابنة نهر النيل المصري ولدين توام إيهوينوس ودياؤس، فحكم الأول أرض النيل التي سميت بعدد باسم مصر (الحيطة)، وحكم دياؤس أرجوس وأصبحت العشائر الإغريقية تسمى عشائر الديتاكين^(١٣). ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه في مسرحية أوديب ملكا قال أوديب، فلو أنها الذرية الناشئة من نسل كلدموس^(١٤). وهذا التزاوج لم يقتصر على الأسطورة فقط فهناك زمعيس الثاني تزوج من الحيثيون (آباء الإغريق ومات قبل حرب طروادة بحوالى مائة عام ١٢٢٥ ق م)^(١٥).

ومما يدل كذلك على التلاقي الحضاري بين اليونانيين والمصريين في القرن السادس ق.م.) وجود تماثيل في المعابد اليونانية تشبه التماثيل المصرية الأصلية وتوزع للفترة الترابيضية نفسها. وهذا يؤكد حالة الاندماج بين الشعبين^(١٢). ولذا فإن الحالة هذه توهم إمكانية حصول المعرفة لأعلام الإغريق فيهما يتعلق بالأحداث التي جرت على أرض مصر. وبالنسبة إلى الافتراض الثالث: التأثير بمصنوع يوناني، لم نعثر على مصنوع يوناني يتحدث عن موسى وقسمته مع فرعون وخروجه بني إسرائيل من مصر، على الرغم من أخذ جهازة الفكر اليوناني كثيرا من الميثاق والشرائع عن الكهنة المصريين.

منهجية الدراسة

تقوم منهجية الدراسة على أساس إبراز العناصر المشتركة بين مسرحيتي أوديب ملكا وأوديب في كولونا وبين الثورات وتجهيز الأسفار (الخروج والعدو والتحية ویشوع) وفقا للتطابق في نوات أحداث المسرحيتين مع قصة موسى وفرعون ثم رحلة موسى بني إسرائيل من مصر، وكذلك التطابق في خط سير الأحداث. كما يستلزم - إلا القليل الباحثان خصوصا عن المسرحيتين بشكل متسلسل وفقا لتساعد الأحداث ومقارنتها بالأسفار السابقة، أما الأسفار العامة وغير المشتركة فلم يعطى لها الباحثان. لأن المسرحيتين عملاقان أدبيان لم يرد صلاحتهما أحيانا النسخ على متوال قصة الثورات، وإنما كتابة عمل أدبي مسرحية. ولا أهمية قصة إخراجهم من مصر بل يدخل عنصرها ويخرج عنصرا لأغراض أدبية. إضافة إلى أنه يجب ألا يغيب عن الباحث أن الثورات خضعت لإعادة التحرير.

أما فيما يتعلق بالتمسك المسرحية القديمة من المسرحيتين فقد تم اعتماد ترجمة طه حسين للمسرحيتين مع الأخذ بعين الاعتبار أن الباحثين قد استبدلوا ترجمته للأسماء (أوديبوس وثيبة) بـ (أوديب وطيبة) لشهرتهما عند القارئ العربي. وسيتم تناول الباحث التالية في هذه الدراسة: أولا: سيرة سوفوكليس، ثانيا: أسطورة أوديب، ثالثا: عناصر أسطورة أوديب والثورات، رابعا: مقارنة المسرحيتين مع الثورات. ١ - أوديب ملكا، ب - أوديب في كولونا، وأخيرا الطائفة حيث تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أولا: سيرة سوفوكليس

ولد سوفوكليس في قرية كولونا عام ٤٩٦ ق.م. ومات عام ٤٠٦ ق.م وهو في الثمانين من عمره^(١٣). وفي أيام حياته وصلت أثاره إلى أوج ازدهارها الأدبي والفني^(١٤). كما تجاوزت الديمقراطية مراحل كثيرة

اشترك فيها سوفوكليس نفسه إذ عين عام ٤٤٢ ق.م مديرا هيكلها في الحاد المدن الأثينية التي تحدثت بوجه العدو المارسي^(١٥). فكان ممن يقومون بالإشراف على الطقوس التي تعولها الجزيرة المروضة على حلفاء أثينا. ويقال إنه قد جازة الاحتمال عند انتصار اليونانيين على

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كورنوبس

الفرس^(٢٦)، وفي عام 111 ق.م انتخب لنصب «استراتيجي» بمعنى قائد في الجيش أو الأسطول البحري^(٢٧)، حيث حاصره مع بروكليس مدينة سمسون تسعة أشهر إلى أن افتتحها، وأخذ منها الأتاري وأخصعها لتفرد أثينا^(٢٨).

بعد هزيمة صقلية كان سوفوكليس أحد أعضاء مجلس الشورى لأجل دراسة أزمة الهزيمة ومعالجتها^(٢٩)، فعملوا على الاقتصاد في النفقات العامة، وحصلوا السونيون (إراس في جنوب غرب أتيكا)، وجهزوا أسطولاً جديداً، ولعبت مواجهة الأعداء في خليج سارونيك على سواحل آسيا الصغرى، وبهذا تم إنشاء مدينة أثينا.

ولكن بعد ذلك اندلع صراع في الداخل على يد حزب يطالب بحكم الأقلية حيث طالب الحزب بدستور جديد، فتكثفت الشعب لجنة من ثلاثين عضواً وضمت ديمتورا لم يقلل به الحزب الذي أصدر قراراً بتشكيل حكومة من أربعين شخصاً، فكان سوفوكليس أحد اللدوبين للوافقين على هذا القرار، إلا أنه ندم عليه أخيراً^(٣٠)، وكان قائداً في الجيش عام 110 ق.م وزميلاً لبروكليس في إخماد الثورة الصامية^(٣١)، كما عين حازناً للضريبة عام 106 ق.م، ومثل بلاده سفيرا لها في عدة بلدان، وعليه لم يكن مسجون سوفوكليس بمسألة من هذه الأحداث المتلاحقة^(٣٢)، وكما يقول جاري «غير سوفوكليس... من زمن مضطرب تحولت فيه أثينا إلى مستعمرة وقد فتكت أوصالها حروب التيلوبونير ونشأت فيها الحكومات الاستبدادية، مما يقصر ميل سوفوكليس إلى الانحسار في أحوال التقهات والاضطراب من الحكم كما بدا كويون في مسرحية أنتيغون وأوديب في مسرحية أوديب ملكا^(٣٣)، ولكن ميوله السياسية لم تظهر بوضوح في مسرحياته^(٣٤).

كان سوفوكليس تلقيا، فمما يقال عنه إنه أكثر البشر خشية للآلهة خاصة وقد علمنا أنه كان كاهنا لإله الشمس أميونس، ثم إنه قد جعل من داره مقراً لاسكولاب إله الطب، وبني له معبداً، ولأجل ذلك كرم كيبطن بعد موته^(٣٥)، حيث رفضه الأثينيون إلى عربة البطولة إن لم تكن الآلهة قبلوا له معبداً وقدموا له القرابين والأضاحي^(٣٦).

إن أهم تغير طرأ على المسرحية عند سوفوكليس هو التجديد في فلسفتها الدينية، فالأثليون لم يعودوا ضحايا القدر، فمسيرهم مرهون بما التصوا به من حكمة والعدل^(٣٧).

كتب سوفوكليس كثيراً من المسرحيات، بقي منها ثمانية: الترائينيات أجاكس أنتيغون، أوديب ملكا، الكترا، فيلوكتيت وأوديب في مدينة كولون، ومسرحية ساتيرية هي السيكلوب ومعلم هذه المسرحيات كتبها في مرحلة متقدمة من حياته بين سن الخمسين والثمانين، وتاريخ تأليف كل مسرحية غير معروف بالضبط^(٣٨)، واللائق للنظر أن أوديب يقول لابنته اسمينا في مسرحية أوديب في كولونا عن والديه: «إن أخلاقهما وسيرتهما في الحياة تشبه القانوف من عادات المصريين، ففي مصر يشتم الرجال في بيوتهم مقلدين على الغزل والتمجج

فأما قروناتهم فهمين في غير انقطاع لكسب الفتنة³⁹، ولا شك أن سوفوكليس قد اطلع على هذا الأمر من عادات المصريين من هيرودوت الذي تحدث عن مصر فقال: «... اختلف المصريون كل الاختلاف من سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم، فالنساء عندهم يرتكن الأسواق ويمارسن التجارة، أما الرجال فيشؤون في البيوت وينسجون»⁴⁰. ومن الأهمية بمكان القول كما يرى لويس عوض: إن كثيرا من التفكر يذهبون في سيرة سوفوكليس الأدبية إلى أنها متأثرة بهوميروس شكلا وموضوعا بصرف النظر عن اختلافهما في النوع الأدبي والدرامي والمعهد الذي ينتمي إليه كل منهما، فسوفوكليس استوحى كثيرا من تراكيب هوميروس ومفرداته، وهما متشابهان باستخلاص مادتهما من قصة حرب طروادة⁴¹، وفي الحقيقة إن مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كولونا - موضوع الدراسة - متشابهتان مع قصة موسى وشرهون كما سلوين في هذه الدراسة، على الرغم من كون سوفوكليس قد نسخ المسرحيتين على أسطورة أوديب.

ثانياً: أسطورة أوديب

إن أقدم إشارة مدونة لأسطورة أوديب عند اليونان نجدها عند هوميروس (القرن التاسع قبل الميلاد)، فيذكر في الأوديسة الأسطورة كما يأتي: «ولأسطورة أم أوديسوس، ابها كاستي، الضائعة، والتي قامت بعمل وحشي خيالة من التفكير، إذ قد تزوجت أبها بعد أن قتل أبها، فتزوجها، ولكن الآلهة كشفت هذه الأمور لكثير في الحال، ولكن مع ذلك ظل سيذا على الكادميون في طيبة الجميلة. يعاني الحزن بسبب خطيئة الآلهة الضارة، أما هي فقد هيكلت إلى بيت هاديس، الحارس النوبي، لقد علقت أنشودة في قضيب عال، وقد استبد بها الحزن، وشلتقت نفسها، وخلفت وراءها معنا لا حصر لها. وكل ذلك تقوم به ربات الانتقام من أجل أم»⁴².

كما يشير هوميروس في الإلهة أيضا بشكل موجز إلى الحروب التي وقعت بين ولدي أوديب إيتوكليس وبولينييس⁴³، ولا شك أن الأسطورة كانت قبل زمن هوميروس وعليه لا يمكن أن تكون القصة المسالمة مطابقة بشكل حرهي للأصل، فالأصل ليس موهوبا ولذا فالقدم الأكثر انقراطرة عن قصة أوديب تنتمي إلى الأدب⁴⁴، ومن هنا نسوق الأسطورة التي بنى عليها أوديب مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كولونا ضمن سياطها الأدبي والتي مفادها أن لا يوس من لايدكوس تزوج من جوكاستا، فتلقى تحذيرا من أحد العرافين بأنه سوف يولد له ابن يقتله في يوم ما⁴⁵، فعقا له على جناحه على بيلوس الذي استضافه حين كان منفيا من طيبة ولكنه غدر بضيفه وهرب بإبنة كريسبيد كما ورد في أوديب ملكا⁴⁶، حين ولد الطفل حملته إلى جبل كيثرون، وتقب لديه، للطلاص منه، لكن راعيا أخذه إلى بولينيوس ملك كورنث.

موسوعة أوديب ملكا وأوديب في اليونان

طينة وأطلق عليه اسم أوديب لأن قدميه مجروحتان، ولما كبر أخبره أحد العرافين بأنه سيفشل أبداً ويتزوج أمه، ولأجل التخلص من هذا ظن نفسه من كورنثا حتى لا يرى أيضاً بوليبيوس وروجه الذين اعتقد أنهما والداه الحقيقيان، فكان شكه سبب تلمسه.

انطلق أوديب نحو بويوليا وهي الطريق لتعاصم مع رجل بهمه فشتته، إلا أنه كان والده، فراسل رحلته ونسب التبرع قد صار حقة. وعين وصل إلى طيبة كان البلد مهدداً بمسح له وجه ومسدراً أمراً، وحسم أسد وجناحا طير، وكان السفينكس، كما سمي هذا السبع، يسيطر على الطريق المؤدية إلى طيبة. حيث كان يوقف المسافرين ويطلب منهم حل لغز من الألغاز، ومن لا يستطيع الحل يهلكه، ولذا أعلن كريون الذي حكم طيبة بعد مقتل لايبوس بأنه سيمتحن التاج لمن يخلص المدينة من هذا السوء، ويوزجه من جوكاستا، فقرر أوديب أن يحارب حظه. فكان سؤال السفينكس: من هو الذي له أربعة أرجل هي الصباح، ورجلان عند الظهر وثلاثة عند المساء، فأجابته بأنه: الإنسان الذي يحبو على أربعة أقدام ويسير على رجلين عند البلوغ، ويتكئ على عصا عند الشيخوخة. وحين أحله رمى السفينكس نفسه في البحر.

وبهذا صار أوديب زوجاً لأمه دون أن يدري وأنجب من هذا الزواج ولدتين: إيتوكليس وبوليانيكيس. وابنتان: أنتيرون واسميندا، وعلى الرغم من ازدواجية الجريمة فقد عد حاكمها مخلصاً لشعبه، لكن العذاب كان يتطوّر.

هزّت البلاد أوبئة شديدة لسانها البحر وأصاب في الوقت نفسه الأرض حفاف خلف الجعاجة، وبعد أخذ مشورة كاهنة دافى فالتفت إلى المصائب أن ترفع حتى يقوم أهل طيبة بطرد قاتل لايبوس المجهول من البلاد، فأخذ أوديب بالتحري صرف بعد ذلك أنه القاتل وأن جوكاستا هي أمه، فشنت نفسها للتخلص من العار وهذا أوديب عينه. ونفى نفسه من البلاد. ترافقه ابنته المخلصه أنتيرون، ثم التجأ إلى مدينة كولونا في اتيكيا، وأخيراً ظهر نفسه من الجرائم واختفى بشكل غامض من على وجه الأرض⁽¹⁴⁾.

تري ماري، يذكر أنه من المتأثر هم الأسطورة قبل تشكيلها قطعة قطعة، فربما يكون لكل حدث مصدره ودلائله المستقلة. وتعدّ بيلكوز الترافف العميق هي أسطورة أوديب استثنائها وأخيراً تتوصل إلى أن أسطورة أوديب وحدة واحدة تمت في وقت متأخر وهي حوادث مستمدة من سياقاته مختلفة، وتقلل من شأن الزمن بالأفارب لأنه لا يتسجم مع التفسير الأولي لتفسير الأسطورة، لكنها تواصل بسهولة على مثل الألب. وأن الأسطورة أتت من مصادر خرافية غير متجانسة⁽¹⁵⁾.

إن التكلام السابق الذي أشارت إليه بيلكوز صحيح، على الرغم من كونها قد طرحته على سبيل الافتراض. ودليل صحته ورود قصص مشابهة عند أمم أخرى، فأقدم قصة وردت عند الهنود أيام حروب بهارت كما جاءت عند البهروني في كتابه: تحقيق ما للهند من روائية مقبولة في العقل أو مردولة، بها هو ياسيدو يولد حين تكثر الجبابرة في الأرض ليخلصها من الظلم.

«... حرف كنس ان هلاكه من جهته بقاء سمعه وقت عرس اخوته فوكل بها من يحمل اليه احمالها اذا وضعت. وكان يقتل ذكرها وانتاها الى ان ولد لها «بلهدر» فاحملته «جسو» زوجة «نند» البقر وريته واحداثت لإخفاء أسره على اللوكلين. ثم ولد لها بعدة في البطن الثامن «باسيدو»... ففعل الحراس بنوم انتلهم وسرقه أبوه وحمله إلى «شكول» أي موضع مربوط البقر الذي تشد زوج «جسو» وهو قريب من «ماهور» وريتهما نهر «جون» وأبدله بأبنة لشكولان. اتقى ولادها وقت بلوغ باسيدو إليهم. وحمل الآتين إلى الحراس بدل الآبنة. فارتاد «كنس» الوالي فتلقا حطارت في الهواء وذهبت. وثرين باسيدو هي يد جسو الروضة من غير أن تعلم أنه بدل أبنته وأطلع كنس على أسره فتكاده بكل كيد ومكر رجعت كلها عليه حتى طلبه من أبويه للصراع بين يديه. فأتاف في ضلعه على الجميع بعد أن فعل في الطريق ما أغاظ به الخالة من غير حية كانت موكلة بحفظ تيلوفر (حوضه) وزمها في منغيرها... وطلع من عمل الغيط في كنس أن انشلت مزارته وهلك لوقت. ومالك باسيدو ابن أخته مكانه¹³⁷. وكما يذكر البهروني في كتابه السابق أن حروب بهارث حصلت سنة 1132 من كاجوك. فتوة زمينة عند أهل الهند لها طول محدود. وأن زمن روايته للقصة السابقة حتى وقته هو 1210 للإسكندر¹³⁸. وعليه يكون زمن كتابة البهروني للقصة السابقة يكون زمن الحملة في التاريخ الهندي هو 1132 = 1029 = 1029 ق م وقد مولد بلهدر الذي (تلقا القصة) مولد أخيه بيهو الذي ولد بعده. واللافت للنظر أن القصة السابقة تشبه في إطارها العام مولد موسى وقصته مع شرعون، بدليل ورود العناصر الآتية في القصتين: 1- نبوة نرد إلى الملك تحذره من مولود يمليه الملك. 2- قتل كل مولود ذكر. 3- مضاطر تحيط بمولد الطفل بحيث يتم القضاء بطريقة خفية عن الملك. 4- وجود مرضعة للطفل. 5- ذكر النهر. 6- ذكر الأفعى. 7- اكتشاف الملك أمر الطفل في وقت لاحق. 8- الصراع بينهما وهلاك الملك.

تحسن الإشارة هنا إلى ما قاله فرويد عن ملكة أحد تلامذته الذي كتب كتابا بعنوان Der Mythos von der Geburt des Helden وملخص قوله عن الكتاب بأن أغلب الشعوب المتحضرة نسجت في وقت مبكر أساطير تتحدث عن أبطالها ومآزكها وأمراتها ومؤسسي ديارها وأسرها الثلاثة وإمبراطورياتها ومدنها الأسطورية. ولكن التشابه فيما بينها يثير الدهشة، بل إن التماثل البحري لها يمتد على الدهشة. حتى لو كانت هذه الأساطير لشعوب مختلفة. وأحيانا ما تكون متباينة جدا عن بعضها جغرافيا وهذا ما أثار استغراب كثير من الباحثين¹³⁹. ثم يحكي فرويد قائلا: «وكما قال «راكه» وتبعها لمخطوط مسج «جالفين» أستطيع أن أقول إن هناك أسطورة تجمع في نفسها أهم خصائص كل الأساطير فهي أسطورة تتوسط كل الأساطير، أو أسطورة متوسطة مؤداها: «أن البطل هو ابن والدين لهما مكانة من أعلى الكائنات. وكثيرا ما يكون ابن ملك».

مصر القديمة ملكة وأمه كات

«إن إنجابه اعترضته العوائق مثل الزهد أو العلم الموقت أو أن والديه كانوا يهتمان سراً بسبب وجود عوائق، أو غير ذلك من العوائق الخارجية، وخلال حمل أمه فيه أو قبل ذلك، يعتبر أحد المتبنيين الأب أو يتلقى الأب تحذيره من حلم مؤداه أن ميلاد الطفل ستكون فيه خطورة على سلامة الأب».

«ومن ثم فإن الأب (أو من يمثله) يأمر بقتل الطفل المولود حديثاً أو بشخصيته لخطر خارجي، وفي أغلب الحالات يوضع الطفل في سلة ويسلم أمره للأموال».

«وحيثك ننفذ الحيوانات الطفل، أو ينقذه الناس الفقراء، كالرعاة ويرضع الطفل من أنثى الحيوانات أو ترضعه امرأة ذات نشاط متواضعة» وعندما يبلغ الطفل يكتشف اسم والديه اللذين يمان إلى التلاذ، وذلك بعد أن يخوض مخاطر كثيرة وغريبة، ويحقق الانتقام من أبيه ثم يعترف له شعبه فيحقق نفسه الشهرة والمظلة»¹⁴.

ويقرر فرويد أن الأسطورة سرجون الأكادي أبعد شخصية تطبق عليها أوصاف هذه الأسطورة المتوسطة وترجع إلى نحو سنة 2800 ق م¹⁵، وفي الحقيقة، إن أسطورة سرجون الأكادي ليست أبعد شخصية تاريخية ودليل ذلك القصة الواردة في حروب يهازش، ويسوق أسطورة سرجون فيقول: «إنني سارحون، ملك أجاد، كانت أمي رفيقا، أبي لم يعرفه، بينما كان شقيق والذي يسكن في الجبال وفي المدينة التي نشأ فيها أروبيوني حملت في أمي الرقيق، جعلتني سوا، ووضعتني في سلة من الترابي وأطلقت فوقها الصلابة الشار، وأدلتني إلى الماء، ولم يعرفني النهر، ولكن جعلني أبي الصفاء الذي كان يسحب الماء ويراني كائنه، وجعلني «أكي»، صاحب الماء، مستأنه، وعندما كنت بستانها وضعت غشاش في حبي وسررت ملكا وحكمت كملك مدة خمس وأربعين سنة»¹⁶. فليس بعيداً أن يكون سرجون قد نسج هذه الأسطورة ليحكم الناس بحسبة دينية.

ومن أشهر الأسماء المعروفة في العظيمة التي بدأت بمسارجون هي موسى وفوروش ورومولوس، ولكن رائد وضع هذا آخر من الأبطال جمع اسمائهم من عالم الأسطورة أو الشر، وتسحب عليهم القصة مكافئها أو هي أهم أجزائها، مثل أوديب، وكارنا وباريس وتيليوس وبريسوس وهيراقل وجيلجاميش وأميون وزينوس وآخرين¹⁷.

وتستمر النبوءات بعد ذلك لحكم الناس تحت شريعة دينية بهذا رواية تروج للأسرة الثانية عشرة من طراثة مصر (2000 - 1788 ق م) مفادها أن الساحر إيزر أنذر فرعون مصر بمحصول فحط واضطرابات في مملكته، حيث يصبح الغني فقيراً والفقير ثنياً، ويعدا يوتاج البلاد قوم أحاطت هتتلب النظام وأسا على عقب، وبعد سرد الساحر لهذه الأخبار أخبر بأنه سيأتي بعد ذلك رسول يظفر نار ذلك الكهيب فيمدحه الناس ويعدونه راعيهم لطبية فيه، وهم شعبهم فينصرونه ويزيل الضرر عنهم، وتساقي الساحر قائلاً: هل ينام هذا الرسول

معنا الآن^{١٢٩} ويذهب برستد الذي يسوق هذه الرواية إلى أنها مثال القصة اثنائية حيث توقع فيها القائل قديم رسول كسبها دلود عليه السلام. وليس بعيدا كما يرى أن القصد منها القيام بمناورة من طرف التبيت لذلك كي يمدحهم السامع... ويرى برستد أن أمثال هذه القصص أخذت تزداد من تلك الفترة حتى العهدين اليهودي والمسيحي ويعدّها أقدم نبوءة معروفة حتى هذا الوقت. ولا يستبعد أن تكون التوراة الأصلية الجامعة لقصصات رسل اليهود المعروفة. والتي صاغوها بأسلوب آمن^{١٣٠}. وفي الحقيقة ليس هناك دليل على أنها التوراة الأصلية الجامعة لتلك القصصات. والقصة التي وردت عند الهنود أقدم منها بكثير. ومما يستخلصه الباحثان من خلال القصة الواردة عند الهنود في حروب بهارث (٢١٠٢ ق.م.) أنها ربما كانت متأثرة بوحى ديني أصيل. ثم وجد ما يماثلها في عهد سرجون الأكادي (٢٨٠٠ ق.م.) وكذلك في مصر أيام الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق.م.) كما نيج. أيضا في عهد ملفتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م.) أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٢٠٨ - ١٢٠٠ ق.م.) كما سيتضح لاحقا. وربما لم يجانب كروزر المصواب حين رأى أن الأسطورة نوع من أنواع الصالحات الدينية. منيها وحي ديني أصيل. ثم نقلت للأجيال اللاحقة بصورة ومرة عبر رجال الدين. كما يعتقد أن حكمة الشرق قد انتقلت إلى بلاد اليونان لنؤلف فؤاد لجميع الأساطير التي اشتملت على حكمة الأجيال المسبوقة في صورة مجازية^{١٣١}. فاعلم ما قلته اليونانيون والأسطورة أنهم كانوا يعدونها ويطورونها ليهيئوها لها حياة مستقلة بالديانة والعبادة^{١٣٢} وفقا لتغير الأحوال. وأخيرا كان أول ذكر ممنون لأسطورة أوديب عند اليونان يرجع إلى عهد هوميروس (القرن التاسع). وعلى هذه الأسطورة بنى سوبوكليس المسرحيين لكن الأسطورة نفسها تتشابه في بعض عناصرها مع ما جاء في التوراة.

ثالثا: عناصر أسطورة أوديب والتوراة

إن بعض عناصر أسطورة أوديب لها ما يماثلها في التوراة. ومن هنا أشار علي عبد الواحد وأخي إلى وجه الشبه بين ما جاء في بعض الأساطير اليونانية وما ورد في القصص الدينية التي في الكتب المقدسة^{١٣٣}.

فهناك إخراج للطفلين أوديب وموسى عليه السلام من محضن الأسرة مع العائق بين الحالتين فؤاد أوديب دفع به لأجل إهلاكه بينما دفعت أم موسى به للحفاظ عليه من بطش فرعون. تقول الأسطورة بخصوص أوديب أن والده رماه على جبل كثيرون بعد أن جرح شقيقه. لكن راعيا عثر عليه وأخذه إلى ملك كورنثا فهبأه^{١٣٤}. وفي رواية أخرى أن زوجة ملك كورنثا كانت عاقرا فهبأه^{١٣٥}. وتقول رواية أخرى للأسطورة إن التواصي أشفق عليه وأسلمه لراع مثله وحمله إلى الملك^{١٣٦}.

مسيرة أوديب خلفاً لأوديب دم تيهوما

أما فيما يتعلق بالطفل موسى فتقول التوراة عن أمه وأخته وأبنة هيرمون والمرسعة: «ولما لم يمكنها أن تلعبه بعد أن أخذته له سلفاً من اليهودي وظلته بالحبر والزيت ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلقاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به، فزالت ابنة هيرمون إلى النهر لتقتل، وكانت جواربها ماثبات على حواف النهر، فرأت السلف بين الحلقاء فارسلت أمها وأخته، ولما فعلته رأت الولد وإذا هو حيي يركب، فركت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فحالت أخته لابنة هيرمون هل أعجب وأبعد لك امرأة مرسعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة هيرمون لا هيبى، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فحالت لها ابنة هيرمون لا هيبى بهذا الولد وأرضعته لي وأنا أصطيد أجرك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة هيرمون فصار لها ابناً»^(١٧).

بلاحت أن كلا الطفلين حينما عثر عليهما قد عموماً بالمعطف، وتم تيهوما، إضافة إلى أنهما قد ترويا في البلاط الملكي.

وهناك رواية أخرى لحادثة التخلي من الطفل أوديب أثبتت ماري ديلكور وجودها وهي حمرة يالاء ضمن صندوق^(١٨) والآيات السابقة من التوراة تبين أن أم موسى وضعت في النهر لأجل الإبقاء على حياته. والتلات تشرح التفسير في طريقة تسمية أوديب بهذا الاسم وكذلك سبباً موسى عليه السلام: «الأسطورة تقول أن مريم كبرت سبباً بهذا الاسم لأن قدميه مصروحتان»^(١٩)، وفيما يتعلق بتسمية موسى عليه السلام تشرح التوراة أن ابنة هيرمون أطلقت عليه هذا الاسم لأنها اتخذته من الماء، ودعت اسمه موسى وقالت إني اتخذته من الماء^(٢٠) فمن يتكلم من الماء يسمى في العبرية موسى.

الصح من خلال الأسطورة أن أوديب تزوج أمه دون أن يدري أنها أمه وقتل والده دون أن يعرف هويته. ففي نفسه من البلاد^(٢١)، وأو نظرننا إلى شريعة التوراة لوجدنا أنها تقرر العقاب من قتل نفساً سهواً: «والذين التي تعطلون اللاويين تكون ست منها مدناً للملحاً»^(٢٢)، «وكلم الرب موسى قائلا: كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرضي فكمال فتمتدون لأنفسكم مدناً تكون مدناً ملحاً لكم ليهرب إليها الفئال الذي قتل نفساً سهواً»^(٢٣)، «وكلم الرب يشوع قائلا كلم بني إسرائيل قائلا: اجعلوا لأنفسكم مدناً للجماء كما علمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها الفئال ضارب نفساً سهواً بغير علم»^(٢٤).

تفيد الأسطورة أن والد أوديب قد تلقى تحذيراً من أحد العرافين بأن ابنة سببته في يوم ما ولذا تخلص منه عند ولادته^(٢٥) والتوراة لا تتحدث عن تحذير طامم لهرمون من أحد العرافين، وإنما حشي من كثرة اليهود في المستقبل فطلب من الفيلات الفسفات قتل كل مولود ذكر^(٢٦).

بينما يذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس (٢٧ - ١٠٠ م) في كتابه الفكر اليهودي: أن العراف الأخير للملك المصري بأن مولوداً من بني إسرائيل سيكون له شأن ويكسب شهرة دون أخوانه ويعطي من

شأن الإمبراطورين، وبناء على هذا الإنذار أصدر الملك أوامره بأن يتم الخلاص من كل مولود ذكر من الأسرانيين من خلال إلقائه بالنهر، بحيث تتم رقابة صارمة على النساء العبريات في أثناء الخاض من خلال رقابة القابلات المصونات^{٢٣١}، وعليه يكون اليوسيفوس مصدر آخر غير التوراة، استلنى منه هذه الرواية.

أربعاً : مقارنة المسرحيتين مع التوراة

أ - مسرحية أوديب ملكا

قبل الشروع في مقارنة مسرحية أوديب ملكا مع التوراة من المهم تبين شخصية أوديب وما تخفيه بعض فقرات المسرحية على سبيل

النال لا الحصر فيما يتعلق بشخصية أوديب وبنائه السلوكي وذلك من خلال بعض أقوال أوديب نفسه وكذلك شخصيات المسرحية.

فيما هو يقول: «أنا أوديب الذي يعرفه الناس جميعاً، علم أنها الشيخ نحدث... ما مصدر هذه الهيبة التي أتم عليها أروية أم رغبة؟ ألي يأتي شهيد الحرم على معرفتكم، فقد أكون خالفها بالخطوة والقصوة إن لم بمسئلي الإشفاق عليكم»^{٢٣٢}، «لحين يقول: «أنا أوديب الذي يعرفه الناس جميعاً، إنما يريد منذ البداية أن يظهر تميزه وذاتيته على الآخرين، وحين يتحدث عن الرغبة قبل الرغبة فهذا يبرز تميزه وذاتيته على غيره ثم لا ينفك من قراءتنا الأخير أنه في الأصل طيف فاس والشفقة جاءت طارئاً ولذلك يشتم من كلامه رائحة التهديد، وفي سياق آخر يقول له الكاهن: «... فقد أرى أنه إذا أتيح لك أن تحكم هذه الأرض، فالتحيز هي أن تحكمها معصومة لا مغفلة، ما قيمة الأسوار، وما قيمة السبل إذا قلت ولم يوجد من يلوذ بها ويعتمى من ورائها»^{٢٣٣}، «لاحظ أن الكاهن يخاطب الملك صاحب السطون مستمعاً له التصح والإرشاد بأسلوب حذر، ثم إنه يجعله مسؤولاً خراب العمران بطريقة خفية ظاهرياً الاستعظام وهي عمقها الخوف.

وعندما أصر أوديب على معرفة قاتل الملك قال: «... إن أمحو هذا الرجم إشاراً لأصدقاء بل إشاراً لنفسي، أي الناس قتل الملك فهو خليف إن ييسط يده علي بالشر نفسه»^{٢٣٤}، يعود أوديب هنا ليؤكد على تميزه وذاتيته، على الرغم من كونه استجاب لطلب الناس في البحث عن قاتل الملك، فهو يبحث عن قاتل الملك عملية لنفسه ومن هنا يتمركز حول ذاته في أفعاله وأقواله، وعليه لا يستطيع أوديب أن يخرج من هذا الإطار الذي تمحور حوله، فما هو يخاطب وليس الحقوق بأسلوب الاستعلاء: «إني أسطر على أهل هذه المدينة التي أنا صاحب العرش والسطان فيما أن يستقبلوا هذا الرجل كائناً من يكون»^{٢٣٥}.

وعينما أخبر تريسياس (الكاهن) أوديب بأنه القاتل بدأ طقوسه واستبدلته إذ يقول: «يبلغ بك هذان الحباء أن تعلق بهذا الكلام؟ وأين تستطيع أن تضع نفسك بيمان مما تسبق

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في التوراة

من العنصر^(١٢٠)، وعلى الرغم من كون أوديب يمدو واقعيها في الظاهر في بث الرمى إلى المرافقين، إلا أنه شتم ترميساس الذي يطلق بصوت الألهة^(١٢١).

إن أكثر حوار في المسرحية يعبر عن أوديب من حيث كونه طائفة الحوار التالي: «كربون - لست أراك تحسن الحكم.

أوديب - بل أنا أحسنه فيما يعني.

كربون - يجب أن تحسنه فيما يعني أيضا .

أوديب - ولكنك خاطئ.

كربون - إن كنت مخطئا في هذا الرأي.

أوديب - يجب أن تطوع على الرغم من ذلك .

كربون - كلا - لا طاعة إذا كان القاضي جائرا^(١٢٢).

وبعد أن هنا أوديب عينيه كان كربون أكثر جرأة معه وبذلك أزال التناقض من حقيقته فقال له: «لا تحاول دائما أن تكون صاعب الأمر، فإن ما أفادك ظنرك قديما لم يصاحبه في أطوار حياته كلها^(١٢٣)». وكما يقول إيليا العاري: «وإذا كانت المسرحية ذات فزعة تعليمية، فإن التقلب كان يظهر أزمات الطغيان ومستأجرة وأعراسه، وهو ما نشاهده في أوديب الذي ينهم

ويحكم من ذاته، ولا يحفل بالمبدأ والتعصب، إنه يستند المطلق^(١٢٤) وبناء على ما تقدم إن الإسطور أو الأسطورة تظهر أن «أوديب الفطري» نحو الفطرية التي أوصفتها إلى الإثم، والواجبة بينه وبين كربون وترميساس تظهر سمات وخصال أوديب السلوكية المعروضة بالنور الذي لا مبرر له والفرور والتكبر والثقة المفرطة بالنفس والنزوع إلى الشطاول على الأرياب من خلال إنكار مقدراتهم^(١٢٥).

بعد هذا العرض الذي بين نفسية أوديب وسلوكياته تأتي مقابلة مسرحية أوديب ملكا مع التوراة لمعرفة أي شخصية في التوراة تقابل شخصية أوديب.

جاء على لسان الكاهن مضاطبا أوديب لأجل اكتشاف قاتل الملك... هذه طيبة كما ترى نهز هذا عينا، وقد اضطرت إلى هوة صميقة، فهي لا تستطيع أن ترفع رأسها، وقد أحدثت بها الأخطار الدامية من كل مكان. إنها تملك فيما تحوي الأرض من البذر، إنها تملك القطعان الرالمة في المراعي. إنها تملك بما تصيب النساء من إجهاض عقيم. إن الإله الذي يحمل ناز الحصى قد اندفع في المدينة مدمرا مضمريا، إنه الياء التهلك على مدينة كايوموس...^(١٢٦) هالكلام يظهر صراحة إلى موت البذور وهلاك القطعان وضاء الناس وعضب الإله المدمر. وهذه الصورة القلينة بالخواب تشبه تلك التي حلت بأرض فرعون، حين امتنع عن إخراج بني إسرائيل مع موسى. لتلول التوراة، مضروب البود في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، وضروب البود جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل^(١٢٧).

«فالتكلم والشعير ضريبا»^{١٢٩}، ثم قال الرب لموسى وهارون خذنا مني أهديكما من وهاب الأثون، ولينذر موسى نحو السماء أمام عيني فرعون، لينهبر فيأزرا على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى البهائم دما مل طامعة يثثور في كل أرض مصر»^{١٣٠}، ثم قال الرب لموسى بكر في الصباح واقف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعيدوني... فإنه الآن لو كنت أريد هدي هامريك وشعبيك بالوباء لكنت أتباد من الأرض»^{١٣١}، «وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت»^{١٣٢}، وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله لا يكون مثله أبدا»^{١٣٣}.

فالهلاك الذي أصاب طيبة سببه الخطيئة المتمثلة بعقل الملك لايرس على يد الملك لوطيبي والهلاك الذي حل بأرض مصر سببه امتناع فرعون عن إخراج بني إسرائيل مع موسى، والذي نفذ الهلاك في كلا المدينتين لغضب الله.

ومما جاء على لسان الحوطة- واحسرتاه إني لأحتمل إلا ما لا تحصى، لقد سموت العدوى في الشعب كله، وعجز العقل عن أن يفتخر سلاحا يذود به عن إفساد، لقد جمعت ثمرات الأرض فهي لا تنمو، وحصدت الأمهات ممن لا ينجس من سراقدهن، قد اتحت عليهن الأم الوضع، وجعل الموت يرسل ضحاياه متلجئة في سريجة النار التي لا تبرد إلى آنية الجحيم.

وجعلت المدينة وقد هذبت أبنائها بغير حساب فهلك وفتح عليها الدمار في غير رحمة ولا رفق، وهاء الجثث مكددة على الأرض لا تجد من ينيكها، وهي تشتر في الدجلة نضرا، وهؤلاء الأزواج وهؤلاء الأمهات ثوات الشعر الناصع قد أحطن بالبعد من كل وجه، وأقمن على درجة شاكيات باعانت أبنها، ماكانت به الفضاء، ضارعات إلى الآلهة هي أن تضع حدا لهذا الشقاء»^{١٣٤}.

إن سيقا الكلام يشير صراحة أيضا إلى المصيبة التي حلت بالشعب كله وإلى موت ثمرات الأرض وجمودها، علاوة على معاناة الأمهات من الأم الوضع إضافة إلى التهام الموت التواليد، وهناك الحدث اللقاة على الأرض، ولا تعد من ينيكها، ثم يعود سوفوكليس ليؤكد من جديد على معاناة الأمهات الباكيات الشاكيات وهن ينوسن إلى الآلهة لتضع حدا لهذه المعاناة، ثم نظرتا ثانية إلى ثبات التوراة لوجدناها تشير إلى ذلك بوضوح حين امتنع فرعون عن إخراج بني إسرائيل مع موسى، بحيث نجد صورة الدمار: «ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين، على أنهارهم، وعلى سواقيهم، وعلى أجاجهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتسير دما»^{١٣٥}، «فقال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب نواب الأرض الضفادع على أرض مصر»^{١٣٦}، ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب ثواب الأرض ليصير بغوشا في جميع أرض مصر... فصارت البعوض على الناس وعلى البهائم... وبغل كذلك

مصرية أوديب ملكا وأوديب مصر

الفرعونين يسخرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا^(١٢٧). فضلل الفرعونين في إزالة البعوض هو هي الحنيفة يشبه عجز العقل الذي أشار إليه سوفوكليس من حيث كونه لم يستطع أن يخترع سلاحا ينقذ به عن إسماعان. ثم قال الرب لموسى بغير هي الصباح وقف أمام فرعون... فإذله إن كنت لا تطلق شعبي هذا أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذين قسمتك بيوت المصريين ذبانا... ففعل الرب هكذا، فدخلت ذبآن كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده. وفي كل أرض مصر حربت الأرض من الذبآن^(١٢٨).

ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد. فصعد على أرض مصر وياكل كل عشب الأرض. كل ما تركه البرد... فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع نجوم مصر... واكل جميع عشب الأرض وجميع لمر الشجر الذي تركه البرد. حتى لم يبق شيء الأخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر^(١٢٩).

وهيما يتعلق بالأم الوضع التي أصابت الأمهات والموت الذي يرسل ضحاياها بشكل متتابع. فسيه على الأرجح إشارة من طرف حفي إلى ما أصره فرعون حين طلب قتال كل مولود ذكر. تقول التوراة: فكمم ملك مصر شلمتي العبرانيات... وقال حينما نزلدان العبرانيات وتظارهن على الكراسي. إن كان لنا فافعل وإن كان بنتا فنعيا^(١٣٠). ومما يبرر هذا الرأي أن أوديب نفسه حين كان يحاطب رئيس الجوقة لأجل اكتشاف قبائل الملك قال: واني لأتس على الآلهة أن يتزلوا عضيهم على الذين يحاطبهم حتى أموت فلا تفت لهم أرضهم إلى ولا تلد لهم نسلا لهم البنين... وأما أنت يا ابتاه كعموس انتم الذين يطعموني ويسمنون لي فاني أنس أن يكون العدل لكم حليفا وعونا^(١٣١). فهذا الكلام فيه استبدادية واستعباد هم لا يطعمه يكن حسما له ولا يحافظه العدل. وهذا يشبه ما فعله فرعون بني إسرائيل. تقول التوراة: ثم قام ملك جديد على مصر... فقال لبيته هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لئلا يتمو فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا... فاستعبد المصريون بني إسرائيل بغير^(١٣٢) ومما ينبغي التنبيه إلى أن أوديب كان ملكا جديدا طيبة بعد مقتل لاويوس.

وعندما رأى الملك أوديب هذه المصائب وقد حلت بطيبة طلب من تريسياس الكاهن أن يخلص المدينة من هذا الوباء بحكم كونه يطلق على كل شيء. فقال له: «إي تريسياس أنت الذي يظهر على كل شيء. على ما يمكن أن تعلم وما ينبغي أن يظهر. على أيات السماء وعلاصات الأرض... يجب أن تعلم بأن خلاصنا من هذا الوباء رهين بأن نستكشف قتال لاويوس... أنقذ المدينة... إن أصرنا كله إليك...»^(١٣٣) يستخلص من هذا الكلام أن أوديب قد رفع تريسياس إلى مقام النبوة.

ولما رأى فرعون المصائب قد حلت بأرض مصر دعا موسى وهارون لرفع هذه المصائب. تقول التوراة: فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عني وعن

شعبي...^(١٠١)، «تأريسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما أخطأت هذه المرة، الرب هو البار وأنا وشعبي الأشرار - صليبا إلى الرب وكفى حدوث رجوع الله والبرق ضاقتكم ولا تعودوا تلبثون»^(١٠٢)، «دعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما، والآن اصغصبا عن خطيئتي هذه المرة فقط، وصليبا إلى الرب ليرفع عني هذا الموت فقط...»^(١٠٣)، «فالربط المشترك بين الحديثين أن الملك أوديب يطلب من ترميسياس الكاهن الذي وضعه إلى مقام النبوة أن يرفع الأذى عن مدينة طيبة وكذلك فرعون يطلب من موسى وهارون رفع الأذى عن أرض مصر، إضافة إلى أن المصائب حلت بطيبة وأرض مصر بسبب كل من أوديب الملك وفرعون الملك».

وعندما أخبر ترميسياس أوديب بأنه القاتل قال أوديب: «إنما هذا شديرك وتدمير كزيون... هذا كزيون قد احتفظه السلطان الذي أهدته إلى طيبة دون أن أطلقه إليها، فإذا هو ينسل من تحتي يريد أن يسقطني ويحل عرشي مستعينا على ذلك بهذا الساحر، بهذا الفاجر، بهذا المشعوذ الخلف»^(١٠٤)، «وحولما طلب كل من موسى وهارون من فرعون إطلاق بني إسرائيل ليعيدوا الرب حول فرعون المسألة إلى أمر سياسي متعلق بالثورة الشعبية ضد الملك، تقول التوراة: «وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية...» فقال لهما ملك مصر إماما يا موسى وهارون تطلقان الشعب من أصالة»^(١٠٥).

بعد ذلك العرض ألا يمكن أن نستشف أن أوديب الملك الطاغية يتأهل فرعون مصر؟ والذي يعزز ذلك أن هناك خطايا جديدا بين أوديب الطاغية مع كزيون البصير وترميسياس الكاهن الأعمى، والمواجهة في التوراة كانت بين فرعون الطاغية من جهة وموسى صاحب اللسان الثقيل وهارون النصيح من جهة أخرى، وعليه ألا يمكن أن يكون ترميسياس الكاهن الأعمى يمثل في المسرحية موسى النبي صاحب اللسان الثقيل، وكزيون البصير يتأهل هارون النصيح. هاتسؤال الذي يطرح نفسه الآن لم جعل سوفوكليس في المسرحية شخصيتين اثنتين فقط تواجها شخصية أوديب إذ ميزهما سمات حسدية متعلقة بالإبصار والعمى؟ وفي الوقت نفسه نلاحظ أن كلا من موسى وهارون قد واجها فرعون إذ كان موسى ثقيلا اللسان بينما كان هارون نصيح اللسان، تقول التوراة: «فقال موسى لرب: أنا ثقيلا اللم واللسان... فحبي قسب الرب... وقال النبي هارون اللاوي أخاك أنا أعلم أنه هو يتكلم»^(١٠٦) وعليه فبعد ثنائية حسدية متعلقة بطلاقة اللسان وعدمه بينما تتضح هذه الثنائية عند سوفوكليس بثنائية الإبصار والعمى فهل جاء الأمر صدفة؟ وخاصة إذا علمنا دور إمكانية هذه الشخصيات.

ثبت لأوديب من خلال حوار مع الرسول والخدام بأنه قد عاش بالثبني عند بوليبيوس حاكم مدينة كورنثا حيث كانت امراته عاقرة^(١٠٧)، وما هو معروف أن موسى قد عاش هو الآخر

مسرحية أوديب ملكا وأوديب دم بولون

بفحص فرعون، وقد بينا من خلال مسرحية أوديب ملكا أن أوديب يشبه فرعون. إلا أن سوفوكليس في هذا الموضع بالذات قد جعل شخصية أوديب الثنائي تقابل شخصية موسى عليه السلام ولذا يكون بولونيوس تقابل شخصية فرعون.

ولما تبين لأوديب أنه قاتل أبيه فلما علمه وقال: «... القوي في البحر حيث لا تروني آخر الدهر»¹¹⁷، والسؤال المطروح هنا ألم التجأ سوفوكليس لأن يذكر البحر على سبيل النهاية لأوديب الطاغية، على الرغم من كونها لم تحدث في المسرحية؟ بلما نراها قد تحققت لفرعون في التوراة وهذا يعيب عن مصوح الأحداث، فدفن الرب المصري في وسط البحر. فخرج الماء وعطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد»¹¹⁸.

ومن التشريعات الواردة في مسرحية أوديب ملكا أن سوفوكليس بعد القتل رجسا يدين الوطن حيث جاء على لسان كريون: «إن الملك أبولون بأمرنا أن نطغ الوطن من رجس ألم به... أما الظاهر فإن نلقي مجرما وإن نقتص من القاتل بالقتل فإن الإجماع والقتل هما أصل الشر في طبيعنا»¹¹⁹، وما هي التوراة تقول: «لا تدنسوا الأرض التي أنتم فيها لأن الدم يدين الأرض. وعن الأرض لا يكسر لأجل الدم الذي سفك فيها إلا دم سائكة. ولا تدنسوا الأرض التي أنتم مقبضون فيها التي إذ سائكة في وسطها»¹²⁰ ويصف كريون أوديب بأنه لا يرى الحقيقة بسبب الخطيئة، على الرغم من كونه مجسداً لـ «نبت/عبدك إنما ادين بالطاعة أبولون... فالأقل لك في سواحة ابن ما دعت تميروني فقدان البحر إن عينك مفتوحة إن للعدو. ولكل لا ترى ما أنت فيه من شر... إنك تجهل أنك تبيع إلى أسرتك في الدنيا وهي دار الموت مستصيبك القلة من أهلك وأهلك...»¹²¹، وفي هذا المعنى تقول التوراة: «ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتعرض أن تعمل بجميع وصايا وهرائمه التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك هذه القلعات وتتركك... يضررك الرب بجنون وعسى وحيرة قلب فتلكس في الظلم كما يهلك الأعمى في الظلام ولا تنجح في طرقك...»¹²².

ويبقى الأمر خلاصاً بين الباحثين في تحديد اسم فرعون موسى، إلا أن التوراة لا تذكر اسمه. وإنما تذكر لقب الملك «فرعون»، ولكن من الباحثين دلهة، فالأراء كما يسمونها محمد يومي مهران تعبر في الأسماء التالية: أحسن الأول: تحوتمس الثالث: ثوت فتح آمون. وميسم الثاني: منفتاح. سبتي الثاني: بعد نهاية الأسرة التاسعة عشر. بعد عهد رمسيس الثالث لكنه يؤيد أنه منفتاح بعد أن ذكر ست عشرة حجة»¹²³.

ومما يرجح أنه منفتح من هذه الدراسة المطارنة أن أوديب بعد أن فقد مكانته كملك وخرج إلى كولا أصاب المملكة اضطراب سياسي تمثل في خلافة العرش وفراق وإديه عليه من بعده حيث ظهر به الأصغر أثوكليس ولهذا جاء الأكبر بولونيوس متوصلاً لأبيه»¹²⁴، وحين مات

مفتاح واجهت مصر أزمة سياسية مفاجئة حول من يتولى العرش. ففي أثناء حكمه كان ولي العهد سيثي بشاح أكبر الأبناء، وعلى الرغم من ذلك، لم يتوالى العرش وتحول لغيره لأسباب ما زالت مجهولة. فطهرى أمون مس على العرش. هي ظل ظروف مبهمه حتى الآن، ويمكن الافتراض أن يكون مفتاح قد مات في غياب والده عن العاصمة. وأن مؤامرة حصلت بين حريم القصر فشكت صهر السن من الوصول إلى العرش والإسراع بدفن أبيه. فدانت له الأمور⁽¹⁴⁾. فالرابط المشترك بين الحدثين حصول الخلاف على ولاية العهد في ظل غياب الملك، وكذلك ظفر الصغير بالعرش وجرعاً الكبير، ثم إن الخلاف يقع بين اثنين فقط. والدليل الثاني أن أوديب قد فُتقاً عينيه ففقد بصره، وهذا هو مردوث يتوالى عن مفتاح، وحدث أن أصابه العمى من جراء هذه الحادثة الثالثة: فاضى النهر وقتل فيضاً شديداً جداً... وهم يروون أن الملك.. وقد نكته سقطت مضطرباً أخذ مصحاً وألقى به وسط دواعى النهر، وبعد ذلك أصابه في الحال أثر في عينيه ففقد بصره، وبقي أعشى عشر سنوات. وفي السنة الحادية عشرة جاءه وحى من مدينة يوطو يتبته أن مدة العتوبة قد انقضت، وأنه قد يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تهتمج إلا بزوحها فقط... ولما عاد إليه بصره... جمع جميع النساء اللاتي جريهن، حاشاً تلك التي أصبر بعد الانفصال بيولها، فجمعهن في مقبلة تسمى الآن (أرورتي بولوس) وبعد جمعهن أحرقهن وألقى بهن⁽¹⁵⁾، وهذا هو أوديب في مسرحية أوديب في كورينا يعود له بصره حيث جاء على لسان الرضول: «لم يكن أوديب يظن أن كان يهودنا جميعاً»⁽¹⁶⁾.

ب- مسرحية أوديب في كورينا

قبل الشروع في المقارنة مع النوراة نحسن الإشارة إلى تبدل حال أوديب حيث وقت له الآلهة، فعندما حل في كورينا نزلت عليه الرحمة واصطفته الآلهة. يؤيد ذلك دراسة كويات استنبهه «أسطورة أوديب» والتي تروى أنه حينما وصل إلى غاية كورينا اختطفته الآلهة وأصبح قبره مباركا بالنسبة إلى الأرض التي يدفن فيها، وهذا يذكر بالقصة التي تكون للرسول الذي ينتصر في الامتحان الإلهي⁽¹⁷⁾ وأوضح دليل على الاصطفاء الإلهي لأوديب ما جاء في مسرحية أوديب في كورينا على لسان الرسول: «لما فاد أحد الآلهة أو انشفت الأرض فابلتله للحننة بمنحة من الآلهة»⁽¹⁸⁾.

بعد أن خرج أوديب إلى كورينا دخل أرضاً مقدسة يتضح ذلك من خلال حوار مع ابنته أنتيجونا: «... أما هذا المكان الذي نحن فيه، فمكان مقدس من غير شك، فإنه مغطى بالغار والزيوت والكزبرة»⁽¹⁹⁾ بدليل أن الغريب خاطبه بهذه قائلا: «قيل أن نريد على هذا حرفا يجب أن نخرج من هنا للكان فإنك في موضع لا ينبغي للإنسان أن يطأ بقدمه»⁽²⁰⁾. أما ما يقابل هذا الكلام في النوراة ما جاء في سفر الخروج حين ظهر ملاك الرب لموسى: «وظهر له ملاك

مصرية أوديب ملكا وأوديب مصر

الرب بالهيب ناز من وسط عليفة... فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليفة فقال موسى موسى: فقال هانذا. فقال لا تقترب إلى هنا أطلع هناك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة^(١٢٢). لاحظ من النصين السابقين أن المكان للقدس الذي جاء إليه أوديب مغطى بالغار والزيتون والكرم. وكذلك المكان الذي جاء إليه موسى. ففيه شجرة العليق للقدسة، هاتيندس عامل مشترك مع وجود الشجر بصرف النظر عن النوع. إضافة إلى ذلك خلق النمل.

واللافت للنظر أن الآلهة التي تسكن المكان المقدس الذي وصل إليه أوديب هي آلهة مغطاة. إذ يقول الغريب: «مكان مقدس غير معصور تسكنه الآلهة المغطاة نبات الأرض والليل»^(١٢٣). ولما نادى الله موسى من وسط العليفة عطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله^(١٢٤). كما تزعم التوراة، فالمسأل الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو ما سر تقارب الحيوان في للمسرحية هيما يتعلق بالآله المغطى توافقا مع آيات التوراة في سفر الخروج. أضف إلى ذلك أن أوديب طرح بعد فعل إحرابي، وموسى قتل المصري بغير قصد، قبل النبوة، وخرج طويلا من وجه طروغ.

وعندما أراد أوديب أن يدخل كركونا حاول الغريب أن يسمعه كما تقدم وقال له: «... الأرض التي تغطي عليها تسمى العتبة المصاحبة لها البلد المسمى إتيانا»^(١٢٥). فالعتبة بمنزلة مدخل باب المدينة. ثم سأل أوديب الغريب عن اسم سيد القرية فأخبره بأنه ليمبوس وقال له: «... أقم هنا حيث وجدتك حتى أذهب فأحمل كلالته لا إلى أهل المدينة بل إلى أهل هذه القرية، فهم الذين سيقربون بقائه أو تعاقبه»^(١٢٦). فاعمل القرية من عليا القوم وشيوخها.

وبعد ذلك تخاطبه ابنته أنتيجونا: «الصبت يا أبي، إنني أرى قوما يدينون عيهم شيوخ وقد تقدمت بهم السن يرمون أن يستكشفوا المكان الذي أقيمت فيه»^(١٢٧). ونحن تأخذ أعضاء الجوقة في البحث عن أوديب يسمعه أحدها بالخراة والوقاحة. عند ذلك يرد متوسلا: «إنني أضرع إليكم هي ألا تنظروا إلى نظركم إلى العمود»^(١٢٨). وأخيرا ينصاع لأوامر رئيس الجوقة فيقول لأبنته: «توديني إذن يا ابنتي إلى حيث ترضي ما يرضى الدين وإلى حيث نستطيع أن نكول وأن نسمع ولتجنب مقاومة الطوراة. فمرر عليه رئيس الجوقة: «فأنا ولا تتجاوز هذه العتبة المتعلقة بهذه الصخرة»^(١٢٩). وأخيرا ألقى أوديب بحجته: «... إن الأعمال التي أقدمت عليها والتي تخلفك ملي إلى هذا الحد قد فرضت علي فخصمت لها. ولم أقدم عليها صامدا ولا مريدا... من أجل هذا أضرع إليكم أهلي الغريباء أن تتقنوني وتحموني بعد أن أخرجتموني من هذه الغاية المقدسة...»^(١٣٠) ونحن أرى ليمبوس سيد المدينة أوى أوديب بعد أن سمع شكواه ودعواه قال: «من ذا الذي يستطيع أن يرفض عشت رجل كهذا الرجل؟» وأشار إلى رئيس الجوقة بالقول: «إن أراد الغريب أن يقيم في هذا المكان فأكل إليه العناية بمصاحته. وإن

أراد أن يصحني فله ما يشاء...^(١٣٧) كما خاطب أوديب قائلا: «واختر أنت يا أوديب مكان إقامتك كما تحب ونهوى»^(١٣٨).

يستخلص مما سبق أن أوديب قد وقف على عتبة المدينة التي جاءها منفيًا، وحين قدم دعواه وبث شكواه إلى شيوخ القرية مركزا القول على أنه لم يكن متعمدا ما فعل من إجرام، إلى القرار إلى حاكم المدينة ثيسبيوس فتمنحه مكانا للإقامة مع الحماية. ولو نظرنا بالتفصيل إلى التوراة لوجدنا أنها تحوي العاصر المتأخرة من خلال الآيات التالية: «كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتعبدون لأنفسكم مدنا تكون مدن ملجأ لكم يهرب إليها القاتل الذي قتل نفسا سهوا، فتكون لكم المدن مجلا من الولي لكي لا يموت القاتل حتى يثف أمام الجماعة للقتل»^(١٣٩). «اجعلوا لأنفسهم مدن اللجأ كما كلمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل ضارب نفس سهوا بغير علم، فتكون لكم ملجأ من ولي الدم، فيهرب إلى واحدة من هذه المدن ويثف في مدخل باب المدينة ويتكلم بدعواه في أذان شيوخ تلك المدينة فيرضونه إليهم إلى المدينة ويثفونه مكانا فيسكن معهم»^(١٤٠).

على الرغم من أن ثيسبيوس قد منح أوديب مكانا ليمش فيه، فإن أوديب كان متطوعا، ودليل ذلك أنه يقول لثيسبيوس: «سأقبل بعض الناس»^(١٤١) ويضمد بذلك معاناتهم إرجاعه إلى وطنه طيبة لكن ثيسبيوس بطبيعته يقول: «إن الذين إجتروا علي أن ينطقوا بهذه الكلمات الخطيرة ويندروا بأنهم سيخبرونك من هذه الأرض سيجدون دون الوصول إليك بحرا واسعا شديد الاضطراب، لمن نفسك أين تفس عليك بأس حتى ولو لم أقم دونك ما دم أبولون هو الذي أرسلك...»^(١٤٢).

وبالعودة إلى ما جاء في التوراة بخصوص البحر الذي يثف حاجزا بين موسى وفرعون: «فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم، فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائهم، فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء فغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر وأثناء سوز لهم عن عيهم وعن يسارهم»^(١٤٣) والمكان الذي وصل إليه أوديب هو مكان خصب لزهاء الآلهة إذ تصفه الحقبة من خلال الحول التالي: «إن القرية التي وصلت إليها أيها الغريب ذات الأرض البيضاء والتي لا يشبهها مكان في الدنيا هي كولونا ذات الأرض البيضاء. هنا يتنفس الليل ذو الصوت النافذ في أعماق الأودية الخضر أكثر مما يتنفس في أي مكان... هنا يجب ديونيسوس أن يهيم في عينه القدس بين العذارى اللاتي قفن على تربته... لا كان في يوم من الأيام الينابيع القريرة لنهر كيغيس الذي يسيل مفتوحا هنا وهناك كأنه ثعبان في كل يوم يهدي ملأه الصافي إلى الأرض خصبها سرعا»^(١٤٤).

مصريا أوديب ملكا وأوديب في كولونا

لاحظ رواية التوراة بطلهم موسى التوراة الإلهي موسى وأبائته فيهما يتعلق بطبيعة المكان الذي سيحل فيه - "ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والعثيون والأموريين والحيويين واليبوسيين الذي حلف لأبائك أن يعطيك أرضا تفيض لبنا وعسلا..."^(١). وفي موقع آخر... بل الأرض التي أنتم عابرون إليها لكي تملكوها هي أرض جبال وبقاع، من مطر السماء تشرب ماء أرض يعشي بها الرب إلهك. عيشي الرب إلهك عليها دائما من أول السنة إلى آخرها"^(٢).

يتضح من خلال استقراء المقارنات المسرحية السابقة أن هناك حماية لأوديب من خلال البحر الذي يشكل حاجزا بينه وبين من يتبعه بالإضافة إلى أن الإله اليوناني هو الذي أخرجه إلى كولونا ذات الأرض الخصبة بتعارفها ومثلها مكثفة بعناية الآلهة. وهذا يعادل ما جاءت به آيات التوراة السابقة من حيث كون البحر قد شكل حماية لموسى وقومه وهلاك فرعون وجنده بعد أن أرسله الرب. وكذلك فيما يتعلق بالأرض وطبيعتها الخصبة ووفرة المياه فيها متوجة برعاية الرب.

بعد هذه المقارنات لا يمكن أن يقال إن أوديب في كولونا يشبه موسى بعد الخروج وإن طبيعة تقابل مصر وعلى هذا فكل كولونا ذات الأرض الخصبة هي أرض الميعاد كما نزع التوراة بعد أن أعطى يسيوس حاكم المدينة أوديب مكانا ليقيم فيه، تبعه كريون ليعيده إلى طبيعة على اعتبار أنه ولي الدم، إذ إن زوجة أوديب هي أخت كريون، يتضح ذلك من خلال الحوار التالي: "كريون - أيها القوم... لا تخفوا... فإني أتم أظلم قلبا دهرت شوا... إنما أقبلت مكثفا أن أظع هذا الرجل المشوح بأن يعود معي... فو يديوس اسمع لي وعد إلى وطفلك... أوديب - أيها الرجل الذي بلغ من الجوراء اقتصاها... هيم هذه المحاولة... وكلي التقي محببا إلي وكنت أريده وأنت فيه فابته علي... والآن وقد رأيت هذه المدينة وأهلها بقوتني لقاء كريما تحاول أن تتشزعني من بينهم... كسريون - إني أحسبكم إلى هؤلاء الناس لا إلهك... فباصا وذاك علي أصدقائك... فلذا فلقوت بك.

أوديب - من ذا الذي يستطيع أن يظفر بي رغم جبراني؟... أيها الذين أجاروني سلافا تصنعون؟ اتعشرون ذهني..."

ورئيس الجوقة - انصرف أيها الغريب، أسرع إلى الرحيل من هذه الأرض... كريون من حضي أن أفود أبناء السوزي..."

ورئيس الجوقة... إن أظفك حتى ثوب هاتين الفتاتين... كريون - ... أعلم... أن الأتيهين لا يقبلون في بلادهم رجلا قتل أباه ونفس نفسه واتخذ أمه له زوجا. أعلم هذا كله كما أعرف حكماء مجلسكم القضائي الأعلى، عليه اعتدعت..."

أوديب - أيها الكائن الموقع... إن تستطيع أن تلومني أنا في خطيئة واحدة لأنني إنما اقترعت هذه الأثام هي ذات نفسي وفي ذات أسوتي. وإلا فحين لي كيف آلام على موت أبي إذا

كان وحي الأنكبة قد ألهب بأن الموت سيأتيه من يد ابنه؟... فخاصمت أبي غير عالم بأنوته ولا غامد لخصومته وقتلته غير مرید هذا القتل؟ أما أبي أيها الشقي فلهذا كنت خليفاً أن تستطري من أن تستطري إلى الحديث عن الاقتران بها وهي أخذك... لقد وأدتي دون أن أعلم ودون أن تعلم هي بأمر المستقبل... وأنت تريد أن ترضني من هذه المنيعة، أما الشيخ المستجير بها اللاجئ إليها...

وليس الجوقة - إن الغريب أيها الملك رجل خيرا إن شاء الله العظيم إنه تخلق بالمونولا

ثيسوس - حسينا كلاماً إن العندين يعضون، ونحن نقيم في هذا المكان.

كريون - ماذا تريد أن يصنع رجل لا صند له؟...

ثيسوس - ... أما أنت يا أوديب فأقم وليس عليك بأس...^(١١٤)

يتبين من الحوار السابق أن كلا من كريون (ولي الدم) وأوديب قد قدم حجة أمام مجلس القضاء فأمر حاكم المدينة برد كريون وملك أوديب مكاناً كي يقام فيه. تقول التوراة: «... وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلّموا القاتل بيده لأنه يغير علم ضرب قريبه وهو غير مغطى له من قبل، ويسكن في تلك المدينة حتى يقف أمام الجماعة للقتل...»^(١١٥)

وإذا ما عدنا إلى التوراة فهنا نرى كريون أوديب من طيبة إلى كولونا وكذا إصرار على إعادته معه إلى وطنه. إلا يمكن أن يقال: إن كريون يشبه موسى بناء على ما تقدم؟ ومما تجدر الإشارة إليه أن ثيسوس وميخا الأخد قد في مسرحية أوديب هي كولونا حيث كان - حسب افتراضنا - يشبه موسى في مسرحية أوديب ملكا. وذلك لأن أوديب في مسرحية أوديب هي كولونا يقابل - حسب افتراضنا - موسى في التوراة - فهل هذا يقصر مدخله؟

ومما يبرز الافتراض بأن أوديب هي كولونا يشبه موسى بعد الخروج أن الأنكبة أعلمته بقرب وفاته بالإضافة إلى الإشارات القاطعة من السماء التي جعلها الأنكبة لتكون علامة على قرب موته مدة في ظهور البرق وسماع صفير الرعد التكرار والصواعق وهذا حل في السياق المسرحي الثاني: تقول الجوقة حين سمعت صفير الرعد من بعيد: «لقد صفير الرعد في زوس».

أوديب - إن هذه الصاعقة ذات الجناحين التي أرسلها زوس والتي سمعتها قصصها الآن ستعلمني عما قيل إلى دار الموتى...

الجوقة: انظر إن ضمنا عظيما... بدلاً الجور وقد أرسله زوس... (يومض برق في السماء)... ثيسوس - وأي آية على موتك تفك هذا الموقف المطلق، أوديب - إن الأملة يبنوني بذلك. يبنيني به منادهم نفسه. وهذه الملامح التي جعلوها آية على موتي؟ ثيسوس - ما هذه الآيات أيها الشيخ؟

أوديب: صفير الرعد السريع المتصل وهذه البرق الكثيرة قد أرسلتها يد لا تقهر^(١١٦) وقبل موت موسى ظهرت علامات سماوية لتلك الإشارات التمهئة بالبرق والرعد

موت أوديب ملكا وأوديب كمدوني

والمواصف قبل موت أوديب من خلال النص التوراتي التالي: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله نبي إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من بعيد وتلألا من جبل هارون وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم»⁽¹⁴⁴⁾ «وهي موقع آخر: «وقال الرب لموسى هو ذا أمامك قد قريت لكي تموت... فتراش الرب في الخيمة في عمود سحب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة»⁽¹⁴⁵⁾.

ولما تحققت لأوديب هذه العلامات الدالة على قرب موته نهض مصطربا وبخاضع أبنته فثلاثا: «يا ابنتي يا ابنتي! أليس هذا من يستطوع أن يذهب فيدمو الكريم ليسيسوس... أيها الملك إن مقبلك ليحقل أمالي، وإنما قادك الآلهة إلى هذا المكان لتلقى فيه سعادتك... إن حياتي لتبلغ أجليها، وما أريد أن أموت قبل أن أير لك وللمدينة بما وعدت»⁽¹⁴⁶⁾.

بلاحت أن أوديب أصر على رؤية سيسوس قبل موته تلبية لأمر الرب، وحينما أخبر الله موسى بقرب أياه لكي يموت طلب منه رؤية يشوع. تقول التوراة: «وقال الرب لموسى هو ذا أمامك قد قريت لكي تموت... أوع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أرويه، فانطلق موسى ويشوع ووقفا في خيمة الاجتماع»⁽¹⁴⁷⁾ وعليه لا يمكن أن نشترط أن سيسوس يقابل شخصية يشوع.

لقد لفت القموض موت أوديب وفي مكان قبره قبر معروف وهذا واضح من السياقات التالية: الرسول: «أيها القواميس! استطاع أن أوحى في كلمة لي أريد أن أحوّل: لقد مات أوديب ولكن الظروف التي أحاطت بعمره والآيات التي ظهرت حوله ليست من الأشياء التي يمكن أن نقص في إيجاز...»

رئيس الجوقة: كيف مات الشقي؟ ألعنه على الموت أحد الآلهة فنحني في غير الجا...»

انتيجونا: ... ولكن الأحواء الجهولة أحاطت به واحتلته في موت غامض مجهول...

اسميثا: إنه مات وليس له قبر ولم يشهد موته أحد!

سيسوس: أيها القتاتان! لقد حطر على أوديب أن يعرف إنسان قبره...⁽¹⁴⁸⁾

ومما يقوي الافتراض بأن أوديب يشبه موسى هو أن موسى مات أيضا وقد أحاطت بموته حالة من القموض ويمكن قبره ليس معروفا أيضا. تقول التوراة: «مات هناك موسى عبد الرب في أرض مواب حسب قول الرب، وبغفه في الجواء مقابل بيت فقور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم»⁽¹⁴⁹⁾.

إن القموض في موت موسى أفكار التفسيرات عند الباحثين إذ يرى أحمد سوسة أن الحرب ما ابتدعه كنية التوراة عن موت موسى أنهم انهموا هذا الرموز الجليل كما انهموا أشاء هارون بخيانة الرب فماتهما بالموت، ومن هنا نشأت التفسيرات: هل مات موسى موتا طبيعيا، أم هل أمر الرب بموته حقا؟ ثم يسوق رأي الباحث الأثاني «سلون» بأن موسى مات شهيدا والمخالة

الكهنة استناداً إلى بعض الفطرات من سفر يشوع، وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذي اغتاله بعد أن استنصحيه إلى أعلى الجبل ثم عاد من موته ليعلن لبني إسرائيل أن موته كان شفيذاً لأمر الرب، كما يقدم استهجان انكار السقاف من كنية التوراة إذا شئ أن التوراة تعد موسى خالقاً، وبمعد ذلك كيف يمكن أن ينسب هذا الدين اليهودي إلى موسى؟، ثم يقدم أحمد سوسة رأي فريد الذي يوافق على استخلاص سلقين من حيث كون موسى قد اغتيل⁽¹⁴⁷⁾.

وبالمعنى إلى المسرحية ما هي أنتيجونا تشير إلى الصائب التي علت بها وباعثها قبل الخروج من طيبة وبعده من خلال الحوار التالي:

أنتيجونا - إني أذكر...

رئيس الجوقة - فيم تفكرين أيضاً؟

أنتيجونا - كيف نمرد إلى وطننا؟ لا أجد إلى ذلك سبيلاً.

رئيس الجوقة - لا تلمسي هذه السيل.

أنتيجونا - إن الشقاء لموطننا.

رئيس الجوقة - لقد كان يهبطكم أنما أيضاً.

أنتيجونا - لقد كان حبشاً شقاء لا مطرغ منه وهو الآن أشد استغلاًفاً⁽¹⁴⁸⁾.

وما هم بنو إسرائيل يهودهم الذي قبل الخروج بعدهم جميعاً قالوا لموسى: ... هل لأنه ليس قبور في مصر أخذتنا للموت في البرية، ماذا سيجد بنا حتى أخرجتنا من مصر؟⁽¹⁴⁹⁾. وبناء على ما تقدم ألا يمكن القول إن اغتيل أوديب، أنتيجونا وأسمينا، تشبهان شعب الخروج مع موسى؟ وما يبرز هذا القول: أن أنتيجونا وأسمينا قد طلبتا من إيسوس أن يبعدهما إلى طيبة بدليل قول أنتيجونا: ... ولكن ردنا إلى مدينة طيبة القديمة ...⁽¹⁵⁰⁾ وهذا يعني أن إيسوس هو الذي يتولى أمر الفتاتين بعد موت أبيهما أوديب، وفي التوراة تلاحظ أن يوشع يتولى قيادة بني إسرائيل بعد موت موسى ليدخل بهم إلى أرض الميعاد كما تزعم التوراة إذا ورد على لسان موسى: ... تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم الرب لأبائهم أن يعطيهم...⁽¹⁵¹⁾.

لقد وحى أوديب إيسوس قبيل موته أن يتولى شأن ابنته فانتلاً: «ضع يدك في ابنتي ابنتي- أتعصا يا ابنتي ضعها أديكها في يده...»⁽¹⁵²⁾، وما يقابل ذلك في التوراة: ... ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذا وضع موسى عليه يده فسمع له بنو إسرائيل وعلوا كما أوصى الرب موسى⁽¹⁵³⁾.

وأخيراً بعد تحقق موت أوديب خاطب رئيس الجوقة ابنته فانتلاً: «كنما لاكنما غناكنما الحزين. فإن هذا التوعد محقق لا شك فيه»⁽¹⁵⁴⁾ وهذا تشبه أحداث النص المسرحي ليس من التلافت للنظر أن تكون نهاية سفر التثنية التي تحدثت عن موت موسى نهاية المسرحية

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كورنثوس

نفسها؟ فكلاهما تتجهان بمناخاة حزينة. «فيكي بنو إسرائيل موسى في صرعات مؤازر كثرين يوما، فتكلمت أيام مكاء مناخاة موسى»^(١٧٤).

وبناء على ما تقدم من المرجح ألا يكون التشابه والتطابق والتحويل بين أحداث المسرحيتين والثوراة محض صدفة أو من ابتذاع خيال سوفوكليس.

الخاتمة

يتبين من الدراسة التشابه بين أحداث المسرحيتين وقصة موسى وطرهون التي تبديها في الثوراة وتحدثها الأسفار، الخروج والعدد والتثنية ويشوع سواء تأثر سوفوكليس بالثوراة نفسها أو بقصة شعبية مصرية أو يهودية أو كلاهما معا، أو من مصدر يوناني لم نعر عليه.

لكننا نرجح احتمالية تأثره بالثوراة كما اثبتنا سابقا ودليل ذلك هذه الدراسة على الرغم من أننا لم نعرش على نص يشير إلى أنه اطلع على الثوراة حيث تبين من الدراسة التطابق في نوات أحداث المسرحيتين مع قصة موسى وطرهون ورحلة موسى بيني إسرائيل مع مصر، علاوة على التماثل في تنامي سير الأحداث **بينهما، وأيضا هناك** تفاصيل دقيقة متشابهة بين ما جاء في الأسفار المبينة والمسرحيتين فعلى سبيل المثال المرحوم في مريت أوديب وموسى، وكذلك الفناء الحزين حين موت أوديب وألياسة إسمو وفداء موليكي فكيف ذلك كنهاية لمسرحية أوديب في كورنثوس، وكنهاية لمسرحية التثنية، وإذا نظرنا إلى الشخصيات وجدنا شخصية كرون البصير وثرهيمياس الأعمى في مسرحية أوديب ملكا تتباينان شخصية موسى صاحب اللسان القوي وهارون الفصيح اللسان كما ورد في الأسفار، وفيما يتعلق بالطفل أوديب وموسى بالاحظ التشابه في كثير من الظروف التي أحاطت بهما من ولادة، ومحاولة الإخراج من محضن الأسرة، وكيفية اشتغال الاسم، والتثني، وحادثة قتل كل منهما لنفس، والظفر بمكانة عليا، وأخيرا الخروج من الوطن والقوت الفاضل.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الباحث لا يستطيع استكشاف كل الخيوط والإشارات المتلفعة بتأثر سوفوكليس بقصة موسى وطرهون إلا من خلال دراسة المسرحيتين بشكل متكامل كوحدة واحدة، وعليه لم يبداه أحد من الباحثين لتأثره بالقصة التوراتية، لأن الدراسات ركزت على مسرحية أوديب ملكا مع أن أغلب الإشارات الدالة على التأثر واردة في مسرحية أوديب في كورنثوس، إضافة إلى ربط الباحثين المسرحيتين بالأسطورة اليونانية دون الانتباه إلى إمكانية ارتباطها بالقصة التوراتية والخطورة المصرية القديمة، فسوفوكليس في المسرحيتين على الأسطورة اليونانية، لكنه حوّل الشخصيات عمليا من واقع القصة التوراتية، ومن هنا وفي اكتشاف حقيقة عمله الأدبي قلنا هي الزاوية غير الثابتة بالنسبة للباحثين.

ولذا ينبغي إعادة النظر في دراسة وتحليل اتصال سوفوكليس بناء على تأثيره بالقصة التوراتية، إذ إنه امتلك قدرة على توظيف الشخصيات والأحداث بشكل درامي، وهذا لا يتضح إلا بعد دراسة ومقارنة معقدة بالتوراة على سبيل المثال تقول التوراة: «... أنا الرب إلهك إله غير اعتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من ميعضي»^(١٢٥). وكذلك: «ميتند إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع»^(١٢٦). وما هم أبناء أوديب نظاردهم اللغة المتوارثة من زمر لايوس والد أوديب، وهذا واضح من مسرحية أنتيجونا.



الهوامش والمراجع

- ١- عبد الرحمن بدوي، ١٩٩٦، ص ٦.
- ٢- إيليا العنوي، ١٩٨٠ (٢)، مرجع سابق، ص ٤٩.
- ٣- لويس عوض، ١٩٦٨، مرجع سابق، ص ٣٧٨.
- ٤- عبد الرحمن بدوي، ١٩٩٦، مرجع سابق، ص ٧.
- ٥- لويس عوض، ١٩٦٨، مرجع سابق، ص ٣٧٨.
- ٦- سوهوكيس، ربات نواحيوس (ترجمة وتقديم أحمد عثمان، مراجعة محمد حدي (إبراهيم)، سلسلة من المسرح العالمي العدد ٢١٩، الكويت: وزارة الإعلام، تحت النظر كلام الترجمة وتقديم، ص ٨.
- ٧- إيليا عادي، استيفولوس والترابيديا الأمريكية، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ (ب)، ص ٩١.
- ٨- إيليا العنوي، ١٩٨٠ (٢)، مرجع سابق، ص ٤٠.
- ٩- لويس عوض، ١٩٦٨، مرجع سابق، ص ٣٧٨.
- ١٠- سوهوكيس، تحت النظر كلام الترجمة وتقديم، ص ٩.
- ١١- محمد صابر خليفة، دراسات في المسرحية اليونانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٣٩.
- ١٢- إيليا العنوي، ١٩٨٠ (١)، مرجع سابق، ص ٤٩.
- ١٣- ملك حمزة، ١٩٨٤، مصدر سابق، (سوهوكيس) أوديب في كولودا، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.
- ١٤- فريدوش، ١٩٦٦، مصدر سابق، ص ١٩٩ - ٢٢٧.
- ١٥- لويس عوض، ١٩٦٨، المرجع السابق، ص ٣٧٨.
- ١٦- أمين سلامة، أوديسا هومروس، دار الفكر العربي، ١٩٦٧، ١٩٧٥، ص ٢٨٢.
- ١٧- كوكيت استيف، أسطورة أوديب (ترجمة: رولا المود، مراجعة: مناج الميمم)، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٩.
- ١٨- ص ٧٢، النظر الحروب في أوديسا هومروس (تأليف: مصطفى سليمان البستاني)، الجزء الأول، ص ١٩٩.
- ١٩- ص ٢٣، المأساة الضام، وكذلك ص ٢٧٢ المأساة الرابع، وأسطر الجزء الثاني، ص ١٩٩ - ١٠٩٢.
- ٢٠- المأساة الثالث والعشرون.
- ٢١- كوكيت استيف، ١٩٨٩، مرجع سابق، ص ٩ - ١٠.
- ٢٢- لطفي الحوي، معجم الأساطير، الجزء الأول، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠، ص ٧٧.
- ٢٣- لويس عوض، ١٩٦٨، مرجع سابق، ص ٣٧٢.
- ٢٤- لطفي الحوي، ١٩٩٠، مرجع سابق، ص ٧٧ - ٧٨. النظر روايات الأسطورة في: هذا، ديسيم، أساطير الإغريق والرومان، (ترجمة: حسني عزيز، عفا، دار الثقافة والفنون - الطبعة الأردنية ١٩٧٦، ص ٢٠٥ - ٢١٩).
- ٢٥- كوكيت استيف، ١٩٨٩، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٤، محمد عفيفي هلال، الأدب المشرقي، بيروت: دار العودة، الطبعة الثانية، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
- ٢٦- كوكيت استيف، ١٩٨٩، مرجع سابق، ص ٢٠ - ٢١.
- ٢٧- محمد بن أحمد المبروني، في تطبيق ماكتهد من مقولة مقولة في العقل أو مرشدة، خبير أباد: مجلس دارا للمعارف، الطبعة، ١٩٨٨، ص ٢٢٧، ٢٢٦.
- ٢٨- القصص، ص ٢٢٨، ٢٢٤.
- ٢٩- ميخائيل فريوت، ١٩٧٨، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٤.
- ٣٠- المرجع نفسه، ص ٢١ - ٢٥.

- 51- المرجع نفسه، ص. 26.
- 52- المرجع نفسه، ص. 26 - 27.
- 53- المرجع نفسه، ص. 31.
- 54- جيمس فريز برنارد، تاريخ مصر من القدم العصور إلى الفتح العربي، (ترجمة: حسن كمال، مراجعة: وليد صبحي محمد حسن الصغواني، دار: القاهرة مكتبة مدبولي، 1990، ص. 121).
- 55- المرجع نفسه، ص. 121.
- 56- عبد الحفيظ الشحرابي، أساطير إفريقيا، الجزء الأول، أساطير البشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 17.
- 57- زوت مكلف، الإفريق بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 218.
- 58- هلي عبد الواحد وهي، 1990، مرجع سابق، ص. 99.
- 59- طهي الطوزي، 1991، مرجع سابق، ص. 99.
- 60- د. أ. حمير، 1996، مرجع سابق، ص. 2-3.
- 61- محمد الطعي هلال، د. د. مرجع سابق، ص. 99.
- 62- خروج 1 - 2 - 3 - 4 - 5 - 6 - 7 - 8 - 9 - 10 - 11 - 12.
- 63- توكيد السيرة، 1989، مرجع سابق، ص. 78.
- 64- طعي الطوزي، 1990، مرجع سابق، ص. 99.
- 65- خروج 10 - 11.
- 66- طعي الطوزي، 1990، مرجع سابق، ص. 99 - 100.
- 67- عدد 938.
- 68- عدد 78، 9، 10، 11.
- 69- خروج 20 - 21 - 22.
- وبما نذكر الإشارة إليه أن خريطة طعي زوت في طرائف حوراني (1992 - 1993 ق.م) في بعض تفاصيله وهي، انظر الصفحة 100 من «طرائف حوراني» (الترجمة: محمود الأمين) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988، ص. 101. كما زوت هذه الخريطة في الأساطير المصرية فهذه الخريطة ترجع إلى الفترة البابلية القديمة (حوالي 700 ق.م) تتحدث عن احتصاب الإله أنليل من قريته الآلهة شليل وعلى أثر ذلك يلحقه الإله أنليل. انظر ديوان الأساطير ميسر وألفا واشور - (الترجمة: لطيف فاسم الشوافع، تقديم وإشراف: أبو حيدر) بيروت: دار الطلعي، 1997، ص. 87.
- 70- طعي الطوزي، 1990، مرجع سابق، ص. 99.
- 71- خروج 9، 10.
- 72- Josephus, Jewish Antiquities, Books I-I V, Harvard University Press, London, 1967 P. 253.
- 73- د. حسين، 1988، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص. 191.
- 74- المصدر نفسه، ص. 198.
- 75- المصدر نفسه، ص. 197.
- 76- المصدر نفسه، ص. 200.
- 77- المصدر نفسه، ص. 203.

- 76- إيليا الحارثي، 1960 (1)، مرجع سابق، ص 224.
- 77- طه حسين، 1961، مصدر سابق (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 216.
- 78- المصدر نفسه، ص 281.
- 79- إيليا الحارثي، 1960 (2)، مرجع سابق، ص 251.
- 80- محمد حسني إبراهيم، نظرية الدراما الإغريقية، القاهرة: الشركة المطبعة للنشر، 1991، ص 166 - 169.
- 81- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 291 - 292.
- 82- خروج 9، 28.
- 83- خروج 9، 31.
- 84- خروج 9، 34.
- 85- خروج 17، 18، 24.
- 86- خروج 19، 20.
- 87- خروج 19، 21، 22، 23، 24.
- 88- طه حسين، 1961، مصدر سابق (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 292، 293.
- 89- خروج 9، 34.
- 90- خروج 9، 34.
- 91- خروج 9، 34، 35، 36، 37.
- 92- خروج 9، 34، 35، 36، 37.
- 93- خروج 10، 34، 35، 36.
- 94- خروج 10، 34، 35، 36.
- 95- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 293 - 294.
- 96- خروج 9، 34، 35، 36.
- 97- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 294 - 295.
- 98- خروج 9، 34.
- 99- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 295 - 296.
- 100- خروج 9، 34.
- 101- خروج 9، 34، 35.
- 102- خروج 9، 34، 35.
- 103- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 296 - 297.
- 104- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 297.
- 105- خروج 14، 34، 35.
- 106- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 297.
- 107- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 298.
- 108- خروج 14، 34، 35.
- 109- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 298.
- 110- عدد 24، 25، 26.
- 111- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 298 - 299.
- 112- إشرا 24، 25، 26، 29.

- 113- انظر التماسيل في المجلد الثالث، فرعون موسى في كتاب: محمد بنوهي هوزار، مصر والشرق الأدنى القديم (3) مصر الجزء الثالث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1992، ص 124 - 130.
- 114- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 211.
- 115- كتب 7، ككتس، فرعون الحد والآنصار، ومسيح الثاني ملك مصر، (إكرخية، أحمد زهير أمين، صراخية، محمود ماهر طه) الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 201.
- 116- هريوطه، 1967، مصدر سابق، ص 298 - 319.
- 117- ويشول أحمد بدوي معلقا على هذه الرواية (ليس بعيدا أن تكون هذه القصة من أثر التعاطف السخيفة التي نشرها بنو إسرائيل حول صورة خضادج، التوجه نفسه، ص 328، الحاشية).
- 118- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 227.
- 119- كوايت إيتيه، 1989، مرجع سابق، ص 20.
- 120- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 221.
- 121- المصدر نفسه، ص 284.
- 122- المصدر نفسه، ص 284.
- 123- خروج 3، 4، 5، 6، 7.
- 124- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 204.
- 125- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 204.
- 126- المصدر نفسه، ص 211.
- 127- المصدر نفسه، ص 211.
- 128- المصدر نفسه، ص 212.
- 129- المصدر نفسه، ص 212.
- 130- المصدر نفسه، ص 212.
- 131- المصدر نفسه، ص 212.
- 132- المصدر نفسه، ص 212.
- 133- عدد 10، 11، 12، 13، 14.
- 134- خروج 2، 3، 4، 5، 6، 7.
- 135- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 208.
- 136- المصدر نفسه، ص 284.
- 137- خروج 11، 12، 13، 14، 15، 16.
- 138- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 208.
- 139- خروج 17، 18.
- 140- تلبية 1، 2، 3، 4.
- 141- طه حسين، 1985، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 208، 209، 210، 211، 212، 213.
- 142- خروج 2، 3، 4، 5، 6، 7.

- 143 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 219، 220.
- 144 - ثنية 1، 2، 3.
- 145 - ثنية 1، 2، 3.
- 146 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 219، 220.
- 147 - ثنية 1، 2، 3.
- 148 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 219، 220، 221، 222، 223.
- 149 - ثنية 1، 2، 3.
- 150 - أحمد مومند، فضل العرب واليهود في التاريخ، العراق دار الرشيد - منشوراته وزارة الثقافة والإعلام، 1961، من 222، 223.
- 151 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 222.
- 152 - خروج 1، 2.
- 153 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 223.
- 154 - ثنية 1، 2، 3.
- 155 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 223.
- 156 - ثنية 1، 2، 3.
- 157 - طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوقوكليس) أوتوب في كولومبا، من 223.
- 158 - ثنية 1، 2، 3.
- 159 - خروج 1، 2.
- 160 - خروج 1، 2، 3.

ARCHIVE

سينما المعتقل

أ. سمير صالح*

مقدمة

يشير استخدام مصطلح معتقل لوصف سينما أخرى يستدعي التوقف كونه يجعل في طبيعته مضاعفة نقدية سينمائية تتعلق بطبيعة هذا المصطلح وحقيقة الظهور القريب في السينما الغربية. وفي البدء يتبادر إلى الذهن السؤال:

هل سينما المعتقل سينما سياسية؟ وبأي معنى؟ وهل يمكن اعتبار كل ما يصور وبه ظلال سياسية على أنه فيلم سياسي؟ أم هي سينما ظاهرة وجدت في سياق المناخ المغموم ثقافياً وسياسياً ومن خلال تصفية الحسابات مع مراحل سياسية تغيرت معالمها وتبدل رجالها، فلم تختلف عن نبوية الفيلم السائد وأضحت بها السياسة إقحاً؟

حين نشير إلى التباسات المصطلح فلأنه يلامس مشكلة حساسة من أدنى مشاكل الإنسان العربي المعاصر، ويتعلق فيه انعدام حرياته وبمستوياته المتعددة لعل أهمها حرية الرأي والتعبير، وحرية العقيدة والفكر والانتماء، ولأنه يبحث وينطلق من المفاهيم الجوهرية، حقوق الإنسان التي أقرتها الشرعية الدولية وتعارف عليها المجتمع الدولي.

ودور الأمر حول مصطلح سينمائي يرمي إلى التمييز بين ما اصطلاح على تسميته (سينما سياسية)، وبين (سينما المعتقل)، ويجب أولاً تحديد مفهوم المعتقل ودوره كما هو مطروح لديها، خاصة وأن الفيلم الاعتقالي حاول على وجه الدقة إخفاء أهدافه بمحاولة عرض نفسه ككثيران شغاف مفتوح على عالم واقعي.

والإشارة إلى أن تاريخ الفيلم السياسي في مصر هو تاريخ الفيلم المصري ذاته، حيث نشير إلى فيلم (سعد زغلول) عام ١٩٢٢ على أنه أول فيلم مصري في القاهرة. فهي إشارة ذات دلالة.

وعلى مدى تاريخها فإن السينما المصرية لم تكن بعيدة عن التأثير بدوحة الأفلام السياسية التي سادت العالم، فتلقفها وصنعت أفلاما خاصة بها حوارية ومباشرة.

والفيلم السياسي كمصطلح أصبح رائجا في نسيج الكتابات النقدية السينمائية كونه أحد أوجه النشاط الدرامي أو التوعوي في تناول ظاهرة معينة تهتم إسقاطها على ما يجر داخل المجتمع من نشاط أو صراع اجتماعي محلي أو مستتر.

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح يشابه الكثير من التناول، فيه للتداخل والتمازج الأراء، تتعارض وتتفاضل، تشترق وتقترب، فهناك من ينفي وجوده واعتباره نسقا فليما لا يختلف من الأنساق الأخرى بتصنيفاتها المتعددة، وبالتالي لا يمكنه أي فريدة للنظر إليه في السياق النقدي برؤية مختلفة عن الرؤى التي تتناول الإعلام الأخرى.

إن هناك من يعتبر أن كل شيء في الفن سينمائي مركزا إلى أيديولوجيات المجتمعات المختلفة، وتسويق هذه **الأيديولوجيات بالعام، وأشكال مختلفة** من خلال البنى الفوقية. وبالتالي لا يعزل الفن عن هذه الأنماط التي تصب في **الاتجاهات الأيديولوجية المسيطرة**. السينما المصرية لم تكن بعيدة عن هذا الصدد النقدي، حيث برزت الكتابات العديدة التي تناولت هذا الموضوع من جوانب مختلفة ويرى مناقشة متصارعة أحيانا، تؤكد وتلبي هذا المصطلح، وتدخل بؤر شائكة ومسورة بحقول الغام.

وإذا كان الفيلم السياسي يواجه مشكلة معينة، يكتشفها ويبررها ويبحث عن حل لها، وبإلي الحلول تنفرع عن المشكلة الأساسية وتدور حولها، فإن المشكلة الأساسية التي تحكم سينما المعتزل هي معالجة الاعتقال التعمسلي، ومن هذه النقطة يتم الافتراق ما بين السينما السياسية وسينما المعتزل، من خلال طريقة معالجة هذه القضية الحاسمة والشائكة، وطريقة التعبير عن طبيعة الموقف من هذه الممارسات. إلا أننا نلاحظ أنه حين تتم معالجة هذه القضية ويبدئ الاعتقال سينمائيا فإن الهدف ليس البحث عن دلالة الاعتقال في الأفق السياسي المطلق، وليس التنقيب في نسيج المجتمع عن التغيرات التي أضحت إلى مثل هذه الممارسات، ولا تكثيف قهوب الأنوار والمؤسسات القانونية والجماعية التي يمكن لها - وإن أخذت دورها الفعال والحقيقي - أن ترفق آلية هذا النمط من الفعل السياسي. فلنصاره ولتشمه، وذلك ببناء مجتمع سياسي لا اعتقالي يحمل فسحة التمازج والتلاقح بين القوى السياسية والفكرية المختلفة. إضافة إلى أن هذه السينما لم تأت بجدية على صعيد اللغة السينمائية.

إن هذه السينما جعلت في داخلها بنى فنية متعددة، ولكنها خاصة ببنى واحد متقاربة. وهنا يمكن السؤال: كيف استطاعت أن تحول هذا النص الواحد لعدد من التكرارات المتفاوتة الانتظام فتتجاوز طاقاتها وتقترب من نوع خاص بالسينما المصرية دون غيرها من سينما العالم، فترسي دعائمه وتتميز به حيث تتشكل سماته الجمالية - السياسية، ومقاييس لا يستطيع المخرجون الخروج عنها حتى مع تغير المراحل التاريخية السياسية ومرور عقود على الظهور الأول لأفلام سينما المعتقل؟

فيصبح فيلم الكرنك هو الخيط الناظم لجميع هذه الأفلام، وإن اختلفت توجيحاتها وثباتت أبعادها. وبداية يمكن القول إن سينما المعتقل هي تلك التي نضم أفلاماً تعتمد هي محوراً حدثاً على المعتقل السياسي كشكل محدد يتم من خلاله تناول مرحلة سياسية وثأرية، ومن هذه النطقة تتداخل سينما المعتقل مع السينما السياسية داخل جزيئها في الشكل فقط من حيث محورية الحادثة بمضامينها السياسية، ولكن يفتقر عنها هي الجوهر من خلال تناول هذه الحادثة ووصف شخصياتها البوليسية والتأكيد والتركيز على السرد البوليسي، وهنا نشير إلى أن السرد البوليسي لا يصلح لفيلم سياسي الفاني يتناول الحادثة مدخلاً لمضجع القوى والاتجاهات التي تتحكم فيها - **والوصول للتحليل - ويعمل -** آليات المجتمع الذي ينتج هذه الاتجاهات، فيما سينما المعتقل تعالج وتؤكد، وهذه هي لغة التوقيع برؤية تعتمد على المعتقل السياسي شكلاً محدداً لتبليغ مرحلة سياسية معينة. وهي أفلام خاصة شكلت وتشكل نموذجاً محدداً لتكريس صورة منطوية تفرس في ذهنية المثقف لرسم شخصيات المعتقل، هذا الأمر الذي فترتب عليه رؤية الكمية التي بُعث بها العالجة السينمائية للمعتقل، وهي حقيقة الأمر قد يكون مصطلح سينما المعتقل إشكالياً، إذ لا توجد دراسات أو أبحاث في سياق السينما العربية. تتناول هذا المصطلح، تؤكد أو تنفيه، وبالتالي قد تأخذ هذه الإشكالية مداها خلال النقودات اللاحقة التي تتناول منها أو منهجيات مختلفة لدراسة هذا النوع من السينما التي محورها المعتقلات السياسية. لاسيما وأن المعتقل بشكل مدخلاً للإشارة إلى دلالاته المتعددة في سياق حركة المجتمع وصراعه الاجتماعي والطبقي حيث التناقض بين الفرد والسلطة الحاكمة بما تنطوئ من آليات وبنى وهويات. وبين الأحزاب المعارضة والطبقات والفئات الاجتماعية المستحقة من جهة أخرى.

بين الشريحة الحاكمة العززة بأدوات القمع والسلمة بالأوامر والتواهي التي تسنها بما يقدم مصالحها ويكرس بقاها في السلطة، وبين جموع الشعب.

هذه الدلالات التي تقود بالضرورة إلى العلاقة القسرية بين السلطة والشعب، والضرورة بالأنظمة والقوانين والتشريعات. وتتناول بنية النظام من الناحية الأخلاقية والتشريعية ومدى الإسهامات في تطبيقها - اقتراباً أم ابتعاداً - وبالتالي نستطيع تحديد مدينة المجتمع الذي

تتناوله هذه السينما، حيث لا تأتي مدينة أي مجتمع إلا بوجود مؤسساته المدنية التي تتحكم في نظمها الداخلية والمستقلة عن آليات السلطة.

ومن خلال هذا التحديد نبحث، هل قامت سينما الممثل من خلال موضوعاتها المختلفة بتركيز عدستها لتضج صرخ التفتيقات المطبوعة وتسويقها لها المفترضة حول الديمقراطية المزعومة؟ وهل اقتصرت في سياقاتها من إثارة السؤال الجوهرى أين يقف المثقف من فكر السلطة وأطروحاتها؟

وبعيدا عن فصح المجال للقول أو الاكتياس، نشير هنا إلى أننا نتناول أفلاما محددة بذاتها تأخذ من خلال موضوعاتها علاقة الفرد بالسلطة مع التطبيق في أسطورة القول، وأبعاد التي اعتمدت على صورة بصرية مثقلة بالهواجس والتعاطف الإنساني لتعبر موضوعاتها ومقرراتها، واتخذتها منهجا لإعادة رسم ملامح فترة سياسية محددة من خلال وجهة نظر خاصة مسجلة، هذا مع الإشارة إلى أننا لا نضع جميع أفلام الممثل في كفة واحد، وحتى لا نخوض في التصميم فإننا نشير إلى أن هناك نمطين في التعامل مع هذه القضية، فهناك بعض الأفلام كان الدافع الأساسي في العمل فيها هو تصوير الخلل القائم لعلاقة الفرد بالسلطة، ومحاولة الإشارة إلى أهمية العودة لأصول الديمقراطية حيث نمت بإسراع انقضاء البناء والذي يشير إلى بعض المسائل التي يجب أن تحدث كنموذج للتعامل بالسلطة مع الآخرين. بينما نرى في الجانب الآخر أفلاما اعتمدت على شكلانية أطروحاتها كدين وأما محمد بناته أنكر دائما فيلم (الكرنك) ١٩٧٥ لعلي بمرغل وهو الذي شكل البداية لهذا السيل الجارح من الأفلام.

فيلم (وراء الشمس) ١٩٧٨ لحمد راضي، (السياد وعبيد) ١٩٧٨ لعلي رضا، (أحنا بتوع الأولويين) ١٩٧٩ لحسن كمال.

إضافة لأفلام مثل (آه يا ليل يا زمن) ١٩٧٧ لعلي رضا، (امرأة من زجاج) ١٩٧٢ لنادر جلال، (ظائر الليل الحزين) ١٩٧٧ ليهيى العلي... هذه الأفلام التي تنحو إلى تصوير الممثل النفسي بشكله الرمزي، تتناول مراكز القوى وممارستها لتفوقها اللامحدود، فتحتل الممثل المهيمن وصولا للأثر السياسي نفسه الذي تركه لدى المتفرج.

والتماذج التي ذكرناها، التي سبقت جميعها عام ١٩٨٠، تقدم نفسها على أنها سينما كلية المعرفة، وتحاول وتجهد بالزور أكثر مما يحتمله النص، وأكثر مما تعرفه الشخصيات، وأكبر مما يتسع له الواقع نفسه، وأفلامها تنطوي على ثلاثة عناصر: الممثل، مراكز القوى، المؤسسات التنضائية المدعومة مع هذه العناصر والتي تدعم عمل هذه الروايات.

الاعتقال من وجهة نظر هذه الأفلام يعتبر السمة المميزة بل والسمة الثورية الوحيدة التي سمحت بها المرحلة السابقة، والدولة بالاعلى التفتيق لهذه الكلمة هي الرأىية لهذه الوحدات العضوية التي تؤسس للمحتلات.

سبعاء السبعينات

واللوحة الأولى تبدو هذه الأفلام بأنها تعري وتكلف وحدة المجتمع وإنجازاته الموهومة والدعائية، وبالتالي فإنها تلجج حقيقتها الشاملة وتقدم نفسها بمعرفتها سطفاً كواليس السياسة والأجهزة والقوى المتنفذة.

هذه السينما لا تثقف عند حدود التأمل، ذلك أن مشروعاتها الأساسية ويعلم ظهورها والتواظف على عرضها تجلي بما هو أبعد من ذلك، حيث تخرزل الصراع ونجهد بالقول إن التقارير للفتنة والمزورة هي العامل المحرك لسياسة المخابرات، ويسرودة كلاسيكية ذات مقام هش فتحاول الإقناع، وبشكل غير ظاهر، بأن المعتقدات قد صورت البلد بأنفسه؟ وبمقتنا هي الجانب الآخر أن نرى أن هناك سينما معتقل أخرى تقول بما تصورت أنه عدد من خلال وجهة نظر خاصة تنطلق من المؤامرات والمخارج، ولكنها وإن تستعيد مضامين ظاهرة سينما معتقل السبعينات إلا أنها تتترك هامشاً للتأمل وتفسحة للمعوار على الرغم من انحصارها لرويتها (مع أو ضد).

ولذلك منها فيلم (البريء) ١٩٩٦ لعاشق الطيب، والصندوق التأسرية والورد المتأخر جدا بفيلم (التهامة) ١٩٩٦ لعماد النجار وفيلم (قانون الكاكا) لأشرف فهمي ١٩٩٩، وفيلم (دماء على الثوب الأبيض) ١٩٩٥ لحسام الدين مصطفى، وفيلم (التحويل) ١٩٩٦ لأشرف فهمي.

هذه السينما تعهد وبإصرار لا يترك على استهانة وتجاوز تلك البترة، وبمعاربات وإن كانت جديدة ومختلفة عن سينما السبعينات من خلال محاولات الكف على طلف الأزمات والتصويه على الزمن الحقيقي للأحداث الدائرة، ومحاولة السير تحت راية ما يسمى بالكثافة والرجعة النقدية والتاريخية، إلا أنها لا تستعيد عن حدود رسم تصاميم العمل الخاص بهذا النوع السينمائي التي أرمى دعامتها فيلم (الكركند).

وبمقتنا الإشارة إلى أن سينما المعتقل وإن تواصلت على المستوى التاريخي مع مرحلتين تاريخيتين تماثيت خلاهما سلطانان سياسيتان على الرغم من أن كلا منهما اعتماد للأخرى، وإن هذه الأفلام محل الدراسة قد اتحت وعرضت خلال ثلاثة عقود، وعلى الرغم من أن هاتين السلطتين السياسيتين قد اختلفتا في الأوليات والتهام، وكان لكل منهما أولوياته السياسية والثقافية، فإن الخيط الناظم الذي حكم ظهور هذه السينما بقي كما هو ولم تتبدل مهامه وأولوياته، ولم تغير رؤيته للمرحلة التي يتناولها، وهو ما يشكل علامة استنهاض هائلة لحقيقة هذه السينما.

إلا أنه ومن خلال البحث والتأمل والاستقصاء نجد أن سينما المعتقل قد العثمت على المكان السينمائي كمعيار محدد للإشارة وبصفة عامة إلى اتهام الماضي وفتح نوافذ المستقبل، حيث إن المعتقل هو المكان الدرامي الذي يصوغ مجمل أحداث متعددة، ويتلوها بمختلفة، ويتسلق بموضوعه المحوري، وإدانة المرحلة السياسية من خلال تصوير ما يدور خلف الجدران

من تعذيب وسادية مطلقة، هنا نستطيع القول إن سينما المعتزل المصرية التي تناولت حقبة سياسية مشخصة المرحلة الناصرية، قيمت نفسها على أنها داعية لمضج كاثوية هذه المرحلة. تحت شعارات مختلفة كالموضوعية والكشفية ووقت التجاوزات، ومن دون أي التباس كانت هذه الأفلام تتناول مرحلة الرئيس جمال عبدالناصر، بما هي مرحلة مثيرة للجدل، حصل من خلالها لمص كثير. فعمدت هذه السينما إلى تطويع المرحلة من خلال تناولها وفق منظور رأبوي وحيد مع اعتمادها على أشكال مختلفة تبعا لاختلاف المصالح والأهواء السياسية. هي هذه السينما ثم التصاق والعمل لإنجاز عدة أعمال هدفية، ومن خلال تسويقها، الحصول على إمكانية فتح ثغرة في الوعي الجمعي، قبل فوات الأوان وبإسراع منقطع النظير. على وسم تلك المرحلة بالمار والديموقراطية السادية للفرقة هي حب الذات، لتضج هذه الأفلام بالكلمة الهائلة من الأناك، ومقولات التعذيب التي تتركس بحفلات تعذيب يشتمل منها الثقافي فينظر وتكرب من بين يديه جميعية تلك المرحلة. بأعلامها التي اجتاحت المحيط إلى الخليج، يندور الرأى التي شكلت للأحمر والمضامد سمع هديره هي شتى أصناف الوطن العربي. عشتك فيها شكلت واقعة نهضوية للفكر القومي ورأى عربية وأحدا تطلعت في النورس والوجدان. فكر حميد من هو الصديق ومن هو العدو وطرق الاختيارات بينهما.

عما ينضى لتساؤل أساسي: هل نهضت السينما ومطرحوها حيال فكرتها عن المعتزل يرمته بما هو أرضية للوضوح للصراع السياسي؟ هل خريطة نهضت لعبة السياسة وعلاقتها الاجتماعية والجزئية؟ هل عشتك على هذه الرأى لم أن الهدف من ذلك هو ماروب وأغراض مستترة بعيدة عن المحتوى النيمي الأخلاقي لموضوعاتها التي تناولها؟

إن التفكير السينمائي للمعتزل قد حكم برؤية وحيدة الجانب، ويعتقدون يرى انعدام إمكانية الحل، ولا يملك ولا يرضى في تحميل طرق أخرى للحل، ويعتني أدق لم يعمل على ابتكار حل خاص به بل اكتفى برسم صورة واحدة تمت استعارتها عن وهي، ينظر بشكل ضامض من خلال أكثر من فيلم لساعة المعتزل بالعكاساته الأمنية فقط.

نجد أن هذه الأفلام تواصل فيها بعد، تولد مفادلات الصراع السياسية المتعلقة داخل المجتمع وفق منظور خاص، الاتيماز السياسي والأخلاقي للنظام الذي ظهرت هذه الأفلام هي طله، وعلى هذا الأساس سيبدو الموضوع، لا باعتباره موضوع تافه سياسي، يعتمد الواحدة والصدام الاجتماعي ذا الطابع الأمني، وإنما بصفته الإشكالية التي تتجم من خلال حوادث عرضية أو موجهة، يمكن تسويقها بإهداء أقصى قدر من التفهم للعاير، وهي السياق تقسمه نجد أن سينما المعتزل لا تقدم أي إسقاط تقديري للسلطة السياسية التي انجزت الأفلام هي مرحلتها. حينما تخصص الكيفية التي جرت بها مقاربة السياسة سينمائيها هي لحظة تحقيق الأفلام وخروجها إلى الجماهير، نجد أنها تطرح فكرة الشراكة، مناوية ذلك أن حلولها توفيقية

تصالحية. الأمر الذي يعني الاستعداد الفعلي لمشاركة القنصل السياسي في خططه ومواقفه. وإذا ما عني أن تحديد جميع الظواهر السياسية والراهنة وتنصب على الجانب الأمني فقط. خاصة وأن السلطة الجديدة كانت في موقع القرار هي السلطة السابقة وخرجت من رحمها؟

هذه الرؤية المثبسة لا يتم النظر إليها على أنها مجرد حكاية سينمائية لتناول فترة تاريخية محددة بل كإشارة سياسية على الإمكانية الفكرية للتحقق بين يدي السينمائي لتقارن النظام الجديد، قبلًا مولية يكتب المخرج محمد راضي هي إعداده فيلمه (وراء الشمس) 1978 بأن موضوع فيلمه: (قضية الحرية في كل زمان ومكان ولولا مناخ الحرية التي تعيشها مصر ثورة التصحيح، لما شاهدنا هذا الفيلم الآن). في إطار هذه الرؤية لتكشف إشكالية اجتماعية سياسية. هي النظر إلى ركن أساسي لتحقيق إنسانية وهو الحرية ومدى مطابقة هذه الحرية لتحقيق مفهومها التاريخي في الاستخدام الحقيقي، كمحور ناظم في التعامل مع الآخر. فإذا كان المخرج قد بسط سلطته على مدى المساحة الزمنية لفيلمه. تحت لافتة هذه المفردة لتعزيز رؤيته الفلسفية. فإذا نرى عكس ذلك عند د. حسن حنفي حين يرى الحرية، (إنما تعني القدرة على التفكير الباطني دون أثر للقوالب الذهنية المبرمجة على المجتمع. كما أنها القدرة على التحرر من الخوف الدخاني حتى يصبح الإنسان هو ذاته لا غيره. وإن يكون مظهره حقيقته. وأن التوحد شخصيته فاضيا على (الأنانية التي يعاني منها في حياتنا المعاصرة. ومن جانب آخر تتضمن الحرية القدرة على التعبير عن الرغبات والاحتياجات الجبرية من حيث هي القدرة على الاتصال عن الشائع وإشاعة النص من المعارف عليه والعودة إلى الذات الحرة الأصلية التي تصيغ المسائل منذ البداية)¹. ومن هذا المنطلق فإن الأعمال الفنية ليست مجرد نسخ من الواقع وإن الصدق الفني مدام يتخلل كون الفنان يجود الظاهرة الحياتية عما هو ظاهري ومصادف وبمعناها فيكشف عن العلاقات والروابط الخفية بين الأشياء التي يصورها. هنا يحل التعديت عن الحرية التي جسدها المخرج محمد راضي إلى اتجاهات بينت التناقضات التي عكسها والتي حاولت تصوير لوحات من الحياة مما يطرح على بساط البحث المسائل الملحة في المجتمع. وهذا تتعامل عن مدى صدق فهمها لظواهر المجتمع. هل تطابقت الفكرة المتضمنة موضوعها في العمل الفني مع ميول الإنسان الطبيعية والتي تستوجب لحاجاته الملحة. أم أنها مضطبعة تشا بفعل تلوينه طبيعة الإنسان في ظروف اجتماعية غير طبيعية؟

وكذلك نجد المخرج أمالي بنيسي عند تقديم فيلمه (التوبة) يقول: (إن هذه الحكايات تمت لوقف تجاوزات حدثت في زمن سابق). يشير السؤال عن التجاوزات إلى اتجاهات السياسة وتحسينها بمحاكاة مرحلة بذاتها أخذين بعين الاعتبار أن الناصرية وحركة الرئيس جمال عبدالناصر. بصفتها ثورة قامت على القضاء للملكية والفساد الذي امتدشوى في عهد الملك فاروق. قد حيدت بعض الطبقات والفئات الاجتماعية عن مواقع النفوذ والسلطة. بل

والتحقت بها الأضرار الفادحة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. هذا التجهيد ومن ثم الاقتصاد سينمائيا من الدور الذي لعبته الناصرية في تهميش البعض للسيطر تاريخيا كان الدافع لهذه السينما. هذا يؤر السؤال كيف عملت سينما المعتقل على كشف التجهيد ومن ثم محاولة الناصرية كشفها وقضائها بشكل إبداعي يزيل الحجب عن الواقع ويرصد تغيرات المجتمع وحركته. ليس عكسا فهوغرافيا ولا حوارا من جانب واحد. بل محاولة تشكيل صورة تعليمية تعتمد مقوماتها من الواقع وتخلق فضائيات تشمل الجانب الإنساني كافة لمصبح الخاص هو العام، الذاتي هو الموضوعي، المحلي هو العالمي.

ويحق لنا أن نسأل بهذا الصدد هل كانت سينما المعتقل بشخصيتها ومفرداتها وأفنها السينمائية ووقاتها ضرورة مجتمعية إبداعية وثقافية ملحة جدا بحيث لا تحتلها خيرية أو اثقارة أم أن الاتجاهات الرافعة للسلطة السياسية الجديدة فرضت توجهات في الاتجاه الواحد لتناول هذا الموضوع ذي الصلة الحساسة وبمقياس ينجمه لوصف المرحلة السابقة بالكارثية؟

لقد كان فيلم (زائر الفجر) للتصريح معدود شكوي في السبعينات من أوائل الأفلام التي حاولت معالجة مسألة التجمع السياسي. غير أن الفيلم لم يعرض إلا بعد سنوات من إنتاجه وبعد أن دخلت الرقابة وقررت تعميم الكثير منه، وربما أن مصير الفيلم كان عبء أثرت على ما تبعه من أفلام حاولت الدوران في القيد نفسه واستغللت من وضع سياسي محدد سمح بوجودها ضمن الحدود التي أقرها وكان في ذلك مغرقة بسبب أن السينما التي حاولت طعن عمار القواضيع السياسية ومن منظور فني هي صنعت لرقابة شديدة هففت وشوهت كما حصل مع فيلم (الهارب) لكمال الشيخ الذي لم تسمح الرقابة بمرضه إلا بعد تعديلات أدت إلى مسخه كلها. البلاط تظهر أن معظم الأفلام التي تناولت مسألة التجمع الذي تمارسه المخابرات وجدت تعاونا من قبل الرقابة ذاتها، ذلك أن السماح بالحديث عن التجمع ومراكز القوى كان يعني بالضرورة وبالشكل الذي أنجزت فيه في هذه الأفلام، بدا من (الكركند) وانتهاء بفيلم (أحنا بنوع الأوثومين) عام ١٩٧٩ أصبح كمال، مجموعة هذه الأفلام التي تم إنتاجها في عصر السادات شهدت بأنها موجهة ضد عبدالناصر ذاته^{١٢}، وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل كانت سينما المعتقل بريئة المواقف وهي تعمل على نفي الأحلام البريئة... أم هناك نزوع مضمر نحو التصالح مع السلطة الجديدة؟

بعد هزات الثقة والاسيما بعد هزيمة حزيران وهي ضوء ذلك النزوع، وبدلا من أن يكون السينمائي في الموقع النقدي الحقيقي، وجد نفسه متماثلا مع شروط السلطة مغارلا لها بأن تلك السلطة التي عملت جامعة ومنذ بدايتها على تضخيم المسألة الأمنية للمعسر السابق ووضعت التحفظات على دور المسألة الأمنية ومؤسستها برؤية لا تتطرق من النظر للإنسان بوصفه الإنساني الحضاري، وإنما بإصرار لتكون هذه التوعية من السينما نموذجاً

سيرة الفنان

يحدثني به ويتوجب العمل على تسويته اثره فيما بعد عن محمل مكتسبات المرحلة تلك. بهذا المعنى تفسر ظهور الوثائق المصادرة في بداية فيلم التحويلة وهو يقوم بالإشراف على حرق التقارير الأمنية والتسجيلات الصوتية للمواطنين المصريين. وبهذا المعنى ترى تجاوز فيلم (الكريك) مرحلته ليصل إلى مرحلة المصادرة، كما تشاهد أكثر من فيلم يقوم بإصرار لافت وهو يشير إلى التغيير الجوهرى الحاصل جراء ثورة التصحيح ويستطوع أن نجد ذلك في فيلم (أه... يا ايل يا زمن) للمخرج علي رضا. ففي حوار الإفتاح هائل بطلا الفيلم والتي تؤدي دورها الطويلة وردة نسمع محمود شوقي المسؤول والذي يؤمن دور وشدي أمانة يقول لها: (في إمكانك لرجعي مصر. وعيشي زي كل الناس. مصر حصل فيها ثورة. ثورة تصحيح. قضت على كل مراكز القوى التي كانت بتظلم الناس). ويناقح.. (السيادة النهار ده للشاوين. وكل مطلوب ممكن يشتد حقوقه من طريق القانون.. والثورة مسؤولة عن إتقلا كل الجرحى). أي (حركة التصحيح).

والدكتور فهمي يتعرض للاعتقال وتشويه سمعته وهدم عائلته من قبل الضابط فهمي لاحتلافه في الرأي معه بعدما يقوم بشراء ضمانات لبعض وإساق تهمة صدم أحد المارة وقتله مع أن زوجته هي من قاصت بذلك. في فيلم (أمراء من زجاج).

أما الخلاص لمائل المحكوم عليه بالإعدام بتهمة قتل وهو بريء منها فإنه يأتي إليه من خلال انفجار ثورة التصحيح حيث يخرج معه فتكون (أه... يا ايل يا زمن) (أطائر الليل الحزين) المخرج يحيى الطنسي بالعهد الجديد وأصحة المعنى.

بينما يعبر الثوري أحمد على التوقيع على شهادة طبية تثبت عدم وفاة عماد صديق أحمد بالجماعة السياسية تحت التعذيب والمقتل بل بصورة طبيعية مقابل الإفراج عنه. فيعرض تحت تهديد رئيس المخابرات ويخرج. وذلك في فيلم (أسود وهيب).

بينما تحاول الطائفة السابقة والأستاذة الجامعية لمادة القانون إخراج الدكتور حسين مرسي من حالة الهذيان بالإشارة إلى أن المرحلة السبعة الذكر والمليحة بالقصع والوحشية قد ولت إلى غير عود. وإن المرحلة الآن هي مرحلة الإنسان وحقوقه والنظر إليه بشكل آدمي وذلك بفيلم (قانون ليكا).

وبالمصادرة إلى تقديم محمد راضي لفيلمه (وراء الشمس) وما يشير هذا التقديم من الاتساق في جوهر الإبداع ومواقفه المتغيرات الديمقراطية ومناعتها الحقيقية. نجد أن للإبداع معانير مختلفة. فالتكسندر روشكا. يعرف الإبداع بقوله: (يمكن اعتبار الإبداع خلق تعريف مبرمج. بأنه الوحدة المتكاملة لتجموعة العوامل الذاتية والوصوعية التي تقود إلى إنتاج جديد وأصيل. ذي قيمة من قبل الفرد أو الجماعة فالإبداع بمقتضى الواسع هو حلول جديدة للأفكار والمشكلات)¹¹.

وسواء كان الإبداع فرديا أم جماعيا، فإن الديمقراطية أهم شروط تحقيقه، ويتناول الديمقراطية نجد ارتباطها التاريخي الوثيق أو المباشر بالدولة والنظريات السياسية، حيث جاء عنها في الموسوعة السياسية: (إنها نظام سياسي اجتماعي. تقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدئي المساواة بين المواطنين، ومشاركتهم الحرة في صنع التشريعات، التي تنظم الحياة العامة)⁽¹⁾. وأساس هذه النظرية يعود إلى البدا القائل إن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية، وبالتالي فإن الحكومة مسؤولة أمام ممثلي المواطنين وهي رهن إرادتهم). ويرى الدكتور حسن حنفي أن الديمقراطية هي: (احترام الرأي الآخر والاستماع له وعدم تكفيره وإدانته، والرشاشة به لدى المنظمات وكناته خيانة عظمى، والاعتراف باحتمال خطأ الذات وإنها قد تنطو من الآخر)⁽²⁾.

وعلميا فإن أي بحث نظري في الديمقراطية، هو بحث في طبيعة الدولة وجوهرها، حيث واقع التقسام المجتمع إلى حاكم ومحكوم، إلى فئة تسيطر على مصطلحات اتخاذ سلطة القرار، وأخرى يتوجب عليها الالتزام بالقرارات والسياسات التي يتم إقرارها، وبالتالي هل كانت سينما المنقول بكونها سينما ذات مضمون سياسي، تبحث القضايا التي تتعلق بجوهر التنظيم الاجتماعي من حيث هو موضوع **جمل وخلاف، مثل طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم**، أو من حيث أساس الطاعة السياسية العمياء الفرضية، وإبعاد هذه الطاعة في الفواصل والقواطع التاريخية من استقلالية **التطور على التوالف**، وهي الأساسية مما يفرض بها إلى الصدام والمواجهة.

فئة الشخصيات

التمذجة هي سينما المنقول تتم عن طريق إبعاد الصفات الفردية وتلاونها المختلفة، وتشبيك جانب واحد من جوانب الشخصية، وينتججة التجريد هذا لا تبنى سوى صفة واحدة من صفات

الشخصيات، مثل شخصية المعتقل الطيب وضابط الأمن الشرير، وهي سينما المنقول سوف تتكرر هذه الشخصيات باستمرار وتبسيط شديد حتى درجة السذاجة، حيث تجعل الناس إما طوبى أو شرار متفتحين، وتجعل سياقات الفلم بعينها تنحو هذا النحر، الذي يفقد الدراما مصداقيتها حيث يتم رسم الشخصيات وتأثيراتها بالتسلاخها عن سياقاتها الاجتماعية. وإن حدثت في إطار اجتماعي، فإنها تقدم بصيغة محايدة تعزل النزعة الانسلاخ، بإبعاد، يحاول أن يثبت ما يعنيه المجتمع المذكور من تعبط واتهامات، وتتجسد دائما شخصيات الفلم المحوريين: المعتقل الذي هو على الأغلب طالب جامعي أو أستاذ جامعي، وضابط الأمن، وتداول بينهما شخصيات هامشية. لا تلعب دورا مؤثرا هي رسم الخطوط الفاصلة للعمل

الفني حيث نجد العسكري أو المهندس، أو الزوجة أو الأم وغالباً ما تكون هذه الشخصيات ذات مناهب اجتماعية مسحوقة فتجدها بسيطة وإنسانية في تصرفاتها. والشخصيات الفلمية هذه تمتد بشكل يحمل في طياته الثبات من البداية للنهاية، فيما يمثل من الصورة الأولى هو كل الدور وكل البطل، وإن لمع الصور اللاحقة هي إضافة ملمع جديد بعيداً عن الاكتشاف والتأثيرات والاعتزازات التي تلمس في النفس والتجربة التي تصقل. حيث نجد أن المثالي يبقى على مثاليته، خلال الفيلم بكامله، والشهير يبقى على نزاعه السائدة مستلهما منها الصفات العذابة، هذه الشخصيات تشعر بأن العمل لا يقى أي عناء لكاملها أو حتى صانع محزونها الثقافي أو الفكري الاجتماعي أو الحزبي، بل نجدها متسكة بمقولات جادة وبمفاهيم مجردة تنطق بها بأنية مثل: الخير، الحق، الحرية، الديمقراطية، إضافة لسؤال التهمية.

وحسب في مجال حركتها الاجتماعية كداعية لهذه المقولات نجدها غير متعلقة إلا في إطار الجامعة، والتي تشكل في خاتمة الأفلام صورة الظهور الكثير من التظاهرات وشعة إشكاليات. نلاحظ في أن الطلبة المتعلقين من طلبة الجامعة لم يبق لهم الإطار الحزبي المتعلق بمعارضة السلطة القائمة، وبالتالي يرى أن محمل التمركات غير متسقة وهي تدور عن المآزق الاجتماعي المفضوض (أغلب الأحزاب الجماهيرية هي (عمل) حيث لم لاتجذ الجامعة المقروضة من السلطة قد حظرت أي شكل من أشكال (المظاهرات السياسية) والطلبة يحلوا التكال نصت المفضوض (1) من المادة (87) على حظر تشكيل جماعات طلابية أو الإسهام فيها من دون توضيح سابق من سلطات الجامعة كما فرض حظر مشابه هي (المتروك) على توزيع المنشورات أو جمع التوقيعات أو إصدار مجلات الطلبة، وحظرت المادة (6) المظاهرات في الجامعات، وعلى الرغم من هذه القيود إلا أن الدور الأساسي في تركيز العدو على الخلاصات السياسية كانت تقوم به الجامعة، حيث ورثت التأسيسية نظاماً سياسياً، ولعبت هي الجامعات دوراً مهماً سواء في الحركة الوطنية أو في الصراع من أجل السلطة، هي البداية، ومن أجل تدعيم السلطة، كان على النظام العسكري أن يكتسب الكتلة الطلابية النشطة سياسياً والتي اعتادت شأنها شأن الجماعات السياسية الأخرى العمل داخل الإطار الهرمي للشباب السياسي، فوجدت أنه من الصعب عليها أن تتفلق مع حكم القوات المسلحة، وكان الطلبة والعمال يعتبرون مصدر كامن للاضطرابات السياسية، فكما قال الرئيس السادات: (التي عابى مصدر موقف في مصر بلاقي الثورة الناجمة في مكانين من الطلبة باعتبار أنهم شباب مدفع لا يتروى في التفكير، حاول يعيش معركة وعازر يكون له كيان ولقادة الثانية العمال) (2).

من ألية التفكير هذه نرى أن أولى المصدمات ما بين النظام والطلبة بدأت عام 1965 وهو تاريخ لم يكن قد بدأت الثورة فيه بتشكيل ملامحها النهائية وإنما كانت في إطار التجريب

والبحث عن صيغ تجلّت فيها مختلفات عهد الملك فاروق. إلا أنه يمكن القول إن المواجهة التي حدثت في الجامعات سواء مع الأساتذة أو مع الطلبة كانت نتيجة التصادم بين اليدول القهريّة للجامعيين، واليدول الألوهرراطية للحكّام العسكريين كما يقول الدكتور لويس عوض: (كان العديد من الناس يتصورون أنه يمكنهم الحصول على جمهورية وإصلاح زراعي وفي الوقت نفسه المحافظة على الأشكال التقليدية والديمقراطية الليبرالية)¹².

وعلى الرغم من أن النظام قد استلهم منذ بداية تسلمه السلطة السياسية. مع الطلبة الجامعيين: إلا أنه حاول أن يوجه النشاط السياسي للطلبة، لهصب في عدد من التنظيمات السياسية التي أقامها ابتداء من (مكتب الطلبة) في هيئة التحرير، وانتهاء بمنظمة (الشباب الاشتراكي) و(طلبة الاشتراكيين السرية)، و(التنظيم الطلابي). كما تم إنشاء تعليمات عبر سياسية تحت إشراف الأجهزة الحكومية للإشراف على الرياضة والأنشطة الترفيهية للشباب والطلبة. وكان من أهم هذه الأجهزة (المجلس الأعلى لرعاية الشباب) و(وزارة الشباب) اللذان أعلا على التوالي. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الإنجازات التي تحققت قليلة نسبيا على امتداد السنوات التي تواجبت بها هذه التنظيمات والأشكال الحكومية في الجامعات. لعزوف الطلبة واساتذتهم عن الانضمام لهذه المنظمات خوفا من وصمهم بموالاة السلطة، وحضورهم في جانب أطر القنارات والاتجاهات الفكرية والإيديولوجية المتعارضة مع النظام (شيوعيين - إخوان - وقوميين) ... مما أفضى في النهاية بسيطرة السلطة أو تصعب من الجامعات.

في حينما القنقل على الرغم من الاتهامات في التمييز والدلالة بالانتعاز عن المسائد، إلا أننا نجد حقيقة الثمير هي الشكل الجديد، باعتماد السرد التقليدي على القنقل كمكان جغرافي يلعب دورا فاعلا ومؤثرا في سهرورة النص. إضافة إلى الضيق والاضطراب لجبل بدأت أسئلته لتلاحق.

إلا أنها هي الواقع لم تبعد عن شبك التذاكر، فاعتمدت الشبكة السينمائية القديمة (سينما الباشاوات) حيث سوانج الحب والفروا ونجوم الشباك بأرصدتهم الجماهيرية ووساعتهم أو كوميديتهم التي لم يحاولوا أن يدخلوا عنها حتى وهم في القنقل تمهيدا لأفلامهم القليلة.

هذا البطل القديم الحالي، في الحصول على حقه الطبيعي من الحياة والحب وبناء أسرة كريمة في شقة يطلقها الحب والأمل بالمستقبل المشرق، يواجه البطل الشرير الفاسد، القنقل في ضابط الأمن الذي هو القنقل والمقرن للأحلام.

في هذه الأفلام نجد الشخصية القديمة نفسها، والشبكة القديمة نفسها، فلم تبعد هذه السينما عن بئرية الطم الغاصي ووسائل تعبيره التي تم تناولها من دون الطموح لتقديم لغة جمالية تقدم علاقة جديدة بين هذه السينما وجمهورها. فعلى الرغم من أنها تتناول علاقة

سياسية قومية إلا أن روح التشولية بقيت تغلف موقفها قديما من الإنسان نفسه على الرغم من محاولات التنوير التي نراها.

الشخصية العلوية (نابيل الأحمد)

لقد صيغت هذه الشخصية. ونمطت هي الشخصية العربية. وبحكم واقع المجتمعات العربية كعوامل موضوعي للقمع والإرهاب، هذه الرؤية النابعة من تاريخية الأنظمة والصراع السياسي معها وانعكاسات هذا الصراع باعتبار الأسلوب الأممي العسكري شكلا متاخلا في التعامل مع الآخر المختلف العارض، بالإضافة لاستحلابها بالقوانين والبنى الدينية. فبمسي هذا الموضوع من ناحية علاقة أشكال التنظيم الاجتماعي المدني وعلاقتها مع النظام العسكري وقوانينه، فهي أكثر من فيلم تشاهد الحثوث بتجهيزاتهم الميدانية وهم يندفعون لتلقي واستقبال المعتقلين الجدد بالكلمات، كما نشاهدهم يتصدون بالطريقة نفسها للتظاهرات والاضطرابات، هذه التشاهد التي تطوي على دلالة مهمة لتفسير العلاقة بين المعتقلين والجنود، وأساليبية التعامل فيما بينهم وشعور أن تعميم ذلك لتطرح علاقة الجيهاة الواسعة مع النظام السياسي، وتظهر التفكير لمحاولات الالتحام القسري للفروقات ولغما عنهم. والذي أفضى إلى حرمانهم الأهل والحرية، وضمن هذه الرؤية لا مجال للإنسانية والتعاطف سوى بتقديم صورة بشعة مخيفة لطباط الأمن الذي تشق الصورة من عتبة الأمنيين لشبهة وطنية، أنه من شعوره في نظر ضحيته إلى فعل لا يحدد حد، ذلك الإنسان الذي يعيش القمع، جيروته وقوته وقسوته داخل المعتقل. وخضوعه وانكساره وتذلل أمام رؤسائه خارج المعتقل. هذه الشخصية الشخصية الإنسانية التي تمارس جميع أشكال الفساد معدا عن أي قيم إنسانية يقدمها المخرج محمد راضي في فيلمه (براء الشمس) حيث تعكس شخصية العمري التي أدامها الممثل رشدي أباطة مجمل الصفات السلبية لطباط الأمن. هذه الشخصية تقوم في بداية الفيلم بقتل التواء حسن سلامة المسؤول عن مصلحة السجن. والذي جدد نفسه في المنزل مطالبا بمحاسبة المسؤولين عن الهزيمة. هنا نجد شخصية العمري تأخذ أبعادا درامية مختلفة. من حيث تصوير ضياعها الأخلاقية، شجاعتها تقوم بالاستيلاء وتوظيف الأموال الخاصة التابعة لإدارة المخبرات لصالح زوجها التي تقوم بشراء الطائرات، وتأسيس شركات الاستيراد والتصدير. وهي الجانب الآخر. نراه يفهم علاقة محرمة مع سهر الأستاذة الجامعية وأنة حسن سلامة. فبعد مقتل أبيها يقوم بانهاضها بأن هناك مؤامرة لقتلها فيخبرها ويختصنها ويوثق ذلك بأشرطة التسجيل. ليجبرها فيما بعد على العمل معه كمحبرة، وراشبة على حركة الطلبة، وتشاول شخصية العمري كما عكستها مباحثات الفيلم نجدها شخصية متأخرة متقلبة، تعمل جهدها للحصول على رضا الرئيس، وفي الآن ذاته تحاول جهدها لتوثيق رؤسائها، وإرسالهم إلى ها وراء الشمس. أي إلى

العتقل تصبح هي الشخصية الرئيسية في العمل بينما بالمقابل تحدد شخصية هاشم رئيس ~~الشخصية~~ والتي لا يابه كثيرا لتقرير يزود به عن طائرات الفاتوم التي وصلت إلى إسرائيل بقدر اهتمامه بتحركات الداخلين والخارجين إلى منزل الرئيس جمال عبدالناصر. بل ويذهب أبعد من ذلك ويشاراته تجعل أكثر من عفى وأكثر من تأويل حين يطلب مراقبة تسجيلات الرئيس نفسه هو وزوجته وأولاده.

هذه الشخصية تتجلى لنا. وبحكم موقعها الأعلى. أكثر هدوءا واتزاناً وقدره على الناصر وصوغ الأحكام الجاهزة التي تخدم بقاها في موقعها. شخصية تتحكم في خيوط اللعبة الرسمية سلفاً بإعطائها هامشاً جزئياً لحركة الآخرين مع مطالبهم بالمراقبة المؤامرية لكل عنصر من عناصرها للأخر. وبالتالي التحكم في مصالحها جميعاً. شخصية منحورة نحو على الرضا وتعارض الفجور مع زوجة الجعبري وأيضاً مع سهر عشيقته الجعبري. وهي حين ترى شخصية الجعبري كذلة نازقة مشرعة وملونة بالدماء والسادية من خلال حسنها على الاعتراضات والتفويض الدعوي عليها من قبل المعتقلين. فليلاً ترى شخصية هاشم مصافاة للدلالة على البضى القرونية للسلطة التي لا تعارض سلطة الدماء يديها وإنما من خلال أدواتها - عناصرها - وبهذا تكون شخصية الجعبري كمثل الضابط الأس الذي شاق به اتهام القدرة تأسيساً لجعل التناول العلني لملحمة الصورة الشخصية للضابط الأمن. وعلى الرغم من أنها مستقرة إلا أنه أعيد ظهورها مرة أخرى ومن خلال مصابك الأمن في شيلم (أعنا بتوع الأوتوبيس) المخرج حسن كمال. حيث تفر المشاهد السيمفونية بصورة ضابط الأمن الذي صيدت نمطه. والوساوس لتأكل حتى العظم حيث نراه جريماً كل العرم على مسج يديه بالحارم الورفية عند كل لحظة له فيتحرك في مساحة ضيقة ضمن ظرفته المدة للتعلق بين الفلسفة ومفاولة المصاعير. هذا الضابط الذي يقشرب بأدائه الحسي من تحقيق الشكل والحركة الأتوية (اليسمعونا بشظوة) وهنا رمز جديد يضاف إلى الصفات التي المصفت بشخصية ضابط الأمن.

تتعرف إليه وهو يسأل عن خيام الشمس فيجيبه العسكري بأن المعتقلين وافقون تحت أشعة الشمس منذ الصباح في مشهد سديمي لا يلبس من ملامح. فيه يتهاول ضوء الشمس الكثيف كسيط. أهمية على الرمال الصحراوية لتشتعل تحت أقدام المعتقلين الحفاة والمستسلمين لقدومهم بناس. وضابط السجن يعطلي حصانه مسترخياً قوله وجبروله مستمعاً حتى الثمالة بنطرات العرق التي تنز من الأجساد التهبكة للتهابوية والتي تستطر إشارة الرحمة من يده لمفارقة هذا الجعيم والاحتفاء بفيه التزناات ثقيلة التل. هذا المشهد صاغته الكاميرا بلمف شديد ضاحكات وجه الضابط إلى مساحة سوداء فاتمة فلا تلبين أي ملامح لتسماته كما أنها ركزت نظرتها من الأسفل للأعلى للدلالة على العنجهية والصفات اللاإنسانية التي يتعلى بها.

فتمكسه متطاولاً. هذا الضابط الحريص على القضاء على رائحة التعرق في جسده بشئ أنواع المطويات يظهر كشخصية مثاقفة ويدور يحاول أن يؤشر إلى الفارق الكامن بين العيادة والفن. بين الحفيظة والفضائل. ومن خلال هذه الرؤية يأخذ القيلم مداد الأعداء في سبيله التاملي لتوعية الضابط ودوره. حيث الاختلاف هنا نراه في محاولات الحصول على الاعترافات من خلال اللحن والدعاء. فالضابط يأخذ بأنصاف الجمل ليسمح جملًا متكافئًا لعدم عقيدته. فتهرب رؤيته للمعتقلين الذين بين يديه. وتظهر قناعته غير العلة بأنهم مدانون سلفاً ومحكوم عليهم. فيفسر الكلمات على هواه وعندما يصطدم بالحقائق يعود إليهم قناعته التحقيري حيث لا مناص من استعمال القوة والتعذيب وإزالة جلاله للحصول على الاعترافات الخطية الواقعة من قبل المعتقلين بما يريد.

الضابط المشروح بأدعيائه في لقائه الأول مع المعتقلين الجدد بأنه هنا (يوجد عدل وأنها يوجد تحقيق لأجل كل معتقل يأخذ حقه). والسرع للحصول على الاعترافات للبية للاتصال التقوئي الذي تلقاه من الأعلى. نحدد مبدئياً الطاقة العمياء للآخرين. والاستعداد المضى لأحر الشروط وصولاً للقتل حتى يتم إيراد اسمه في جدول الترتيب القادمة.

أما في قيلم (التحويل) لأمالى عيسى. فهنا نشاهد ويكتشف أكثر من نموذج لشخصية ضابط الأمن. حيث نرى الضابط سياسي. النوازل إليه موهبة بوشية إلا وهي فرحيل دفعة من السجناء السياسيين إلى أجنحة المعتقلات الصحراوية. وفي لحظة إتوقف الطائرات يكتشف هروب أحد السجناء. فتراد يعيش الرعب والذعر لتزدوج حيث الارتباك واختلاف قسمات الوجه والرميزات التي تلمس عليه. وهي لعبة الخروج من هذا الدارز لتعبر بذهنه للحظة فكرة شيطانية فيتوهم بإبدال عامل التحويل حطمي مكان السجناء الفار. وهي المعتقل الصحراوي يبلغ صديقه الآخر الضابط عزمي سلام والشرف بشكل مباشر على المعتقل وسجنائه بما حصل فيصوغاً مؤامرة الصمت هروباً من تحمل المسؤولية والتعامل مع حطمي عامل التحويل بأنه حسين الصحراوي السجناء الفار. وتبدأ عملية الضغط على حطمي بشئ الأشكال ليردش الفصام والاعتقاد بأنه هو حسين الصحراوي. وفي جانب آخر معاكس نرى شخصية مختلفة لضابط الشرطة القديم عمر خالد الذي يمارس عمله الليلي في قسم الشرطة فيرفض الواسطات. وبالتالي لا يسامح ولا يهائن حتى مع مراكز القوى لقناعته الداخلية بأن نس القانون ينطبق على الجميع من دون استثناء وتمكسه التفسيراً صاحب ضمير حي ملتزم بالمعولك الأخلاقي والاجتماعي السوي. هذا الضابط ومن خلال رنين الهاتفون الذي يلح. بهما فوائد الدخان تتعالى هي غروفته مشكلة ضبابية ترمز لتضليلية اللحظة. يرفض الرد على الهاتف مدركاً أنها وساطة لأحد أبناء المثقفين. فيدفع لمن موافقة تقارير ملقحة بعنوبها مله الوظيفي. وينقل بسببها إلى المعتقل الصحراوي بمواقع هامشي غير فاعل حيث مكل التحكم

الحقيقي بالقرارات. يؤول إلى النقيب عزمي الذي يمتلك مصائر الجميع فيمارس فوقية معرفة بهب الذات. وهنا نمود مرة أخرى لتغطية الشخصية للرسمية لتنفيذ مهمة تلقى الاتهامات والمحمول على الاعترافات الخطية للمعتقلين بعد حفلات التمثيل التي يمارسها مستمتعا حد الثمالة. إضافة إلى التمسك على الخطأ مستلذا مصائر قوته ومكوناتها من خلال علاقاته مع مراكز القوى والنفوذ في الهيئة الأعلى. هي المعتقل يكتشف القدم عمر المفارقة التكلمة بأن حسن النحراوي التهم بامتلاكه لجماعة الإخوان المسلمين ليس إلا مسيحيا قبطيا. فبدأ رحلة السؤال والبحث عن المثبته. فتكون رحلته في الوقت ذاته هي رحلة فضح لل مؤسسة الأمنية بتكديسها المصطنعة ضيائه الرد صاعقا، (هل تريد أن أروي بائتين من زملائك في السجن مقابل محو لوجي) فيملأ القدم التمسك بمواقفه المبدئية مغلنا أمام مسؤوله أن (القانون لا يفرق بين صابط ومحولجي) فينهذه ويترعد فتكون النتيجة إعادته إلى المعتقل سجيناً هذه المرة. بعد ذلك يؤخذ قرار تصفيته الجسدية لأن خروجه من المعتقل سيكون سببا في فضح العلاقات والخطايا التي تتحكم في هذه المؤسسة من حيث المصالح أو الخروقات. وعند لحظة التنفيذ التي يوكل القيام بها للتنبع عزمي يحاول عاقل التحويلة حلمي إقناعه، مما يؤدي إلى اختراق الطفقات صدرهما سمانتين. **فيلساف الدم في** النهر السيفر للشحول مياهه كلها حمراء (دلالة على كمية الدماء التي تهاوى في المعتقلين) ويبيد أ بين شخصية القدم عمر التي سئلواها فيما بعد. **إلا أنا أرى أن هذا إنهم لم يفسدوا** بالمثل من نعطيات ضابط الأمن وسمائه. وخصوصا ضابط أمن المعتقل على الرغم من أن القيام يحاول أن يخلط الأربعة فيما بينها، حلمي حين نرى قاضرة التسمينات، مبانها وسياراتها وناسها. فإننا نرصد إلى مرحلة الناصرية بإشارات هائلة يحتويها الفيلم.

أما في فيلم (البريد) قصة وسيناريو وحوار وحيد حامد وإخراج عاطف الطيب فإننا أمام الشخصية القصاصية للزوجة لضابط الأمن. حين نرى توفيق (محمود عبدالعزيز) يدخل مشجرا للألعاب باحثا عن لعبة هدية لطفلة عمرها ست سنوات فيشترها. وعندما يخرج يتعرض له عسكري المرور ليمسح بعطه مخالفة موروقة بسبب إيقاع سيارته في المكان الممنوع فيمنعاه له. متصاعرا دون أن يعرفه على نفسه. والضابط توفيق الذي يقوم بدور المخرج لإسماع الأطفال في حفلة عيد ميلاد سديلة طفلة يجعلنا نشعر بإنسانيته للمرحلة الأولى وهو يزرع البسمة على شفاه الأطفال من خلال مواقف الدعشة. ولكن هذا التعاطف ينفذ مذهولا حين نراه معتظيا خصائمه مختلا بين صفوف المعتقلين الجدد وريدا بسؤالهم عن تهمهم (أنت شيوعي) (أنت اخوان) مستعرضا قوته ومهارته بتبيان المعلومات الأسرية والجنسية لكل معتقل. ثم فيما بعد يربط أحد المعتقلين خلفه بالحيال (الدكتور علي خليفة دكتور الجيولوجيا) والذي يؤدي دوره الفنان جميل راتب ويلتكر فريسه للعدو بينما جسد الدكتور بحضر عميلنا في باطن

فيها المعتقل

ومال الصحراء، مشكلاً خطاً يمتدّ جواً تحت أشعة الشمس اللاهية، ويأخذ أبعاداً ليعتد به بتطعيمه في الماء، بلدة منقطعة التطير، ذلك الإنسان الذي يطلق للصحراء عملاً منذ الصباح إلى المساء ليتخذ معطشهم الشديد، بتكبيهم بحفر يثر ثم دمه فيها بعد، هذا الضابط الذي ينوم بقتل الروائي ودفن جثته في الصحراء وتذليل توطئته بأنه قتل من جراء محاولة الهرب، بحلول أن يصور ويكل وضاعة الوغد قصي الحقائق عن مقتل الروائي رشاد هويس (مصلاح فايل) بأن هذا المعتقل هو هندق موجود في الصحراء، ولكنه يحمل ميزة مهمة للرقاء على اعتبار أنهم من المثقفين والفلاسفة والصحابي الرأي، يهدونه، وبالتالي فهو المكان المناسب للتأمل والتفكير، بل ويذهب إلى اعتباره مصحفاً نفسياً، يعالجون به، ولكن على طريقته، ويضيف بأنها طريقة كلها إنسانية، ففي دولة ثانية يدقونهم في الحياة ولكن (نحن نكفيهم بمراقبتهم عن الناس ويس، ونحن في النهاية تحت أمر القانون وطبعاً حضروتكم من رجال القانون والعدالة والتقريركم يمكن أن يخرس الإشاعات والأكاذيب التي هي الخارج) فيقول الوغد في أرجاء المعتقل ليرى إنسانية التعامل الجرمج والرسوم مسبقاً نتيجة العلم بالزيارة، هذا الفيلم يظهر جانباً مهماً فُيِّب في بقوة الأفلام الأخرى، وهو أن ضابط المعتقل ليس السلطة المطلقة، كما يشير الفيلم إلى الاتصال بين السلطة القضائية والسلطة الأمنية، حيث يضطر الضابط إلى الكذب والتضيق في كل شيء ومع ذلك فإن الأمانة في التفسير إيجابية المعتقل والضابط المسؤول عنه لم ينج منها الفيلم الذي ناقش مقولات أكثر مصادقة من غيره من الأفلام.

أما في فيلم (تهجامة) لأسامة أنور عكاشة قصة وسيناريو وإخراج محمد النجار، فإن هذا الفيلم يتفرد بالكامل، عن بقية الأفلام، بقاؤه أحداث 18/12 يناير 1997 وما سبق إعلامياً، بوصف تلك الأحداث الشهيرة من قبل السلطة بانتفاضة الحرامية فيناقش الفيلم مرحلة الانفتاح، في ظل حكم السادات، والتحول الاجتماعي والقيمي التي حصلت في تلك الفترة الزمنية، والفيلم يعيد للذاكرة الصور الحية لتلك الهوية الجماعية حيث نجد المظاهرات وكيفية تعامل قوات الأمن مع المظاهرات الفاضية، فصور الكاميرا الإطارات المستخرقة والدخان المتصاعد في الأجواء والهراوات المخططة التي تنهال على رؤوس المتمردين صفارات الإنذار وخراطيم المياه، والمعتقل هنا هو سجن النساء، حيث نجد إيتاس الهجامة الحرامية، المحكوم عليها بثلاث سنوات سجن لنهايتها بالسرقه والذي يخرج عنها هي والكثير غيرها قبل انقضاء مدة العقوبة، تخرج لترى الدنيا تشغل أمامها هي التي هيئلي الفيض عليها وبشكل مقصود وتودع المعتقل لإتهام الرأي العام بصفتها لصقة وإحدى المشاركات في الأحداث لتطبيق مواصفات انتفاضة الحرامية على ما يحدث.

في جلسة التحقيق يخبرها الضابط المسؤول بأن جميع المعتقلات حرامية وأنهم غدا سيذهبون للمحكمة لتقول إيهن يعطن معها وتتم الإغرامات بفتح مشروع كبير لها، إذا قامت

بالشهادة... وأمام وكيل النيابة تنفي معرفتها بأي من المئات وتشرح ظروف اعتقالها القاسية في اليوم نفسه الذي أطلق فيه سراحها، ويتساءل القاضي بعدة مؤنثا ضابط الأمن (أمال حين الاعتراضات التفسيرية يا بهوات) وهي المعتقل وبعد عودتها تعود مرة أخرى لتعطية ضابط الأمن وصورته المروعة حيث يقوم بصفها وفيما بعد يصعب حيلة تعذيب متكاملة على أنيتها وصراخها، فتشاهد التفطيس في مرصع للقاء، وتستمر سادية طلعت معارولا إرضاع إيناس وكسر مغارستها وحتى عندما يخاطبه أحد الضباط (كفاية يا طلعت ما توديش نفسك في داهية وتحمل نفسك مسؤولية) تكون إجابته (مسؤولية إيه دي لة شوارح ما جدش حيسال عليها زي بنات الجامعة) وعندما يقول له زميله معارضا على الأسلوب (دك كثير) تكون إجابته (ما تديش خبره).

ومن كل ما سبق يمكننا أن نسجل التالي:

١- إن سينما المعتقل ترون أن رجال الأمن يتعاملون بألمة وبدون أي حسن إنساني أو وازع أو ضمير وهم يعملون فوق أكتافهم أسماء الحركة المرسومة بدقة ومعارستهم تتم إما بشكل فوري أو إرضاء الزملائهم أو مرؤوسهم. وهناك أكثر من إشارة ودلالة على حقيقة هؤلاء الأفراد وهم اليهوديون من أعين البراقية، حيث إنهم بمعارستهم هذه يتجاوزون منطقة الصلاحيات الممنوحة لهم والتي أساساً تقوم بتعذيب حركتهم في التمازج مع المعتقلين.

٢- الازدواجية والتضاد المثار بين المتهمة البرية ومعارسات شاذة وسادية أقرب إلى الحيوانية هي أبرز الصفات والملامح التي تتجسد بشخصية الضابط الأمني.

٣- لتقبل الاتهامات والحصول على الاعتراضات بعد حفلات التعذيب فاسم بشارك فيه جميع ضباط الأمن في أفلام سينما المعتقل، إنه السبيل الوحيد ولا سبيل آخر عدا ذلك.

٤- تركيز الضوء على الخدمات التي تقدم للأعلى والاتصاح للأوسر حتى لو كانت تحمل إشارات الكذب والتزوير، فهي فيلم (الجماعة) لعبد النجار تتعدد هذه الرؤية من خلال حوار بين عناصر قوى الأمن الذين يتأهبون لتفريق الطاهرة، يقول أحدهم (إحنا لازم نصرب في الليان) فحجبيه آخر مستغنيا: (إحنا نصربة جايز نصرب واحد يقطع أطوك أو فن معك) وآخر يقول (دي مرصتنا عشان تعمل حاجة تنططنا لافوق)، أحد الضباط يهشم النقاش (خامعين غلط... فاكروين التي يضرب أكثر يحب أكثر ويترقى أكثر)؟

الشخصية الإيجابية

إن التغيرات العميقة التي عاشتها السينما المصرية خلال هذه السنوات وبرزت مواضيع وأهداف جديدة للفيلم المصري فرضت اختفاء ابن الذوات بسماته المحددة ولامحه البارزة التي جعلت السينما المصرية على إرسائها خلال مسيرتها بومتها، مما أدى إلى ظهور الأبطال

فيها المبدأ

الهاسطيون والأساطير المعادين البعدين كل البعد عن مفاهيم التجسسية التي كانت واضحة فيها
مضى. أبطال هي أساطير السلم الاجتماعي، يملكون الحلم ولا يستطيعون تحقيقه.

ولكن سينما المعتقل (إعادة لأفلام أولاد الثوات حيث أصبح الأبطال (المعتقلون) الجند
تحقيقاً لحلم العودة لأفلام أولاد الثوات، الذين يحملون بذور الخير والحب والإنسانية، فيما
ظل النموذج الحقيقي للإنسان الضال، المعتقل طارج الواقع اليومي. فهذه السينما هي محاولة
منها لتقديم الصورة بشكلها الجديد (المعتقل) بوصفه ابن ثوات من طراز جديد يحمل نوعاً
من تصاعدي الحلم الصادم بمدى حجم الكارثة التي مضت.

وبتأويلها لتعالج المعتقلين قدمت سينما المعتقل نماذج لتشرايح اجتماعية عدة كشاهد إثبات
على أن المعتقل طال جميع أبناء الشعب من الريف المدينة من الأسى إلى الجامعي، من
الروائي للعامل، من سروج الدعارة ومشحوش النساء إلى الشيخ. هذه التشرايح التي تريد أن
تشهد على خواء النظام وتقليباته من خلال مستوى واقعي خاص تجسده الشخصية في
الانطلاق من خطأ ما أو رؤية تساؤلية تعدد نفسها في مواجهة الأحداث وهي خضم المعتقل.
لتجسد الشخصيات مثقلين بحاجة الموت وخطره وما إلى ذلك من مستوى الوعي بأن الوجود في
الكان لا انفكاك منه، وهي هذه السينما تتابع مشوار الفلاح الشاب من غروب وعييه، إلى
امتلاكه، والعامل من انتمية الفلقة إلى لحظة موته، فهي الاتجاهات والأشكال المختلفة لتناول
الشخصية الإيجابية بصيغ مختلفة.

في الأفلام ثمة شخصيات تقدمها السينما بصيغتها الإيجابية بانتمائها إلى شرائح مختلفة
وطبقات اجتماعية متعددة. يظهر نموذج المثقف الجامعي، والمثقف الروائي استاذ الجامعة
والمرزوق والعامل، فشككت هذه الشخوص للعامل المجتمعي القوي، بموازاة ضابطة الأمن
ومؤسساته الأمنية، فوجدنا أن محورية النص الأدبي أولقيا ويتصارعاً كل من موقفه بملازمة
المسب والإيجاب المعكوسة، لتجد الترميز في أن الجلال يصبح ضحية هي وقت ما، وتطعنه
أية الرؤية المحددة ملغاة، تجاه أي نزوع نحو التفكير النقدي.

النقد /الجامعي

ثمة اعتقاد ما، في ذهن الناس، بأن مجرد امتلاك الشخص الصفة الجامعية فإن ذلك مؤشر
دلائل للحصول على الثقافي/المثقف، ذي العقيدة الثيرة. وبعبارة عن الدخول في تفاصيل هذه
الرؤية ودخول النقاش لتحديد الفرق بين التعلم وبين الثقافة، إلا أن سينما المعتقل انطلقت من
هذه الزاوية المصدرة للخط في دور الشخصيات وخطها المؤثر في سبيل الأحداث، والأمر
اللافت أن هذا الخط أدى إلى الاستمرار عند الكثير من الأفلام في التعاطي مع هذه الرؤية،
فكانت أغلب الشخوص (الإيجابية) لأفلامها هي من طلبة وأساتذة الجامعات وهي أنماط من

الشخصيات سوف تتكرر كثيرا. ففي (قانون أبكا) للمخرج أشرف فهمي والمؤلف أحمد صلاح هيلنا نرى الدكتور حسين مرسى (محمود عبدالعزیز) دكتور مادة القانون في جامعة القاهرة يعيش هاجس الاعتقال والتعذيب داخل المعتقل مما يجعله يعيش كوايس من الرعب من مجرد ذكر كلمة (أمن) أمامه حيث توجد ذاكرته إلى فترة اعتقاله في شهر مارس ١٩٦٨. الدكتور حسين يعيش مرحلة اللاتوازن. وهذان الانتماء حتى لفهم الوطن والأرض، يصبح متشككا بصورة هذائية من أي كلمة أو لفظة تؤثر إلى السلطة. هذا الدكتور الذي يعيش حالة الجنون وعلى حافته. استطاع أن يقيم علاقات سوية مع العالم السطحي للهمش. علاقات داخلها الأساسي لطاقي الحشيش والجنس، حيث يعتبر أن صيغة العيش هذه هي الأحدى البقاء والاستمرار بعدها من أي شيء. فبرايه (كبسة الحشيش أهون من كبسة الميامة). من أبرز أسدفااته. العلم القانوني، الذي يبيع بحث الموتى وأعضائها لطلبة الطب، ويقوم الدكتور حسين بتخليلها في منزله التواضع ويعتقد بذلك أنه يستطع بالموت. ويعود بذاكرته للمعتقل حيث يموت في كل يوم واحد من أسدفااته هي المعتقل. فيصرخ، ويصرخ حتى تجف عروق خلقه، هذا الدكتور الذي تحاول طاقته السابقة والأستاذة الجامعية مادة القانون إخراجها من حالة اللاتوازن بإفهامه أن المرحلة انتهت، وأن القمع انتهى. وأن المرحلة الجديدة تطر للإتسان بما له من حقوق مدنية. سواء يهرع والكسا في الشارع عندما يتقدم بهما ضابط المراس، فيرفض العودة إلى حياته العادية، ويبدأ متوقفا في الحديقة التي أصبحت لها قد طروحه من المعتقل، ويصرخ في نهاية الفيلم عندما يتم القبض عليه. نتيجة أشكال بسيط، وهو ضاح داخل السيارة العسكرية معاطا برجال الشرطة (يس ما لخر يونيش.. يس ما تعديونيش) لتقف الكamera متسمة على وجهه الجامد خوفا. وفيه مشع أقصى مداء صارخا.

على الرغم من أن السيناريو لا يقدم لنا نوافذ الشخصيات، واستغراق مشاهد متتالية ونحن نبحث عن السابح تلك الهواجس المخيفة التي تلتاب الدكتور حسين مرسى، ولا نعرف ما هي القضية السياسية ولا موقفه ولا سبب اعتقاله. هذا السؤال الذي لا يلقى السيناريو أي عاء لكشفه. يجعلنا رغما عنا نعيش مع هاجس الاعتقال والتعذيب داخل المعتقل مما يجعله يعيش كوايس من الرعب من مجرد ذكرى كلمة (أمن).

في هذه الشخصية ثمة مناقشة للتحوالات النفسية وتمعكسات تأثير المعتقل على النفسية الإنسانية وعلى الشخصية سواء بتوازنها أو عدمه. وبالتالي السفر والعودة. وبشكل عكسي في تحولات القيم لديها من الإيجاب والسلب من قيمة التفاعل والمشاركة إلى الانغلاق والقفوة والأرصاد. ومن هنا تكون هذه الشخصية ليست حاملة وبها مفرها، ولذلك تعيش هذا الاختراز، ولتشكل صبرورات حياتها وسياقاتها، نتيجة صيغة أضحت بها إلى المعتقل حيث لم تعمل حسابات الريح والخسرة جراء موافقتها.

يتميز في سبيل مفاير تظهر شخصية الدكتور حسام في (وراء الشمس) فهدد واضفي، وهي شخصية معاكسة تماماً لشخصية الدكتور حسين مرسى في (فانون أياك) حيث نجدها فاعلة ومؤثرة في محيطها، تعمل على اصطاف الطلبة لتخفيف حدة مساعدة ودعم لضعافها عنوان 1977 يقوم الدكتور حسام بزيارتهم والطلبة وتقديم المساعدات العينية لهم وشد أزرهم مما يفضي إلى انتقاله فهدافع داخل المعتقل عن شأسته حتى الموت، وبذلك تتطور الشخصية كحاملة فهم ومواقف مبدئية، أما على صعيد العلاج المحددة للطلبة فتجد في (الكارتك) الذي يناقش أيضا امشكلات الطلبة الجامعيين والتي اقلت لهم. بسبب بحثهم عن سؤال الهوية، أساليبها ومبرراتها. ومن خلال شخصيتين جامعيين التواحيان، إسماعيل وزينب، ويؤدي دورهما سعد حسني ونور الشريف اللذان ربطهما حب حار وأمال وطموحات بمستقبل أفضل وشد واضح، هاتان الشخصيتان تتعرضان للاعتقال والتفتيان في حرب تشرين، ومن وراء قضبان القضي العسكري الذي تعمل فيه الدكتور، تتواجه الشخصيتان وبظلمات صامتة مرحلة صبر ذاكرة المعتقل، وما حدث به من تعذيب وقتل والمصائب فتجد إسماعيل منهجا منهجا شبه إنسان يعيش الهاجس والطرف المعيش في روعة ونفسية، ونجد بالمقابل الدكتور زينب التي تجاوزت جراحها واغتصابها ضمن جنون المعتقل وقد عادت لبروتيا الإنمائية فاعلة ومنهجة في الحياة بل وتعمل على تنظيم الحراج أيا شخصية فصيل في (الهوية) تعاطف الطيب فهي تختلف كلها. حسين الصلاح والطالب الجامعي الذي يقوم بمطاهرة مع الطلبة الجامعيين استنكارا لقتل الروائي رشاد ويمتقل، له دور مختلف للأنشطة تنمية الوعي القطري عند الفهد أحمد الصلاح الأسى الذي أوهم من خلال فعل الدماغ الذي تعارسه المؤسسة الأمنية بأن من هم داخل المعتقل أعداء الوطن والحرية ويجب معاقبتهم وبشدة وبذلك تكون قد ركزت هذه الشخصية على تحديد أحد أساليب النظام في تشويه الوعي وصياغته بشكل يقوم على حسن النية والنزاهة المبينة في التعاطي مع الآخرين، إلا أن هذا الوعي الهادي سرعان ما يجد نفسه أسيرا لتحديدات السلطة بمدى وحجم هذا الوعي. فيسقط مقتولا.

الوطن العتيق...

شخصية ذلك جيلها تدهم بالهنا...

لغة الكثير من الشاهد والدلالات هي سيماء المعتقل تؤرخ للموت العايت الذي يحدث داخل الأقل المسور إلى موت هابط من التعذيب يخلق وراءه وجوها متسائلة غير مصدقة أن موها وخسارتها الأهل والأحباب من دون ذنب.

موت يتغلغل على غير هدى، يختار ضحاياه، ويعرف أسمائهم وأعدادهم، وجود ملثمة وشخصيات مسكونة باللوات، وما علينا إلا أن نغمض أعيننا حتى نخرج من قعر الظلمة التي تلف مؤخرة رؤوسنا ونفخرس في بطنتنا.

فهناك الكثير من الشخصيات التي رصدها السينما، وهي تدفع الثمن، منها شخصية الشاعر المعروفة في التصوف والمليحة بطوقان الحب للوطن، لتساب من بين أيدينا لوحة حين يتم اغتياله في فيلم (إحنا بتوع الأوتوبيس) على الرغم من القناعة التي تمكنه بأن هناك فروقات شاسعة بين أن تغير وبين أن تدمر. هذه الشخصية تستلهم داخل المعتقل بأفكارها المهادنة البسيطة من خلال رؤية الآخرين ومعارستهم الدموية تحت شعارات حب الوطن، في مشهد استخدمت فيه المؤثرات الصوتية بتصاعد الحزن مع تصاعد صوت ياتي من بعيد، من وراء الجدران وهو يهتف الحب الصادق للوطن، وعلى الرغم من أن هذا المشهد نفاذته في تكامله الكائنات المختلفة من التشكيل الملائم للمشاهد وحركة الكاميرا وزواياها إلى الميكور والأشياء، إلى امتزاج المعتل بمأساوية الفعل الذي يحدث بلا ثمن. هذه العوامل الشجاسة ساعدت على إيجاد إشباع متناقص حاول رفع شوية الفيلم، وقضى بشكل مؤثت النص السينمائي الضعيف، إلا أن لثمة الإخراج **والملثمة غير المضبوطة** على رغم بعض الحذافات التي حاولت إغواء وإعياها بالتميز حين تميل يمين وكائن أسوأ من أفلام المقاولات التي بدأت تعرض نفسها في تلك (إرجلة)، وله شكل متفرجة حين كيار إرجاعا هائلا عن فيلمه (شيء من الطوفان) ١٩٦٩ والذي تشابه فيه مع المرحلة الناصرية.

ويتجاوز المخرج عاطف الطيب ومن خلال السيناريو المحكم رؤية الموت العايب التي سادت الأفلام الأخرى، واعتبار أن الإنسان هو من يضع تاريخه موتا، جنونا، عيذا، وذلك من خلال تقديم شخصية التلقف في فيلمه (الهرج)، والذهاب إلى أبعد مدى حين يشير إلى أن التلقف الحقيقي هو المحرك للأحداث، فالتلقف عنده هو روح الشعب ونضارته.

فرشاد عويس الكاتب والروائي الذي يعي تعلما حثيثا وجوده في المعتقل، يدرك تماما أن الروايات الجنسية (التي يكتبها والتي يقرأها لا يمكن تلاقحه هنا)، وأنه إذا كان لابد من الموت فيجب أن يكون موتا يحقق أمنيته ويهدية من أفكاره ومواقفه التي اضطت به إلى المعتقل، فيحاول الهرب وقضى من جراء ذلك مصرعه.

ومن ناحية ثانية نكتشف صورة مفارقة للمعتقل الصليبي برضوخه للدمر ضمن سياقات المعتقل حيث نجد الوعي الخارج عن المألوف، الوعي الحاد الصدامي، الذي يعتمد على منهجية تفكير مزدوجة عند المخرج المسرحي في فيلم (إحنا بتوع الأوتوبيس) حيث يرى (أن مصر كلها محتاجة لعملية تفجير وبفجر السماء لا يمكن أن يكون هناك تفجير) نشاهده مدافعا ملتزما برؤيته الأيديولوجية، وفي السياق ذاته يتعبد الموت عيذا، حين يلامس عامل التحويل

حلمي الذي لا ذنب له في فيلم (التحول) حلمي انشاعر بالظفرة والذي يعيش الحب الكبير الوجداني لبلده من خلال اشعاره الرجزية التي تتداعى على لسانه بشكل تلقائي، وعلى الرغم من حبه لوطنه فإنه يدفع ثمنًا لواقعه بعدما استقر وعيه بأن التاريخ هو لعبة فسرة. يدفع حياته دفاعًا عن قناعته بالتصير المشترك للمعتقلين، فنانة عشتت في شرايينه والظفرك في وجدانه، وتتعمم صورة الموت العبي للطلال سفير الأستاذة الجامعية، هي فيلم (وراء الشمس) والتي تعمل مع السلطة ومع أجهزة مضاميراتها بالذات فإنها على رغم ذلك تدفع حياتها ثمنًا لواقعها بدافعها من أسدقاتها والذين امرهم في الحامنة، بنزيف التقارير عنهم.

نوع المرأة ..

تعتبر الثقافة التقليدية هي الثقافة السائدة في مصر والمجتمعات العربية الأخرى، من حيث النظر إلى دور المرأة المؤسسة من خلال الرؤية البطريركية بأن الذكورية تتمثل بالقوة والسيطرة والسيطرة والسيادة. أما الأنوثة هي الضعف والخضوع والاستسلام لسيطرة الرجل، وتعود هذه النظرة الريفية في المدن وليس في الريف فقط **فالتصور المعياري للمرأة في الريف كأمراء وزوجة وأم، أي الدور الذي يقوم به منها المجتمع، وما ينتظر منها القيام به يتفق اتفاقا كبيرا إن لم يكن يتطابق مع دورها المعاصر هذا، ولهذا لا تحيد المرأة الريفية عن الثقافة المصرية التقليدية فمعها هي أي صراع ليس بالهوان والتخلف، ولا بالفساد في أدائها لدورها أدنى مضاعف الاضطراب¹.**

وهي وبسببها إبعاد المرأة لم تخرج سينما المتقل عن سلبية الرؤية للمرأة حتى وهي تلج أهم الأبواب بمظاهر الحياة الاجتماعية، فقامت بتحديد وتأطير هذا الدور بعناية ودقة، بما يعكس الرؤية الذكورية (الجنسية) للمرأة حتى ضمن التحولات والتناقضات والصخب، هي تلك الفترة المليئة بالاحتمالات كافة، كما تحاول سينما المتقل الإيهام بوجودها وتحققها على الأرض. والمرأة في سينما المتقل سواء أكانت ممرسة جامعية، طبيبة، طالبة، أو موهقة، تتجسد ففكرة محددة ألا وهي الزمرس القاتلة حيث إن همدان يكرهها سواء كان الأمر اغتصابا، عتقا، وهذا هو حتمية مقدره مقدره سلفا جراء دخولها معترك العمل السياسي وولوجها أبواب سعية شاقة ثم الاستمرار بها على المستوى التاريخي واحتكاكها بالرجل.

هذا الفكر المتضمن في الأعمال السائدة على مستوى الرمز المستتر خلف الأحداث بأن ابتعادها عن هذا المجال هو أدعى للسلامة والطمأنينة، طالعناج النسائية الأخرى التي تتوازي مع المعاملات السياسية هي فعلاجات جنونة، شعاعية، متوازنة، حائلة، تبحث عن الحب والاستقرار العاطفي، هائلة مدبولي حبيبة جابر والتي لا نشه بها يدور في العالم الخارجي من صراعات، هي التمردج النقي للبرادة والظفرك، كذلك الهام شاهين في (البريد) والتي تظهر بمشاهد

لا تتجاوز العشر دقائق، حيث تمتلئ دور الفلاحة، هي رمز للاستجابة المتراخضة مع طبيعة القلب. بينما نجد المعتورة في الكرنك هي الأمثلة للموسم الفائضة التي فتحت بكارتها في المعتقل وتعرضت للاغتصاب إلا أنها بعد خروجها تمارس الجنس بكل حيث ومجون تعبوا عن فقدان الذات السوية وهي أيدة الحي الشعبي المتقيد بالأعراف والعادات والتقاليد والحكوم مسبقا بالرؤية الشرقية هي أن الشرف يتمحور فقط في منطقة محددة من جسد المرأة (غشاء بكارتها). أيضا نرى المدرسة الجامعية مهيبة في (وراء الشمس) والتي تعرضت للاغتصاب والابتزاز جراء هذا الاغتصاب إلا أنها مشروع عامرة على مستوى عال، حيث للتقل بين أحضان رجال المخابرات ومع كل ذلك تصورها هذه السينما بالموسم الفائضة حيث تستغل موقعها الجديد لخدمة وظائفها وتضليل رجال الأمن باعطالهم أسماء وجمعية من خلال التقارير الدورية التي ترجع إلى مسؤولي الأمن.

ومن جانب آخر تشهر سينما المعتقل إلى أن المرأة التي تعمل بالمهنية حتى ولو تم تنفيذ بكارتها داخل المعتقل إلا أنها ستفقد هذا (معلمة مقصورة سقا) خارج المعتقل فتجد إهمام في فيلم (الهجامة) لتفقد بكارتها بعد خروجها من المعتقل نتيجة انهيارها مع سوفي بعدها بالمخدرات ليمارس الجنس معها.

مع إهمام نرى الأفنوارات التنهية والتنافس وميولا للجسماء والذي خرجت ليعمله من المعتقل. وبمشهد من أفضل المشاهد السينمائية التي عرفتها السينما العربية نجد إهمام تضعك بهمكتوبيا معدة على السرير لتقبل لجهاز التلفزيون تحت تأثير الهيروين والجنس، بينما للذبح يتحدث (ممنذ عامين اقتنع الرئيس السادات بدار الكرامة لهشن من خلاله هجومًا من أجل السلام- السلام من موقع القوة من اقتصار أكتوبر العظيم، إنه بعد يده من خلال عشرات المئتين من العرب والعمار ليضع سامية إسرائيل أمام مسؤولية السلام) فتعرض إهمام وهي شبة متهاذلة لتناول المخدرات وتظهر إلى نفسها في المرأة وتبصق عليها بينما الذبح يكمل: (الآن تبدي اللحظة التاريخية ويوقع الرؤساء الثلاثة اتفاقية السلام التي توصلوا إليها في المحادثات الأخيرة وبعد أن كانت المناوشات قد وصلت إلى طريق مسدود لولا شجاعة الرئيس السادات).

في هذا المشهد يمزج المخرج محمد النجار بين الوثيقة الإخبارية التلفزيونية والصورة السينمائية...

ويبدو في مشهد هذا إلى بناء وثيقة سينمائية تاريخية تعمل الدلالات وتخلق الإدارة النفسية والتساؤل لدى المشاهد.

وحرس المخرج النجار. بعيدة السينمائية. على أن يلتقط تفاصيل دقيقة لتأكيد البعد السياسي لفيلمه، وحاول تكتيفه ولصيق بعض السياسي لفيلمه على رغم الحكاية الشعبية

دور المعتقل

التي تدور فيها المطاردات وتعاطي الضغوطات، والانعصام، وأجاد شهادة معتليه لولى علوي وهشام سليم وسيمون.

أما ما عدا ذلك فإن ظهور المرأة هو ظهور هامشي غير فاعل في الأحداث فتجسد مشكلة في الركن تلطم طبعها عند غياب معيها. كان الموضوع الاقتصادي لا أكثر، فتجد من هذه التماذج في التحويلة زوجة جابر، زوجة مدبولي في (أحنا بنوع الأوتوييس)، بينما وهي اتجاه آخر ترى في التحويلة كيف تلعب زوجة لقدم عمر دوراً محورياً في كشف المضح عن آلية السلطة، وفي توضيح مكان عمر حيث هو في المعتقل، لأعلى درجات المسؤولين.

تكوين الخطأ

وتجسد هذه الشخصيات من خلال هامشيتها، ووجودها في المكان الخطأ في الوقت غير المناسب، فيكون للصدفة الحيز الأكبر من خلال تمثل وجود هذه الشخصيات في المعتقل، حيث تبدأ بالنظر وبشكل مغاير لطرواف حياتها الاستثنائية التي تعيشها. وفي هذا النسق نجد شخصية مدبولي في (أحنا بنوع الأوتوييس) لحسين كمال، وهي شخصية طاعنة في السن، ومستعدة في العمر. نراه في سياقات حياته الاجتماعية متهدداً منكسراً يؤثر السلامة وعدم الحديث في أي جانب يلامس السياسة، ونحن نتبع بموقع ملتصق بحول يله إلى كلفة تناغم السلطة حيث يزرع جدوان يتم بمباراة السيف والشهامة، ويقرأ آياته ذات الصوت العالي لبيانات الثورة، ويبدأ بسماع الأحاديث والبرامج السياسية المؤيدة للنظام، ويرفع صوت الاحتجاج عند إدانة برنامج الكفاح لتكثفها الحقائق لأعلى مدى يسمح الآخرون موافقته للسلطة، إلا أنه وجارء جابر، وإثر مشاهدته مع حامي الأوتوييس، يلقى بهما في المعتقل حيث تكون لحظة وجوده هو وجابر في السجن المدني مترافقة مع حضور المعتقلين السياسيين إذناهم لفرطهم إلى المعتقل فيرحل معهم. كذلك الأمر بالنسبة لشخصية حلمي في التحويلة والذي توافل وجوده أيضاً، ويحكم عمله في محطة القطارات مع لحظة اكتشاف هروب معتقل سياسي آخر فيلم الزج به بدلا من السجن الهارب، وكذلك شخصية ايناس (الهجامة) والتي ترافق لحظة الإفراج عنها من السجن المدني، مع اندلاع أحداث يناير ١٩٧٧، مما يفضي لاعتقالها سياسياً، ولكنها تخرج أكثر تصميماً وقدرته على صياغة الأحكام الواقعية والأفعال العملية.

المرحلة

تعدنا سينما المعتقل بأنها توفر المكان كونه سينمائي يحصر الحدث بأقصى حالات تعجبه الدرامي الإنساني، وتجاهله تأخذ حضوراً مهماً وفاعلاً في صياغة الأحداث الفلمية، بل يمكننا الذهاب لقول إنه القطار الرئيسي للأفلام، شريراً، مكافئاً للاحتجاج والصراخ واحتقاد الضمير.

فهو وإن يمتلك المساحة الكبرى من الحدث السردي للفيلم، إلا أنه يستفقد متابعة الشخصيات في أقل لحظاتها وإعطائها اليومي في المعتقل، واللايومي من خلال التذكارة التي تترافق هزيلة، باهتة، تحصد بلفة مشهدية يستكثها الضيق والتقاؤب، وعبر لوحات مشدودة للصراع والثبات، هذه اللوحات وحضورها الصارخ توسم المكان بالترعات الغريبة في ساديتها، والرؤى الإنسانية ومحاولات وأدهاء هذان التقيضان اللذان يتصلعان ويعجزان بمحدد سلبي محكومان بنتائج هذا الصراع بشكل مسبق، مما يفقد هذه السينما مجال بحثها الخصب وواد المحاولات الجادة التي تبحث عن هبة هذه الأماكن، فتتلاشى الفكرة الصميمية الهادفة في البحث عن إنسانية الإنسان والمرار إبعائها والصورة التي تطالعنا على الشاشة.

فوالم هذه السينما للعددة المستويات تقدم خصوصيتها حين تصل إلى المعتقل، على رغم محاولة خلق مناخات تجسد لشد الحبكة الفيلمية ومنحها إيقاعاً متماسكاً ونفساً جديداً يصل إلى رسم جديد للشخصيات التي تتحرب أياها فيتحول المكان إلى مثل للأحكام البرية والعهد الرومانسية والتفكير بمدى الفعالية والشاركة الاجتماعية لتحقيق الصبر الكلي، فيه يبرز الفردية لأقصى مداها، وفيه تتعالى انعكاسات الطهر حيث يصبح الإنسان باحثاً عن الخلاص الفردي للخروج من مأزق الجحيم هذه، وفيه أيضاً انعكاسات الشخصية الأمرة وهي تكاد حتى التعملة بالمعنويات والآثمة المترافقة مع الإهمية فيتم التركيز على الفعل الخارجي والحركة الخارجية حيث يتهدى عدم المساهم المتكبر مع المكان الذي يثرون فيه لغشيتهم الداخلية منه، حيث يتم التركيز على التذلل كإطوار يقوم بوظيفة المائدة لتكون الصورة العلمية للمعتقل فوجهة الكاميرا تأخذ المتفرج وتوجه نحو مناطق التعذيب، والتصوير من هذا التطور يعود إلى تأثير واقع على صور يفترض أن يكون لها وجود في الواقع.

وفي عموم الأفلام التي تتناولها والتي بها ظهور متعدد المستويات للمعتقل التعسفي فإن المساحة الزمنية الكبرى توظف لحضور المعتقل بأعشواره نقطة النهاية لهذا الصراع غير المتكافئ بين قوى المجتمع.

ففي أكثر من فيلم نرى المكان وهو يعطي نتائجته النهائية على الأفق المسور بينادي الحراس وكلايب التعذيب.

وتتفاسم هذه الأفلام الاشتراك في المكان ويعطيه زمنية مشتركة، تنكس لحظات معينة من لحظات المتكاتبين حيث تروي هذه اللحظات القصة حتى تلك اللحظات وما بعدها، وعلى الرغم من تعدد المقارنات في هذه السينما وانتقال الكاميرا من معتقل إلى آخر، وعلى الرغم من المحاولات المختلفة من الخروجين للاقتراب من الواقع من خلال تحويل المقارنات ووصف تفاصيلها، ومحاولة محاكاة المكان بأدق جزئياته لإنشاء صورة سينمائية تشرب من الحقيقة وتسهم في إنجاح العمل، إلا أنه من الملاحظ أن المكان غير المتمايز يزيد

بدرجات متفاوتة، فطبي عدة أفلام لتهدى المعتقلات وكأنها معتقل واحد، سواء من حيث أمكنة التصوير، الديكورات، التخصيبات الداخلية، وكأن الأفلام هذه قد تم إنتاجها ضمن استديو واحد، وضمن رؤية إخراجية واحدة، الأمر نفسه للحظات الاعتقال قد تم تناولها بأشكال مختلفة بشكل عام، ومعتبارة نوعاً ما وفق الأسلوب القروي لكل مطرح، وقد يكون مرد ذلك إلى الله، وإن اختلفت تسميات المعتقلات وأماكن تواجدها، فتتفج الصدام الاجتماعي لابد وأن تلتجج معتقلات تصيغ مفرداتها وبشكل محدد، سواء كنتصيبات الداخلية للمعتقل، غرف الضباط، غرف الحرس والجلادين، الهاجج والوزانات، أمكنة التعذيب، نقاط الحراسة.

هذه المواضع يقدمها المكان كمؤشر دلالي على ما يمر في داخل الشخصيات المعتقلة، وهم ينظرون محبوسهم المجهول في كل لحظة، وهم يتجاوزها المخرجون يبدوا لها المادي ليتحول من خلال الوثناج السريع إلى مستوى رمزي يتحو نحو إيجاد نكافء حقيقي مع الخلفية السياسية والحزبية التي ترمض وجود هذا المكان.

وبمشاهد مثالية يتم تحويل المكان غير المتمايز إلى مصدر نتيجة، وإلى بيان منظم يخدم الخيال الذي يشيده فيكون التشكك الثابت في نظرية الكاميرا، وتوجهات الشخصية التي ترسي الصيغة الأساسية لهذه السينما، واعتبار أنه ينظر كل شأنا الواقع دون أن يجمعها فيعامل الجامعات/المعتلة كذلك صور واضحة المعالم وتكون حركاتهم البهلينة أمام الكاميرا دليلاً على عبثية المكان، باستثناء الشخصيات البهلينة التي تكثف الكاميرا وراء حركاتهم، وتوثق حركاتهم وإدراكهم أمام الخوف من هذا المكان.

ففي فيلم (أحنا بنوع الأترييس) لوحيد الكاميرا صورة القمر الذي يتعطل ويجهد كبير من خلال قوة صغيرة جداً عمורה بالحديد، فيصبح هذا الضوء الشاحب ملوناً قاتلاً عندما يستلقي على الجدران السوداء القاتمة لتغير بعض أسماء المعتقلين الذين مروا في هذا المكان وهم يزورون حياتهم ووجودهم بأشكال مختلفة من كتابة تاريخ اعتقالتهم كما تحفظها ذاكرتهم، أو بإنشاء خطوط متوازية، بينما ينج الدعاء القاتمة للتائر هنا وهناك للتدليل على الاختلالات التي تنم، وأثار الضرب ترسم ملامح الوجوه للتورمة والعيون التي تحيط بها الموائع الزرقاء، هذا المشهد الترافل مع موسيقى الفنان بلخ حمدي، والذي برع المخرج في صياغة شاعرية وارتقى بهذه القطعة إلى المستوى الإنساني الجارح في تعارض مشعر بين الكادرات المختلفة لتشكيل صورة ترف سلاسل مؤرقة.

بينما المخرج أمالي بهنسي في فيلم (التحويلة) فإنه يتعامل بصورة أشد تكليفاً وأكثر روعة، برصد المفهوم للتحويل لداخل المعتقل حيث لا نجد كاميرا غنيم بهنسي ترمض دواخل المعتقل بالشكل التقليدي، بل نراها وبمشهد مرهق تسجل ما تروى وتمضي، حيث تكشف القطعة داخليا مكاناً في العمل.

حلمي مكتوما في الزاوية، تحيط بحصده دائرة ينطبقها السواد، ووجهه مشروحا، في هذه النقطة نستند الكاميرا إلى شبكة كاملة من المماثلة للعين، خاصة وأن بقعة الضوء الدائرية الوحيدة تنتج تأثيرا مزيجيا، فكل شيء يجري كما لو كانت الكاميرا خارج جدران الزاوية وتنتظر من يفتحها، والمكن المعطى لنا في هذه النقطة قابلا للتوسع، قابلا للدخول إليه،

في هذا الفيلم يبرز عنصر التصوير والذي يركز على عنصر الليل والضيباب، فيستخدم الظلال ليعكس الإحساس بالألم فيما تتأثر بقع الضوء على مهاجع المعتقلين من الخارج بأسلوب مشرق فكل يحاول عكس حالات الظل داخل المهاجع نفسها.

وعلى الرغم من رصد مبعوثا المعتقل الكارثية المكان وفسادته من جهة فإنها من جهة أخرى كانت لها بعض الحلول الجزئية لإعطاء بعض الصور على النزوات الإنسانية التي قد تحدث داخل المعتقل، وعلى الإبقاء بأن حتى السجناء أنفسهم ما هم حقيقة إلا أسرى لعنف هذه المؤسسة ولتقولات شرسة في عقولهم.

ففي مشهد واقعي خاص بالخرج عاطف الطيب في فيلم (البريد) تتجلى حساسية المخرج وتصويره في هذا المشهد وكأدراكه، حيث تتجول كاميرا سعيد شيمي بشغف مفتوح للإبقاء على حقيقة هذه الزاوية، حيث ترى الحراس وهم يجلسون خلف المعتقلين في الباحة الصحراوية للمعتقل، يجلسون وبالمشاهدة فليهما التي يحرس بها المعتقلون واضعين أسلحتهم جانبهم، يتناولون طعامهم في الصحراء نفسها التي يتناول فيها المعتقلون طعامهم.

في هذا المشهد تجلت قدرة عاطف الطيب في إدارة الجماع وتوزيع الأدوار بتأهم وتانسق بعلى كأبرز ما يكون في مطرح يمتلك أسلوبية الميزة.

ومثلت الصحراء بحضورها الطاعني على إنجاز المؤثرات الخاصة في إعطاء صورة مركبة عن وحشية هذا المكان وكآلامه فهي تصاعده من عدد في زيادة الأعباء على المعتقلين وإشغال كواحلهم في التعب وفطرت العرق للتصبيبة وسياط الشمس النارية، فكثافة الرمال ونفوسها والاضرار الذي يغطي المساحات الشاسعة يحلان الروح إلى جرداء قاحلة مما يعكس على الوجوه التي نستمرده الكاميرا رصدها وهي شاحبة ضامرة، تنقل ملامحها اللوعة الخائفة للأحلام والروح، وزيادة في قتل الأحلام نجد ممارسات القائمين على المعتقل وهم يحاولون إظهار الامتيازات وظروف الراحة التي يحوزون عليها لأنتمائهم إلى مؤسسة السلطة من جهة، ومن جهة أخرى إبعاد أصال ضافة تحت الشمس، ففي (البريد) يظهر الضابط نائب مسؤول المعتقل حسن حسني وأثناء ظفده للسجناء الذين ينصبون عرفا تحت الشمس اللاهية، بشكل مبعوج يتجول مضطجعا للسجناء وخلق جندي يحمل مروحة كهربائية تمتد بشرط لثبات الأمتار، والصحراء هنا تأخذ دورها في امتيازها لأحد طرفي الصراع فتبعد عن بيتها البكر القول من جانب المعتقلين في رحلتهم القاسية المثقلة بالأعباء، ففي (أحنا بنوع الأوتوبيس)

يدخل المصوب إلى الضابط الذي يدار بسؤاله عن المعتقلين فيقول له أنهم واقفون في الشمس منذ الصباح، فينظر إلى ساعته ويقول: (خمس ساعات من بطلان)، ويخرج إلى المعتقلين الذين جئت لحولهم ويصمت من العطش الشديد وهم ينزفون عرقاً، وبينما يدخل المعتقلون التحميل معهم، نجد أن الضابط نفسه يستنكر على نفسه أن يطكو حتى مراتحة العرق، فتراه في كل مشهد يصح أنواع العطريات على جسده، على الرغم من كل وسائل الراحة والرفاهية والتكيف التي يحوز عليها، كذلك يقوم التعذيب عزمي في (التحويشة) باستمرار المعتقلين المبروسين تحت أشعة الشمس القاحلة، حاصلًا عصاة، ويلوح بها بمنهجية منقطعة النظير كاستطوب لتعظيم التوبيخات والحصول على الاعترافات كما يريد، وبالإضافة إلى دور الصحراء وأشعتها لتعظيم التوبيخات، فإننا نرى في (وراء الشمس) حاصلًا إضافيًا يستخدمه التعذيب حيث يستعرض أحد الكلاب وهو يفترس أحد المعتقلين ضاحكاً للحصول على اعترافهم ووجود الصحراء، وتوضيح حقيقة التناول الدرامي هي تناول أشكال القمع، فإن سينا المعتقل لجأت إلى تعاطيات واحدة في أسلوبية تعاطيها مع هذه الصحراء، فتعد مشاهد متعاقبة متطابقة تقلت حرقها من فيلم لآخر حتى دون مبررات ذواتية تقدم السيناريو والقصة، سوى إعطاء تركيزات مكثفة لعصبة القمع السائد. فكما نرى سعيد عبدالقني ضابط (إحنا بتوع الأتوبيس) معتقلًا حصانه، حاصلًا سيطرته، يهيم سجنًا لا يرى صحراء المعتقلين في الحياة الخارجية مستمعًا حتى التملذة هذه الرزية، فإننا نرى بخصيص عبد العزيز في البرية متمهلاً فوق حصانه جلالاً بين المعتقلين وهو يعمل السوط مصطباً أحد الحراس عن التقصد، وبمشهد آخر تراه يطلب من نائيه تكليف المعتقلين بحضر بار داخل المعتقل، عملية الحضر هذه تستغرق ساعات عديدة، وجهداً وعرقاً غزيراً، وعندما يبلغ بأن المعتقلين قد قاموا بإداء المهمة المطلوبة يهي طلب من المعتقلين ردعها، هذا المشهد المكرر أعيد ظهوره في فيلم البرية وبالحريرية نفسها التي قدم بها في فيلم (إحنا بتوع الأتوبيس)، وعلى الرغم من أن حضور البهينة الصحراوية كلن طاعياً إلا أننا نجد ظهوراً للمدينة، الريف، الجامعة... هذه الأمكنة التي توضح لثبات الاجتماعية لشرائعها البطالة المتمثلة في المعتقلين، فهي الأقلام نجد حضوراً لافتاً للجامعة حيث النسبة الأكثر من معتقليها من الدكتور الجامعي إلى الأستاذ إلى الطالب، من الذكر إلى الأنثى، الجامعة حيث هي المؤشر العملي لطبيعة الفهم الحفوي لبنوية هذه السلطة كما ذكرنا، ولكن في حركة الشخصيات الجامعية نجد أن الجامعة هي مكان معاهد نوحا ما ومع ذلك فهي تقدم علاقات شخصيتها المعتمدة على الفترات السابقة.

وباستثناء فيلم (وراء الشمس)، فإننا نجد أن حركة الجامعيين هي حركة عطفية غير بلاط وغير منسقة وباردة، منسلخة عن إطارها الاجتماعي وفراها الاجتماعية، فعمل يكون الاعتقال فإنه لا يؤثر سوى على الفرد وعائلته فقط، حيث نجد في (وراء الشمس)، حركة

بعض الطلبة تتجه نحو أسر الشهداء ويذهبون لزيارتهم ويعملون على تحسين أحوالهم، ويخدمون لهم المساعدات العينية والمالية. هذا الأمر الذي يزعج السلطات الأمنية التي يصل بها الحد إلى تهديد رئيس الجامعة بأنه مفضوب عليه. حتى يمارس جهوده وخطوته لإسكات الطلبة. طلبة (وراء الشمس) ينفون ويدافعون عن الثورة ومن موقع النقد البناء الهادف إلى تجاوز الأخطاء والاستفادة منها. ترى صريف الحفل الذي تقيمته الجامعة بشف متصديا للمعبر الدوسوس بعدما يفرض للثورة قتلا له: (أنت مش من حقت تتكلم عن الثورة، أنت حايين ومضطرب، أنت مش مننا إحنا أبناء الثورة الحاضيين. خافين عليها من النحرفين أمثالكم).

وعلى الرغم من هذه الرؤية الواضحة المتقدمة إلا أننا حطبة نرى أن سياقاته القليلة السابق الذكر تبعد عن هذه الرؤية وتأخذ إطارا فطريا شكلها لمحورية أحداثها والأهداف الثورية عليها. لإيجاد صيغة قلمية تصب في سياقات أهداف سينما العقل.

أما الربيع فله دور رئيسي في الإشارة لخطورة الإنسان ومدى تطفه الحشفي بالأرض. يعيش معها وبها، يشتم عبقها فتنبذ عواطفه واتجه التراب النضج بالشتاء الأول. تلك الراحة الحارقة، الواحدة التي تغطي للأرض مظهر آخر مختلفا عن القماني التي تصوق بشعارات. فتعكس مسيرة أساطي الأهل، لتتقن من الترميم. إثبات الحظيفة لعنى الانتفاء فتكون الرحلة نحو المدينة بطنها وقنوجها. في رحلة يفتان الأمان بالانتماء إلى البيئة الطبيعية. لتعكس المشاهد أن مدى التزييف والخداع الذي لحق بالإنسان، إنسان المدينة.

وفي ظروف رحلة كهذه تكون محاولة استعادة النصف الأحمر الذي فقد في المدينة، بدلائلها المتشابهة وبناها المختلفة. وأبناها المتناقضة... حيث ترى بطل فيلم البري، أحمد الصلاح الأمي، ساعدا مع المدي محشورا في عربة التزل مناملا جوانب الطريق الثرية وهو ينادي قريته نحو رحلة مجهولة. لا يعرف ما تحمله له من مفاجآت، يعتنق صديقه الوحيد في رحلته هذه. الناي الذي كان يعزف عليه تحت شجرة في وقت الاستراحة. هذا الناي الذي يضطر إلى التخلي عن العزف بواسطة فيسقط من يده. بإشارة لسقوط الأحلام البهينة عند بداية الفيلم. نتيجة الأمر العسكري. (لا أنه وبعد اقتضاح آلية السلطة في نظره سرعان ما يعود لينشطه ويهتبه قصوى. كذلك جابر في (أحنا بنوح الأوتوبس) القلاحي للثيت، الهندس الجيولوجي، والذي ينحرف في المدينة في ملاقات فيعيش العبث بكل أوجهه. وكرد فعل لفرزه في مجال غير اختصاصه الذي قضى سنوات يتعلمه. جابر ويعملونه الصلاحية الكامنة والعميدة عن مؤثرات التغيير يقوم بدفع حياته مدافعا عن جاره وصديقه العجوز مديولي. كذلك المولوجي طسي، الريني للثيت وصاحب الأخلاق الرينية الكريمة. يدفع حياته لأجل حماية الخدم صبر. وهو يشعر أن موقفه جاد. ومنزوم في الدفاع عنه.

الاعتقالات والاعتقالات

عما لا شك فيه أن المعتقل يضع الإنسان وجها لوجه أمام مرآته الداخلية، كاشفا تناقضاته، ظروفه، تملكه، شخصيته واهوازها، فتشهد نماذج تعيش التغيرات الداخلية وهي تبحث عن بعض أمل للخروج من هذا التقليل المظلم. هنا تهمز القيم وتفسح الأسالة ويصبح كل شيء ممكنا. فالتنظير الأهم في أيديولوجية وجود المعتقلات هي توجيه الضغط نحو الضغط لتتناب الفرد وهي مواجته انكسارات والتغيرات تؤدي به إما إلى التشكيك في مواقفه وجزئيتها مما يجعله يعيش الضيق أو الاغتراب، وإما أن تؤدي إلى الجنون أو التحول إلى تشويه لكل ما سبق في تاريخه المميز. هذا الشهر الذي يتجلى بالبيات التمدد الهدف للوصول إلى النتائج التي ذكرتها. هو صيغة رديئة متلاحقة. حقيقة وصورة الوصول إلى حالة تعيش الانطواء. والخجل والتكرار لكل ما مضى فإسماعيل في (الكرد) يعيش الانطواء، والتفوق اللامحدود يسير وبهينة وثقة تتناب حالات هذان للضامة التي فرضت أمامه بأنه السبب الأساسي في الغضب حبيبته. وأنه عندما اقتضيت أمام عينيه ولم يستطع أن يدافع عنها، كبريل فيضمها. هنا نرى العكاسات المعتقل في بناء الشخصية السوية وتحولات هذه الشخصية من الرؤية الإيجابية والحلم بالتهجير **لواقع أفضل** وإنساني أكثر. إلى سلبية لا تملك سوى فقدان الأمل بالاستقبال. هنا أيضا نجد موضوع الشرف والحياء عليه. حيث نجد أن المعتقل يشكل إحدى أهم بؤر الجرائم ضد الإنسانية إذ تتم إما بحالات الاغتيال المتعمدة أو زوجات أو أخوات المعتقلين. وإما بشعيرة الحسد كتمسدة لعل الاغتيال، والذي يجعل الشخصية تنهار مواظفة على كل ما يطلب منها. فهي أطلام المعتقل أكثر من حالة اغتيال أو غير. نجد ذلك في (وراء الشمس). وهي (الهجمة). أما في دراما العلاقات الاجتماعية فقلما نجد أن هناك أرضية فعلية للتلاقي على اتصال اللواقط الجماعية لمواجهة المصير الذي يشترك به الجميع. وبذلك نرى التحول العكسي من المواجهة الجماعية إلى الانغلاق الفردي للبحث عن المصير الفردي. فتجرب نظام الكلاب باعتراض أحد المعتقلين في (وراء الشمس) فإن أحدا من المعتقلين لا يحاول أن يدافع عن نفسه. بينما في الاحتمالات أن الشهية قد تنضج ويكون دوره - أي واحد منهم - هو التالي، وسمة أخرى بارزة هي التفكير للفعل السياسي الذي يؤدي بالفرد إلى الاعتقال بعيدا عن الدفاع عن معتقده، أحلامه، طموحاته، ففي فيلم (البريد) حين يطالب ذلك المصير أحد المعتقلين وحسب التهمة الموجهة إليه (أنت شيوعي) هجيبه بالقفي شارحا له أسباب اعتقاله قائلا: (كنت في مظاهرة نساء وأنا ما يهمني سوى المؤخرات والصدور ويطلب منه تسليمه ليويس الأداب).

وهي (وراء الشمس). نجد نموذجا آخر يصرح بغير الجيمبري وأصلنا نفسه بأنه يعارض الدعاية ويطلب منه تسليمه ليويس الأداب أيضا، بينما في الفيلم ذاته نرى شقيق سوبر والذي

قتل أبوه وأودع في المعتقل كي لا يروج بالحقيقة، نجده شخصية مهترزة متناقضة تمارس التذلل والترضوخ. تكون المعتقلون يتنل وشوشاتهم إلى المصعري، كذلك سبهم التي بدلا من أن تعمل على شيان مثل أبيها ومن يثب وراءه نجد أنها قد انغمست بعلاقات خطيرة غير مشروعة يحكمها الجنس والمشروبات الكحولية تحت لافتة خدمة التقيم التي أمنت بها تجاه وطنها، بينما في الواقع نجدها تعيش الارتداد عن القيم الاجتماعية الأخلاقية والتي خدمت أطرها الأعراف والعمادات والأخلاق المثيعة، فتعتمد علاقاتها مع الجميع ووجودها جسدا مستباحا يعرف منه السلطويون ما هو إلا التحديق الشغلي لتحويل هذه القيم، وفي (قانون أيكما) نجد الارتداد المطلق والتشكر لكل التاريخ المكري، العقائدي بل وحتى الشطرنجي من جراء المعتقل، هذا النموذج نمكسه شخصية الدكتور حسين مرسى، الذي يعيش الانغماس والتشكك الهذلي برعب منقطع النظير من مجرد ذكر كلمة بوليس، مما يجعله يعيش بلوع من الرضا حين يتنل إلى العالم السفلي، عالم الجريمة والمخدرات، عالم الدعارة والشجاعة بأعضاء الموتى، في إحصائيات غير مبررة وبمشاهد طويلة قدمت بركافة، وبأسلوب يفتق قاعدة العمل السينمائي على الرغم من محاولة محمود عبد العزيز رفع الفيلم من خلال الأداء المرح غير المعتقل.

المعتقل وحلة معكوسة

على الرغم من أن الفكرة الأساسية لسينما المعتقل تكمن في اتجاه الرحلة المضنية من الضارح للداخل المسور بالأسلاك الشائكة والبنادق، إلا أننا نلمس وحلة معكوسة في بعض الأفلام من الداخل للخارج، فهي حين تكون الأولى قد انقضت للمعتقل جراء موقف سياسي أو خطأ ملتبس فإننا نجد المعتقل قد أصبح مكانا للتعليم والفهم السياسي والاجتماعي، والذي كان مضطهدا من المعين العادية، حيث المؤلف السائد، فتتشكل في رحلة المعتقل وحلة وديقة تحمل في طياتها مراحل اكتساب الوعي والتطوير ورؤية الحقيقة كما هي وليست كما كانت مشكلة هي تصورات الآخرين.

وفي الاستنتاجات هذه عملت سينما المعتقل على هذا الجانب، جادة كاشفة لتطور الوعي لبعض شخصياتها وتطوراتها من حالة اللاوعي والاعتماد أمثلة القلق أو البحث عن معنى الالتزام إلى تحولات ملتزمة بالعام الشامل الذي هو الوطن، ككل بعيدا عن الإطار السياسي الضيق، فرى رحلة التحول عند أحمد في (البريء)، فالحقيل يتحدث من الفلاح أحمد الأمي والبسيط لدرجة السذاجة الذي لا يعرف من العالم سوى أرضه، ويذهب لتأدية خدمة العلم وبعد إجراءات التجنيد يقرز إلى مركز الطمعة والحرمان، ويذهب إلى المعتقل الصخراوي، وعندما تطلق فيه الضيق يقول عندما يرى للمعتقلين إنه إذا كان هؤلاء هم أعداء البلد فيجب التخلص من هذه الحفلة وعويدة المجتدين لئلا يزعجهم وأعمالهم.

وحسين (نظر هذا الوعي الهزيل فأنشأ نراء يقوم بقتل الروائي رشاد عويس ويتم ترقيعها إلى عريف كمنكافأة له ويأخذ إجازة عشرة أيام لينذهب إلى قبريته، وفي مشهد القضاء مع أمه يطلع بدلة العسكرية ويبقي على ملائمة الداخلية ليحرق الأرض بعدما أخبرتة بالأرض التي يسوء حالها. وفي هذا المشهد يتجسد النقاء النظري الوثبط بالحب الحظي للأرض من ليس أهم مصلحة حقيقية في هذا التمتع، المجند أحمد بدأت استنارة الوعي لديه عندما يجد ابن قبريته وصديقه حسين بين المجموعة الجديدة الطلبة الجامعيين المتعلقين، فينظر إليه نظرات ملقاة ويهتف صارخا في رفاقه الحراس: (نزل ايدك... حسين اقدي لا يمكن أن يكون من أعداء الوطن أبدا، أبدا) وعندما ينظر إليه قائد المعتقل يقول له: (دي حسين يا باشا، لا يمكن أن يكون من أعداء الوطن) فيطلب منه القائد مواصلته الضرب، فيرد أحمد: (اضرب... أ... إلا حسين)، فيكون سوط قائد المعتقل ينتظره، جراء هذا الموقف يلطم أحمد مع صديقه حسين وهما يتلفهان الضرب في المعسكر ويتم الزوج به مع حسين في زناوة واحدة عشاقا له، وفي الزناوة يقول حسين له: (ضحكنا عليك اللي هنا مش أعداء الوطن عارف يعني إيه وطن؟) ينيكي أحمد بحرفة متصانلا: (ليه حابكو هنا يا حسين؟) فيكون الجواب: (علشان احنا اقتحمنا حياطة)، مرة أخرى يرفض أحمد تأديب حسين حتى وهو في الزناوة مع أنه أبلغ بأنه قد يتعرض لمحاكمة عسكرية لعدم تلبية الأوامر العسكرية، ثم فيما بعد يشاورمان الأضاعي التي تلقى عليها بأخل الزناوة وبعد حريق حسين جراء لدغة ثعبان يطلق سراحه بعد إعادته لرتبة اللحد. هذه المشاهدات العينية والوحلة المرفقة التي عاشها أحمد منذ انطلاقة من القرية إلى لحظة مقتل صديقه، جعلته ينف متفكرا بحقيقة الثقلات والطروحات النظرية حول مفاهيم عامة، كالوطن وحقيقة تجسيدات هذا المفهوم من قبل القوى التي تستفيد منه، مما يجعله يحتضن مزارعه، بعينية قصوى، وهو الذي رماه في بداية المعتقل وينظر إلى الفضاء صارخا موحشية بعدما عاد الوعي الفطري إليه.

في هذه الصرخة التي هزتها الرقابة بدلا من إطلاق الرصاص، تتجلى قوة الماتة التي نشعر بها في تلك اللحظة، صرخة تجعل الأرواح ترتجف، وهي تحمل نبوة مستقبلية عما سوف يحدث من نمود قوى الأمن فيما بعد.

صرخة هز بها الخارج تلك الآلية المدعومة لفصل العنزل وجعل الإنسان البسيط، منه فما دون وهي في هذه التركيبة الغريبة عن فطوره.

في (البريه) وعندما يستعيد عاطف الطيب مرحلة الناصرة لا يبحث عن تفسيرات نفسية لتحليل يتأخم الفكرة السبقة، وتجوز حاجس التوفيق بين وقتين متاهضتين هما الرغبة في الصديق في التعبير بكلام جديد، شطص من جهة، ورغبة المحافظة على الحنين لذلك العهد الناصري والتي كنا نشاهدها خلال أفلامه الأخرى.

وجسد ذلك في بحثه عن النقاء الإنساني الحقيقي مع خبرة تقنية مدقشة نُحلت في التوافق السريع والخطوة اللاهثة. بأسلوب يحاول أن يجاري الحقائق المريعة التي يشكها السيناريو. أما في فيلم (الهجامة) فإننا نتابع رحلة إيناس، من فقدان الوعي إلى استلاكه، من موقعها الهامشي إلى دورها الفاعل والمؤثر. تقرأ في رحلة إيناس رحلة هي المرحلة السياسية الواقع المصري. وتفاصيل شائعة، هذه الرحلة التي بدأتها سجناء تحمل ثلاث سنوات حكمًا سبب المرافقة التي اقترعتها. إيناس في السجن تنعش للشنودة الثقل، ولكن عندما يعاد اعتقالها نتيجة انتفاضة يناير، وتودع في المعتقل السياسي لتبدأ رحلة أخرى صائحة (أنا هجامة، حرامية) وهي المعتقل تقابل نماذج مختلفة من المعتقلات: جامعات، طبيبات، صحفيات، موظفات، مثقات، وهي المعتقل تبدأ في اكتشاف أن جميع المعتقلات يحتمن حب كبير لمصر مما يدفعها للقول وببراعة: (هو أنايحب انجلترا وأنا كمان بحب مصر). هي المعتقل تكتشف أن الدنيا التي كانت تعلم بها هي الدنيا نفسها التي تعمل لأجلها الفتيات المعتقلات (دنيا ما فيهاش كل ولا ههه. ولا ههه) ومن خلال التعايش اليومي والتفاصيل والحوارات تخرج إيناس من السجن ملتزمة وهي تحمل رسائل المعتقلات وتضميم على الرغم من المعركة بأن حمل الخطابات سيعرضها إن ضطبت للعقاب وسيعودها إلى المعتقل مرة أخرى وعندما تخرج لتلقي بسيد الكومي وفي حوارية تقول له: (أنا بحسب على الأيام اللي كنت بعلم فيها حلم فقط. حلم بنهم بالضبط الكبيرة والبيز الثانية يشهد على البطة الكبيرة اللي أنت بشحكي عليها. هي المعتقل شفت ناس عايشتهم وعايشتهم وعايشتهم وعايشتهم (هم ميوه) فتقول له: (مش حاضرك إن أولهم أخني بنات زي الورد. بنات لا يحلموا بالزواج. بنات يحلموا بالدنيا الثانية بدنيا حليفة دنيا جنة فيها محبة).

وتطلب من حبها أن يدخل المعتقل ليحلم ويحلم بدنيا ثانية. وحتى بعد مقتل حبيب أختها من قبل قوات الأمن، ونظرات التساؤل والاستهزاء بل والإذابة لها بمقتله لم تقصد الإيمان بما تلمسته. ولم ترد أن تعود عن الطريق الذي استدارت فيه فتذهب إلى الأستاذ أبو العينين تشرح له وضعها فيقول لها: (الحقي نفسك وساعدي الذي حوذك اعلمي مشروع وشغل ولي البنات الصغيرات اللي ممكن يشبعوا. اخلي معمل ولي البنات اللي ممكن ينحرفوا ويسحبوا حرامية وينحرفوا بيوت دعوة) فتقوم بتحويل الوعي والتوير الذي استلمته من المعتقل والمعتلات إلى فعل حين تقوم بفتح مشغل طباعة تساعد فيه البنات الهشوات للسقوط وبذلك تحميهن... وهي تساعد الأعداء الدرامية وبعد مقتل أختها سحر تقوم برد فعل لمحاولة الثورة الفردية عندما تقوم بحرق المعززين الذي يملكه سيد الكومي حبيبها السابق. يقوم فيه بتحيةة المظاهرات للثوار.

وكذلك القدم عمر هي (التحويل) الذي يبدأ ومن موقعه في اكتشاف هشاشة المؤسسة وقدمها فتكون رحلته إلى المعتقل عاملاً تحريضياً يؤسس لوعي مستقل واضح الأهداف وهو

يراجه اليه الجميع السائدة. فبوظف خبرته الأمنية وثقافته وبيئته الاجتماعية لتحسين ظروف المعتقلين وتحسين إنجاز يخدم الجميع عندما يعرض على الإضراب على الطعام متنازلاً مع المعتقلين، والذي يشكلون منعطفاً حقيقياً على قادة المعتقل ورؤسائهم. التقدم عمر بقليل بمقابلة رئيس الجمهورية لو مندوب عنه فيشيع الرعب مما يقضي إلى قرار الخيالة.

بينما في (أحنا بنوع الأوثوميس) فنشاهد عبدالمعطي الصول الخادم الأمين كثرة جسدية للقمع. عبدالمعطي الذي لا يعطي أي مجال لتسلاطات الفعل عن حقيقة المشاهدات التعاقبية التي يراها في نماذج المعتقلين، وعمله الجاد والدؤوب هي تعذيب وضرب المعتقلين حسب التهم الموجهة إليهم في تعذيب البلد وارتباطهم مع الأعداء والجبهة الأجنبية. عبدالمعطي الذي يعيش حلم الانتظار الكبير للحظة التي يستعيد الوطن بها كرامته فيمن القضاء على إسرائيل واسترجاع الشرف الكبير الذي فقد، تتم لحظة التحويل الحقيقية لديه وهو يقف مدهولاً يتسأل بعد هزيمته (إيه التي حصل، إحنا ما انتصروناش إيه؟ إيه؟ ما السجن مليان أهو بالناس الوحشة التي خاضعين منها؟ ما انتصروناش إيه؟) فيقوم بالنظر وبشكل مغاير لكل الطروحات الفكرية التي لفت بها وتم حشو عقله البسيطة بها ليصبح أداة معرودة للطفل والقمع. وفي النهاية يأخذ موقفنا منطوقاً بناءً للشخصية المركبة حين يقوم بنقل مأمور السجن ويقتل بدوره من قبل الجنود الآخرين.

ARCHIVE

هزيمة جزاء...

الفتوحات لتسبح الزلازل يمتدح السكينة والهدوء، فقد حدث ما لم يكن يتوقعه أحد، اختلطت الألوان، والرماد، ذر في عيون أطفالاً بريهنا، وقد حدث كل شيء بسرعة، كانت الهزيمة أكبر مما للعقل أن يتصوره وأقصى مما للوجدان أن يتحملة، تناقضت الرؤى والمواقف حتى لجعل الثورة نصه (جيل يوليوي)، هذا الجيل الذي بدأ يعرف معنى الكرامة الإنسانية ومعنى وجود الفاعل على أرض وطنه، معانها في بناء وتطوير مجتمعه، فبرز التخطيط وإنهاء التبعات والتهم جزاء جزاء الهزيمة.

لقد حدث ما لم يكن يتصوره أحد من هؤلاء المثاليين، فالتكسبة انثرت شظاياها في فتاعات هذا الجيل، وسورت الأحلام لتقتضي إلى تقف مظلم طويل ينتهي بالحالين إلى كالوس الانكسار فتحدث القنطرية مع التصور التاريخي المستقبلي، ويفرق الجميع في بحر اللامبالاة.

كانت السكاكين تلوح في الأجساد وتهلل من الأوردة فتتمزق النفوس وتصبح السمعة الهذيانة هي سمعة المجتمع برمته، وبعد الهزيمة بدأت عملية مراجعة شاملة وقاسية، فالتقديرات النفسية فحزت إلى الواجهة وأصبح لها الدور المهم والحاسم في فهم المواقف والأشخاص، وانسابت كتلة من التساؤلات التي زعزعت الاطمئنان الزائف، وزهت القدسية

الوهمية من فوق رؤوس البعض، وقيل مخفي أقل من عام بعد الهزيمة شجرت الطائرات الطلابية الضيقة لأول مرة منذ سنوات طويلة، مطالبة بالتضيق والقتال وشذفت مسيرات الشباب في شوارع الإسكندرية والقنطرة¹¹ فتدور النقاشات العادة ملامعة مبرر وجود المجتمع برمته طارحة أسئلة الهوية والتصور والقال،

وفي ظل حالة التشتت هذه تفرق السينما المصرية في حالة من لا مبالاة عجائبية. فيصبح نتاجها لا يخرج عن دائرة الهزيمة وهي التي قدمت في مرحلة الأفلام التجريبية في الستينيات أفلاما تنهل من الذاكرة التاريخية الوطنية، وتقارب الواقع الاجتماعي في الريف أو المدينة بشكل نقدي، إلا أننا نجد وبموازاة الهزيمة العسكرية أن هذه السينما قد ارتدت بشكل معاكس عن موضوعاتها وقضاياها التي أثارها في الستينيات باستبدالها شكلها السينمائي الذي اعتمدته من بداياتها من خلال البطل المطلق، وتعاملت بشكل مغاير، حيث يلاحظ اختفاء الفرد البطل المطلق واستبداله بالبطولة الجماهيرية لأفلامها¹². بل والذهاب أبعد من ذلك حيث تصبح أسماء الفتيات هي أسماء الأفلام، واستمرام مبرج الأفلام التي أنتجتها السينما المصرية ما بين عامي 1966-1969 نجد عينات الأفلام، كديلم (الرجل ده هيجلسي) للمخرج عيسى كرامة عام 1967، فيلم (3 قصص) للمخرج إبراهيم المصن، فيلم (6 بنات وصبري) للمخرج السيد زيادة عام 1968، فيلم (أبيك هي مراتي) للمخرج رضا ميسر عام 1968، فيلم (حولة وشقية) للمخرج عيسى كرامة 1968، فيلم (جور وأنتور) للمخرج نيازي مصطفى عام 1968، فيلم (حواء على الطريق) للمخرج حسون حلمي تلهنيس عام 1968، فيلم (أنا الدكتور) للمخرج عباس كامل عام 1968، فيلم (مراتي مجنونة) 1968 إخراج حلمي حلمي، فيلم (أسرار البنات) للمخرج محمود ذو الفقار عام 1969، فيلم (3 نساء) للمخرج محمود ذو الفقار عام 1969، فيلم (2 وجود للحب) للمخرج مدحت بكير عام 1969، فيلم (أنا ومراتي والجور) للمخرج عبد القم شكرى عام 1969.

مثال هذه الأفلام أصبحت نيمات للأفلام، فبدات نعدو حذوها، وارتدت السينما عن المجتمع بكامله وهي تحاول الابتعاد عن مقاربة سؤال الهزيمة الأساسي، أسبابه ومعطياته، انطلاقا الخفية والمستترة، فكانت حتى بأشكالها التقليدية تحاول أن تتصلل عمّا سبق وكرسته هي ذهنية المشاهد ويكفي أن تشهر للمشهد من عناوين ومضامين هذه الأفلام التي أنتجت لتؤثر بنفسها إلى استهلاكيتها ومدى التهمك والعبث الذي كان يطل كل شيء فمن بين 29 فيلما تم إنتاجها عام 1968 لا يوجد سوى أربعة أفلام جادة فقط هي (قديلا أم هاشم) لكامل عطية، (البيوطجي) لحسين كمال، (الفتحية 68) لصلاح أبو سيف (التمردون) لتوفيق صالح¹³ وأحداث الفيلم تدور في مصحة نفسية في (إشارة إلى أن الوطن برمته قد أصبح مشفى معانين، ومن الملاحظ أن غالبية الفنانين والمخرجين قد سقطوا في براثن هذه المرحلة

والتي نتج منها سوى فئة من المخرجين الذي كرسوا جهودهم لإنشاعة الأمل ونقاش أسباب الهزيمة بشكل نقدي وموضوعي.

وكرد على السينما السائدة، السينما اللاعنصرية المحببة، ثم في تموز/ يوليو ١٩٦٩ الإعلان عن ميلاد جماعة السينما الجديدة بإصدار بيانها الأول والذي جاء فيه: (إن الذي نريده سينما مصرية، أي سينما تعمل في حركة المجتمع المصري وتحلل علاقاته الجديدة، وتكشف عن معنى حياة الفرد وسط هذه العلاقات، أن تكون لدينا سينما محطية الموضوع، عالية التفكير، واضحة المضمون بغرض تعمق السينمائيين لواقعنا فسوف نستعيد جمهورها كما تحفل اقتشروا عالميا).

كما وتركز الهجوم على نظام التجريم باعتباره السبب الرئيسي في تخلف نظام الإنتاج السينمائي المصري، مع إهمال مسؤولية التوزيع^(٣٠).

وفي جانب آخر متوازي مع جماعة السينما الجديدة برز مخرجون بشيرون الأسئلة الفلسفية وتحدى أعمالهم السينمائية بوصلة فضاء لاتجاهات المجتمع السلبية على مستوياته كافة، إضافة إلى تكريسهم رؤية سينمائية وشبه معادية عن تنظيمها السداجة فتناقش ما الت إليه الأرضاع. ونهزا بالسينما التي تنتج أعمالا كـ (البحت عن فضيحة) (إخراج نيازي مصطفى ١٩٦١) و(رحلة ليلية وغرام في الطريق الزواحي)، (محمّد - لنعم شكري ١٩٦١)، فالطرح صلاح أبو سيف بيلدر في عام ١٩٦٨ بتفصيل فيلمه (القضية ٦٨) والجميع لا يزال تحت تأثير الصدمة والذهول. في (القضية ٦٨) يسلط صلاح أبو سيف الضوء على أن الخدمات السيئة لأبد لها في النهاية من أن تعطي نتائج سيئة، ويشير في الآن ذاته إلى منهج البحث والاستنتاج واستغلال النفوذ من خلال العناصر الانتهازية التي استثمرت المجتمع لخدمة المراضها الشخصية. في الفيلم ينضم الحبيب بن عبده ونيلة لعضوية لجنة الاتحاد الاشتراكي العربي التي يرأسها منجد صاحب المنزل الذي يهتمون فيه، وعنده الشاب الكافح الذي أملا وأعدا بالاستقلال يؤمن بالقانون أيما أسمى. اللجنة تضم أنماطا مختلفة من الأعضاء الذين يستشري فيهم الفساد وهم المسؤولون عن مصالح أهل الحي ونتيجة ضيق أقتهم واحتكاكهم لمصالحهم الخاصة، فإنهم يتصدون للإصلاح. يحدث الصراع بين الشباب الواعي وبين هذه العناصر الفاسدة، ومع أنه يظهر بالمنزل شرح نتيجة بناء دور آخر لفر اللجنة، ومع وضوح الشرح والساعة فإن اللقاول يحاول أن يقتل الجميع بأنه ليس هناك خطر للاتهام، بينما نجد صاحب المنزل يتعالف مع اللقاول وعلى الرغم من تحذيرات نيلة وعبد، فإن البناء ينهار معانا فشل اللجنة. وبعد أقل من عام يطلق حسين كمال في شيء من الطوف عمرخته للعرضة والتي تحمل التواريخ المختلفة (زواج فزاده من عشرين باطل... زواج فزاده من عشرين باطل). في فيلم (شيء من الطوف) عام ١٩٦٩ ذهب النقاد والمعتنقون إلى اعتبار هذه المسرحية هي

وهو مدمر شرعية القيادة التي تحكم مصر والدعوة إلى رحيلها عن مصر. واعتباره هيلما بعمل أفكارا معارضة للسلطة الدكتاتورية، وموضوع الفيلم يتحدث عن عتريس الفاسي الذي يزور في قلب حبيبه عتريس الحشد والانتقام، وعندما يلتقي عتريس الجد مصروعه برصاصه لثارة ضد بطشه، يسمع حبيبه على الانتقام له، يمتلك القرية وسيططر على اهلهاء، يرفض الاتاوت ويضع الجميع قسبته وفزواته. إلا أنه يفضل في امتلاكه فؤادة وحبيها، فؤادة التي قتل أمام جبروته، وتتصدى له، وعلى الرغم من موافقة والدها على الزواج منه خوفا من بطشه إلا أنها ترفض، فيصبح زواجها باطلا، في رفض فؤادة وصمودها تتشكل أرضية الواحده وتكون البداية لثورة الأهالي بقيادة الشيخ إبراهيم الذي ينتقم منه عتريس بقتل ابنه الوحيد، في لحظات الانشقاق القصوى والفحش النهائية بحاصر الأهالي قصر عتريس ويقومون بحرقه وهو داخل قصره.

وفي عام ١٩٦٠ يقدم المخرج يوسف شاهين فيلمه (الأرض) عن قصة عبد الرحمن الشرفاوي مطلقا دعوة لا محدودة للمسك بالأرض ورفض الأسر الواقع. وعلى الرغم من ارتكاز يوسف شاهين على التقسيم التاريخي إلا أنه يفاضل مصر بطروفيها الراهنة^(١٢) مصر عام ١٩٢٢ يحدد محمود بك أحد **الإقطاعيين الفلاحين** عشرة أيام فقط لري أراضيهم، ومع دخولهم يفضنها إلى خمسة أيام يثور عليه الأهالي وعلى رأسهم محمود أبو سويلم. فيزداد محمود بك عنادا ويوزع مائة الفلاحين إلقابا، طريق يحمل قصوره بالطريق العام. فتمثل الحكومة للقوات مع الهشاش قوات من الميجنة لإحطاط زناديب الفلاحين. يصاب أبو سويلم في أثناء تصديه لهم، يجرحه البأسور على الأرض أمام أهل القرية ليكون عبدة لهم ويرغمه على الاستسلام، ولكنه يظل منسكبا بأرضه.

ومرور حسين كمال في عام ١٩٦١ لهطلق صيحته مرة أخرى (الفلاحة مائت والأزم تسلط كينسنا ... الفلاحة مائت) في فيلمه (ثلاثة حول النيل) عن قصة للأديب نجيب محفوظ، هذا الفيلم الذي تصور أحداثه في عام ١٩٦٦ من خلال شخصيات تتواجد في المكان الذي يتأرجح على النيل، الشاهد التاريخي، حيث تميل خواصا التمسعي وعلاقاتها المضطربة، والاعتماد إيمانها. شخصيات مفرقة من أدميتها وإسالياتها تمارس الجنون والعيب وغريب من حقيقة واقعها متدجين المخدرات والتحكم على اللياق والقيم. هذه المجموعة يتولى زمام القيادة فيها المثقفون الذين يلتقون أنفسهم الفزاق والهبوات لاستكاثرتهم وهروبهم من واقعهم إلى عالم متخيل. هانس زكي. فائق الأمل، الذي يحمل ألسنة الفتنة عن جنوى الشهادات العمالية لبعض الظاهر السلبية مما ينضوي به إلى حالة اللامبالاة والتعلق بالحشيش ليصبح نصف مجنون ونصف ميت، يلتقي بربيع الضاحي النجم السولمائي المشهور والفارغ في الآن ذاته من أي مضمون ... فيقوم بأخذه إلى موامته الخاصة حيث يعرفه على مجموعة من أصدقائه ومنهم الناقد الفني الذي يقيم الأسس

سيرة الفنان

الجمالية للأعمال الفنية بناء على المتعة المادية، وسنية الزوجة التي تبحث عن ذرائع وميزرات للطهارة الزوجية، مصطفى ذو المظهر البراق ثقافيا والباطن الأجوف، المتداعي، خالد الراغبي للعنف، والالتزام بشكل كلي، ليس أكثرية المدينة المعاصرة، وسناء الجليل الضائع المتناقص المشروح، هذه المجموعة التي نلتصق كل ليلة لتعارس ألوان القذرة بعددتها طلب التمس بتسليم نفسها للعدالة لنا لقتل الفلاحة التي صدعتها سيارتهم أثناء غياب الوعي هي قصة نهائية.

أنيس يقترب من أسئلة الواقع عندما يرى مدى التعار الذي أحاق بمدينة السويس، فيكون الحديث أساسا لتفكيك شعاعهم، وأنيس يجوب شوارع القاهرة صارخا (الفلاحة ماتت ولأزم نسلم أنفسنا - يا تاس طوفوا... التحشيش التي إحنا فيه ما تشربووهوش... لازم نفوق... لازم نفوق). ممثلا وهاء تجربة الثورة داعيا إلى محاسبة الثورة، داعيا إياها في ترميز واضح - والفيلم يعبر في سياق انتقاء الناصرية من وجهة نظر معادية للثورة.

ويعد يوسف شاهين إنجاز مجموعة من الأعمال الهادئة لمواجهة طوفان الانكسار ففي عام 1971 ينهي فيلمه (الاختيار) وفيلم (الناس والكيل) 1972 و(المصنوع) 1974.

في فيلم (المصنوع) يسافر ضابط الشوطة رؤوف إلى الصعيد للبحث على المجرم الخارج عن القانون أبو خنجر. وهناك ينعرف إلى الصحفي يوسف الذي يشر بتحقيقات عن الفساد المستشري في مصنع للقطاع العام، يشهد شرف أوضاع الموازنة والمسد، يتعاون يوسف مع رجال الشوطة ومع بعض الأصدقاء لمرحلة الحقبة التي تسبق لإحداث زلزال الفترة نفسها تحدث الهزيمة، فتخرج بنية إلى الشوارع وبصوت مدوي يهزج من الوجدان والتعمير الوطني رافضة الهزيمة (جناروب... جناروب) لتتحول صرخة بنية ولوعتها إلى طوفان من الجماهير الحاشدة التي تهتف جناروب، بينما القمصون في اتجاه الآخر يهاون منارة للقطاع العام من مسروقات المصنع لبيعها، في نهاية تحذيرية نحو نازم الأوضاع الداخلية التي تحتاج للمعالجة.

في فيلم (المصنوع) يعبر يوسف شاهين بوضوح لا يس فيه عن وقبة الشعب في الحرب والخروج من آثار الهزيمة فصور مظاهرات ٩٠/٩٠ يوليو وجسدها على الشاشة، وهو حدث يتم لأول مرة في السينما المصرية. كما نجد في الوقت ذاته أن الفيلم يتحدث عن الحرية والديمقراطية حيث الكاهنرا تدمر كما لو كانت مختلفة واللمسقات التي تعاصرها من كل جانب، ولتمتها من أن ترى ما وراء هذه الشعارات واللمسقات الدعائية.

كما قدمت جماعة السينما الجديدة فيلم (أغنية على المر) لعلي عبدالخالق، و(الظلال في الجانب الآخر) إخراج غالب شعث.

فيلم (أغنية على المر) مأخوذ عن مسرحية كتبها علي سالم بعد هزيمة حزيران، ويدعو إلى ضرورة العمود والمقاومة، ولكنه لا ينطرق إلى أسباب الهزيمة ولا يحلل العلاقات السياسية السائدة.

والفيلم الثاني (الظلال في الجانب الآخر) ١٩٧٥ المصنوع غالب شعبيته بشانول الواقع المصري قبل ١٩٦٧ ميلادية من خلال أزمة مجموعة الشباب الهرجوازيين. وقد منحه السلطة الساداتية لم سمحت بعرضه بعد عامين^(١٤). الفيلم يحكي قصة مجموعة من الشباب يسكنون هروسة، كل منهم يروي الأحداث من وجهة نظره ويؤيدنا الفيلم من خلال وجهات النظر هذه إلى الواقع الذي قاد إلى الهزيمة. والفيلم يعكس موقف الشباب من هذا الجيل والذي لطعته النكسة هي ١٩٦٧ والذي يتوقف الرجوع الورافه. وقد هاجمه كتاب السلطة لأنه يدعو إلى استمرار الحرب الشعبية والطويلة الأمد ويبنى الفكر الغلووم فهو الهادن، ويدعو إلى تصفية الحسابات مع العدو بشكل جنري.

ويقدم صلاح أبو سيف عام ٧٢ فيلم (حمام الملاطيلي) وفيه تدمر القاهرة مزدهمة بعشرها، وشوارعها المكتظة، ضجيج وحركة مهمة تسيطر على كل شيء... تتركز ملامح الصورة لتستعرض صورة شاب في مستقبل العمر يسير مسرعاً في شوارع القاهرة، ليندمل بعد ذلك مبنى حكومياً، فيقابل الموظفين ويسأل عن المدير الذي لا بعده سبب سفره. أحمد الفلاح البسيط الذي ينتظر التوظيف ويعمل معه أماني وإحسان والدته والتي هي العيش في القاهرة، يتم في الحمام لرخص البيت فيه. وهناك في الحديقة يشال نعيمة الموصى الهارية من أهلها والتي تعيش على بيع حبسها لتعيش بهيما علاقة صرية وحسد في هذا المكان الوحش. ويتعرف أحمد إلى رؤوف، نجل الهرجوازي الوسام الفيل، والذي يحمل نزعات شاذة ومبول تصنع منها تعابير وجهه، يدعّب بأحمد ويحكي له عن عقيدته وشدوده الذي سبب ضياعه وتطلي أهله عنه. ويخطبان متوازيين تسير حبكة الفيلم. الحمام والذي تحتل مشاهدته بإلهامات عن شذوذ كل من يرتاده، وعلاقة أحمد مع نعيمة وتوطئتها، ونعيمة لا تقدم نفسها ضحية لإطار العلاقات الاجتماعية المعقدة مما أفضى بها لأن تصبح هالكة. ولكنها تقدم ذلك في خيارها خنزق: (هربت من أهلي في البلد، وحيث مضى، كنت فاكدة أنني جعوت أكل واليس كويس، لقيت كل حاجة بشئها، تدفع تأخذ... وساعات كثير تدفع ما تدفع... اشتغلت خدمة وغسالة وكومبارس في السونما... اشتغلت حاجات كثير قوي، لقيتها كلها تودي نفس السكة).

وفي الحمام يدخل الشيخ البروك الذي يصرخ (اصبحو... اصبحي يا مصر) في أحد الحوارات بين أحمد ورؤوف الذي يعلم بالهجرة، فيسأل رؤوف: (أحد عارف الحرب ختخلص امشي؟)... يقول أحمد: (وتخلص لراي) ونحن نشطول الكلام ده يا رؤوف بيده؟ إنا نولدتنا هنا، يعني كلنا جزء من مشكلة البلد دي، لو كانت خسرانة يعني كلنا مسؤولين عن خسارتها وفي النهاية نسبها لجن...).

ومع تعامل الأحداث يفهم أحمد علاقة مع نعيمة زوجة العلم أمين صاحب الحمام... يدخل الشيخ إلى الكوخ الذي يبيع الشاي في الحديقة حيث يلتقي أحمد بنعيمة بعد غياب فيقول

فيها المصائب

الشيخ: (الصهيانة ولاد الكلب بيشترطوا، مثل عاوزين ينسحبوا)، يطلق بعض العالسين الدماء بكسر شوكتهم فينشر الشيخ قاتلاً: (مثل بالصريح... الرسول والصحابه حاربوا بالسيف، أهالي ابو زعبل ودوا نابليون بالقناص، مثل بالتوهان) ويرد بهستريا: (اصحى يا مصر، اصحى يا مصر)، اهل نعيمة يتوصلون لمكانها ويقتولونها ليمحوا عارهم، احمد ينهار ويكي بهرقه ولوعة على نعيمة... ينادى القاهرة بعد الكارثة والخسارة التي حافت بها وبه وصوت الشيخ يشبهه (هي القولة صلت فوك ايه يا احمد، خلطلك انت اللي سلمتها رقيبك، ولكن كل معنة لها قطرة لازم نسيها... لازم... وما يعديهاش غير الاقوياء، الاقوياء الذين يصنعون التاريخ، ما فيش وقت للدموع والنواح، اصحى، اصحى... اصحى يا مصر وشدي الهمة وعدي يا مصر. التاريخ ما يستأش حد...).

في فيلم (آباء الصمت) للمخرج محمد راضي نحن امام مجموعة من الشباب يجمعهم الخندق في اثناء حرب الاستنزاف، بعضهم عايش الهزيمة ولا يزال يشعر بمرارة الهزيمة والكرامة المجروعة.

كما أننا نجد في فيلم (ذاكر النحر) المدحج شكري صفاضة مستفيدة لواقع الهزيمة، وعن مقارعة المثقفين لصناع الهزيمة... حيث يتولى حسين وكيل النيابة التحقيق في موت الصحافية نادية الشرويف وعلى الرغم من ان التقرير الصحفي يثبت انما ماتت بسبب هجوم في القلب الا انه يبدأ في جمع تصريحات سرسية من نادية التي كانت ضمن جماعة سياسية، وانها اعتقلت بسبب المقاتلات الحادة والجريئة التي تناولت فيها تحليل وكشف الأشياء السطحية. وفي الاقبال في البحث عن موت نادية يجد حسين اختلاف الرأي فيها، ما بين مدافع ومهاجم. وفي النهاية يتغلق الأفق امام حسين ويصطب بالاحياء عندما تاتي الأوامر من أحد العموليين بوقف التحقيق لأنه تجاوز الخطوط المسموح له بها، والجدير بالذكر أن هذا الفيلم تعرض للرقابة والممنوع والحذف.

ويعد ذلك سنوات عديدة تعود السيتما التجارية المصرية لتناول هزيمة حزيران في فيلم (ملف سامية شعراوي) للمخرج ناصر جلال. حيث تعود الهزيمة حسب رأي صناع الفيلم إلى مساكين، يحلل فيهما تورط الجيش المصري في اليمن أحد أساليب الفيلم، والعلاقات غير الصحية بين ضباط القيادة العليا للجيش المصري، ثانيا، حيث يقوم كل منهم بإنشاء حزازمه وإعطاء رجاله الامتيازات والنقود اللا محدود. في الفيلم نجد زوجة الشهيد الرائد حسين أبو العيدين، تبحث عن تحصيل معاش زوجها لتتصرف إلى العقيد أشرف الدسوقي الذي يهدي استعدادا لحل مشكلة الزوجة الثانية والزواج بالمقد العرفي. تتوطد العلاقة بين العقيد أشرف وسامية ليتزوجا، فبهذه عبدالحكم عامر قائد الأعلى شقة ويرفعه لرتبة عميد وبعد خروج القائد من الاحتفال الذي اقيم بمناسبة الزواج يستعرض اللامعات المرفوعة في الشوارع (في

المقبلة كمنزلة رقية) (اللقاء في تل أبيب يا ناصر الحبيب) (مناظرة يا ناصر يا حبيب الملايين) (حزبي إسرائيل في البحر) فيغرق في المقعد الخلفي لسيارته منتشيا حد الثمالة. ويستعرض الفيلم بعض الصور الوثائقية لحرب حزيران، والبيانات الضخمة عن الانتصارات الوهمية بينما تتساقب أغنية عبد الحليم حافظ (أنتك يا بطل هات الانتصار) لتشكل إذاعة لا محدودة.

كما يستعيد الفيلم أوشيف اللحظة التاريخية التي يلزم فيها الرئيس جمال عبد الناصر استقلالته وإعلانه أنه يتحمل نتائج الهزيمة. (أقول لكم بصفتي، وعلى الرغم من أي عوامل، قد أكون بئس عليها أي عوامل هي الأزمة، فأنتي على استعداد لتحمل المسؤولية كاملة. ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه، لقد طرقت أن اتحنى ثلماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود للصوف الجماعير لؤدي وأجبي معاً كأي مواطن آخر).

وتتجس سامية شعراوي باستمارة غير مقلعة دور بهية في حضور شاهين لتقول إلى الشوارع غاضبة، رافضة الاستقالة، لكن ليس لقلاعتها بالكتابة بل للاستمرار في المحافظة على الأمهات التي تدورن من خلال ارتباطها بزوحها الممد.

الهزيمة التي عاينها على القائد العسكري الذي يصبح كيش القضاء ليطرد على مذبح الحفاظ على الآخرين فونصر بالهميد وأشرف ويملأه فائمة أسماء ليرتب للثقلاب على الحكم لأنه وضع في الإفساد الحزبية، كما يخطبه خطبة مله بالثتود. وفي اليوم التالي بعد التمدد نفسه منتقلاً من الاتصال بالآخرين الطامعين في الناصر، وفي المال.

كما تقوم أجهزة الأمن بدعاية قبل القتل بالمدافع والقذائف الصاروخية فتقتل جميع من في داخل الفيلا وتظهر صورة القائد في الصحف في اليوم التالي مطقة بأنه مات منتحراً. والنصف الثاني من الفيلم تستغرقه المحاولات المؤسراتية من قبل ضابط الأمن الذي يعرف بأمر الأموال للحصول عليها من سامية شعراوي، لتتدعه وتتنصر في النهاية على الطريقة الأمريكية.

وفي جانب آخر تجدو الإشارة إلى أنه في نوفمبر عام ١٩٧١ توقف القطاع العام السنمائي المصري من الإنتاج وتمت تصفيته بعد استلام المداوات السلطة. هذا القطاع الذي بدأ إنتاجه عام ١٩٧٢ وأعطى أفلاماً شكلت علامات مضيئة في تاريخ السينما المصرية والعربية، بل وحش العالمية. وتحولت بالتالي المؤسسة العامة للسينما إلى هيئة عامة تقدم الخدمات وتضمن الشركات الخاصة لدى البنوك. وبعض آخر تمت معاصرة موقع ارتكازي مهم لأصحاب سينما القفل والواقعية، وجماعة السينما الجديدة وجميع الطريقين الذين خرجوا عن الموجة السابقة، فأصبحت أسكتهم الجادة فزوحهم كما تروق الآخرين.

ويبدو القوملة الأولى أن هذه الأفلام قد طرحت الهزيمة وموضوعاتها بشكل جذري ونجحت في تكتيكها إزاء طرح الأسئلة وتناول هذا الموضوع للخلق بأساليب متعددة تقضي إلى جوهر الموضوع نفسه. ولكن واقع الأمر يشير إلى أن هذه الأفلام على الرغم من حيادتها تظهر التناقض وإثارة مواضيع نقاش التبع والسماح بعرضها، إلا أنها كانت أفلاماً جزئية لم تستطع الإبحار في بحر الأفلام الأخرى التي تواجهها ولم تشع غليل المشاهد في الإجابة عن أسئلته الحارقة. فكانت نجاحاتها محدودة التأثير ربما لتوجس المشاهد من سلامة الأفلام التي تحتوي مضامين ومعلومات سياسية. وبقيت هذه الأفلام تؤثر في الآن ذاته إلى بروز مواضيع مستعدة للسينما السياسية لتناولها بمحصولها الاجتماعي والسلطوي الذي أفضى إلى ما أنت إليه الأمور، وبرز نفس الهروب إلى الأمام والاتجاه إلى الدين، الكفيل بحل كل الوقائع المستعدة.

الحياة الحزبية المتعدية

عند تسلمها السلطة السياسية عمدت حركة الضباط الأحرار إلى رفض لزواجية الولاء بالنسبة للضباط في مختلف قطاعات الجيش المصري حيث أصدرت قراراً بمنع الانتماءات السياسية لأي ضابط ينتمي للضباط الأحرار. ثم جهدت انضمام هذا القرار فيما بعد ليعتال المجتمع برهنته. حيث كانت تظهر بتسلكها بهارتها لجهة الدولة التي لعبت ولعبه الأحزاب الكلاسيكية ذات النشأة التاريخية الحزبية في سياسات عراقيلها مع الملك فاروق، إلى أن استقرت رأيها بأن هذه الأحزاب هي الأحزاب فاسدة مسبوقة، تمتعت عن للكاسب الذاتية. وبالتالي فهي متسلطة عن بينتها الاجتماعية وتحمل العداوة والفرص بالثورة سواء جهراً أو في الخفاء. فعمدت إلى تسويق التآكل الداخلي لهذه الأحزاب بعد أن استطاعت تثبيت وضعها القانوني عبر سلسلة من الإجراءات التي اتبعها، بدءاً من إعلان الدستور لفترة الانتقالية الذي جعل السيادة العليا في الدولة في يد قائد الثورة بدلاً من يد الوصي على العرش الأمير محمد عبد النعم مرورا بقانون تنظيم الأحزاب السياسية رقم ١٢٩ عام ١٩٥٢ والذي نص في أهم بنوده على أن تبلغ الجماعات والأحزاب السياسية وزير الداخلية بمزاوالتها التشاط السياسي^(١٦)، وليس التهاد يفرض أن تقوم الأحزاب القديمة بتطهير صفوفها. هذا الأمر الذي يعني بالحقيقة أن تقوم الانشقاقات النعمدة نتيجة عمليات التطهير والظلم والطرد لكل حزب على حدة وضمن سياق الوهم المعشوق بأنه سيتمثل السلطة السياسية لوعده بعد عودة الضباط إلى تكتلاتهم. هذا الأمر أدى إلى إنشاء جزر منفصلة وتكتلات داخل الحزب الواحد. تكتلات ضعيفة مهيمنة غير معصنة. وأصبحت بالتالي الأحزاب تآكل نفسها بنفسها، معقدة الطريق لإعطاء مفاتيح القضاء عليها من قبل السلطة الناشئة التي هدفت إلى تمرير هذه الأحزاب أمام الجماهير. وإظهار مفاسدها ومدى استعدادها للتنازل عن شعاراتها وبرامجها

مقابل الوصول إلى الحكم. بينما هدفت الناصرية من خلال صراعها مع الأحزاب إلى رفض وصاية هذه الأحزاب على الثورة ومحاولة احتوائها. وبطرس بهذا المجال الإخوان المسلمين وحزب الوفد. حيث صمدت حركة الإخوان المسلمين ومنذ بداية الثورة إلى إصدار بيانها التوجيهي بهذه الثورة والذي اعتبر فيه نفسه الوصية الشرعية على هذه الثورة... (لقد أصبح لزاماً أن تعتمد يد التطهير إلى هؤلاء الحكم فبدأت إلى تحريرهم عن الحياة العامة، وحرمانهم من مزاولة العمل السياسي حتى يقدموا للمحاكمة عن كل ما يوجه للسلط السابق من اتهامات وما يحاب عليه من تصرفات) وبعد أن طالب الإخوان المسلمين بالتطهير الشامل طالبوا بإلغاء الأحكام العرفية وسائر القوانين الرجعية المناهضة للحريات. وتحريم ما حرم الله وإلغاء مظاهر الحياة التي تخالف ذلك¹³⁴.

بينما حزب الوفد الذي يمثل الأغلبية فقد عاد زعيمه مصطفى النحاس من أوروبا بعد إعلان قيام الثورة ومفاداة الملك فاروق لمصر. وبوجه هو هؤلاء سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد حورا إلى مبنى القيادة العامة حيث كان يقم أعضاء مجلس قيادة الثورة وما إن استقبله أحد رجالها حتى يافره بالقول: (إن مصر تغيرت هنا فتمت به. وقد أتتكم رسالتكم وعليها أن تكمل المشوار)¹³⁵ من خلال هذه المواقف التي تحمل في طياتها الترقب المتروعد استشعرت الحركة الجديدة بمكان الخطار عليها من الأوكيان الحزبية التقليدية الطاعلة والثورة والمؤاندة من الإخوان المسلمين وحزب الوفد والطبوسين باجتماعهم لطفتة. فقامت بنصفيتها العلنية من خلال قرار حل الأحزاب في 16 يناير عام 1952 هذا القرار الذي استثنى حركة الإخوان المسلمين التي حظرت من العمل السياسي بعد عام ويقترأ خاص صدر في 13 يناير عام 1951 وفيه حظرت نشاط الإخوان المسلمين.

في ضوء هذا الانسحاب وما عكسته الناصرية من الاضطراب والازعاجية في الرؤية والإرهاق في الأحلام التي تتسرب من بين خطوط الكف كتمسح ذرات الرمال. أصبحت مصغرا مهما للتأريالات والتفسيرات المختلفة ومرجعا أساسيا لتناقض الرؤى والمواقف بخطورتها التي تتجسد على الأرض وتعمل أكثر من عضو. فمن حركة تقوم بمساندة القلاخين وتعمل على تأسيس الإصلاح الزراعي إلى حركة تبيد التبريرية وتعمل جهدها التصفية الأحزاب مشرعة الأبواب أمام التساؤلات عن حقيقتها مما أدى بالتالي إلى فتح الأبواب أمام التساؤلات الإشكالية من خلال التحويل السيمبالي، لحقيقة تصفية الأحزاب وصلافة السلطة مع الجماهير التي كانت تمثلها في السابق الأحزاب التقليدية.

هذه الإشكاليات تبيدت إشكالية محورية بعد وفاة عبد الناصر في نظر قسطة من السيمباليين فاحذوا يتناولون هذه المرحلة بالتشريح والتفريط في رموز تؤثر على حقيقة تعبها. بل ومعاينتها لأثرها عليها بحزبها الأم. الحزب القريخي القعتر.

فكانت حينها المعتقل بدلا لها محاولة لتفخيم هذا التغييب السياسي. بل والإلقاء واستقواء السلطة التأسيسية بالحكم لوجدها من خلال أدواتها الهيمنة على البلد. وبهذا الإطار كان لابد من التركيز على المؤسسة الأمنية للفيل من كل جوانب المرحلة التأسيسية من خلال التكليف الرؤى على الخطوطية هذه الأجهزة ودورها في الضرب بيد من حديد على الأحزاب والأفراد تحت مبررات جامعة سلفنا وأهمها (نظرية المؤامرة) التي تستخدمها في كل فترة وفي كل لحظة لتشر أنها قد عقد بعض امتيازاتها.

هذه النظرية ركزت وتركز عليها حينها سيما المعتقل وبشدة بحيث تعكس مجمل الأفلام هذه النظرية سواء من حيث التقارير التي ترفع إلى الهيئات الأعلى أو في سياقات تبريراتها لعمليات الاعتقال التي تتم. إلا أن هذه التبريرات في خاتمة المطاف تعيد إنتاج الدلالات من منظور ذاتها وطبيعتها لا من منظور قاضها. وعلى الرغم من تعطية صورة الضابط الأمني التي صاغتها وعملت على تشكيل منظوماتها. وعلى الرغم من تصوير المهاد المتصارع لهذه التغطية لتبرير استمرار وجودها فاعلة مؤثرة تتحكم في السياقات والأحداث. وعلى الرغم من عدوانيتها وشروعها في تسويق التصور الوهمي. لكنها تجدد وبمعدل التخييل أن هذه المحورية ستعود قابلة للتفكيك بفضل إمكانية إعادة ضبط هذه المؤسسات بل وحتى قمعها حين تسلم الأمور إلى أعلى الهيئات المسؤولة ولا سيما الرئيس نفسه. ويخرج بالضابط الأمني في المعجم أو بعض من مهمته ويشرح بين العمل وأما من يأتي ولم يخطم ذلك فإن التصحيح (استلام السادات للسلطة) كقيل ومحاسنة.

وهي إطار هذا المفرد للفرق من صيرورة الاختلال التي صيرتها سيما المعتقل من حيث إن حركة الفعل السياسي الإلغائي التبعثي تنبثق من التصور المنهجي للناظر على السلطة وتؤرخ دعائها، نشاهد ذلك باجترار متفعل لمشاهد تتوزع هنا وهناك في هذا الفيلم أو ذلك كطغى مطلق بعيدا عن رؤية الجانب التاريخي ضمن علاقاته المتعددة، علاقة الجبر، بالكل، حيث لا تستطيع رؤية الجزء إلا خارجا عن الكل جزئا فرديا ويمارس ممارسة فردية. هنا يمكننا القول إن التاريخ مأكور لأنه يحول الدراما إلى تواجدتها عندما لا يقرأ الواقع بمنهج شمولي، فما معنى أن تصول وتجول المؤسسة الأمنية وتعيث بالبلد فسادا وخرابا والسلطة السياسية لا تستشعر ذلك ولا تترك ما يدور حولها؟ وما معنى تبرئة هذه السلطة ورئيس هرمها من هذه الممارسات بينما هناك جهد واضح في مجمل الأفلام لإدانة المؤسسة الأمنية؟ في فيلم (أنا بشر الأوثومين) للمخرج حميد كمال وفي أثناء حوار داخل الزنزانة يقول الشاعر محمود: (هيه دي سياسة الناس التي بأيديهم السلطة النهار ده كل فترة يهجموا بالحكم أنه في مؤامرة ضده وحسد نظامه وإتهم هم التي اكتشفوها وهم كمان التي يهجموها منها).

فقد دخل الشيخ قاتلاً، (طبعاً القواصمات يلزمها كشف بأسماء الناصريين حتى يشوهها الحاكم ويصدفها ويعد كده يستلمهم السلطة شوية شوية)، بينما وينفس الفيلم ومن خلال الاتصالات الهاتفية بين الأجهزة، تحاول المشاهد المتلاحقة توضيح الية الاعتقالات حين يقول احد المسؤولين، (أنا مش عايز حد ينام في بيته النهار ده، لوهم من كل مكان أنا عايز نطلوا المسجون مليونة...)، ويكمل (لو ما ظهرتش البلد منهم خلال ساعات حتكون المسؤول الأول قدامي وأنت عارفني كويس) يضع الساعة وهما بعد يجري اتصال آخر مع مسؤول أعلى منه قاتلاً يتواضع واستعصاراً، (أنا حبيت أظمن سيادتكم أنه كله تمام... أكيد يا أستاذ سلامة الوطن أسلمة في وقتنا وزي ما اكتشفنا المؤامرة في هدوء، نحافظ على الأمن برضه هدوء).

كذلك الأمر نرى مثل هذه الأحداث في فيلم (الهجمة) وفي المشاهد النهائية حين تفرغ ايناس من حرق المخزن وبعد حضير قوى الأمن يقول لها الضابط: (دنيا أصغر من خرم الإبرة نحن أمن دولة، شرفت يا نوسة... الشخصية كبيرة قوى القوة دي) ثم يتحدث مع رئيسه بالاسلوبي (تمام يا أستاذ ثم ضبط الخريجون، الذين من اللي كاتفوا في قضية الحرامية ثم ضبط متفجرات وسرخلهم للاستجواب).

أما في فيلم (وراء الشمس) وفي اجتماع قادة الأمن المركزي، يتفرع هاشم ونهس جهاز الأمن بما حصل في ندوة الطلبة وهروب الشباب الذي تعجب على الثورة ليستنتج أن هناك مؤامرة تدعها قوى اجنبية تعمل على تطريب البلد وتفتت كرامة التقارير التي تحدد أسماء زعماء الطلبة ويهتمهم بأنهم وراء المنشورات التي تملأ العاصمة فيامر باعتقالهم، وبعد تقريره ليرفقه إلى الرئاسة محمداً بأن هناك مؤامرة تحاك في الطلام وقد أحبطها جهازه، هذه المؤامرة المدعومة من قبل جهات اجنبية حوسرت وتشاوت في الفراغ بينما رجالها والذائمون عليها زج بهم في التورنات.

كما سبق ويؤلف عهد الناصر نرى في السجال الذي تناولناه تشكّل ظاهرة سينما المعتقل كظاهرة لافتة للنظر حملت معها تساؤلاتها وتاويلاتها المختلفة لهذه المرحلة بخط مزي، يبغي الإدانة بل والافتصاص وهولاً لإلغاء المرحلة السياسية من تاريخ مصر الحديث معمدت الضباب حولها ونشرت الرايات السوداء ووسفتها بالكارثية والدونية لتلقي كل اللواطف والإنجازات.

وكما صعدت الناصرية إلى إلغاء الأحزاب ومارست بعض الممارسات القسرية لتثبيت موقعها في السلطة السياسية صعدت سينما المعتقل إلى إلغاء المرحلة الناصرية بنعنها بالمرحلة الطردة في تاريخ الشعب المصري، إلا أننا في النهاية نرى أن هذه السينما (سينما المعتقل) حملت على إعادة معالجة التاريخ بشكل جديد بعيداً عن الموضوعية وعن المحتوى القيعي الحقيقي الذي يقدم إنسانية الإنسان، حريته، كرامته...

رواية الأدب والعين

أدب المعتقلات السياسية بغيره الاعترافية وبيوجه الداخلي، وما يجعله هي مكوناته من وجه إنساني صارخ وجارح، ينطلق من رواية تجربة السجن السياسي. هذه التجربة التي أخذت مداهها في الروي والحديث، بتفاصيل مستفحضة نابعة من المعاشاة الموضوعية والتجارب الذاتية، سارت وتسير بخطى متوازيتين يمكنها لفترتين تاريخيتين سياسيتين في الوطن العربي، فترة النضال للحرر من الاستعمار الخارجي، وفترة الاستقلال والحكم الوطني، وما تخلقهما من صراع مختلف الأشكال والأبعاد حكم من الفترتين، كل على حدة، حيث اختلفت الرؤى وتباينت المواقف تجاه الحكم الروائي على كل من الفترتين.

هذا النوع الأدبي من حيث طبيعته وموضوعه الخاص بدا يؤثر إلى موضوع الحرية وما يلحقها من فضائيا ومواقف، تذاب الفرد والسلطة والأشكال والنس السياسية القائمة في الساحة العربية وما جعل من دلالات تثير مواضيع كالديمقراطية وحرية الرأي والرأي الآخر، وما يتفرع عنهما من تضاد وتناقض من خلال بنية السلسلة نفسها والياتها المتشعبة في النظر إلى الإنسان، في جوهره وصوره الاجتماعي الفاضل، دون قبحه أو نفيه، أو إغائه، أو عزله، فعمد أدب المعتقلات إلى الإشارة للحرر والاستلاب والتغيير الذي يطرأ على سيكولوجية الإنسان، للظهور، الخائف والضعيف.

هذا الحرر والذي يستمر الجمل به الحال ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين يعكس سؤال الهوية والغائب سؤال الماضي والمستقبل، وتلك العلاقة القهرية الشدالة التي تصوق التسلط كظاهرة وأساس محرم في التعامل مع الآخر، إلا أن ذلك يجعلنا مرة أخرى إلى أدب المعتقل والذي نهض عنه في حينها المعتقل التي تحاول أن تعمق لنا كونها حينها للحرية والوطنية، وأن هذه الأفلام قد صنعت جراء المعاناة والقلق والألم من خلال روايات أشخاص عاشوا ورسموا ما يدور خلف الجدران مسدود وعقوبة... وبهذا الصنف يحل لنا أن نتساءل هل حاولت حينها المعتقل بأفلامها عكس حكاية شعب لم تستطع آلة القمع أن تؤثر على مفاهيمه وأحلامه تجاه الحرية، مما اضطر وبفضل إرادة المعتقلين إلى تحويل المعتقل إلى معتقل للسلطة التي هربت إلى الأمام وحاولت اليد بكامله إلى معتقل؟

وهل حاولت حينها المعتقل ترجمة الأعمال الروائية التي تتناول المعتقل سينماتيا وبشكل يضيف على هذه الأعمال الأدبية ويثريها؟ هذا التساؤل يحينا بالضرورة إلى علاقة السينما بالأدب وبالفن الروائي، وعلاقة أفلام حينها المعتقل بأدب المعتقل.

هذه العلاقة التي تتفرع عنها مفاهيم إشكالية تتناول بشكل جوهري قضية تحويل العمل الأدبي إلى عمل سينمائي، وعدي الافتراق بل والتناقض بين تحويل الرواية إلى سيناريو فليمي وبالفنالي شطووس بصرية تتحرك وتحاول عكس إحياءات الرواية، وبين العمل الأدبي الذي

بلاص الحواس، يستشعرها ويطلق ملكات العنان للتخيل، سواء الشخصوس أو الأحداث في الرواية، مما يقضي إلى مدارك متغيرة تتحو ناحية الفارئ بعلاقة خاصة بتجربتها كاتب ومبدع العمل وهو يتصور علاقات خاصة وحسية جدا مع كل فارئ على حدة.

هذه العلاقة الخاصة تكبدى مهشة، ساقطة، وهمية من خلال إشاعة هذا الفن الخاص جدا، حين تعمل السينما بأدائها المختلفة وتنتهيها إلى جذب الفارئ، لتتفرج وبشكل جماعي للتعامل معها بذاتها، بعيدا عن فضائيات الرواية.

وحين تتناول سينما العقل هذه التحارب الخاصة وتعمقها فإن ذلك يعني تصميم هذه الخاصية التصيغ والحقا ينتشر بفكره إلى كل الوطن العربي، مستفيدة من التقليد السينمائي التاريخي في استمداد السينما مواضعها من الأدب، ولعل الإشارة إلى أن السينما المصرية التي سارعت في بداياتها إلى تصوير فيلم (زينب) عام 1928 عن رواية بالتعنوان نفسه للكاتب حسين هيكل وهي لا تزال محكمة للأسلوب الفني في بداياتها كسينما صامتة، فهي إشارة مهمة إلى طبيعة اهتمام السينما بالأدب وأهميته على الرغم من أنه كان في بواكيره الجنينية، وهي إطار مواز كشفت السينما المصرية إلى الأقباط والتضمير في تلك الفترة واحتضنت مبدعها وأديانها ونيلت من نجاحاتهم في أفلام كثيرة وعديدة، وعلى مدى تاريخها فإن السينما أخذت من الأعمال الأدبية كأصناف نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف المياهي، وإحسان عبد القدوس، وبزوط أباطة.

وعلى الرغم من ظهور الأعمال الروائية على الشاشة الكبيرة إلا أن ذلك قد توافقت مع العديد من الإشكاليات، في طبيعة فهم وأمانة نقل هذه الأعمال إلى الشاشة، حيث في أحاديث كثيرة تحصل مبدعو الأعمال الأدبية من أعمالهم المصورة على الشاشة حيث اعتبروها لا تمت لمعلم بقلة... فالأديبان إحسان عبد القدوس ويوسف المياهي يقولان: إن النص الأدبي شيء وروايته على الشاشة شيء آخر.

وأما نجيب محفوظ فيقول: أنا أكتب رواية، وعندما تتحول إلى فيلم فهذا شكل فني آخر، إن فرائي بحاسيونتي على عملي الأدبي لا عن العمل السينمائي للقتيس عنه^(٢٢).

وعلى الرغم من استمداد السينما لمواضعها من الأدب، إلا أنه أصبح لها كتابتها الخاصة كونها صناعة فاعلة بذاتها، فأشادت نوما من الكتابة بتفصل عن السروح والرواية والأشكال الكتابية الأخرى، مستفيدة من إنجازات السينما وتقليداتها، فظهر السيناريو الفيلمي المكتوب خصيصا للسينما وبأفلامها المختلفة التي تتوزع ما بين الملودراما، الفلمسات، الكوميديا، الحركة والإثارة، الرومانسية وقصص الحب السينمائية.

وهي المقارنة بين الكتابة الأدبية والكتابة السينمائية تكمن الإجابة عن سؤال أي طريق يتبع في رؤية علاقة الأدب بالسينما حيث يجب اعتبار (الأدب متجزأ ثقافيا له جذور ثرائية واسعة

على مستوى الثقافة الغربية يستمد منها مرجعيته وليس من السينما نفسها⁽³⁰⁾. يؤكد الناقد صلاح دهلي أن (السينما اعتمدت لضمان استمراريتهما إلى الاستعبد بالأدب لتشكل مقوماتها من حيث القصة والحبكة والعنقيد الحديث للكلمة، ولكنها مع ذلك بقيت تعتمد الحكاية أو الميثاق، القصة ذات البناء الدرامي للتكامل)⁽³¹⁾.

وبالمعنى إلى أدب المعتقلات، وما وصل إلينا من التجارب الأدبية التي تتناول المعتقل السياسي وهي كثيرة سواء على صعيد الوطن العربي، أو على الصعيد المصري، تشير إلى أن الروائيين العرب قد تناولوا سجن الاستعمار وأشكال القمع التي تتبدى فيه، كمقدمة تمهيدية لسجن الاستقلال السياسي، حيث تعتمد السلطة الوطنية وقد استحوذت على السلطة السياسية بعد مرحلة التحرر إلى التزج بممارستها والتناقض بين حركتها وطموحاتها في المعتقلات المختلفة التسميات، والتي تشير بأن جميعها قد صيغت ووظفت بلمح واحد، قد تُعده في كل البلدان العربية بصورة متشابهة ومتقاربة وكأنها معتقل واحد وفي ذلك دلالة.

ونذكر من الأعمال الروائية التي تحدثت عن المعتقل السياسي أيام الاستعمار، رواية وراء القضبان لأحمد حسن، والحزبين الأولين من ثلاثية العيون ذات الجفن لعبدية للدكتور شريف حتاتة، ورواية القطار لصلاح حافظ، ورواية العسكري الأسود للدكتور يوسف إدريس، ورواية اللائق للطاهر وطار، وعندما بهال الحمار لعبد الرحمن عمار.

أجواء هذه الروايات وحركتها تدور في (سجن روائي كان يخضع فيه للمستعمر الأجنبي على صدر الوطن العربي ويستلزم خيرات أقطاره).

وتناولت السينما المصرية رواية في بيتنا رجل للأديب إحسان عبد القدوس حيث عكست المعتقل الاستعماري، ولكن الكاميرا لم تركز على خصوصية ما يدور داخل المعتقل، على الرغم من بعض اللقطات التي رسمتها لمخالات التعذيب، هذا الأمر الذي يعني أن التواجهة مع المستعمر هي مواجهة جذرية داخل المعتقل وخارجه، ولا تحل إشكالية الصراع إلا بزوال المستعمر الأجنبي من البلد، على الرغم من أن أحواله القاسية هي من أناء البلد ورجالاته المتفنين.

أما على صعيد روايات سجن الاستقلال فإننا نلتزم إلى عدد من الروايات التي تناولت المعتقل السياسي من قبل السلطات العربية والتي صممت على امتكامل ما يدهم الاستعمار من ممارسات شاذة وقسوة تدور داخل أجواء المعتقل، وملاحظة استمرار ظاهرة التسلط والقمع والإرهاب الذي يمارس ضد الفرد وحيد الجماعة بتفاهيد مبطنة يتفانى عنها الذهن المحلي الخاص وربما يكون أشد قسوة وإيلاماً من معتقل المستعمرة وما روايات «العقد الأسود» للدكتور شاذي خصيالك، ورواية السجن لنيل سليمان، والقلمة الخاصة لعاضل العزوي، ورواية الوشم لعبد الرحمن محمد الزهبي، ورواية المستلزمات الضوئية لإسماعيل فهد إسماعيل، ورواية الكرتك للجبب محفوظ، ورواية الشمس لحسن محسب، ورواية شرق المتوسط

لعبد الرحمن منيف، ورواية البصطة للكاتب ديفيد السميد، والجزء الثالث من ثلاثية العين ذات الجفن المعدنية بعنوان الهزيمة للكاتب شريف حنا¹، إلا دلالة على واقع بدأ يطرح أسئلته. ومن الملاحظ أن أغلب هذه الروايات قد صدرت في السبعينيات وهي الفترة ذاتها التي بدأت أفلام سينما المعتقل تتوالى فيها، ولكن الثلاث للنظر أن بعض أفلام سينما المعتقل لم تعتمد اعتمادا كليا على هذه الأعمال الأدبية وإنما اعتمدت على السيناريو الفيلمي.

وعين تعود إلى إشكالية العمل الأدبي وتحويله إلى فيلم سينمائي وتتساءل عن حقيقة العمل والهدف الذي يريده مولود في السينما فإننا نتناول فيلم الكرنك والمأخوذ عن رواية نجيب محفوظ. حيث لا نستطيع إلا أن نتوقف ونشير إلى إشكالية الصدقية نحو العمل الأدبي والفكرة الراد لتضمنيتها في الفيلم لأبعد مدى... فلنلاحظ الانزياح الجذري في الأهداف والوظائف بين كل من الفيلم والرواية، ففي حين يطرح نجيب محفوظ في رواية الكرنك العلاقة بين الشعب والثورة في الفترة المهددة لهزيمة حزيران، وأثار الهزيمة على ثلاثة أجيال: الشيوخ، الشباب المثقف، الجيل الجديد، فيترك القزقطة صاحبة مقهى الكرنك احتضانهم وملاحظة شؤونهم حتى تبدو في ذلك رمزا لعصر الرواية جغرافيا وسط الوطن العربي كما يقع مقهى الكرنك في منتصف القاهرة. إن نجيب محفوظ يشير قضية الثورة المصرية والانتفاضات التي سادت خلالها معا جديدا نحو مبعي تهوية الأجواء لهزيمة. فتصور أحداث الرواية ضمن مقولات فكرية محددة من **ثورة 1956** وإلى هذا الجيل المازوم الضائع والذي لا يتبين معالم هويته لا يمكن له أن يقود البلد إلى تحقيق الانتصارات على العدو. وتحقيق الإنجازات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. إضافة إلى أن (شعبا أيضا في المعتقلات لا يمكن له أن يحارب ويتنصر).

مع أن الرواية تصور معنى المصالحة الوطنية والنهايات السعيدة. فطالما صفوان ضابط الأمن الذي يحاسب إثر هزيمة حزيران عام 1967 وتجعله الرواية يسبح ثلاث سنوات جراء ممارساته. يجلس في مقهى الكرنك بعد أن يخرج، ويضيف لرواد المقهى الوضع المساك وبشاركتهم في أحاديثهم وأحاديثهم 1 على الرغم من مسؤوليته عن موت حلمي تحت التعذيب وإهانة إسماعيل وتعذيبه والاعتداء على عطف وزينة

في رواية الكرنك يحاول نجيب محفوظ أن يعثر العلاقات التي انضمت إلى الهزيمة كأفلا الأخطاء والممارسات المستترة بالثورة من موقع النقد البناء من داخل مؤسسة الثورة نفسها، فتعلق الرواية فضائها الزمني عام السبعين.

أما فيلم (الكرنك) فإنه يبدأ وبمناظر مضاد تعلمنا في أثناء حرب تشرين 1973، مشيرا إلى ديمقراطية العهد الجديد والانفتاح على القيم، مقابل انغلاق العهد القديم على الرعب والقمع. فطالما صفوان التحق يتم الزج به من قبل حركة السادات في السجن، وإسماعيل وزينة

يصيحيان أمثلة الشباب الفاعل فيلتبها هي أثناء الحرب، بثقة وتصميم بعد تجاوز جراحهما جراء ما حدث لهما أيام عبدالناصر. وهما مصممان على العمل الاجتماعي الفعال مع الارتداد لرحلة العرب واليهود من خلال ذاكرة المعتقل التي يرويها كل من زينب إسماعيل^١

أما رواية وراء الشمس لحسن محسوب، فإنها وكما يرى الباحث سمير روجي الفخيل في كتابه (السجن السياسي في الرواية العربية)، واحدة من سلسلة أعمال عكف أصحابها على إدارة فترة حكم جمال عبدالناصر بعد زوالها واستلام أنور السادات الحاكم في مصر والظلاله على ما يسمى آنذاك بمرآة القوي. ويشير إلى أن الكاتب قد انتهى صفيحة الأخيرة بعد ذكر أيام ١٩٧٦ بأنه على موعد الإفراج عن المعتقلين وبأنه (بدأ تصحيح السياسات وتوسيع الاعتراف)^(٢).

ورواية وراء الشمس تتحدث عن المعتقل السياسي بأحواله الاجتماعية، حيث ترصد شخصية الجعبري الحلق الذي لا يتورع عن فعل شيء لإرضاء رؤسائه، فهو لا يمارس التعذيب محسوب، بل يمتد دوره إلى المجتمع بكامله ليعيث فيه خراباً ودماراً. وهو يطرح رؤساءه، ويؤمن لهم أسكنة القهو والدمارة، كما يدفع النساء للدمارة ليسيطر عليهن وعلى أسرهن، مع استغلالهن في التجهيز على المواطنين والمسؤولين في الآن ذاته. ويتعاضد عن سلوك زوجته (فيضي) الجانح مع رؤسائه كي يستهزئوا في إرضاءه. ويحصل آلاف الأسطرحة التي تدفن هؤلاء الرؤساء. بهذه اللمحة تدور الرواية في السجن المحنن ومن المجتمع السجن.

وهي سياق موزني نجد شخصية (سهير) الرافضة وهي ابنة لرجل حارب الإنجليز والمملكة، وعندما رأى انحرافات الثورة نسخ المسؤولين بضرورة تجاوز هذه الانحرافات فتم التخلص منه، بينما ابنة (منصور) لم يناصر الإنجليز ولكنه ورث عنه شجاعة الرأي مما جعله يقع في أيدي السلطة، فيمتدح ويودع في السجن. وهناك يعلم بترك زوجته له، فتتسلط فيه، ويمارس القواطع من أجل أشياء مادية تافهة، كما يبدو عميلاً للجعبري بين السجناء.

تتصرف سهير إلى ولده وعصام ويوسف الذين أخذوا يترددون إلى عواصمها بحثاً عن الضمان وهم يمثلون الجيل الضائع اللامبالي... وهي تساعد وثيرة الرواية بالأخط المسؤولون فردة الطلبة على هزيمة سهير فهو عزون للجعبري بإلقاء القبض عليهم على أنهم مشاهرون على سلامة الوطن. وعلى هذا النحو يرصد مؤلف الرواية دخول الضليان إلى السجن ورحلتهم فيه... وتطرح الرواية أن الشباب مشاهرون، غير واضح من الحالة التي تسود الوطن. ولكنهم أبرياء من تهمة التآمر.

وفي الفيلم تتأخر بعض الأدوار فمثل الرقم من عكس صورة الجعبري الروائية بل والإضافة عليها سينمائيًا (لا أن الفيلم يقدم لنا سهير في دور الدكتورة الجامعية، ووالدها «حسن سلامة» هو المسؤول عن مصلحة السجن. وقد مثل جراحا تسألته عن الهزيمة وضرورة

محاضرة مسببها، أما سهر القنفذ فإنها تجبر على العمل مع الجمهوري كمرشدة جراء تعرضها للاغتصاب من قبل الجمهوري نفسه الذي قام بقتل أبيها، وتوثيقه لحادثة الاغتصاب من خلال عملية التصوير السينمائي.

بينما الشباب الذين يمثلون فلانهم أصبحوا محالا للفقد والأستة ومن موقع الحفاظ على الثورة، ولكن طمس الأجهزة يمزو ذلك إلى وجود مؤامرة تدبرها جهات أجنبية ويقوم بتفيذها العقوبة، وهي للعتقل يتم رصد حالات التعذيب والقتل والاستهتار بالتفهم الإنسانية، وهي تأسف واضح بين العمل الروائي والفيلم السينمائي وبإشارات لا تحتمل التلويح أو الاقتباس حين الهدف من (وزراء الشمس) إدانة النظام الناصري، فكما يشير المؤلف لأهمية عهد السادات، فإن المخرج يشير إلى المتاحيات عهد السادات وبشكل مسبق لإدانة جمال عبد الناصر.

كما أن قصة إنقاذ جرحى الثورة من المجموعة النضالية (الفرقة اسمها فاطمة) لإحسان عبد القديس، فإنها تتحول على يد المخرج علي رضا في فيلم (أه يا تيل يا زمن) إلى بكائية غريبة، حيث لم يبق من القصة سوى قصورها التي تحاول أن تؤثر إلى حجم الخسائر التي لحقت ببعض الفرائح الاجتماعية في عملية الملحن الاجتماعي التي قادتها السلطة.

ففي الفيلم نجد الخطابة السياسية المباشرة، واستمرار العطف بشعارات متعددة توظف لخدمة الفكرة وروية الحارة وأبسط الملاءة والتي تحاول أن تتحجب شخصية فنان ابنه البشاعي والتي تظهر والدها وممتلكاته جزءا فرائحة الجراسة، مما يجعل نفسها ولا تقنعنا بأدائها.

فانن نمر إلى باريس بعد خسارتها كل شيء، فتجوب شوارع باريس وحيدة فيها يفترض أنه ضياع إنساني، يبحث عن تعاطف فسري مع الشاهد حيث تبدو برزخها الكاملة التي تحرم على أن تحسد صورة نجاحها القروية في عقول مستمعها. وتحاول وبمحاولات مستمينة إقناع الشاهد بأنها وعلى الرغم من كونها لم تدخل المعتقل بمضمومه اللقي، إلا أنها دخلت المعتقل الأخير الأقسى والأشد، إيلام، المعتقل الداخلي، النفسي والروحي، والذي يترك ألقا وحطاما أكثر من الأسواط مما يدغمها للتفريط بكل شيء، بسذاجة، وعلى طريقة أفلام المقاولات والتأليفات، من جنس وكحول... وعلاقات غير سوية، من خلال استعراضنا العلاقة الأدب والسجناء... نستخلص أنه:

(١) حين نتطرق الرواية في معاريتها وبناء شخصياتها الروائي وبأحداث متوالية، فإنها تتطرق من معارضتها للواقع، وتضمين مفردات هذا الواقع في نسجها الروائي بكل شروطه التاريخية والاجتماعية، وتحو منحى تكثيف الضوء على العلاقات التي ترصدتها بكل شعبيتها، إحصافاتها، تناقضاتها، فتؤشر إلى طبيعة آليات المجتمع وحركته في فترة زمنية محددة طالت أم قصرت، مما يقضي بها إلى تقديم صورة بانورامية للمجتمع الذي ترصد بعضاته المتمردة الزمنية التي تتناولها.

كما أنها تعمل على رسم التصاميم الصغيرة لتصوغ لوحة متكاملة متجانسة لشكل حكمنا
توثيقها للمرحلة التي تتناولها.

ومن الملاحظ أن الرواية تقدم معرفة لشرائها، وتطلق من معرفتها والتي تقدمها بكل
المطويات والإيجابيات. هذا الموضوع الذي يقود إلى تضمين وجهة نظر المبدع وموقفه تجاه
ما يدور في المجتمع، إضافة إلى تقديم وجهات النظر المختلفة من أفكار ومواقف حتى وإن
كانت متعارضة مع رؤية المبدع. إلا أنها ضرورة لتقديم صورة شاملة للمجتمع. إضافة إلى أن
الرواية والقصة هي منتج فوري، بينما السينما هي منتج جماعي، والعمل الإبداعي إن توفر
نقله بشكل أمين لنفسه الأصلي. فإن ذلك يجب أن نقابله عناصر متخصصة لتنفيذ العمل. وأي
نقص في أي جانب من جوانب الإنتاج فإن لذلك نتائج تبتدى على نتيجة العمل بعد انتقاله من
النص المكتوب إلى الصورة المتحركة الناطقة.

٢) انطلق بعض المخرجين من نسبة الأهمية المتطهية في صفوف العامة والذين يستمدون
رؤيتهم وثقافتهم غير الضرورية عن طريق السينما وغيرها من الوسائل التي تلائم حواسهم
السمعية والبصرية، بينما العمل الأدبي، وفي أشد حالاته بهاء وتوزيها، فإن توزيعه لا يتجاوز
أكثر من خمسة آلاف نسخة، هذا العدد الذي يفوقه بكثير حضور العرض الأول للفيلم.

وبناء على هذا الأمر تعامل المخرجون وصناع السينما على النص وتجزئته وفشره بحيث
يصبح مزيجاً من التواضع التجارية التي تلبي لكل أصناف أسواقها التقليدية مما يجعله يحقق
أعلى الإيرادات من جهة، ومن جهة أخرى استغلالهم من أن القارئ العربي لا يقرأ فيخرج إلى
جمعهم له خصائصه المحدودة، فلم يخرجوا في الإشارة إلى أن عملهم هو نقل حرفي
للرواية... هذا الأمر يقضي إلى أننا أمام عمليتين مختلفتين مع أنهما يحملان الاسم نفسه
ويعتبران امتزاجاً عضوياً.

- 1- الهوية القومية في السبعينات العربية/ عثمان مداخلات/ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ط 1، ص 137.
- 2- الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، حسن حنفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ط 1، ص 137.
- 3- الهوية القومية، سبيل دكروب، ص 194.
- 4- الإبداع العام والخاص، الفيلسوف روشكا، ترجمة غسان، أبو الصحر، عالم المعرفة، عدد 133، الكويت، ص 19.
- 5- موسوعة المباحث، الجزء الثاني، عبد الوهاب الكبيسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 280.
- 6- الديمقراطية وحقوق الإنسان، سبيل دكروب، ص 137.
- 7- الفلسفة والمباحث في عصر أحمد عبد القادر دار ميقات للنشر، القاهرة، 1990، ط 1، ص 180.
- 8- المصدر السابق، ص 180.
- 9- حرية السبعينات العربية، سمير فريد، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص 181.
- 10- الهوية القومية في السبعينات العربية، كمال بوزي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 88.
- 11- جريدة الطليح الإماراتية / ملحق استراحة الجمعة / سبيل الهذلي / العدد 1414 تاريخ 6 ديسمبر.
- 12- السبعينات والسياسة، سيد سعيد، ص 909.
- 13- حرية السبعينات العربية، سمير فريد، دار الفارابي، بيروت، 1987، ط 1، ص 180.
- 14- الهوية القومية، سبيل دكروب، ص 137.
- 15- السبعينات في الوطن العربي، طلال الشعلان، سبيل دكروب، ص 90.
- 16- صحيفة الرأي العام الكويتية، مذكرات صلاح نصر، عدد 8768 تاريخ 17/1/1987.
- 17- المصدر السابق، عدد 8767 تاريخ 10/1/1987.
- 18- المصدر السابق، عدد 8768 تاريخ 17/1/1987.
- 19- قضايا السبعينات والثورة في الوطن العربي، صلاح ذهني، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1، ص 37.
- 20- مجلة الحياة اللبنانية، محمد كامل القليوبي، عدد 19، خريف 97، دمشق، ص 78.
- 21- قضايا السبعينات والثورة، سبيل دكروب، ص 90.
- 22- البحر في الزوايا العربية، سمير زوي، القيسل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1987، ط 1، ص 114.
- 23- المصدر السابق، ص 100.

« الشرق الأوسطية » ومستقبل المنطقة العربية

أ. سمير الزين*

مقدمة

لو قدر الباحث في منتصف الثمانينيات رسم صورة حقيقية لما هو عليه شكل العالم في منتصف التسعينيات، لكانهم بالجنون. فقد كان يحجم التغييرات التي شهدتها العالم في السنوات الأخيرة بين العقد الثامن والتاسع كمنيرة لدرجة أن أكثر التوقعات تطيرا ما كان لها شوطها.

إن التوقعات التوعية التي شهدتها العالم في السنوات العشر الأخيرة بحاجة إلى الكثير من التأمل والتفكير والاستعداد لاستخلاص الدروس. هناك عالم بعد تشكيله. وموقع الدول من هذا التشكيل يتعدد بمستوى أدائها السياسي والاقتصادي والاجتماعي... إلخ. فهناك نظام عالمي انهار. وهناك آخر يولد من جديد. لم تشكل ملامحه النهائية بعد، والجميع في سباق لاحتلال المواقع الأفضل في لائحة التشكيل الجديد.

تشير التقارير إلى أن العالم الثالث - والمنطقة العربية منه - يسير إلى مزيد من التهميش باستثناءات نادرة. ففي ظل العولمة التي تضرب الأرض في كل مكان، يتم إعادة إنتاج تبعية هذا العالم بجهود جديدة.

إن كل المؤسسات تدل على أن المعادلة الدولية القائمة في جوهرها معادلة اقتصادية. وما كان يعتمد عليه العالم الثالث في المعادلة الاقتصادية السابقة كمصدر للمواد الخام، خرج من المعادلة. فالنجاح الاقتصادي الذي شهدته العالم في العقود الأخيرة عمل على إلغاء النظام

الاقتصادي الذي قام بعد الحرب العالمية الثانية، والتكنولوجيا الجديدة لتسبب الاستراتيجيات القديمة للنجاح الاقتصادي، والثورة الخضراء، وطلم المواد قللت من أهمية الموارد الطبيعية هي التنمية الاقتصادية. فتوافر الموارد الطبيعية هي بلد ما لم يعد يحميه غنيا. كما أن عدم توافرها لدى بلد ما لم يعد حائلا دون أن يصبح غنيا.⁽¹⁾

إن التطورات المذهلة التي شهدتها التكنولوجيا قلبت الأشياء رأسا على عقب، فما كان ميزة في السابق تحول إلى عيب، فطرد حسمت مسألة أن المواد الأولية لن يكون لها مكان في المنافسة، وفي القرن الحادي والعشرين ستصبح مهارات قوة العمل والتعليم هي السلاح التنافسي الأول.⁽²⁾

ولضخامة التحدي الاقتصادي المطروح على الدول، ثم العمل في أكثر من مكان من العالم على بناء تجمعات سياسية - الاتحاد الأوروبي، الناتو، أسبان - لمواجهة المستقبل كإعلان عن عدم قدرة الدول حتى الكبيرة على مواجهة هذه التطورات منفردة.

هي ظل ما يجري في العالم، فإن الصورة في المنطقة ليست وردية، فهناك ضعف، وإنكسار عربي إذا ما استمرا هاتينما بهدوان بالتعميش الكلي للدول العربية. وإخراجها من أي منافسة يحكم عدم ملائمتها للعالم القادم.

والصورة السلبية للدول العربية تجعل التحديات التي تواجهها أكبر من التحديات التي عليها أن تتجاوزها حتى تستطيع أن تدخل القرن الواحد والعشرين، ولها القدرة الأولية على التطور.

إن مثلت التحديات التي نعتقد أنه بحاجة إلى استجابة سريعة لإيجاد حلول له، هو مثلت تتكون رؤوسه من: تحد سياسي، وتحد اقتصادي، وتحد أملي.

تقد دخل العرب التسعينيات في حالة من الضعف الظاهر. عملت حرب الخليج الثانية على مضاعفتها. وأدخلتهم حالة الضعف في عملية التنويع القائمة في المنطقة على أساس معادلة التفوق الإسرائيلي مقابل الضعف العربي، والعملية القائمة في حال الوصول إلى نهايتها، تجعل هذه التحديات حقيقة قائمة وأكثر ملحاوية، والاستجابة لها أمر يجب ألا يؤجل.

إن البحث في المستقبل في ظل أوضاع تبعث على التفاؤل فيه الكثير من المجازفة، ولزاد هذه المجازلة حظوة في ظل عالم ينقسم بالسيولة، فلا شيء ثابت، وكل شيء عرضة للتغير، ففي الحالة الطبيعية يكون «مستقبل هؤلاء الذين يحاولون التنبؤ بالمستقبل أمر لا يحسدون عليه عادة - فهو، إن لم ياملوا باعتبارهم مجانين أو ذوي عقل، يتم تجاهلهم حين يكونون على خطأ - ويحاولون بالامتصاص حين تثبت صحة تنبؤاتهم»⁽³⁾. فكيف تكون الحال في الأوضاع غير الطبيعية؟

التحولات الإسرائيلية

إن التسوية القائمة في المنطقة، كان لها ملامحها، وامتلكت أبعادها. وسيكون لها نهاية على الرغم من كل الصعاب التي تعترضها. لكن التحديات التي تواجهها الدول العربية لا تقتصر بعد إنجاز التسوية بل ستزداد حدة.

٧٠١ : المفاوضات العربية - الإسرائيلية

شكلت عملية التسوية التي أطلقت من مدريد عام ١٩٩١ مؤشرا على التحولات التي شهدتها المنطقة العربية والعالم في الفترة الفاصلة بين العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن. وقد أدت هذه التحولات إلى إعادة النظر في أوضاع المنطقة، ليس كاستجابة للرد على تحديات أدركها أصحاب المنطقة، فبعدت باتجاه أن تعيد دول المنطقة النظر في أليات علاقاتها المتينة. إنما كانت هذه الانطلاقة استجابة إلى متطلبات خارجية ثم طرحتها على الدول العربية، كما كانت هذه الانطلاقة المؤشر القوي على حالة الضعف وعدم الفعالية العربية التي تراكمت على مدى العقدین الماضيين، والتي جعلت إمكانية استجابة المنطقة للإملاءات الخارجية. وتحديدا الأمريكية، مطالبا داخلها عربيا من أجل المساعدة في حل الصراع العربي - الإسرائيلي، وحتى في حل النزاعات العربية - العربية.

لذلك، تم تكن عملية التسوية تقييد السطانية خاصة في المجال الخارج في ميزان القوى بين العرب وإسرائيل، والضعف العربي، التي أمكنست في مساعد النزاعات العربية - العربية. أدت إلى أن يوافق العرب مجتمعين ومفردين. على الصيغة المرحبة التي تم إطلاقها في مدريد، التي كانت نتيجة للمفاوضات التي سبقها.

٧٠٢ : ملامح التسوية

شهدت نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات مجموعة من التغيرات الدولية والإقليمية والفلسطينية، وضعت القضية الفلسطينية على سكة مختلفة عما كان سابقا في السابق. وتضافر مجموع هذه التغيرات جعل انطلاق عملية التسوية ممكنا، ومن دولها ما كان لهذه العملية أن تروى النور في مدريد عام ١٩٩١. ويمكن إجمال العوامل التي هيأت الوضع في المنطقة لكل هذه العملية في ثلاثة عوامل رئيسية:

- ١- شكل انهيار الدول الاشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتي عاملا حاسما في تهيؤ الوضع لكل هذه العملية، فبعد الانهيار تشكلت نظام الاستقطاب الثنائي الذي ساد في فترة الحرب الباردة. ولم استبعاد التهديد السوفيتي من حسابات واشنطن. وشكل هذا التهديد هيبا مضى لهذا النظام للسياسة الخارجية الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية^(١)

هو تراجع الخطر السوفيتي. عملت الولايات المتحدة على إيجاد ناظم لسياساتها الخارجية، يقوم على توجهات أخرى من خلال البحث عن مصادر تهديد جديدة للخطر السوفيتي. وقد أجمعت وزارة الخارجية الأمريكية المشاغل الجديدة في تقرير صادر عن «لجنة التخطيط الاستراتيجي» فيها عام 1988، جاء فيه: «أما وإن الحرب الباردة قد انتهت، والاتحاد السوفيتي لم يعد عدوا للغرب بالطريقة التي كان عليها في السابق، فإن مصادر التهديد الجديدة ستكون خلال السنوات القادمة هي مصادر عدم الاستقرار في العالم، والأموية الإسلامية في العالم الثالث، والأنظمة السياسية غير المستقرة، وأن على العرب وعلى حلف الأطلسي أن يكون مستعدين جيداً لمواجهة هذه المصادر الجديدة للتهديد»⁽¹⁾.

أدى الانهيار السوفيتي إلى خسارة بعض الدول العربية لحظتها الذي كانت تعتمد عليه في التسليح العسكري وفي الدعم السياسي، وخسرت الدول الأخرى أيضاً الحاجة الأمريكية إلى استرضائها حتى لا تقترب من موسكو أكثر. وعدم الاستعداد العربي لكل هذا الوضع الدولي الجديد، جعله مكشوقاً أمام الوضع الجديد. حيث تميز هذا الوضع بأن إسرائيل من خلال تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة بدت وكأنها شريكة لها في الانتصار، وببنت بالتالي وكان لها الحق في أن تحصل على حصة من هذا الانتصار في الشرق الأوسط.⁽²⁾

لقد أدى الاستقطاب الثاني في زمن الحرب الباردة إلى تعطيل القضايا العربية. وقد شكلت قضايا الخلاف الإسلامي في العالم الثالث محوراً للصراعات بين القطبين، فالذي تطرحه الولايات المتحدة يتم مقارنته من الاتحاد السوفيتي، والذي يطرحه الاتحاد السوفيتي ترفضه الولايات المتحدة، على قاعدة تجاذب أي من القتران أحد القطبين يعني توسع نفوذ هذا القطب. وهذا لم يكن مسموحاً به من القطب الآخر. وقد شغلت القضايا العربية حينها وأساساً هي سياسات التطويل المتبادلة، والدور السوفيتي قام في المنطقة على قاعدة تعطيل الحل طالما أنه لا يستطيع فرض نموذج. وهذا ما كانت تواجهه السياسة الأمريكية في المنطقة، مع غياب الدور السوفيتي والاستفراد الأمريكي، أصبح من الممكن الحديث عن حلول للقضايا العربية.

تسبب الغياب السوفيتي من الساحة الدولية في اختلال التوازن الدولي، مما رتب نتائج على المنطقة العربية يمكن إجمالها بما يلي:

• انعدام هامش المناورة المستقلة أمام الدول العربية، فقد كان الاتحاد السوفيتي في عصر التوازن الثاني يمثل أحد البدائل أمام بعض الدول العربية على الأقل لتفويض مساحة الهيمنة الغربية.

• تدهور مكانة الدول العربية في التمسك الدولي وتراجع أهمية قضاياها، فقد أدى الانهيار السوفيتي إلى مزيد من اعتماد الدول العربية على الولايات المتحدة.

الثقافة الوطنية

الهيئة الأمريكية، فإذا كان حل النزاعات بالطرق السلمية هو أحد مبادئ النظام العالمي الجديد الذي بشرت به الولايات المتحدة بعد الانهيار السوفياتي، فإن ذلك الحل يجب أن يتم وفق المنظور الأمريكي وحده الذي عمل على استبعاد الآخرين عن المشاركة في عملية التسوية، بما في ذلك أوروبا.

كما تم تحويل الأمم المتحدة إلى مؤسسة تابعة للولايات المتحدة، فأصبح من الميسور للولايات المتحدة أن تستعمر ما تشاء من القرارات من مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة^(٢٧).

في ظل هذا الوضع الدولي الجديد أصبح من الممكن البدء في المفاوضات العربية الإسرائيلية التي انطلقت في مدريد ١٩٩١ بقرار أمريكي بإدارتها، فما كان غير قليل للحصول في زمن توازن القطبين، أصبح واقعا قائما. فالمفاوضات تلك راعيا واحدا وهو التحكم بكل العملية لأن انتهاء الحرب الباردة ومن ثم نتائج حرب الخليج لم يكرسا الولايات المتحدة باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة فحسب، بل جعلها أيضا القوة المهيمنة في الشرق الأوسط والقوية على توازن القوة في تلك المنطقة^(٢٨). هائلن الأمريكي يعتبر أن نهاية الحرب الباردة تعد نهاية حقبة شاملا^(٢٩)، مما جعل التحكم الأمريكي في العالم بوسائل القوة الدول الصغيرة والمتوسطة على التحرك السياسي المستقل في الوضع الدولي الجديد. فهذه القدرة تزداد كلما ازداد الطابع التعددي للتيار الدولي. وكما أنزلت نهاية الحرب بين القوى الكبرى، فحقبة تعدد الأقطاب أو القطبية الثنائية، تؤدي إلى زيادة قدرة الدول الصغيرة والمتوسطة على الحركة المستقلة، خاصة إذا ارتبطت بدرجة من الصراع بين الأقطاب^(٣٠).

٢. حرب الخليج الثانية شكلت مقدمة أخرى لعملية التسوية. فقد كانت هذه الحرب تكسية كبيرة للدول العربية مجتمعة، وعملت على هدم محرمات النظام العربي الذي فقد فعاليته وأصبح بلاأثر مبهدا. لقد خلقت أزمة الخليج انقساماً بين الدول العربية لم تعرفه من قبل، وفهم هذا الانقسام على سابقة لم تعرفها العلاقات العربية - العربية، وهي نزق قطر عربي لقطر عربي آخر وإغلاء عن الخريطة السياسية والحافة نهائيا بالقطر الغازي.

كما شكلت حرب الخليج تكسية للدول العربية وخطرا دائما على النظام العربي لأن تداعيات هذه الحرب وأثارها أثقلت بميزان القوى في المنطقة، وعملت على تقاوم الخلل في هذا الميزان بين الدول العربية ودول الجوار بكل العاهل^(٣١).

وقد جلبت الحرب قوات أجنبية وتحديدا أمريكية بأعداد كبيرة لم تشهد لها المنطقة من قبل، وأصبح هذا الوجود جزءا من صورة المنطقة ومؤثرا بشكل حاسم على توازنات المنطقة وعناصرها لهذه التوازنات، فهي نهاية حرب الخليج كانت الولايات المتحدة تسيطر بشكل كامل على الخليج وأصبح بمقدورها أن تعيد تشكيل النظام في الشرق الأوسط بطرق سيكون لها

تأثيرها الدائم. حسب ما يقول سارتن أليكس، «بعض» ولكن ذلك لم يحدث وهناك عدة أسباب لهذا الضل. الخوف من مستقبل الشرق الأوسط، والحافظ التاريخي لإعادة القوات إلى الوطن، وعدم وجود دعوة إمبريالية لغرض سلام أمريكي. لكن السبب الأهم كان يتمثل في أن المصلحة القومية. كما جدها الرئيس هسنتشاور، لم تتطلب نهجا أكثر طموحا وقد سمّت إدارة بوش لإعادة توازن القوى وليس لإعادة هيكلتها»^(١٢١)

ويعتبر أليكس أن هذه الحرب خلقت عنصرين إيجابيين آخرين في التوازن الإقليمي يمكن أن يدعما الاتجاهات المؤاتية للقويات المتعددة. الأول هو الدور المتعدد لتركيا كعنصر في المعادلة الاستراتيجية، الثاني، أن التحصاع الأمريكي في حرب الخليج، دفع أوروبا واليابان لسلوك بناء بدرجة أكبر في دعم الجهود التي تقترنها الولايات المتحدة للتشجيع على المفاوضات العربية الإسرائيلية، والتنمية الاقتصادية الإقليمية، وتدابير الحد من السلاح»^(١٢٢)

إن تأثيرات حرب الخليج تجاوزت حدود المنطقة إلى العالم، وعملت على تدعيم الهيمنة الأمريكية ليس على المنطقة فحسب، بل على العالم أجمع. هذا ما يوحي به أتديكس وهذه الهيمنة بالحقى السياسى مدعما بقوة عسكرية وعيدة هائلة، ويرى الجترال ولهام أودوم «أوضحت حرب الخليج لجميع المستويات العسكرية الأخرى المتسلطة في مراتب القوة العسكرية في العالم أن أمريكا ليست في المرتبة الأولى قطعاً بل وأن للراتب الاثنى عشرة لم يشغلها أحد»^(١٢٣)

كانت إسرائيل المستفيدة الأكبر من دول المنطقة بالنسبة لتداعيات حرب الخليج. فقد تم تدعيم القوة العسكرية العراقية التي كانت إسرائيل تعتبرها إحدى المخاطر التي تهددها، وتم إضعاف الوجود العربي الإجمالى مما زاد الاختلال في موازين القوى بين إسرائيل والدول العربية. وعلى الصعيد العربى ساهمت حرب الخليج في نشوئى الأولويات العربية التي كانت قد استقرت في الوجدان العربى^(١٢٤) مما جعل بعض الدول العربية تعيد النظر في تصنيف الأعداء والأصدقاء. وربما يكون التصنيف الجديد الذي أدخل دولا عربية في دائرة الأعداء، عاتفا أساسيا أمام إمكانات تطوير أي توازن عربي للعاطفي مع المتغيرات التي يشهدها العالم والمنطقة، فقد انهار الحد الأدنى من التوافق الذي كان سائدا في النظام العربى قبل أزمة الخليج. وعملت الأزمة على تمزق نسيج هذا النظام، «والدلول الأساسى لهذا التمزق هو وجود صعوبة أكبر في التوافق حول تعريف أهداف الأمن العربى والمعادلات اللازمة لإدارة الظروف الدولية لهذا الأمن»^(١٢٥) هذا التمزق ولّد اختلافا بمواقف الدول العربية من الطروحات الموجهة إلى المنطقة، مما أعقد الدول العربية الحد الأدنى من التنسيق والتعاون. وبدت الدول العربية كقطع مفككة تعمل ضد بعضها بعضا حيناً، وتضع بعضها البعض في دائرة الأعداء حيناً آخر.

أدت حالة الضغط العربية إلى تعزيز الميل نحو حل الصراع العربي - الإسرائيلي بالطرق السلمية، كما أدت حرب الخليج إلى إعادة تموضع الأبعاد الاستراتيجية في المنطقة، حيث ظهرت معادلة التحالفات الثنائية والتمتع، خاصة بالنسبة للولايات المتحدة التي انتهت عن أطراف والتزمت من أطراف أخرى. هذا التوضع الجديد قد أدى إلى الحديث عن ولادة نظام إقليمي جديد.^(١٠١)

٢. الانتعاش الفلسطينية التي منعت تحولاً نوعياً في الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي حيث ظلت الصراع من خارج الأراضي المحتلة - وهو الشكل الذي كان سائداً عندما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تتبوأ صدارة هذا الصراع من خارج الأراضي المحتلة - إلى موقعه الطبيعي بوصفه صراعاً داخل حدود فلسطين التاريخية بين احتلال وشعب محتل يناضل من أجل حقه في تقرير مصيره كشعب الأرض الأخرى. هذا التفل للصراع إلى داخل الأراضي الفلسطينية مثل تعدياً جديداً وغير تقليدي لإسرائيل.

مهد صعدت إسرائيل في إطار الصراع العربي - الإسرائيلي والصراع الفلسطيني - الإسرائيلي على توظيف أنها العسكرية في حسم الصراع، وكانت هذه الوسيلة فعالة عندما كان الخطر يأتي من الخارج. وكان أمر استخدام هذه الآلة قد تم توظيفه في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢. في العملية الإسرائيلية التي أطلق عليها اسم عملية الجليل، وأدت إلى خروج منظمة التحرير من لبنان.

مع حرب ١٩٨٢ تم إضعاف منظمة التحرير حيث أضعفها مركز ثقلها خارج الأراضي المحتلة، ولذلك تراجع الاعتماد بالنسبة الفلسطينية، التي أصابت الانتفاضة الفلسطينية في نهاية العام ١٩٨٢ الاعتماد بها.

بالتفجار الانتفاضة الفلسطينية تم تحييد موقع القوة في إسرائيل وهو مؤسستها العسكرية، التي لا يمكن استخدامها في حالة الانفجار الشعبي وهو ما جرى في الأراضي المحتلة، وبذلك تم تحويل الجيش الإسرائيلي إلى قوات شرطة مما ولد الإحباط داخل وحدات هذا الجيش. وقد حاول إسحاق رابين عندما كان يشغل منصب وزير الدفاع القضاء على الانتفاضة من خلال القمع العنيف، فالتج مباداة «تكسير العظام» ضد الفلسطينيين. واستمرار الانتفاضة أكد عدم جدوى هذه السياسة، مما أوصل رابين نفسه إلى قناعة «بأن لا حل عسكرياً للانتفاضة، وأن الحل هو سياسي». ومنذ وقت مبكر عمل الإسرائيليون على إنتاج حل سياسي دون تقديم أي تنازلات على قاعدة أن التلويح بالحل السياسي يعمل على تهدئة الأوضاع في الأراضي المحتلة، وتمحط هذا النوع الإسرائيلي عندما عرفت في العام ١٩٨٩ ب «صدارة شامير» التي انطلقت منها فيما بعد كل التيارات السياسية بما فيها مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش التي تقول بمعادلة «الأرض مقابل السلام».

لقد فضحت الانتفاضة بوضوح الواقع الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. فهناك دولة تحتل شعباً آخر برفض بكل الوسائل هذا الاحتلال. مما طرح التساؤلات هي الرأي العام العالمي حول ديمقراطية دولة إسرائيل التي يدعيها الإسرائيليون. استطاعت الأعمال الاحتجاجية للانتفاضة من إعادة وضع القضية الفلسطينية في دائرة الضوء مرة أخرى. وقد كتب الكاتب الإسرائيلي وان كسليف عن إنجازات الانتفاضة الفلسطينية: «لقد نجحوا في إدراج المشكلة الفلسطينية في جدول الأعمال الدولي - ولقد دفعوا الإدارة الأمريكية إلى التدخل تدخلاً فعلياً فيما يجري في المنطقة، ولا سيما في المناطق - ولقد جلبوا في نهاية المطاف حكومة التيكود إلى طاولة المفاوضات وأضعاها. ومن الممكن أيضاً أن يكونوا ساهموا في سقوط حكومة اليمين، من هذه النواحي كافة. هناك مجال للاعتقاد أن التوازن في ختام أعوام الانتفاضة الطمسة، مثال بصورة واضحة إلى مصلحة الجانب الفلسطيني، وحتى ولو كانوا لا ينظرون إلى أنفسهم بهذا المنظار، فإنه يصبح حتى الساعة، أنهم هم المنتصرون»⁽¹⁴⁾.

كانت حصيلة التفجرات السابقة وضع المنطقة العربية في وضع ومرحلة جديدين، جعلها ما كان مستبعداً سابقاً قابلاً للتحقيق، فقد عمل كل من اتحاد الاتحاد السوفياتي وحرب الخليج على توثيق الوضع العربي، وقد كانت هذه التفجرات حاسمة بتفجيرها السلبية على المنطقة، حتى إنها عملت على تآكل الأفكار الأيجابية التي إقترنت بالانتفاضة الفلسطينية. فصورة المنطقة بعد التفجرات اختلفت عما قبلها، وكان العنوان الرئيس لهذا التغير في الصورة جلوس الدول العربية وإسرائيل على طاولة المفاوضات وانطلاق عملية التسوية.

ثانياً، إطلاق المفاوضات

بتضايف المدمعات المتواصلة ولد اتجاه عام في المنطقة والعالم على رأسه الولايات المتحدة، يسمي إلى تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي من خلال المفاوضات. وأصبح تقديم مبادرات من القطب الذي خرج منتصراً من الحرب الباردة ضرورياً للعمل. فإعادة هيكلة النظام الدولي تستلزم إعادة ترتيب أوضاع المنطقة لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة، وفي إطار هذا الترتيب، كان يجب البحث عن حلول لمشكلة الصراع العربي - الإسرائيلي، فكانت مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش التي تقول بمهادنة الأرض بالسلام، والتي اعتمد على أساسها مؤتمر مدريد وتبعه مفاوضات مباشرة بين أطراف الصراع، وترافق مع المفاوضات المباشرة مفاوضات متعددة الأطراف.

منذ التحضير لمؤتمر مدريد عملت الإدارة الأمريكية على أن تملك المفاوضات البثها الذاتية عند بدئها، بحيث يصبح من الصعب خروج أي من أطرافها عنها، وهذا ما كان يؤكده وزير

الخارجية الأمريكية جيمس بيكر أثناء التحضير للمفاوضات. والآن على الرغم من كل التعطيل الذي قامت به حكومة متباهر في المفاوضات السلمية، وكل الأزمات التي عانت منها المفاوضات النهائية مع الفلسطينيين، والأزمات على المسار السوري في زمن باراك، نجد أن لا أحد من أطراف العملية يستطيع أن يعلن خروجه منها، لذلك يبدو واضحاً، أن مسيرة التفاوض مستمرة، وإن توقف قبل أن تصل إلى نتائج ما، مهما بلغت عملية التعطيل، ومهما كانت أزماتها صعبة.

انطلقت الجهود الأمريكية لإقامة التسوية في المنطقة من حقيقة أن أطراف الصراع العربي - الإسرائيلي مهبة أكثر من أي وقت مضى لعقد اتفاقيات تسوية بعد التحولات شهدتها العالم. ومن جهتها اختارت الأطراف العربية دخول المفاوضات على قاعدة العودة الأمريكية. على اعتبار أن ما يمتحضر عن عملية التفاوض سيشكل السلام العادل والشامل، ومنطقة من ان الاعتراف الإسرائيلي والاستجابة للحقوق العربية كما نصت عليها الشرعية الدولية، هو ما يزرع الفشل المتفجر للصراع وبمعنى السلام الشامل على المنطقة، في وقت تطلق النظرة الإسرائيلية للسلام من موقف مختلف، فالسلام العادل والشامل من وجهة النظر الإسرائيلية هو السلام الذي يتوصل إليه الأطراف بصرف النظر عن الاستجابة للمطالب العربية أو للشرعية الدولية. فالوضع الذي يتفق عليه الأطراف كهدول لوضع الصراع القائم، هو السلام العادل والشامل. فالسلام الذي طالبعها إليه الإسرائيليون، كان مرادفاً للتسوية مشكلات الوضع الراهن، وليس مناقشة جذور الصراع الإنساني.

انطلقت التسوية من مؤتمر مدريد في ظل وجود حكومة إسحاق شامير اليهودية في السلطة في إسرائيل، والتي صاغت سياستها على أساس تطويل العملية دون الانسحاب منها، أي الاستمرار في المفاوضات من أجل المفاوضات. وهذا ما أكدته شامير بعد مفاداة السلطة. بقوله إنه كان يسعى لأن تستمر المفاوضات عشر سنوات دون أن تحفل نتائج. بذلك دارت المفاوضات الثانية في واشنطن في دائرة مطروحة في ظل حكومة شامير.

مع وصول حكومة إسحاق رابين العمالية إلى السلطة في إسرائيل، شهدت المفاوضات تصراحيات مفاجئة، عبر قناة الوساطة المصرية التي تم التوصل من خلالها إلى الاتفاقيات الإسرائيلية مع منظمة التحرير التي عرفت فيما بعد باسم اتفاقيات أوسلو والتي تم التوقيع عليها في واشنطن 1993، وتبعتها الاتفاقيات مع الأردن 1994.

ولدت هذه الاتفاقيات حالة من التفاؤل بحلول السلام، أطلقت زحماً واسعاً خاصة على الصعيد الاقتصادي بإطلاق «القيمة الاقتصادية لدول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا» التي عقدت في الدار البيضاء، وشهدت احتفالاً واسعاً بإسرائيل من قبل العرب.

إن الاتفاقيات الفلسطينية الإسرائيلية فسحت الحل على المسار الفلسطيني إلى مرحلتين: الأولى تتعلق بقضايا المرحلة الانتقالية والتي تشمل إدارة شؤون الفلسطينيين وتشكيل قوات

شروط وإقامة مجلس تشريعي... إلخ. والثانية مفاوضات الحل النهائي التي كان من المفترض أن تبدأ بتطويقها بعد طعن سنوات من تطويق المرحلة الانتقالية، والتي تشمل القضايا الأكثر أهمية وتصيغ الشكل النهائي للحل على المسار الفلسطيني، وتشمل قضايا السيادة والاستيطان والقدس والملاجئين وشكل الكيان الفلسطيني... إلخ.

إن الانسراج الذي تحقق في زمن حكومة إسحاق رابين كان على حساب التنازلات الفلسطينية التي قدمتها منظمة التحرير في إطار المفاوضات مع حكومة رابين، مما أسفر عن تنازلات أقل مما يقال عنها أنها كانت موجهة بحق الفلسطينيين. فقد جعلت إسرائيل المتحكم بكل الوضع الفلسطيني من خلال ربطه بإسرائيل كهدية خلفية. ومن المفارقات التاريخية في الاتفاقات الفلسطينية - الإسرائيلية هي أنها الوحيدة التي شهدتها تاريخ الاتفاقات في العالم من أنه يتم التوقيع على اتفاقات قبل الوصول إلى حلول للقضايا المطروحة على المفاوضات. أي ببساطة أن الفلسطينيين وقعوا قبل أن يبدؤوا المفاوضات الجديدة.

عانت المفاوضات مع حكومة رابين من العديد من العقبات، ولكن ظهورها بمظهر حكومة سلام جعلها في موقع التسامح من قبل الوضع الدولي والعرسي أيضاً، إن العديد من المشكلات التي تعاني منها المفاوضات مع حكومة نتنياهو هي مشكلات مرحلة من حكومة حزب العمل، وعلى رأسها مشكلة إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية و٢٦ استحقاقاً آخر مثل مطار غزة والتميز بين الضفة وغزة وغيرها من الاستحقاقات، وكان رابين يتنزع بعدم التنفيذ تحت عنوان أنه «ليس هناك مزايج مقبولة».

والم يقتصر التنازلات بالحل على المسار الفلسطيني، بل شمل المسار السوري أيضاً والذي أعزز تقدمه، كان أساسه تعهد رابين في إطار المفاوضات السورية - الإسرائيلية التي جرت في الولايات المتحدة الانسحاب إلى حدود الرابع من حزيران (١٩٦٧).

أدى اغتيال رابين في نهاية العام ١٩٩٥ إلى أحداث انقلاب سياسي في إسرائيل بتبوء الكيود إلى السلطة تحت شعارات «الأمن»، وبهذا التحول أثبت المجتمع الإسرائيلي عدم الرغبة في إنجاز التسوية.

كان بنيمين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي يعتقد أن الهاجس الأمني الذي أطلقه في حملته الانتخابية هو الذي أوصله إلى السلطة في إسرائيل، لذلك عليه المحافظة على ومودة الانتخابية، والعمل على تحويل الخطاب الأيديولوجي الأمني إلى برنامج عمل سياسي للحكومة الإسرائيلية، من أجل بناء إسرائيل التهمة أمنياً، ولم يعد نتنياهو عن هذا الخطاب السياسي، حتى عندما حاول أن يكون دفاعية سلاماً.

فتتباها لم يتعامل مع اتفاقيات أوسلو بصفتها اتفاقات تخدم عملية السلام، إنما اعتبرها دأماً وإغواء، ليست لها أهمية في حد ذاتها، بل «المكسب الرئيسي من هذه الاتفاقات هو

الشرق الأوسط

السلام مع الأردن - وهي - الاتفاقات أوسلو - سمحت لنا بتحسين علاقاتنا مع الدول العربية وجذب اهتمام المستثمرين الأجنب إلى إسرائيل.. وهو ما عكس تعامل نتنياهو بحفاوة مع الاتفاقات الإسرائيلية - الفلسطينية. وهذه الاتفاقات هي التي تقوم سياسة حكومة الليكود التي تطالب الطرف الفلسطيني بإعادة التفاوض على العديد من القضايا وإلزام السلطة الفلسطينية بمعالجة أمن إسرائيل من خلال فتح المعابر الفلسطينية.

وإعادة التفاوض جزئية من حزنيات كثيرة تتشابه لتطويق اتفاق أوسلو. ويضاف إلى ما سبق فتح حكومة الليكود ومن بعدها حكومة باراك لعملية استيطانية جديدة في الأراضي المحتلة والقدس مرة بعد الأخرى. تسعى من خلالها الحكومة الإسرائيلية إلى فرض وقائع على الأرض دون الاستجابة إلى كل الاحتياجات على استمرار الاستيطان.

إن استمرار السعي لفرض كل الاشتراطات السابقة حزمة واحدة على المفاوضات، هو مؤشر مهم على الأداء التفاوضي الإسرائيلي بما يتعلق بقضايا الوضع النهائي- التي تقع جميعها ضمن الخطوط الحمراء لحكومة الليكود. والتي اعتمدتها أيضا حكومة باراك بأسلوب آخر، مما يعني إلغاء هذه المفاوضات قبل بدئها. وترحيل القضايا العالقة من المرحلة الانتقالية وتقديمها كمشكلات هي إثارة الحل النهائي. محاولا إظهار السلطة الفلسطينية كمعطل لعملية السلام إن لم تستجب للشروط الإسرائيلية التي تفرضها حكومتها. وهي هذه الحالة فإن إسرائيل ترى نفسها غير ملتزمة إلا بما تم الاتفاق عليه. وهي الحالة فإن ذلك يعني إغلاق المفاوضات على المسار الفلسطيني.

ثالثا: عملية التسوية

إن استخدام عبارة السلام العادل والشامل فيه الكثير من الخطورة. وهو الهدف الذي يطرحه الأطراف المشاركة في المفاوضات سواء الأطراف العربية أو الطرف الإسرائيلي. أو الدول الكبرى - وتحديدا الولايات المتحدة - الضافطة لإتمام عملية التسوية. والخطورة تكمن في أن كل الأطراف قررت أن مصادر الصراع الثنائية ليست موضوع تفاوض. بمعنى آخر، قررت الأطراف أن نقطة اندلاع الصراع قد نقلت من مكانها وزمانها إلى مكان وزمان آخر. حيث تظهر المفاوضات باعتبارها تنازعا على أرض تم احتلالها في العام ١٩٦٧. فأتت الأطراف في الشرق الأوسط قد اتفقت على إعادة تعريف الصراع. وإعادة صياغة أهداف الأطراف بحيث تكون منقطعةصلة بأي مصدر من مصادر الصراع الأصلي. إن اقتناع الأطراف بأن السلام العادل والشامل يتحقق على أساس أهداف فرعية من الصراع. يعني أن هذه الأطراف قد اختارت تسوية الأمر الواقع كبديل عن إنهاء الصراع. بذلك لن ينتهي الجدل في شأن مصادر الصراع. وبالتالي لن ينهي الجدل في شأن عدالة تسويات الأمر الواقع وشموليته.^(١١)

إن الحدل حول مصادر الصراع، لا يعني عدم إمكانية إنجاز التسوية العربية - الإسرائيلية، ولكنه يعني تحولا في أشكال الصراع، والتسمية نفسها تتضمن حالة صراعية. لأن «السلام الكامل» الذي تقدم فيه الخلافات والتناقضات بين الدول أمر مستحيل وهو مجرد وهم، على حد تعبير ريتشارد هيكسون، مما يعني أن التسوية العربية الإسرائيلية ستظل الصراع العربي - الإسرائيلي من مستوى الحرب إلى مستويات أخرى، ويتم إدارته بوصفه صراعا غير مشتمل، لهذه الاعتبارات نحاول إسرائيل تطبيق الحل العربي - الإسرائيلي بمجموعة واسعة من الاشتراطات التي تضمن لإسرائيل منافع أكبر بكثير من الفوائد التي تقدمها في إطار إنجاز هذه التسوية. وحتى في الحالات التي تعتبر أكثر مرونة في إسرائيل، فشمعون بيريز يعتقد أن بالإمكان التوصل إلى اتفاق حول إطار كوتنغزالي أو إطار سياسي آخر يشتمل على تجريد الضفة الغربية وغزة من السلاح، لأن الاعتبار الأول يجب أن يكون متطلبات إسرائيل الأمنية، ويعتقد أيضا أن للسلام ترجمته الإقليمية التي يجب ضمان الأمن في كل انشطار معها كان. حتى إذا لم تتعهد إسرائيل بالمعايير النهائية للتسوية الدائمة مع الفلسطينيين، فخرطة بيريز تحتوي ثلاثة خطوط: خط أمشي، منه أن جيشا أطيبا لن يجتاز نهر الأردن، خط سياسي يحدد تقريبا مثلها عليه للمناطق **المتنازع عليها** (الأراضي المحتلة)، وخط اقتصادي يتيح إقامة هيدرولية اقتصادية تضم الأردن وإسرائيل والفلسطينيين، في أطر تجارة مشتركة ومناطق صناعية مشتركة، ويعني على إسرائيل أن تعطي حصة المثلث الفائق إلى كل ما هو جيد لتحسين الوضع الاقتصادي للمنطقة هو التالي جيد للسلام، ولذلك فإنه جيد لإسرائيل.⁽¹⁾

يبدو واضحا من السياسة الإسرائيلية بشطبها الهيمبي واليساري، أن العمل على تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي يقوم أساسا على تدعيم لهم وجود إسرائيل في المنطقة فحسب، بل تدعيم تفوقها، ونقله من المجال العسكري إلى المجالات الأخرى السياسية، والاقتصادية، وتدعيم دور إسرائيل في المنطقة كلاعب مركزي لا يمكن التغلّب عنه.

إن تدعيم هذا الوضع الإسرائيلي يحتاج إلى مجموعة من الإجراءات التي تتجاوز الاتفاقات السياسية، لتعطي هذه الاتفاقات والضماني نوعا من الاستقرار في المنطقة، وثاني الترتيبات الاقتصادية المطروحة على المنطقة في هذا الإطار تتضمن الاتفاقات السياسية والتمويل والاستقرار. وهي ما سترتب عليها عمليات واسعة لإعادة هيكلة التشابكات الاقتصادية في المنطقة بدمج الاقتصاد الإسرائيلي فيها، بذلك تتشابك المصالح الاقتصادية لتتلعق عودة الصراع إلى شكله السابق، وهذا الدمج لإسرائيل في المنطقة يعمل على تصحيد البنك الدولي الذي يقول، إن خلق مصالح اقتصادية متبادلة بين الأطراف الداخلية في أي تحالف يمكن أن يؤدي في مرحلة لاحقة إلى تسهيل التوصل إلى حل سياسي، ضمن ما يسمى إجراءات بناء الثقة، فتتعزيز التعاون الإقليمي بشكل تضمنوا أساسيا في التنمية، إذ يؤدي إلى تخفيف

التوترات السائدة، وهو ما يتيح لدول المنطقة توجيه مواردها نحو التنمية وتطوير البنية التحتية الاقتصادية^(١٢٢) لذلك لم يتم انتظار انتهاء عملية التسوية لإقامة الروابط التي تعمل على إدماج إسرائيل في المنطقة، فبالإضافة إلى المفاوضات المتعددة الأطراف، تم عقد الشجع والمؤتمرات الاقتصادية لدول المنطقة في كل من الدار البيضاء وعمان والقاهرة والدوحة، فتمت عملية التسوية بالطريق أمام إعادة هيكلة المنطقة سياسياً واقتصادياً متجاوزة الصورة التي كانت عليها في الماضي. وعلى الرغم من أن البعض يعتبر أن المرحلة الراهنة مرحلة مضطربة تسيطر عليها سمات الاستمرار في عملية التسوية، وأيضاً سمات محاولة التراجع عنها، وعموية تسويتها بمرحلة سلام مستقرة، واعتبارها مرحلة انتقالية إلا أن هذه المرحلة تتصف بالسمات التالية:

- إبرام مجموعة من اتفاقات سلام بين إسرائيل والدول العربية.
- إنه في إطار مرجعية مؤتمر موسكو تم تدشين المفاوضات متعددة الأطراف في مجالات الأمن الإقليمي والتنمية الاقتصادية والتعاون الإقليمي والمياه والبيئة والتلاجش.
- مبادرة الفنلندي الاقتصادي مدافوس لعقد مؤتمر القمة الاقتصادية لدول الشرق الأوسط شمال أفريقيا في الدار البيضاء ١٩٩١، وعلى ١٩٩٥، ومؤتمر القاهرة للتعاون الاقتصادي ١٩٩٦، ومؤتمر الدوحة الاقتصادي ١٩٩٧، وعبرها عن المؤتمرات.
- إن السمات السابقة تعطي صورة عن دور التحكيم بالتسوية على إيقاعها حية على الرغم من كل الوهن والتعطيل الذي أصابها. فالامتناع الأمريكي لإسرائيل بعمل على إنشاء العملية فائقة بصرف النظر عن التقدم فيها، مع حماية المصالحات الإسرائيلية التي تفضل العملية وما دفع إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش عن إسرائيل بوجه أي إدارة لإسرائيل عن انتهاكات حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة إلا أمر يكشف عن التحالف الهادوي بين الولايات المتحدة وإسرائيل وقوته، ذلك التحالف الذي يمثل صلة لا تفترق بها الولايات المتحدة من أجل حماية الفلسطينيين^(١٢٣) ولم يختلف الأداء الأمريكي في زمن ولاية كلينتون، بل زاد الانحياز الأمريكي لإسرائيل، وجاءت إدارة كلينتون إلى السلطة بولاية واضحة، حسب استراتيجيته «الأمن القومي» الأمريكي تقول: «الحصول على تسوية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، أما بنود هذه التسوية فهي من الأمور المرشحة، طلقاً كانت التسوية لتتمتع بشيء من التدهور، وطالما أنها ستخدم عرض امتصاص الصدمات السياسية هي حال وقوع أزمة كبرى تتطلب تدخل عسكرياً أمريكياً في المنطقة»^(١٢٤)

هذا الانحياز الأمريكي لإسرائيل يعمل باتجاه إنجاز تسوية مشكلة العرب، بصفتهم الطرف الذي عليه دفع ثمن عملية السلام، ومن هنا يمارس الضغط الأمريكي على الطرف العربي في الوقت الذي تتم فيه حماية الطرف الإسرائيلي، بذلك يتم إنجاز التسوية على قاعدة الاحتلال

في ميزان القوى القائم في المنطقة، بحيث يحني الطرف الأقوى ثمار التسوية بشكل لا يمكن مقارنتها بالمكاسب التي يجنيها الطرف الأضعف.

فالاتفاقيات التي يتم التوصل إليها في هذه الشروط، تحمل لتفاصيلها، مما يدل على خطأ الاعتقاد بأن مجرد توقيع الاتفاقيات تسوية مع إسرائيل يؤدي إلى تصفية التناقض بينها وبين العرب. فاستمرار إسرائيل بالتنجّع باستثنائات استثنائية في النظام الدولي بفضل تحالفها الخاص مع الولايات المتحدة، يفيها مصدر خطر على استقرار المنطقة.

وفي هذه الشروط المزعومة التي صيغت على أساسها عملية التسوية، نحتاج من العرب جهوداً إضافية خارج إطار المفاوضات. لأن الاشتراك في المفاوضات لا يعني - ولا يجب أن يعني - التزام النخلة من النشاط الدولي خارج المسيرة التفاوضية، بل على العكس، فإن تحسين شروط الناتج النهائي لهذه المسيرة، مشروط بالعمل الجاد خارج قاعدة التفاوض. وبالأدوات بتحسين علاقات الأطراف المفاوضة بالأقطاب الدولية المحتملة، والقوى العالمية المتوعدة⁽¹³⁾.

فالآراء التفاوضية العربية داخل العملية السلمية وخارجها، هو الذي سيحدد مواقع الدول في المنطقة، وهل ستحتفظ المنطقة العربية بمراكزها المتميزة، أم أن إسرائيل ستحاول تجميع كل المبررات الإقليمية عندما هي مركز متغير وحيداً **لأن كل** التطورات التي تشهد لها المنطقة ستشهد إعادة انتشار بين مراكز التسلطية فيها، وأن المستقبل يشهد - من جهة جديدة لهذه المراكز⁽¹⁴⁾ - أن أطراف المفاوضات لها فيها رأيها الأمريكي الأسبق في العملية التسوية. وليس من الاحتمالات الواقعية، لا للعرب ولا لإسرائيل، توفير لعبة أخرى في الشرق الأوسط، لأن ارتفاع وتيرة العنف في المنطقة سيكون البديل عن الصالة القائمة. ثم إن الوعي الأمريكي الذي قد يشكك في أولوية الشرق الأوسط على غيره من الهموم العالمية للتكاثرة، يعلم تماماً أن فشل المسيرة سيؤثر بصورة هائلة على نفوذه وفي هيئته في العالم. لذلك فأمريكا هي الأخرى أصبحت أسيرة المسيرة السلمية بقدر ما الأطراف المتفاوضة هي أسيرة العملية أيضاً⁽¹⁵⁾.

إن تسوية شاملة وقابلة للحياة من دون أزمات تدفع إلى انتحارها، نحتاج إلى مجموعة من الشروط لم تتوفر إلى الآن في عملية التسوية القائمة. على الرغم من امتلاكها لكل مقومات الاستمرار المفروضة من خارج أطراف الصراع، ونحتاج هذه العملية إلى:

• امتناع أطراف الصراع عن القيام بأعمال عسكرية جديدة، واقتناعها بأن الحرب لن تأتي بمكاسب تستحق تكلفة الحرب المباشرة المادية أو البشرية⁽¹⁶⁾.

• فك الارتباط بين عملية التسوية وميزان القوى في المنطقة، لأن إنتاج تسوية تعكس هذا الميزان يعني إنتاج تسوية غير متوازنة تحمل عوامل تقهرها بسبب الاختلال في ميزان القوى. مما يفرض على أطراف العملية خاصة الجانب الإسرائيلي دفع الثمن الحقيقي لعملية التسوية التي يسعى المجتمع بشاوها.

الطرف الإسرائيلي

ـ اعتدال الرأعي الأمريكي والعمل في إطار سياسة متوازنة بين أطراف الصراع، والكف عن التحيز إلى الجانب الإسرائيلي، لأن وجود الولايات المتحدة كقطب وحيد في العالم سيكون الضامن لعملية التسوية. وإنتاج تسوية أكثر توازناً تضمن تسوية قابلة للاستمرار، وتعاني من الزمات أقل خطورة من التسويات غير المتوازنة.

ـ تصفية الحواشي المتعددة للصراع العربي ـ الإسرائيلي، فالإبقاء على مشكلات متفجرة في إطار إنجاز التسوية، يحافظ على عوامل التفجير من جديد للصراع، لذلك لا يمكن تجاهل قضايا خطيرة والعمل على حلها من طرف واحد، كقضايا القدس والملاجئين والمستوطنات، وبحكم الآليات المختلفة التي أطلقتها التسوية، فإن الالتزام بالشروط السابقة لتحقيق تسوية متوازنة يبدو أمراً مستحيلاً، لذلك فإن الاحتمالات أمام مستقبل التسوية تنطلق من الآليات القائمة وهي تتفاوت حسب العوامل التي ستؤثر في اتجاهاتها.

ـ الاحتمال الأول: بقاء الوضع الراهن على حاله، بعدم تقدم التسوية وعدم إعلان موافقة، ويعمل هذا الوضع على طيعة السياسات الإسرائيلية القائمة على تعطيل التسوية لكسب الوقت، يجعل هذه العملية تعود إلى أطول فترة ممكنة إذا لم تستحب الشروط الإسرائيلية، والعمل خلال هذا الزمن على تدعيم **الوقائع الإسرائيلية** في إطار التسوية، لإنجاز تسوية تعاني مزدها من احتلال التوازن، وبذلك تثير العملية التفاوضية حول نفسها لتعود مرة أخرى إنتاج الوضع الراهن.

ـ الاحتمال الثاني: التآكل الميولي لعملية التسوية، وذلك حين ينتج تطبيق السياسات من طرف واحد اختفاء التصورية سرعنها وهمايتها، على الرغم من تكرار الكلام عن التمسك بعملية السلام، فتتآكل العملية ببطء وتثور في دوائر مفرغة مع بقاء الصورة العامة لعملية السلام قائمة، ويتم العمل على تغطية التراجعات في العملية عن طريق التلميذات الكلامية الفاضلة، حتى لا يحصل رد فعل عربي يؤثر سلباً على عملية المفاوضات، ولكن مسلسل التآكل قد يأخذ شكلاً متفجعاً سريع التحرك يؤدي إلى انفجارات سياسية تؤدي بعملية السلام وتحوطها إلى أشلاء، مشكلة تزيد من إمكانيات العنف والحدف المضاد^(٢).

ـ الاحتمال الثالث: التقدم البطيء في التسوية في القضايا الجزئية، على الرغم من استحقاق قضايا الحل النهائي، لذلك يتم تجنب القضايا المتفجرة مثل القدس والملاجئين والحصص على التسوية من خلال جراحات الحلول الجزئية، بذلك تثير العملية السلمية وفق الرغبات الإسرائيلية، بذلك يكون على العرب دفع ثمن العملية السلمية، والرخا بأقل من الحد الأدنى للمطالب العربية.

إلى الاحتمال الأكبر هو استمرار التسوية حتى تصل نهايتها، بصرف النظر عن طبيعة هذه النهاية، لأن الخيارات الأخرى تكاد معدومة أمام الأطراف العربية.

ثانياً: التوجهات المختلفة لمستقبل المنطقة

وفي إطار التسوية هناك تصورات للمنطقة تسعى الأطراف ذات المصالح لإخراج هذه التصورات إلى حيز الواقع. ومن هنا تتقاطع التصورات والسياسات بين أصحاب المصالح المتقاطعة، وتشكل عملية

السلام مدخلا لإعادة ترتيب المنطقة، وتسمى كل الأطراف ليكون هذا الترتيب لصالحها.

إن مصالح الأطراف هي التي تحدد تصوراتها لمستقبل المنطقة وأوضاعها. فمصالح الولايات المتحدة هي المنطقة تدفعها للعمل على إنتاج وضع مستقر يضمن لها هذه المصالح. فالمنطقة كموقع استراتيجي لمناخ النفط وضمان تدفقه، دفع الولايات المتحدة إلى إعادة النظر في الصراع العربي - الإسرائيلي بعد عذاب التهديد الشيعي. مما فتح الطريق أمام التحرك الأمريكي لتسوية هذا الصراع. وانبثقت الاستراتيجية الأمريكية على محور قطبيه، أمن إسرائيل والاحتواء المزيج في الخليج.

إن تصورات الولايات المتحدة كمنطقة وحيد في العالم له المصالح الكبرى هي المنطقة جعل الولايات المتحدة تطلق تصوراتها الأقوى فاهية لتطبيق. بصرف النظر عن صلاحيتها للمنطقة. كما أن إسرائيل صاحبة مصلحة بإعادة ترتيب المنطقة وفقا للتصورات الإسرائيلية. فقد كانت تشغل موقعا استراتيجيا كفا هذه من طواحي مواجهة الاتحاد السوفييتي. من هنا جاء التصور الإسرائيلي ليعيد إنتاج دور استراتيجي في المنطقة من خلال إبعادها في المنطقة بدور مثقوق، يصبح شبكة من العلاقات والمصالح تفرض نمطا من العلاقة من الصعب التفكك منها في ظل التشابكات المتوقعة إنجازها من خلال عملية التسوية. سواء عبر المفاوضات الشائبة أو عبر المفاوضات للتعدي الأطراف أو عبر المشروعات الاقتصادية الجماعية التي طرحت على القمم الاقتصادية التي عقدت في المنطقة.

أما التصور الأوروبي فهو يسعى للاستفادة من التغيرات الحاصلة في المنطقة من خلال طرح مشروعه بالشراكة الأوروبية - المتوسطية، ردا على التجمعات الاقتصادية التي ظهرت في أنحاء العالم. ولكن هذه المصلحة تعمل على تقسيم الدول العربية إلى متوسطة وعبر متوسطة.

التصور الرئيسي الثالث والذي له مصلحة حيوية في رسم صورة المنطقة على شائكة محددة، هو التصور العربي. فعلى الرغم من التصورات الكثيرة التي تستهدف المنطقة وبشكل رئيسي الدول العربية، إلا أن الدول العربية لم تستطع خلال السنوات الماضية وعند بدء التغيرات من إيجاد حد أدنى من التصورات لصورة المنطقة المستقبلية التي تحفل المصالح العربية. لذلك نجد الدول العربية تتعامل مع تصورات الآخرين بالطروعة، دون أن يكون لها تصوراتها التي تهدف إلى تحقيقها، والعمل على إيجاد وضع يخدم استراتيجية عربية موحدة.

التصوير الأمريكي

يسيطر على الفكر الاستراتيجي الأمريكي بعد خروج الولايات المتحدة منصوبة في الحرب الباردة نزعة الأولوية للمصالح الأمريكية في كل بقاع العالم، بحيث يعتبر العالم كله ميداناً رحباً للمصالح الأمريكية. ويطلق التصور الأمريكي مستقبل المنطقة من هذه النزعة التي تعمل على حماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وتتجلى منطقة الخليج العربي كمصلحة حيوية عظيمة للولايات المتحدة لا يختلف عليها اثنان، فهي تشكل جسراً بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، وتتمحور على أكبر احتياطي بطني في العالم. كما تمتلك المنطقة العربية أهم نقاط المرور في العالم، قناة السويس ومضيق هرمز^(١٢١) هذه الميزات تشكل خلفية الصعي الأمريكي الذي استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية للحصول على قواعد عسكرية ومواطن قدم استراتيجيته، وعلى خلفاء وأصدقاء في منطقة الشرق الأوسط، وهي المستويات الأخيرة سلمت والشلطن بأنه إذا أوليت الحفاظ على مصالحها في المنطقة، فإن على أمريكا أن تقوم بذلك بنفسها.

لقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب الباردة بقوة عسكرية عاتقة، ثم استثمرتها في حرب الخليج لحسم القوارق فيها وبين غيرها من دول العالم، وكانت نتائج حرب الخليج قد وسعت الولايات المتحدة باعتبارها القوة البعيدة لشرق بها من الجميع وذلك دور استراتيجي في أمن المنطقة.

فالاستراتيجية الأمريكية في المنطقة لتتعد بالتمسك وإسرائيل، وحسب فيكونون «إن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو اليهود وإسرائيل، ولم نهما لا يسيران دائماً في اتجاه واحد»^(١٢٢) لذلك فإن التزام الولايات المتحدة بإسرائيل التزام استراتيجي لتدعيم موقعها في المنطقة وعلى «الولايات المتحدة أن تتخذ من الإجراءات ما هو كافي بأن يؤمن السلام لإسرائيل، على الرغم من استرواد العرب لأرضهم التي احتلتها، وأن تنازل إسرائيل عن الأرض لا يعني تنازلها عن الأمن والسلام»^(١٢٣)

أصبحت المصالح الأمريكية في المنطقة محمية جراء التغيرات الأخيرة فالوجود العسكري الأمريكي في المنطقة يحافظ على هذه المصالح، ومن ذلك: «إن طبيعة نظام ميزان القوى في منطقة الشرق الأوسط، وفشل والشلطن السابق في أن يديره بكفاءة، يبينان أن الأمر بعيد عن الاستقرار، والمصلحة القومية ستتحقق على أفضل وجه إذا استطعت الولايات المتحدة الظروف الفاتية على نحو هريد في الشرق الأوسط لتتعد لتشكل هيكل نظام الأمن»^(١٢٤)

إن نجاح سياسة الولايات المتحدة تجاه توازن القوة قصير الأجل، سيكون عرضة لأهتزاز، ما لم يمزج جهد أكبر يطمح إلى إعادة لتشكل النظام القائم في الشرق الأوسط، والولايات المتحدة حالياً في وضع ملائم يمكنها من استخدامها هيمنتها لتحقيق هدف أسمي، فالقوى

الإقليمية تعترف حالياً بالولايات المتحدة باعتبارها القوة ذات الكلمة الراجعة وتسمى لانتقام رضاها. لقد دعمت قوة أصدقائنا في المنطقة بعض النتيجة التي أتت لها الحروب - حرب الخليج - في حين جرى إضعاف أعدائنا.^(٣٢)

إن كل الظروف في المنطقة تبدو مواتية للولايات المتحدة من أجل إعادة صياغة المنطقة وحل توصياتها، وهي تعمل على الحفاظ على توازن القوة في المنطقة بحيث يضمن مصالحها الاستراتيجية. من خلال تدعيم قوة أصدقاء أمريكا في المنطقة وإضعاف أعدائها باحتوائهم، ويقوم توازن القوة من وجهة النظر الأمريكية، على قاعدة عدم السماح لأي دولة من دول المنطقة أن تهيمن على هذا التوازن، بحيث تبقى الولايات المتحدة الدولة الضامنة لهذا التوازن من خارج المنطقة.

وعلى هذه القاعدة كانت أطروحة «الأخوان للزوج» في الخليج، وهي تعبر عن التحول في السياسة الأمريكية في المنطقة ورؤيتها لأوضاعها. فالولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى تدعيم قوة إيران على حساب العراق، فقد عملت كل من حربي الخليج الأولى والثانية على إضعاف كل من العراق وإيران وتحديد إمكاناتهما العسكرية، دون أن ينشئ ذلك عدم قدرة هاتين الدولتين على العودة لتدعيم أمن الخليج، فهما **نظمتان الشراكت الضامنة** لإتجاز مثل هذه المهمة، وبالتالي سيحتج على أمريكا أن تتولى مسؤولية ضمان أمن الخليج بقواها العسكرية.^(٣٣)

إن الالتزام الثنائي للولايات المتحدة في المنطقة هو إسرائيل، التي يجب المحافظة على وجودها وأمنها.^(٣٤) وهو ما يسمى إلى إتجاز عبر النسوية الثابتة في المنطقة، والولايات المتحدة نفسها بحاجة إلى تصفية الصراع في الشرق الأوسط انسجاماً مع رؤيتها الاستراتيجية الجديدة لفترة ما بعد الحروب الباردة، ضماناً لمصالحها، فهي تدرك أن محور السيطرة العالمي في السنوات القادمة يقوم على السيطرة على منابع النفط.

والمشروع الأمريكي لتحصين التصراع العربي - الإسرائيلي على شقين: المفاوضات بين الأطراف للوصول إلى اتفاق ما يجعل ديمومته، ويزيد إسرائيل بدول المنطقة من خلال شبكة علاقات ومشاريع اقتصادية تعمل على منع إشعال الحالة العدائية الصاعدة، بذلك فإن الارتباط الأمريكي بحل النزاع العربي - الإسرائيلي هو ارتباط قوي لأن «المشروع الأمريكي هو من الخطورة والأهمية للمصالح الأمريكية، مما يجعل من فشله فشلاً ذريعاً للمصالح الأمريكية، ونجاحه نجاحاً مدوياً للبيت الأبيض، وإن لمدة محدودة».^(٣٥)

هذه هي العقيدة التي اختلج على أساسها مؤتمر مدريد، والتي عملت ثلاثة معطيات على جعله ممكناً: نجاح أمريكي لمقربين في تثبيت معادلة انعدام القدرة وانعدام الرغبة، انحصار مذهب لأمريكا في حرب باردة سرعت مساحة الشرق الأوسطية من انتهائها لصناعة الغرب، استعداد أمريكي واضح للتدخل العسكري المباشر في المنطقة.^(٣٦)

التفوق الإسرائيلي

يمكن احتصار الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، يهوديين وثيسيين، الأول ثاميين منابع النفط وتنتقله إلى الأسواق الخارجية، ثاميين إسرائيل وحماتها من أي تهديد محتمل، وسياسة الاحتواء المزخرف في الخليج تهدف إلى خدمة هدفين، إبعاد الخطر عن منابع النفط وإبعادها عن إسرائيل بوصف إيران والعراق أخطار يمكن أن تهددها، وهي تعمل لتفسيخ سياستها تلك بطريقة منفردة لا تقبل لثخلا من أحد، وبطريقة مباشرة بعد أن كانت راضية بإسناد هذا الدور بالوكالة إلى دول أخرى.

التصور الإسرائيلي

ينطلق التصور الإسرائيلي للمنطقة من تمييز التفوق الإسرائيلي وتوسيعه من دائرة التفوق العسكري إلى الدوائر السياسية والاقتصادية، من خلال إدماج إسرائيل في المنطقة وإعطائها دوراً محورياً، ويعتمد هذا التصور على إمكانية إتعاذه على الضعف العربي الذي شهد تطوراً نوعياً في التسعينات، ولتفاعل إسرائيل مع صورة المنطقة المستقبلية ومع المفاوضات السلمية من موقع المنتصر، وأن العرب عزموا في معركة الصراع العربي - الإسرائيلي، لذلك عليهم أن يتكفروا مع الواقع الجديد.

هذه الرؤية موجودة بين قطبي إسرائيل، سواء الاتجاه اليساري الذي يحتله حزب العمل الذي يعمل على إخراج صورة إسرائيل إيجابية السلام الذي يجب أن تجني جميع دول المنطقة ثماره، وحتى يحصل ذلك يجب أن يتمحور حول إسرائيل، أو الاتجاه اليميني الإسرائيلي معشلاً بالتيكود الذي يعمل على ترسيخ التفوق الإسرائيلي بصلف ورفاهية، على قاعدة أن المنتصر يجني مكاسب النصر، وعلى المهزوم أن يدفع الفاتورة، فمن وجهة نظر التيكود، على العرب أن يدفعوا ثمن السلام، وهذا مايعتصده شعار التيكود «السلام مقابل السلام».

يعمل شمعون بيريز الاتجاه الأول، فهو يرى أن مشاكل المنطقة لا يمكن أن تحل بشكل فردي، لأن السوق المشتركة هي مفتاح السلام والأمن في المنطقة، وبالتالي يجب السعي عبر خطوات تدريجية لإقامة جماعة تشبه كثيراً الجماعة الأوروبية⁽¹⁾ بهدف بيريز من خلال طرح مشروع «الشرق الأوسط الجديد» إلى تحقيق الوظيفة الاستراتيجية ذاتها، أي نقل مركز ثقل الصراع إلى ساحة تتمتع إسرائيل فيها بتفوق نوعي، وهي الساحة الاقتصادية، حيث تتمتع بتفوق تكنولوجي وبنوي تحلي⁽²⁾ ضمانات الاقتصاد الإسرائيلي، مقارنة بسمات معظم الاقتصاديات العربية، تجعله الأقدر على استثمار الفرص التي يوفرها الانفتاح الاقتصادي الشرق أوسطي⁽³⁾، فحسب هذا التصور الإسرائيلي «ستفقد التنمية المشتركة إلى نمو ثوري في ساحة الشرق الأوسط، وإلى نمو في التجارة المتبادلة بين دول المنطقة، وإلى توسيع التجارة مع بقية العالم»⁽⁴⁾.

فالسلم في الشرق الأوسط حسب شمعون بيريز ليس عملية جراحية. فهو قبل كل شيء هندسة معمارية ضخمة. هندسة تخطيطية لبناء شرق أوسطي جديد منصر من صراعات الماضي ومستمد لأخذ مكانه في العصر الجديد. العصر الذي لا يطبق المخططين ولا ينفذ للهيئة.⁽¹¹⁴⁾ وهو يعتقد أن أمام المنطقة فرصة نادرة لخلق «عصر ذهبي» جديد في الشرق الأوسط. تحتاج إليه كل المنطقة، وكل بدل آخر سيكون بمثابة عذاب لجميع السكان.⁽¹¹⁵⁾ والإنجاز العماد الذي يدعو له اقترح بيريز الضعفاء تركيا وإسرائيل إلى جامعة الدول العربية وتحويلها إلى «منظمة الشرق الأوسط الإقليمية».⁽¹¹⁶⁾

إن خطوط المشروع الشرق أوسطي لا تقتصر على الجانب الاقتصادي. بل تتجاوزها إلى إنجاز هيمنة إسرائيلية في الجوانب السياسية والأمنية. إضافة لهيمنتها العسكرية. كما أن المشروع يسعى لأن تصبح إسرائيل نقطة الانعطاب المركزية اقتصاديا وإماليا في المنطقة. لأن التوقع الإسرائيلي من المشروع هو أن تصبح إسرائيل مركز التطل في جميع الأنشطة الاقتصادية ونقطة الالتقاء أو المرور لمعظم مشروعات التنمية التحتية.⁽¹¹⁷⁾

يمثل بنياامين نتانياهو الاتجاه الثاني الذي يسعى إلى استثمار القوة العسكرية الإسرائيلية إلى حدها الأقصى بإسلا الشروط الإسرائيلية على المنطقة. ودفعها للتكيف مع هذه الشروط. فحسب نتانياهو يوجد في العالم نوعان من الإسلام: إسلام بين الدول الديمقراطية وإسلام مع دول ديكتاتورية. النوع الأول (إسرائيل) بين الدول الديمقراطية. هو الإسلام بمفهومه للأدوف بين الدول العربية. حدود مفتوحة، تعارة حرة. سباحة... الخ. أما الأنظمة الديكتاتورية، فلمس لديها القوى الداخلية التي تمنعها من الخروج إلى الحرب. لكن يمكن كبح ميولها العدوانية من خلال وسائل مراقبة خارجية. وأن أشد الديكتاتوريات وأعنفها. يمكن أن يرتد عن طوع الحرب إذا عرف بوضوح أنه سيهزم فيها وأن الهزيمة ستجعله يفسر قوته. وهي الفكرة الأوروبية المنقطة عبر «ميزان القوى». والتي خطت في عهد الرئيس الأمريكي روزكف ريفان باسم «سلام من خلال القوة». وعندما تواجه خصما ديكتاتوريا، يجب الاحتفاظ بقوة كافية لردعه عن الخروج للحرب. وطالما بقيت تملك هذه القوة. ستحصل على الأقل على «سلام الردع».⁽¹¹⁸⁾

والسلام في الشرق الأوسط يجب أن يكون على صورة «سلام الردع». وأن احتمال تحقيقه يرتبط بصورة مباشرة بقدر إسرائيل على الردع. فكما بدت إسرائيل أقوى. فكما أبدى العرب موافقتهم على إبرام سلام معها. وكما أبدت ضعفا وترددا. كلما زادت احتمالات الحرب بينها. ففي الشرق الأوسط يعتبر الأمن (قوة الردع العتمة على قوة الخصم) هو المنصر الحيوي للسلم ولا بدل له. إذ إن السلم الذي لا يمكن الدفاع عنه. لن يصمد وقتا طويلا.⁽¹¹⁹⁾

الفكر الأوسط

وبناء على هذه النظرة الاستثنائية، فإن الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، يبدو عملية انتحارية حسب نكتياهو. لأن الانسحاب من الضفة الغربية أو الجولان يعرض الوجود الإسرائيلي للخطر. فإذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لمناطق الضفة الغربية وهضبة الجولان، فلا بد أن نستنتج أن الشعار (الأرض مقابل السلام) غير صحيح في أساسه... إن سيطرة إسرائيل على هذه المناطق ليس (عائقاً أمام السلام) إنما هي عائق أمام الحرب.^{١٢١}

إن اليكود يرفض فكرة «الأرض مقابل السلام» لأنه يعتقد أن هذا القيد أدى إلى تراجع مكافئة إسرائيل الاستراتيجية والسياسية، لذلك ترى نكتياهو يستعيد مفاهيم الحرب الباردة، ليدفع المنطقة إلى حافة الحرب. عندما بعدم الشغافها على الضعف العربي، الذي سيدفع للتكيف مع الشروط الإسرائيلية. واستبدال مبدأ «الأرض مقابل السلام» بمبدأ «السلام مقابل السلام». ويخفي هذا أن على الأطراف العربية أن تقبل السلام من دون الأرض. لأن الأرض ضرورة حتمية لأمن إسرائيل.^{١٢٢}

لذلك فإن اليكود يرى أن «الشرق الأوسطية» تشكل خطراً على إسرائيل، فهذا المشروع رؤية اليكود يعول إسرائيل إلى دولة شرق أوسطية. في الوقت الذي يسمى فيه اليكود إلى إنشاء «المسار الجديد» حول إسرائيل والعمل على تطوير أوضاعها الاقتصادية لتحويلها إلى جزء من العالم الأول. على اعتبار أن إسرائيل الرقعة والبنية هي القارية على فرض النظام الإقليمي القائم لها في المنطقة. لذلك يرى نكتياهو أن «الأسوار الحديدية» التي يسمى حزب العمل على تعطيلها تحتاجها إسرائيل حسب مشروع اليكود. فهو يقول «على إسرائيل أن نعلن نعيش في الشرق الأوسط في عصر الأسوار الحديدية وما تقسمه الأسوار الحديدية هو أنها نشترى لنا الوقت»^{١٢٣} ويعتقد نكتياهو أن هذا الوقت الذي ستملحه الأسوار الحديدية إلى إسرائيل سيوصلها إلى «وضع سينمو فيه الاقتصاد الإسرائيلي ثلاثة أضعاف خلال عقد ونصف العقد، عندما يصبح من أغنى دول العالم، لا بصورة سببية، بل بصورة مطلقة. وعندما يحدث ذلك ستظهر معالم وحدتنا كلها في الشرق الأوسط وهي الأسرة الدولية. وستتحول إلى شريك حقيقي، إلى شريك متكافئ، إلى عصر دولي من الحرية الأولى»^{١٢٤} على هذه الخلفية يسطر نكتياهو عن الفكرة الشرق أوسطية، ويصفها بأنها «سلبية.. فهو يعتقد أن عدم الاستقرار في المنطقة يجعل المرافعة على الشرق أوسطية مجرد أحلام، لأن أوضاع المنطقة غير مستقرة ولا يوجد ما يضمن استمرار التعايش، وبالتالي المرافعة على أوضاع مستقرة للمشروع الشرق أوسطي. ومن هنا تراجع الاعتماد الإسرائيلي بالنظم الاقتصادية بعد وصول نكتياهو إلى السلطة، دون إعمال هذه المؤتمرات ومحاولة الاستفادة منها في إطار مشروع اليكود نفسه. وكان ذلك واضحاً في مؤتمر الدوحة، حيث لم يبدل حكومة نكتياهو أي جهد لتكثيف العتبات من أجل إنتاج المؤتمر.

مع وصول إيهود باراك إلى رئاسة الوزراء في إسرائيل أخذ يبحث عن صيغة مشروع جديد لإسرائيل يتعلق بشروطيات المنطقة. خاصة بعد أن ظهر واضحا تسرع المشروعين السابقين. فلا إسرائيل ولا الدول العربية جاهزة للانسحاب السريع حسب وصيغة بيريز. ولم يعد العالم اليوم يحتمل الانهيار حسب وصيغة نتنياهو. بذلك لم يلاق أي من المشروعين الترحيب في الشارع الإسرائيلي. وقد وصل باراك إلى السلطة في ظل فشل المشروعين من التحول إلى واقع قائم في المنطقة. ولأن باراك لم يظهر كصاحب مشروع محدد، فقد بقيت مواقفه غامضة من كل القضايا. ولكن مع وجوده في كرسي رئاسة الوزراء، كان عليه أن يجد الصيغة المناسبة له لتشكل تعاطي إسرائيل مع القضايا المطروحة، وبدأت نظرات مستقبل إسرائيل والمنطقة تتضح مع الممارسة السياسية لحكومته. ومع إعلانه مواقف صريحة، وقد حاول إيجاد صيغة ثوفيقية تجمع مميزات كلا المشروعين. فهو يقدم نفسه كتلميذ ووريث لإسحاق رابين. مركزا على القوة العسكرية الإسرائيلية التي ستدورح المحيط حتى في حالة السلام. ويعتبر أن التفوق الإسرائيلي يشكل فرصة مواتية لإقامة السلام من مواقع متفوتنة. ويقول في مقابلة مع صحيفة جيزورام مونت ٢٦ سبتمبر ١٩٩٩ من القوى الكبرى في المنطقة، نحن الدولة الأقوى في نطاق ١٥٠٠ كلم حول القدس، التي ساذل كل عقبة من أجل التوصل إلى اتفاق سلام من شأنه أن يبرز قوة إسرائيل. لذلك فهو يطلب حزمة مطالب عسكرية من الولايات المتحدة مقابل ما يسموه في إسرائيل «مجازقات السلام» وعلى رأس هذه المطالب معاهدة دفاع مشترك مع الولايات المتحدة، مع قائمة بمعدات عسكرية تبلغ قيمتها ١٧ مليار دولار تحصل بموجبها إسرائيل على أنظمة صواريخ «كرز» وبعض الطائرات المتطورة وبناء محطة أرضية لاستقبال صواريخ من أقمار التجسس الأمريكية مباشرة في إسرائيل... الخ. مما يجعل التفوق العسكري الإسرائيلي حاسما على مدى العقود القادمة، وهو ما يرضي عقدة «الأسن» الإسرائيلية.

ولأن الردع وحده لا يكفي لتعزيز مواقع إسرائيل في المنطقة، فهو يبحث عن صيغة للانفتاح على المنطقة لا تكرر التناقض المبالغ به الذي قدمه بيريز. فيعد الاجتماع التفاوضي الأول الذي عقد مع سوريا في نهاية عام ١٩٩٩، تحدث باراك عن الانفتاح الإقليمي الذي ستدورحه إسرائيل من السلام مع سوريا، والذي سوجب نمو لا سابق له في الشرق الأوسط، ولأنه لا يقتصر النموذج الأوروبي الاندماجي على طريقة بيريز للتعاون بين دول المنطقة، فقد اقترح أمام مؤتمر منظمة الأمن والتعاون التي عقدت اجتماعها في استنبول في نهاية العام ١٩٩٩، نموذجاً يشرب من منظمة «أسيان» كما صادق باراك في الوقت ذاته على نظرية الأمن الإقليمي التي قدمها ديفيد عبري ورئيس مجلس الأمن القومي، والتي تم فيها محاكاة النموذج الذي تعتمد دول جنوب شرق آسيا. وقد كتب الصحافي الإسرائيلي أوفير بن في صحيفة

هأرتس في ١٩٩٩/١٢/٣١ مطلقاً على رؤية بيريز قائلاً: «من السهل معرفة سبب عدم حماسة إسرائيل للنموذج الأوروبي، فمجرد ذكر مسألة تفهيم النظام وحقوق الإنسان تجعل الدول العربية تنفر من مكانها، كما أن حق تجاوز السيادة والتدخل في الشؤون الداخلية يخلق خوفاً لدى إسرائيل، التي تخشى مثلاً من اليوم الذي تقوم فيه منظمة إقليمية أو دولية، بالتصهر عن رغبتها في وضع الأقلية العربية في إسرائيل تحت حمايتها، وعلى كل حال فإن الدول المجاورة تشاور إسرائيل توجعها» وبناء على هذا التحذير يوجد بين أن توجهات باراك نحو النموذج الأسبوي أكثر قسوة للعباء من النموذج الأوروبي.

إن إسرائيل التي تسعى إلى استثمار كل مميزات القوة من أجل بناء صورة المنطقة، تبني التصورات المتعددة المطلق أوضاع تعزيز هذه المميزات، وتدعم دور إسرائيل الإقليمي، سواء كان ذلك عبر نموذج «شرق أوسط، بيريز، أو «سلام الودع، نتنياهو، أو نموذج «أسيان» كما يفضل باراك، أو أي تصورات أخرى، فإن من الواضح أن الاختلال العسكري الذي ساد خلال العقود الماضية بين إسرائيل والدول العربية، سيستمر في أداء مضاعفه بعد السلام، ولكن هذه المرة لن يكون على المستوى العسكري، فحسب بل على كل المستويات العسكرية والديور السياسي والأداء الاقتصادي والجاهزية التقنية.

ARCHIVE

التعاون الأسبوي

عملت التغيرات الدولية على تهميش الدور الأوروبي، بعد تفرق الولايات المتحدة الأمريكية بالمانم كافة، وهي المنطقة العربية بصورة خاصة، فقد استندت الولايات المتحدة أوروبا من عملية التسوية، ولم تتمكن من القيام بأي دور حائل على صعيد المفاوضات، وهي مواجهة هذا الاستبعاد السياسي، كانت الدعوة الأوروبية لعقد مؤتمر برشلونة للشراكة والتعاون الأوروبي - المتوسطي، والذي أتى كمحاولة أوروبية لمواجهة الهيمنة الأمريكية من مدخل غير سياسي، وكرد على تهميش الدور الأوروبي في الإطار الدولي، وكستند لمطوحات أوروبا في المنطقة، إن أوروبا كعلاقات اقتصادي تبحث عن توسيع أماكن نفوذها، وترى في حوض المتوسط المجال الطبيعي لتوسيع هذا النفوذ، فكان هدف الشراكة كما نص عليه إعلان برشلونة «إنشاء منطقة لتبادل الحر بين الاتحاد الأوروبي والدول المحيطة على البحر المتوسط بحلول عام ٢٠١٠».

سعى الأوروبيون أن تكون هذه الشراكة منفصلة عن التسوية في المنطقة، دون التدخل في ذلك، خاصة وأن فكرة الشراكة تستند إلى التعاون الاقتصادي كمحور للعلاقات التي يجب تعزيزها في منطقة المتوسط، ولكنها إن ظف عند ذلك، لأن هذه العلاقات حسب مشروع الشراكة يجب تبنيها وصولاً إلى أكمة هذه العلاقات في إطارات سياسية وأمنية، كما أن عملية السلام كانت مهيمنة على مسيرة الشراكة، التي تهدف إلى إيجاد دور أوروبي في المنطقة وعدم ترك المساحة للولايات

للتحدي. فلأوروبا تعتبر أن الجنوب المتوسطي يفرس عليها تحديات إضافية. فإذا كان هناك تحديات يواجهها الغرب، أو تواجهها دول شمالي المتوسط، تتمثل في هاجس أوروبا الأدنى، وتدفعها إلى تحسين نفسها من هذه المخاطر التي تصورها أو تتوقعها، فإن هناك تحديات من نوع آخر تواجهها دول جنوب المتوسط، تصادف من حجم التحديات التي تواجهها دول الشمال، فضلاً عما يشترط عليها من تطورات حاسمة. ويمكن إيجازها هي ثلاثة تحديات رئيسية هي: النمو الديمغرافي، المشكلات الاجتماعية والسياسية، والاختلاف الثقافي⁽¹⁾.

وللتصدي لهذه التحديات اقترحت الدول الأوروبية ثلاثة محاور لاستكمال النهوض بالمنطقة وتحقيق فضاء اقتصادي أوروبي - متوسطي:

- تقديم الدعم إلى المنطقة لتجاوز النمط الاقتصادي، ويتطلب ذلك إنشاء منطقة للتبادل الحر تكون جاهزة في سنة 2010، والنهوض بالنشاط الخاص، وتشجيع الاستثمار الخاص الأوروبي، وتحديث البنيات التحتية الاقتصادية والاجتماعية.

- تقديم الدعم لتحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي، في مجالات البيئة والصيد البري

والتنظيم والصحة وحقوق الإنسان والديمقراطية... الخ.

- تقديم المساعدة من أجل الاندماج الإقليمي⁽²⁾.

إن المشروع المتوسطي هي البنية الأوروبية يفرس تحديات على دول الجنوب المتوسطي والتي تشكل من الدول العربية أساساً، تتمثل في إحلال فجوة زمنية من الإجراءات والشاريع الكبيرة، والتي لها كلفة عالية بالنسبة لهذه الدول. فالاستقرار السياسي مطلب رئيس لضمان استقطاب الاستثمار الخارجي، وتشجيع المبادرة الحرة الدولية يتطلب مراجعة النظم الجبائية والمالية والنفدية. وتحسين الجهاز القضائي لعملية هذه المعاملات.

والمطلب الأهم لهذه الشراكة هو إعادة هيكلة القطاعات الاقتصادية للتلاؤم مع الشراكة. وهذه الهيكلة أو ما بات يعرف بالخصخصة، ذات نتائج اجتماعية مكلفة لبلدان الجنوب، فهي غير قادرة على تحمل عبء كلفة إعادة الهيكلة الصناعية بالمعنى الحالي. وعدم قدرة منتجاتها الصناعية على منافسة الصناعة الأوروبية. كما أنها غير قادرة على تحمل الاختلافات الاجتماعية التي تولدها إعادة الهيكلة.

إن الشراكة الأوروبية - المتوسطية بأبعادها الاقتصادية والسياسية هي مشاركة لدمج هذه الدول في منظومة اقتصادية واحدة تعد إنتاج طبيعة منطقة البحر المتوسط على قاعدة النموذج الأوروبي. وليبدو هذه المشاركة هي البديل الوحيد أمام الاتحاد الأوروبي إذا أراد منافسة تجمعات نافذة في أمريكا وتكتلات جنوب شرقي آسيا واليابان. لكن أسوأ ما في المشروع الأوروبي أنه يعمل على تقسيم الدول العربية إلى دول متوسطة ودول غير متوسطة وعدم التعامل معها بنفسها ككتلة واحدة. وإعادة النظر بهذا التقسيم واجب الدول العربية.

القضية العربي

هناك العديد من أطراف المنطقة والقوى الخارجية التي لها مصالح حيوية في المنطقة تلك الدول لصورة المستقبل للمنطقة. وشكل العلاقات القائمة معها. بصرف النظر عن إمكانية تحقيق هذه التصورات. فهناك التصور الأمريكي والتصورات الأوروبية والتصور الإسرائيلي والتصور التركي وغيرها من التصورات التي تحاول رسم صورة مستقبل المنطقة. والعلاقات في ظل وجود هذه التصورات المتعددة. فهناك التصور العربي. على الرغم من أن التصورات المطروحة تستهدف الدول العربية أولاً وأخيراً.

إن الحدود التي يفكر فيها العرب في ظل الأوضاع الجديدة هي ما يستلزم عنه المفاوضات العربية - الإسرائيلية، وإن يجب إيجاد عملية التسوية في المنطقة التي تعمل على إلغاء الصراع العربي - الإسرائيلي، وهذا ما نراه من خلال التحركات السياسية العربية. والتي كان شكلها الجماعي الأخير مؤتمر القمة الطارئة التي عقدت في القاهرة في العام ١٩٩٦. والتي جاءت على خلفية وصول حكومة اليمين بزعامة نتنياهو إلى السلطة في إسرائيل. والتي أكدت في بيانها الختامي أن القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي - الإسرائيلي. وأن المبدأ العادل في الشرق الأوسط يتطلب انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي الفلسطينية المحتلة. وإقامة اليمين على التمسك بمقررات الشرعية الدولية التي تنص على عدم الاعتراف أو الدبلوماسية بأية أوضاع ناتجة عن النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة. وقد نصت الفقرة العربية بالسلام كقرار استراتيجي. وأهمية بين تقدم العلاقات السياسية والاقتصادية بتقديم عملية السلام. وأهمية الحكومة الإسرائيلية إلى الالتزام بتنفيذ الاتفاقات الموقعة مع السلطة الفلسطينية.

لقد كان انعقاد مؤتمر القمة مؤشراً إيجابياً بعد الانقطاع في عقدتها الذي استمر منذ القمة التي انعقدت فيها العرب حول حرب الخليج. والتي عقدت في القاهرة عام ١٩٩٦. وإذا كانت القمة العربية قد جمعت رؤيتها لنجاح التسوية بالقرارات مرجعية مدروسة وقرارات الشرعية الدولية. إلا أن ذلك لا يعبر عن إدراك العرب للمنطقتين التي تحتاجها المنطقة من أجل تعزيز المصالح العربية. والعمل على تحويل هذه المصالح إلى إطار مؤسسي يدافع عنها. فليس من المفارقة القول بأن العرب لا يملكون تصوراً عن مستقبل منطقتهم.

إن غياب التصور العربي جعل الدول العربية تتعامل مع تصورات الآخرين بإيجابية عالية. حتى لو كانت هذه التصورات تعمل ضد مصالح الدول العربية.

من هنا كانت النظرة العربية إلى مفاوضات التسوية مع إسرائيل تختلف عن نظرة الآخرين لهذه العملية. ففي الوقت الذي يرى الآخرون أن اتفاقات التسوية يتم توقيعها في إطار رؤية استراتيجية للمنطقة تسير باتجاهات محددة. فإن الدول العربية تتعامل مع التسوية المطروحة على أنها هدف بذاتها. ففي الوقت الذي تعمل الولايات المتحدة وإسرائيل على صياغة أوضاع

المنطقة فيما بعد عملية السلام. فإن الدول العربية تقتصد لأي رؤية تعيب عن أسئلة المستقبل والسؤال الرئيسي هو: ماذا بعد عملية السلام؟

من هنا يتم الانتفاخ صوب مشاريع الآخرين، دون تحقيق شروط الحد الأدنى الوفاقية. وهكذا تنطلق المسيرة السلمية إلى التطبيع والتعاون الاقتصادي والسياسي، بل والأمني، مع إسرائيل من دون تحقيق نسوية سياسية مرضية للقول التي تحتل إسرائيل أرضها.⁽¹³⁾ إن انتشار الخلافات العربية - العربية بصورة غير مسبوقه - حتى أنه في بعض النزاعات صار بعض الدول العربية هي مكانة «العدو» الأول بالنسبة إلى دول عربية أخرى مشتركة معها في نزاعات ثنائية - هو وضع لم يمرره النظام الإقليمي العربي من قبل. إذ إنه على الرغم من كثرة النزاعات العربية لم يحصل أحدها إلى الدرجة التي يصبح فيها طرف عربي يحتل مكانة العدو، وهي المكانة التي احتكرتها إسرائيل، حتى بدأت بعقد اتفاقات نسوية ثنائية.⁽¹⁴⁾ إن هذا الوضع الذي ولد بعد حرب الخليج الثانية منع صياغة أي رؤية عربية لمستقبل المنطقة في ظل التغيرات العاصفة التي يشهدها العالم والتطرفة، واستمرار الحالة العربية الراهنة يعني توفر الشروط الأمثل للآخرين لاستكمال مشاريعهم دون أي معارضة عربية هي بداية مستقبل المنطقة من مخاطر هذه المشاريع، أو حتى اتخاذ إجراءات وقائية تختلف من لآثار هذه المشاريع. إن هذه التسمية أضرت طرفاً وحيداً للتحكم بالمنطقة وفرض شروطه عليها: دولة الضيف والبتكتيك العربي. تحمّلان النظام العربي أكثر ثقلها وهو أساساً أكثر التكتلات، للسلطان والمصالح الأمريكية.⁽¹⁵⁾

إن المشاريع المطروحة على المنطقة تستهدف بشكل واضح تشكيل الرابطة القوسية بين الدول العربية، فهذه التعاطي معها بصفتها بلداناً شرق أوسطية حينة، ومثومعية حينة. وإذا كان ليس من مهمة الآخرين إثبات عروبة الدول العربية، فإن على الدول العربية إعادة النظر في علاقاتها الثنائية والجماعية، لتصل إلى الحد الأدنى الذي يسمح لها بمواجهة التحديات المطروحة عليها، ورسم صورة منطقيتها بصورة متوافقة مع مصالحها بدلاً من أن يتحكم الآخرون بهذا المستقبل، الذي لا تشير المقدمات القائمة حالياً بأنه سيكون مشرقاً.

ثالثاً: تحديان هما بعد السلام

تسير عملية التسوية باتجاه إعادة ترتيب أوضاع المنطقة، وإخراج الصراع العربي - الإسرائيلي من دائرة الحروب - بصرف النظر عن مثالية الحل الذي يتم الوصول إليه بالنسبة للأطراف العربية - على

الرغم من كل العقبات والتعقيد اللذين تعرض لهما. فكل الأطراف تعلن تمسكها بالعملية، على الرغم من الموقف الذي تقويم به الحكومة الإسرائيلية لفرض شكل الحل على الأطراف العربية والمطالبة بالسلام مع الاحتفاظ بأجزاء واسعة من الأراضي المحتلة.

الحدود الإسرائيلية

والحماية الأمريكية لإسرائيل لا تستطيع أن تغطي كل السياسات الإسرائيلية. فون إخراج هذه الحماية بشكل معين يحمي ماء الوجه، وتبريرها على قاعدة استثمار التحرك لكسر جمود عملية السلام. فالإدارة الأمريكية ذاتها ارتبطت بتمهد حل مشكلة الصراع العربي - الإسرائيلي ولها مصلحة حيوية في هذا الحل. وهي عملية حاسمة تحتاجها الإدارة الأمريكية. وهذا لا يعني أن تكف الإدارة الأمريكية عن الانحياز لإسرائيل في المفاوضات التجارية، ولكن ما تدركه الإدارة الأمريكية هو أن مثل المعطية في المنطقة يعني فشلاً شديداً للسياسة الأمريكية، وتشير كل المعطيات بأن هذا الفشل غير مسموح به.

إننا نعرض أن الأزمات التي تعاني منها التسوية. هي أزمات مؤجلة، ستعمل كل الأطراف على تجاوزها خاصة الولايات المتحدة. وإن كانت الضغوط التي ستعرض لها الأطراف العربية أكبر بكثير من الضغوط التي ستعرض لها الجانب الإسرائيلي بسبب طبيعة الروابط الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

إن تجاوز الأزمات التفوضية، وصولاً إلى حلول تتوافق عليها أطراف الصراع - نكرو بصرف النظر عن مثالية أو عدمه الاتفاقات التي يمكن إنجازها - يشرح تحديات عديدة على الدول العربية. فعلى مدى التاريخ السابيل للصراع العربي - الإسرائيلي، شكلت القضية الفلسطينية وجود إسرائيل في المنطقة التحدي المحوري للدول العربية مجتمعة، وهي كثير من الحالات تم توظيف الصراع العربي - الإسرائيلي لتجديد الجشع من الممارسات السياسية والاقتصادية والأمنية وحتى الاجتماعية، تحت شعار الخطر الداهم الذي يشككه وجود إسرائيل على دول المنطقة. وحالة الاستفزاز الدائم الذي تعرضه على المنطقة. إن هذه التحديات التي ترتبط الآن بعملية التسوية، لم تكن وإدراكها، فقد عملت التسوية على كشفها. لا على إنشائها. فهي لتحديات مطروحة بحكم ما أسفرت عنه مسيرة الشرقي العربي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من أوضاع تدعو إلى التعلق على مستقبل المنطقة، وجاءت التسوية لتظهر الضعف العربي بأجلى صورة.

إن الاعتراف العربي بالوجود الإسرائيلي في المنطقة والتعامل مع هذا الوجود، وتوقيع اتفاقات معها، يستقط التحدي المحوري الذي عاشت عليه الدول العربية في السابق. وكشفت عن مجموعة من التحديات، كان يمكن التغلب عليها أو تأجيلها في ظل احتدام الصراع العربي - الإسرائيلي. حتى لو لم يصل هذا الصراع إلى درجة الحرب، إن انكشاف هذه التحديات وتأزمها إلى درجة متطورة، هي نتائج سنوات طويلة من الإهمال العربي للتحديات الجديدة المطروحة عليها والواضحة للعيان، مما يجب أن يدفع الدول العربية إلى التصدي لها ومعالجة متطلباتها. لأن شكل التعامل مع هذه التحديات هو الذي سيحدد مستقبل المنطقة. ففي الوقت الذي يسعى الآخرون لرسم صورة معينة للمنطقة. على أصحاب المنطقة وسكانها

أن يعملوا على أن تقدم صورة للمنطقة المستقبلية مصالحهم وتعظيم الدور الذي يستحقونه. ويحدد وزنهم ووزنهم في العالم خلال العقود الأولى من القرن القادم.

إن مثلت التحديات التي تواجه المنطقة يقوم على ثلاثة تحديات رئيسية: التحدي السياسي، التحدي الاقتصادي، والتحدي الأمني¹⁴. وكيفية تعامل العربي مع هذه التحديات هي التي تحدد مكانته وتوسع مستقبل المنطقة.

التحدي السياسي

شهد التشكيل الإقليمي للمنطقة وضعاً مستقراً أوائل التسعينيات إلى منتصف الثمانينيات، واعتمد هذا الاستقرار إلى حد كبير على الرخاء التسمي الذي تحقق في أغلب البلدان العربية على امتداد تلك الفترة. كان ذلك بسبب القفزات في أسعار النفط بعد حرب ١٩٧٣، الذي تزامن مع توافق بين الدول العربية على تحديد الخطر الرئيسي بعد هزيمة عام ١٩٦٧. مع منتصف الثمانينات بدأ واضحا أن عوامل الاستقرار في طريقها إلى الزوال، مع اختفاء الرخاء في العديد من الدول، ودخولها في أزمات اجتماعية - اقتصادية، أخلت في العديد من البلدان شكل الانتماءات فيها مسمى بالانتماءات الخبز، ومع الاختلاف في أوضاع البلدان العربية تراجع التوافق السابق. وأخذت الهوة تتسع بين الدول الثنية والدول الفقيرة، فانعزلت عقد التوافق العربي لاحتفاء على شكاها في أحوال. وبشكل هذه الانتماءات يخرج مصر من الصف العربي وتوقيعها اتفاقات كاسب جديد، مما أدى إلى توجيه ضربة قاسية إلى النظام العربي بفروج طية من دائرة الصراع. وأدخلته في مرحلة التشتت التي أفرزت مجموعة من التجمعات الجيوبية الإقليمية العربية.

في ظل هذا الوضع أصبح على الدولة القطرية أن تواجه التحديات الخارجية والداخلية منفردة، مما عمل على إنتاج استقطابات عربية - عربية، وتفرغ منظمات العمل العربي المشترك من محتولها، دون أن يكسر هذا التفرغ الأطر الشكالية التي حافظت عليها الدول العربية.

يندو هذا الكلام نافلا بعد سلطة حرب الخليج الثانية، التي كسرت العديد من التوابت التي سادت العلاقات العربية - العربية قبلها، فقد حكم هذه الخلافات شتت وإن وصل في بعض الحالات إلى النزاع المسلح. لكنه لم يصل إلى درجة احتلال دولة عربية لقوة أخرى وإلغائها عن الخريطة السياسية. إن هذه المسافة جعلت بعض الدول العربية تعيد ترتيب أولوياتها

14 إن هذه التحديات ليست التحديات الوحيدة التي تواجهها الدول العربية، فهي ترتبط بمثلت تحديات أخرى لا يقل أهمية عن الدين، الفساد، والقضايا مثلثات التحديات لتشكيل دائرة التحديات أمام هذه الدول. والقلة الأخرى هو مثلت التحديات الاجتماعية، والتكوير، والتكوير جيد. سيجاء في دراسة مثلت التحديات الأولى. وهذا لا يعني أن مثلت التحديات الأخرى أقل أهمية، إنما كل خياراً أن يتناول القلة الأولى لأهمية الأكبر بموضوع دراسة، وهو لا يتصل عن القلة الأخرى الذي يستعرض له ولكن بشكل ثانوي.

بشأن العدو المحتل، وأصبح الشطرنج الضيق بشكل خطراً داهماً لا يستطيعه العدو البعيد. بذلك أنتجت حرب الخليج شرخاً عميقاً في العلاقات العربية - العربية، يحتاج إلى الكثير من الجهد والعمل لإعادة بناء الثقة.

إن الوضع العربي الذي أفرزته حرب الخليج منع ظهور تصور عربي لدور ومكانة الدول العربية في مستقبل المنطقة، في الوقت الذي تتزاحم فيه العديد من التصورات الشرق أوسطية⁽¹⁾ واللتوسطية. من أجل إعادة بناء المنطقة، بصورة تتجاوز العوامل المشتركة بين الدول العربية. فهي الوقت الذي يصنع الأطر من صورة المنطقة يستكشف أصحابها عن المساهمة في صنع مستقبلها.

فالنظام العربي في ظل المشاريع المشرقة على المنطقة أمام تحدٍ يتعلق بوجوده، على الرغم من تميزه عن الأنظمة الإقليمية الأخرى في كونه يعمل نظامين في الوقت ذاته، أحدهما نظام دولاني، وثانيهما نظام مجتمعي عربي. وينشأ الثاني من وجود هوية أصلية هي العربية. وإن النظام الشرق الأوسطي الذي يتم العمل عليه ينشأ على هوية من النوع الوظيفي أو التفضي. ويفترض ألا يلغي النظام الشرق أوسطي الهوية القومية كونه لا يقدم بديلاً عنها في شكل انتماء ثقافي حضاري بالذات الواسع. وسيكون النظام الشرق أوسطي متعدد الهويات فهو يضم إلى جانب العرب إسرائيل وتركيا وإيران، وإلى الشرق، روسيا، بينما يسميهم مهمتين: أولاً، امتلاك كل من هذه القوى هوية قومية تشكل مصدر التنافس وراء إستراتيجية خارجية تشكل خطراً على الآخرين، وثانياً، وجود هدف إستراتيجي لهذه القوى يعمل على تحقيق مصالحها. وأمام هذه الحالة فإن النظام العربي في علاقته المستقبلية مع النظام الشرق أوسطي أمام نموذجين: الانفكاك في حال استعمر الوضع الراهن الذي يعني عملياً التعرض للتهديدات مستقبلاً بين القوى الإقليمية غير العربية، والشراكة كقطب فاعل ذي هوية معبرة في نظام يجمع هويات متعددة، وهو يتطلب القدرة على تفعيل الهوية العربية، ويتطلب مواجهة العديد من التحديات التي تواجه هذه الدول⁽²⁾.

إن التطورات التي يشهدها العالم في التسميات تجعل على تغيير معاني المصطلحات التقليدية التي كانت سائدة ولجمل الكثير منها بلا فائدة، فلم يعد هناك منظومة اشتراكية توضع مقابل الغرب. ومع انهيار الاشتراكية، أصبحت الرأسمالية مصطلحاً شاملاً يفسر الشرق العالم على نحو مطرد. كما أن التقسيم الثاني إلى شمال وجنوب أصبح أقل حدة من السابق. وصارت مشكلات أفريقية تختلف حالها اختلافاً بيناً عن مشكلات جنوب شرقي آسيا أو مشكلات أمريكا اللاتينية⁽³⁾. ولقدت الفوارق داخل بلدان الجنوب واضحة للعيان، فلم يعد مصطلح العالم الثالث كمجموعة من الدول تعاني مشكلات ذات طبيعة واحدة وفي بؤس من معرزة واقع هذه البلدان. وهناك فوارق هي غاية الأهمية تفصل بين هذه البلدان، كما أن

فعرتها على التصدي لصناعة مستقبلها متوازنة. فما أثبتته تجربة «النمو» هي أنها هي أن تختلف ليس فترا، ويمكن التصدي لمشكلات دول العالم الثالث ونجاورها بالتوافق مع النظام المالي وليس بالضرورة بمواجهته.

في المنطقة العربية أخذت التطورات اتجاها معاكسا لتجربة «النمو» الأسبوية. وكانت استجابة النظام الإقليمي لاختراق النظام الدولي للمنطقة سلبية، حيث نجح النظام الدولي في إرباك أولويات النظام العربي وتطوير توازنه دوليا. فقد لازم المأزق جامعة الدول العربية منذ نشأتها في عام ١٩٤٥، باعتباره أن نشأتها كانت على أساس من العلاقات الدولية - العربية، والحفاظ على مستواها في هذه الحدود، دون محاولة تطويرها إلى مستوى أعلى من العلاقات الدولية التي سادت بين البلدان العربية. فلم تشكل من حالة العلاقات الدولية إلى حالة العلاقات الوحشية، والتي شكك الدول العربية الكثير من مقوماتها. وقد أدى الاختراق الدولي، تبعاً لذلك، إلى نقل الصراعات إلى مستويات أعلى بين الدول العربية، توافق ذلك مع ازدياد الخطر الخارجي الناجم عن مفهوم الجبال الأمني وغيباب التوجه القومي وقصور الدور البيئي والسلوكي للجامعة العربية.^(١٢) مما جعلها إطاراً شكلياً للتفاعلات العربية - العربية، ومؤسسة فاصلة عن الارتقاء بالعلاقات العربية - العربية إلى مستويات أعلى.

مقابل هذا الفشل في تطوير النظام الإقليمي العربي إلى مستويات أعلى تخدم مصالح الدول العربية وتحمي مستقبلها، طرح الغرب مفهوم «شرق أوسطية» الذي استخدم على نطاق واسع منذ الحرب العالمية الثانية، لتحقيق أغراض سياسية تهدف إلى إدراج الدول العربية في مفهوم سياسي أوسع من الرابطة العربية وعلى حسابها. وقد وفرت التطورات العالمية والإقليمية بيئة ملائمة ومشجعة لانتشار هذا المفهوم على نطاق واسع في السنوات الأخيرة. بل والعمل على ترجمته من فكرة إلى واقع ينتج نظاماً إقليمياً، ومن بين هذه التطورات:

- التغيرات الجذرية التي حدثت في العلاقات الدولية في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، والوصول إلى سياسة التوافق والتعاون، واتجاه العالم إلى التفاعلات الجيواقتصادية وأولوياتها على التفاعلات الجيوسياسية والجيوستراتيجية.

- انفراد الولايات المتحدة بالثقل السياسي والعسكري مع انتهاء الحرب الباردة.

- التوافق الدولي الذي حدث في حوب الخليج الثانية.

- بروز البعد الجيو اقتصادي في عملية المفاوضات العربية - الإسرائيلية.^(١٣)

وفرت هذه التطورات المناخ المناسب للعمل على تكوين النظام الشرق أوسطي، والذي يهدف على ثلاثة محاور رئيسية؛ أولها، يتصل بالمشاريع الإقليمية الكبرى التي تسعى إلى دمج الدول العربية بدول مجاورة وعلى رأسها إسرائيل، وثانيها، خاص بالعلاقات المتعددة الأطراف، وثالثها، يخص العلاقات الثنائية بين إسرائيل وبين كل دولة من دول المنطقة على حدة.^(١٤) وبالتالي، فإن الحديث

الشرق الأوسط

عن نجاح الشرق الأوسطية يتعلق بما يحدث على هذه المستويات. والمفاجئ هذا المشروع يفكر بعض أطرافه في استبعاد مصر من هذا الخطاب على قاعدة أن ثقل مصر البشري والسياسي يعمل على منح الجانب العربي الخلفية في النظام، بينما استبعادها يعني أن دول الجوار يمكن إذا ما تحالفت جميعها أو تحالفت اثنان منها أن تشكل هيمنة إقليمية من ناحية أخرى قد يطش بعض أطراف نظام الشرق الأوسط من أن الوجود المصري سوف يظل دائما مركز جذب للأطراف العربية في النظام الشرق الأوسطي، وبذلك قد يحدث استقطاب بين العرب وغير العرب داخل النظام وهو ما يمكن أن يؤدي إلى زعزعة الأمن وخلق عدم الاستقرار^(١٧٤).

إن الشرق الأوسطية المطروحة على المنطقة ليست سوى محاولة إسرائيلية مدعومة امريكية لإعادة إنتاج مقومات الأمن الإسرائيلي طبقا لطروفي عصر جديد ومعادلات دولية جديدة. على أساس استخدام الحوافز الاقتصادية بديلا عن الردع العسكري، ورفض التسوية الإسرائيلية تكنولوجيا واقتصاديا تحت لافتة السلام، دون أن يلتزم إسرائيل التزاما كاملا بشروط السلام، وهي ظل هذا التعدي فإن من حق، بل من واجب الأطراف العربية أن تحلول استقلال الوضع لصالحها^(١٧٥) وهذا ما يحتاج إلى العمل وفق شرطين أساسيين مترابطين لكي تكون المكاسب المتوقعة من المشروع الشرق أوسطي كافية للأطراف العربية:

« الأول: أن يكون دور إسرائيل وموقفها في هيكلة النظام الشرق أوسطي، متعادلا وموازيا لدور أي من الأطراف العربية. بمعنى أن تكون الدوافع والردع هي ترتيب أفضي، لا هي ترتيب عمودي، فالترتيب العمودي يعني، لمكين إسرائيل من الهيمنة على شبكة العلاقات الاقتصادية وبالتالي من الهيمنة السياسية إلى جانب التمويل العسكري.

« الاشتراط الثاني لتحقيق مكاسب وطنية لجميع الضراء من الانطلاق من المشروع الشرق أوسطي هو ألا تكون مكاسب إسرائيل على حساب العرب، ومن التضحية بحيث يعمل ذلك على تهميش الدور والنوع العربي، وبالتالي على إبعاد إسرائيل إلى هيمنة اقتصادية تتولد منها هيمنة سياسية إلى جانب التمويل العسكري^(١٧٦).

إن إبعاد التصور العربي للخطاب هو الضرورة الملحة لمنع المشروع الشرق أوسطي أن ينس على حساب المصلحة العربية وهي مواجهتها. وهذا ما يحتاج إلى إعادة الاعتبار للنظام العربي وتطويره لإحداث توافق عربي لدخول المشروع الشرق أوسطي كمجموعة تعي مصالحها وتعمل على رسم مستقبل المنطقة وفق هذه المصالح، وهذا ما يحتاج أيضا إلى أن يدرك العرب خطورة المشاركة في مشاريع مستقبلية دون اتفاق عربي مصبق، وأن يتفهم العرب خصوصياتهم ويستفيدوا منهم بأنفسهم، وتوافر إرادة عربية جماعية^(١٧٧) فعلى الرغم من تفوق العرب سكانا وأرضا ضمن الشرق الأوسط، فإن المشروع الجديد، يعمش وجودهم وبأنه لدول اسمهم كمجموعة كبرى، على الرغم من أن هذه المجموعة ذات تكوين اثني/عربي متجانس^(١٧٨).

في ظل استمرار حالة التشتت والانقسام العربي. فإن صورة مستقبل المنطقة تبدو قائمة إما لم يستطع العرب الاستجابة للتحدي المطروح عليهم والارتقاء فوق خلافاتهم، وهذا ما يحتاج إلى تغيير جذري، لأن العرب لن يمانوا من عدم القدرة على مواجهة دول الجوار في ظل استمرار الأوضاع الراهنة فحسب بل ستتولد الصراعات الاقتصادية داخل القطر الواحد مما يزيد من الضغط العربي وهو ما يحتاج إلى إعادة النظر في هيكل النظام الإقليمي العربي الذي أصابه الشلل، إعادة بنائه على أسس جديدة لتجيب التحديات المطروحة على المنطقة.

التحدي الاقتصادي

هناك إجماع على أن مستقبل الدول في المقود القائمة يتعلق بشكل أساسي بأدائها الاقتصادي، وأن الصراع المستقبلي سيحكمه الاقتصاد. هذا التحول في الأولويات غير من اهتمام الدول فمدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يعلن أن ٤٠ في المائة من مهامنا الجديدة لتتأول الاقتصاد الدولي^(٢٢).

والتمويل التنافس للاقتصاد جعل مهام الاقتصادية من الخطاطبة بحيث تسعى الدول للتكامل الاقتصادي لمواجهة **التكامل الاقتصادي** بين الدول المختلفة تعبیر عن ظاهرة التحويل لمطرد للعبارة الاقتصادية، وضرورة أن تتجهى الحدود القومية من أجل تنمية القوى الإنتاجية، والدول الرأسمالية تتكامل وتوسع لتوسع القاعدة الاقتصادية العالمية وضمان الإطار الدولي المناسب للتنمية قوامها الإنتاجية^(٢٣) فهي ظل الثورة العلمية - التكنولوجية لم يعد الوعاء التطوري كافياً لتوسيع الإنتاج، ولم تعد السوق القطرية كافية لاستواء حركة السلع والخدمات ورأس المال والعمل. وهكذا يجري بصورة تلقائية، وأحياناً واعية، تحويل مطرد للعبارة الاقتصادية في كل بلد على حدة. يتجهى الإنتاج السوق القطرية والقومية، ويكتسب رأس المال طابعاً دولياً، وتضم المشروعات والمصارف النشاطية للقوميات تصبح هي القوة المحركة المحبارة للتركيز الصناعي والدالي في الأسواق التي أصبحت عالمية^(٢٤).

وفي هذا السياق ينزعى الوطن العربي، بالقطار وشعبه إلى تنفوخ مكتبة ومتساعده لإتمام عملية إعادة دمج اقتصاداتها في إطار الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وإستقطاب جميع الحواجز التي تحول دون تحقيق هذا الهدف بصرف النظر عن التكلفة السياسية والاجتماعية لهذه العملية. من وجهة نظر السياسات المحلية. ومعنى ذلك أن الأفطار العربية انخرطت على الرغم من إرادتها في خضم عملية تحول كبرى من هيكلها الاقتصادية والاجتماعية مدعومة في ذلك بصرورات الواجبة مع متطلبات النظام الدولي الجديد، بصرف النظر عن الاعتبارات الخاصة بالمصالح الوطنية لتلك الأفطار^(٢٥).

وهي ظل التطورات التي شهدتها الاقتصاد العالمي وتأثيرات الثورة العلمية - التكنولوجية. فخلال التبادل غير المتكافئ هو الصيغة السائدة بين دول الجنوب والدول الصناعية المتقدمة من حيث أسعار الصادرات- فصادرات الجنوب لتجده غير التنويرات إلى الهبوط، في حين أن منتجات الدول الصناعية تعمل بشكل واضح نحو الارتفاع. وأن أسعار بعض المواد الأولية انخفضت في أوائل السبعينيات إلى أقل من الأسعار التي سادت إلام الكساد العظيم (١٩٢٩ - ١٩٣١) فستطبيقات المواد البديلة خفضت الطلب على المواد الخام، وأصبح حجم المواد المطلوبة لإنتاج وحدة من المنتجات الصناعية لا يتجاوز الآن ٢٠ في المائة مما كان مطلوباً عام ١٩٠٠. فاليابان مثلاً قد استهلكت في العام ١٩٨٥ ٦٠ في المائة فقط من المواد الخام التي استهلكها عام ١٩٧٣ لإنتاج الكمية نفسها من المنتجات الصناعية^(١٢١)

إن الأرقام العربية لا تبعث على التفاؤل، فقد بلغ إجمالي عدد السكان في الوطن العربي ٢٥٢ مليون نسمة أي ما يعادل تقريباً عدد سكان الولايات المتحدة ويبلغ عدد العمالة العربية ٧٦ مليون عامل، ويبلغ الناتج الإجمالي ٥٢٨ مليار دولار ومتوسط دخل الفرد ٢.٤ ٢٠٩١ دولار، ونسبة التجارة البينة إلى إجمالي التجارة الخارجية ٩ ٢ في المائة، وقضية دين الدول العربية يبلغ ١٥٥.٢ مليار دولار (١٩٩١) وقضية خدمة الدين العام ١٢ ٦ مليار دولار (١٩٩٤) ونسبة الدين إلى الناتج ٢٩.١ في المائة (١٩٩٤) ومعدل نمو النمو الطبيعي للسكان ٢.٦ في المائة وهي أعلى المعدلات في العالم. وقضية كلفة وريانات الدول من السلع الغذائية عام ١٩٩٤ حوالي ١٥.٨ مليار دولار بزيادة قدرها ٩.٩ في المائة من حيث الكميات، وأقل من ١ في المائة من حيث القيمة بالمقارنة مع عام ١٩٩٢^(١٢٢)

إن الأرقام العامة تخفي أكثر ما تظهر، فقد شهد العقد الماضي تطورات اقتصادية واجتماعية تجعل من متوسط دخل الفرد لا يعطي فكرة واضحة عن أوضاع الدول العربية وتفاقم سوء توزيع الدخل الذي حصل فيها. فعلى الرغم من نمو متوسط الدخل الفردي، إلا أنه يوجد في العالم العربي ٧٢ مليون عربي يعيشون تحت خط الفقر ويعاني أكثر من عشرة ملايين من نقص التغذية حسب أرقام تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٦. فهناك هوة في الدخل بين الدول، كما هناك هوة في الدخل داخل الدول تشير إلى استقطاب اجتماعي حاد.

وعلى الرغم من أن التقديرات الاقتصادية العربية تشير إلى أن الناتج الإجمالي لمجموع الدول العربية قد ارتفع من ١٩٩.٢ مليار دولار عام ١٩٩٤ إلى ٥٢٨.٧ مليار دولار في عام ١٩٩٥، أي بمعدل نمو قدره ٥.٩ في المائة، وهو ما يزيد بدرجة ملحوظة عن معدل النمو عن العام السابق والبالغ ٥.٥ في المائة، إلا أن هذه الزيادة تعزى بشكل رئيسي إلى زيادة أسعار النفط في الأسواق العالمية وإلى النتائج الجيدة التي تم تحقيقها في عدد من الدول العربية في إطار سياسات وبرامج الإصلاح الاقتصادي، حسب التقرير الاقتصادي العربي الموحد. وهذا

ما يخفي نسبة النمو الحقيقي لهذه البلدان. ويخفي التفاوت بين الأقطار ضمن الرغم من أن
اقتصاد الوطن العربي حققت في مجموعها قفزة خلال الحقبة النفطية، فإن هذا مهما من
الأقطار العربية قد حقق عجزاً متزايداً في الفترة نفسها^(٢٧).

وتعتبر المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم اعتماداً على الاستيراد في تأمين غذائها،
وتختلف التقديرات حول ظاهرة الغذاء العربي، من حد أدنى مقداره ٢١ مليار دولار، إلى ٢٠ مليار
دولار كحد أقصى. ويتوقع الأمين العام للاتحاد العربي للصناعات الغذائية ارتفاع العجز الغذائي
العربي بحلول عام ٢٠٠٠ إلى ما بين ١٢٠ و ٢٠٠ مليار دولار بأسعار ١٩٨٥. ودعت الدول العربية
بحسب إحصاءات الاتحاد العربي للصناعات الغذائية لثبات لغذائها خلال ١٥ عاماً (١٩٨٠ - ١٩٩٤)
مايزيد على ٢٨٠ مليار دولار، مما يعني أن المواطن العربي لا يزال يعتمد على العالم الخارجي في
تأمين أكثر من نصف قوته. الأمر الذي يعمل في طياته مؤشراً بهذا القرار السياسي والاقتصادي
العربي. (٧٧) خلال الفترة ١٩٦٩-١٩٧١ بلغت نسبة الاكتفاء في تأمين الغذاء ٧٠ في المائة، وبدا
من أن يتم ترويضها لتصلح نسبة الاكتفاء الذاتي إلى نسبة ٥٢ في المائة خلال الفترة
(١٩٨٠-١٩٩٠). (٧٨) وهذا مايزيد بشكل مطرد نتيجة المداخلة وربطها مع الخارج.

كما تعاني الدول العربية من ارتفاع نسبة البطالة، وعلى الرغم من عدم وجود إحصاءات
على مستوى الوطن العربي يدل على نسبة البطالة إلا أن تزايد عجزه العاملين إلى خارج
الوطن العربي ومؤشرات أخرى تشير إلى استمرارها. وبعد أن استنفدت الجهود إلى سوق
العمل في الوطن العربي بحوالي ٢ ملايين عامل مثلية لا تقدر سوق العمل على استيعابهم.
وشراف البطالة الواسعة مع انخفاض في الدخل السنوي في العديد من الدول العربية، حيث
بلغت نسبة الشرائح السنوي في الدخل ١.٢ في المائة في سوريا، و ٢.٩ في المائة في الأردن،
و ٢.٣ في المائة في مصر، و ٢ في المائة في المغرب، مما أدى إلى انضمام شرائح واسعة من
الطبقة الوسطى إلى خاوة المقراء.

إن الزيادة السكانية تشكل عبئاً على الاقتصاد، فالنمو الاقتصادي للدول العربية لا يزيد
كثيراً عن الزيادة السكانية، فمسيبة الزيادة السكانية في البلدان العربية من أعلى النسب في
العالم، والتي تعمل على اتساع الهوام السكاني لأصحاب الأعمار الصغيرة، بحيث يكثر من هم
في سن أقل من ١٥ عاماً، والذي ينعين على المجتمع أن يتحمل علي إقطاعهم وسكنهم،
فمعدل الإمالة كبير للغاية في الدول العربية، إذ يعيش ٦٢ في المائة من السكان من عمل ٢٧
في المائة، وذلك إذا وجد كل منهم فرصة عمل ملحق^(٢٨) وإن هذا الوضع في الزيادة السكانية
يعكس نفسه في الكثير من الدول العربية في حالة تصميم القشر. فعدد الذي يرحلون تحت
خط الفقر يبلغ ٢٢ مليون نسمة وهم مرشحون للزيادة السريعة، وهذا الرغم ينزل عدد سكان
الدول العربية في عام ١٩٨٠، والذين يقدر عددهم بحوالي ٢٠ مليون نسمة.

إن الاختلال الاقتصادي هو سبب أساسي لعدم الاستقرار الداخلي والإقليمي، فنزائد الفدر يؤدي إلى مزيد من التقليل الداخلية والإقليمية وهو ما يؤدي إلى زيادة الاستثمار في المجال العسكري.^(٢٠١) إن القناعة الاجتماعية الواسعة هي الناتج الطبيعي للتطورات التي شهدتها الدول العربية في العشر سنوات الأخيرة، فالقضاء والمحاكمون عن العمل يعيشون في مناطق مكتظة بالسكان، في ظل أوضاع تتسم بالحاجة والحرمان واليأس.^(٢٠٢) كما أن قطاعات عريضة معرضة للانضمام إلى هذه الفئات ولأن الفدر يترجم إلى إهمال الفرد للظواهر، فإن الأمن الاقتصادي يعتبر قضية جوهرية.^(٢٠٣)

بالإضافة إلى التحديات التي تفرضها الأوضاع الداخلية للدول العربية، هناك تحديات تفرضها المنظومة الرأسمالية العالمية وأهمها:

- برامج التصحيح الهيكلية.
- المشروع الشرقي أوسطي.
- المشروع المتوسطي.

ونشترك هذه المشروعات الثلاثة في محاولتها فرض نظام اقتصادي على الوطن العربي، يتصف بالزيادة من الخصخصة، ودرجة عالية من حرية الأسواق الداخلية، وحرية التجارة وحركة رؤوس الأموال الخارجية.^(٢٠٤) وتشكل عملية السلام عاملاً مهماً، لأن المصالحة هي الشرع الأوسط حسب البعض بحاجة إلى تغيير إقليمي أو شخصية من أجل السلام، وذلك أن النمو الاقتصادي هو الشرع الضروري للتطور الاجتماعي والاستقرار، وعلى دول الأعمال في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تشجيع الحكومات على العمل بقوة أبعد في طريق السلام، ويمكن لدوائر الأعمال أن تمهد لذلك عن طريق خلق نظام للاعتماد المتبادل، ويمكن للجميع هذا الاتجاه بشعارين: الإقليمية واقتصاد الأسواق.^(٢٠٥) فالفكرة الشرق أوسطية الأساسية تعتمد على أن التعاون الاقتصادي واقتصاد الأسواق بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل سوف يخلقان مصالح مشتركة تدعم السلام، وتعمل على عدم تجدد الصراع، إضافة إلى مساهمتها في حل التناقضات بين الأطراف، وهي عملية تدار من خارج المنطقة عبر المنتدى الاقتصادي في دافوس ومجلس العلاقات الخارجية الأمريكية في نيويورك، ويعني آخر، أنها تعبر عن رغبة خارجية أكثر من كونها ضرورة داخلية للأطراف المعنية.^(٢٠٦) وهذه الأطراف تسعى إلى تلك العلاقة بين بناء السوق الإقليمية وعملية السلام، لأن السوق الإقليمية المشتركة يجب أن تعكس توجهات جديدة في المنطقة بحيث يسود النمط الحضاري الغربي، الذي أصبحت «السوق» بخصائص أكثر أهمية من الدول المنفردة، وأصبح النمو التنافسي أهم من وضع الحواجز على الطريق، ولهذا يجب ألا توجع العلاقات الاقتصادية أو تفرط بعملية السلام، إذ في الإمكان المشروع في تعاون اقتصادي لامتصاص المعارضة السياسية، وفي الإمكان أن تسود العلاقات الاقتصادية العلاقات البيروقراطية.^(٢٠٧)

إن كلا من الشرعويين الشرقيين والوسطيين والشماليين، هو محاولة التحويل للاهتمام العربي عن التعاون والتكامل بين الدول العربية - مع أنه اهتمام محدود وغير مستقر - صوب الاهتمام بالتعاون والتكامل بين بلدان الشرق الأوسط بالتنمية للمشروع الأول، أو التعاون والتكامل في دائرة حوض البحر المتوسط بالتنمية للمشروع الثاني. وكلا المشروعين انطلق من أهمية الاقتصاد، واتخذ معياراً لامتنع دول بذاتها وتحتية دول أخرى ومصاصاتها. وهي تبني على عجز الدول العربية عن تشكيل سوق اقتصادية عربية توظف خبراتهم لمصالحهم الخاص. لذلك فإن استمرار النظام الاقتصادي العربي على أدائه الحالي سوف يضع الوطن العربي في خيمة الآخرين مستجيباً للشروط التي يملوها عليه.

الغدي العربي

منذ أربعة عقود أخذت النظرة إلى مفهوم الأمن تختلف. فلم يعد الأمن يعني القدرة العسكرية محسبه. وأخذ مصطلح الأمن يترق المجالات غير العسكرية ليعم كل القضايا التي تشكل تهديداً في حال ارتباطها بالخارج. فظهرت التغييرات الأمن الاقتصادي والأمن الغذائي والأمن التكنولوجي... إلخ. فضمن **أمن المجتمعات أصبح يتجاوز المعنى العسكري**. ومنذ كتب روبرت هاتشمان وزير الدفاع الأمريكي **السلامة أن الأمن يتجاوز القدرة العسكرية** توسع بشكل مطرد الذين يتبنون هذا المفهوم. وهو يخلق على الدول القاسية أكثر من غيرها. ففي هذه الدول التي تواجه تهديدات عملية فإن الأمن انبثاقاً من التنمية، والأمن ليس هو المعدات العسكرية. وإن كان يتضمّن. والأمن ليس القوة العسكرية. وإن كان يتضمنها. والأمن ليس النشاط العسكري. وإن كان يتضمنه. «والأمن ليس النشاط العسكري التقليدي. وإن كان يشمله. إن الأمن هو التنمية، من دون تنمية لا يمكن أن يوجد أمن. والدول القاسية التي لا تنمو هي الواقع لا يمكن، ببساطة. أن تظل أمناء»^(٤٢) فالاعتماد على ميزان القوى العسكري. لا يمكن أن يشكل الدعامه الرئيسية الوحيدة للأمن العربي. لأن مفهوم الأمن العربي الشمولي هو القائم على صيانة ذلك الأمن. بخاصة أن التهديدات والمخاطر التي تواجه الأمة، تطوي في بنيتها عناصر أزمة مستمرة. وإذا ما توافرت عوامل الردع العربي فسيكون الحل الأمثل للدفاع عن الأمة ومصالحها. ذلك أن الردع ليس سلاحاً عسكرياً محسبه وإنما له أوجهه المختلفة. فالردع هيئة تعرض ذاتها، أو قدرة اقتصادية أو سياسية أو معنوية تؤثر في الخصم إن وجهت عليه. أو قوة قادرة على إنتاج الأذى بمصالح الخصم دون قتال. أو سلاح^(٤٣) ومن هنا فإن معادلة الأمن أخذت تتجاوز القوة العسكرية لتتعلق بقدرة المجتمع الشاملة. وأصبحت ليس الأمن تقام على ثلاث دعائم رئيسية: القوة المسلحة، والتنمية بمختلف وجوهها ومجالاتها، والإنسان بحقوقه وخصاله^(٤٤)

لذلك فإن الأمن يجب أن يفهم ضمن منظور واسع يتخطى الناحية العسكرية، ليشمل كل مقدرات المجتمع التي يشكل ارتباطها بالخارج تهديدا لهذا المجتمع. وقد أخذت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية هي دراستها عن الأمن العربي هذا المفهوم الشامل للأمن، والتي لا تزال منذ عام ١٩٩٢ معروضة أمام مجلس الجامعة لإقرارها. فقد نصت على أن «الأمن القومي العربي هو قدرة الأمة العربية في الدفاع عن أمنها وحقوقها وسيادة استقلالها وسيادتها على أراضيها. وللمية القدرات والإمكانات العربية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مستندة إلى القدرة العسكرية والدبلوماسية. أخذه في الاعتبار الاحتياجات الأمنية الوطنية لكل دولة والإمكانات المتاحة والتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية، والتي تؤثر على الأمن القومي العربي»^{١٠١}

لقد عملت التغيرات الدولية وحرب الخليج الثانية، على جعل الانكشاف الأمني للنظام العربي كاملا بعد أن عانى من الانكشاف الأمني الجزئي، فقد تعرض النظام لحالات من الهزائم العسكرية لبعض أعضائه على نحو ما جرى في هزيمة عام ١٩٦٧ بلدان كمصر وسوريا والأردن، وعرف النظام العربي حالات عجز قدرة الدولة على السيطرة على كامل أراضيها الوطني - حالة جنوب لبنان منذ عام ١٩٨٨، وعلى الرغم من الخطورة التي شكلتها حالات الانكشاف الأمني العربي، فهو لم يكن إلا انكشافا جزئيا وفابلا للاحتواء، ولم تكن انكشافا أمنيا للنظام ككل، أن منهجية الانكشاف الأمني العربي الراهن لا تتعلق بعجم ومدى تهزيمة العراقية فحسب، لكنها تتعلق بمدى تأثيرها المتطور على قيمة النظام العربي وأهدافه وقدراته على إقامة علاقاته، وإعادة تجميع عناصره مرة أخرى^{١٠٢}

لقد تضاعفت مجموعة التغيرات الدولية والإقليمية على التأثير في الجانبين السياسي والعسكري في الأمن العربي وتجلت في:

- انكشاف الأمن القومي العربي أمام المخاطر والتهديدات المعقدة في الوطن العربي مع تصدع بنية النظام العربي.

- إصانة الأمن العربي بمفهومه وحورمه، حين احتلت دولة عربية دولة عربية أخرى.

- سقوط قواعد الأمن العربي الرئيسية وهي: أن السلاح العربي لا يشهر في وجه دولة عربية، وأن الاستعانة بقوات أجنبية لمقاومة قوة عربية أمر لا يمكن حدوثه. وأن الأمن العربي ينبع من المنطقة العربية .. وأن العرب يتحملون وحدهم مسؤولية أمنهم وسلامة وطنهم دون الاعتماد على قوى أجنبية^{١٠٣}

لقد أثرت التغيرات الدولية الإقليمية على أمن الوطن العربي، ففي الوقت الذي تتربع فيه الولايات المتحدة بصفتها القوة المركزية السياسية والعسكرية في العالم، تتراجع قدرة الدولة الفطرية على المحافظة على أمنها، لأن التفاعلات الدولية والإقليمية تؤثر تأثيرا مباشرا في أمنها.

مما يعني تراجع مفهوم السيادة الوطنية وتدخل المجتمع الدولي في شؤون الدول الداخلية. إضافة إلى أولوية الاعتبارات الاقتصادية في العلاقات الدولية، والتي تجعل الدول الصغيرة غير قادرة على حماية أمنها لوحدها، مما يعني أن مجموع الضغوط الدولية والإقليمية للعمل على الزيادة الانكشاف الأمني العربي في حال بناء الوضع العربي على حقله. والاستفسار الذي يمكن استخلاصه من هذه الأوضاع لمعالجة الانكشاف الأمني، يرتبط بمدى ما يتوافر للنظام العربي من خلال أطرافه وأعضائه من قدرة على استعادة المبادرة بالعمل، وتوظيف ما هو متاح بصورة جماعية ومنهجية لمعالجة أوجه الخلل في التوازن الشامل بين النظام العربي ومصادر التهديد المختلفة، وإن المواجهة المطلوبة لجميع أوجه الخلل الأمني العربي تحتاج إلى فعل جماعي أولاً وأخيراً، وهو ما يحتاج إلى الحد الأدنى بين الدول العربية لتعديد العدو الرئيسي والصديق الرئيسي.⁽¹⁴⁾

فالمنطقة العربية تمر بمرحلة انتقالية سواء في التسوية العربية - الإسرائيلية أو الاستقرار غير النظم في الخليج أو تصاعد أدوار جديدة في المنطقة لم تنضج أعضائها بعد، مثل التحالف التركي - الإسرائيلي، فالتوجه التركي إلى الشرق الأوسط يقوم على ركيزتين، الركيزة الأولى سيطرتها على المياه والتي ستزداد أهميتها في السنوات القادمة، فالتشروعات المائية مدخل قوي لتركها على المنطقة، والركيزة الثانية هي **تربط علاقاتها الثانية** مع إسرائيل على اعتبار ذلك السبيل الأفضل لتحقيق المصالح التركية، تركيا أصبحت منذ يوم عملية التسوية عاملاً رئيسياً في مشاكل الأمن والتربيطات والتشكلات الشرق أوسطية، أن التعاون التركي مع إسرائيل لتشكيل محور يهدف إلى أن يشكل الطرفان الركبتين غير العربيتين في إعادة هندسة الشرق الأوسط، إضافة لتوجهات الشراكة الأوروبية - العربية، الأمر الذي يجعل محددات تهديدات الأمن القومي العربي في حالة من السيولة، حيث هناك أكثر من احتمال، ويتعلق استقرار التهديدات بنجاح أو فشل هذه الجهود أو بعضها، ولكن في جميع الحالات وأياً كانت الأشكال التي ستأخذها النجاح، فإن الأمن العربي يحتاج إلى معالجة فعل جماعية للتصدي لهذه التهديدات.

ويمكن التطلع للعلاقات العربية - العربية لتجاوز الأختلال الذي ولد بعد حرب الخليج من مبادئ ملزمة للدول العربية حتى يتضمن لها مراجعة التهديدات الخارجية بشكل جماعي، وهذه المبادئ هي:

- أن للدول العربية كافة صليبة وكبيرة الحق في وجود أمن، لا يقل عن حل الدول جميعها فيه، بحيث يلتزم الجميع بحماية هذا الحق.
- أن تكون الأهداف الأساسية للأمن العربي موجهة ضد التهديدات الخارجية، ومنع النزاعات العربية - العربية من التناغم، وإزالة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تولد التهديدات المتبادلة، والعمل على استباق الأزمات ومعالجتها قبل أن تصاعد إلى نزاعات مسلحة.
- إن القوة العسكرية ليست أداة سياسية مشروعة في حل النزاعات العربية - العربية.

الثورات العربية

منذ أكثر من خمسين عاما سعى جيل عربي لإيجاد صيغة عربية مشتركة، فكانت جامعة الدول العربية. ولكن الأمل أن تطور هذه الصيغة وتلحج علاقات عربية - عربية أكثر ترابطا وصولا إلى الوحدة التي تمثل الدول العربية الكثير من مضمونها. وكانت النتيجة بعد أكثر من خمسين عاما المزيد من البعثرة والتفتتة العربيين. واليوم في ظل التفتتات التي تشهدها المنطقة ويشهدها العالم، هناك حاجة أكبر وضرورات ملحة لإحياء صيغة العمل العربي المشتركة، لحماية المستقبل العربي من الأخطار التي تتهدده، وتخلق فترة الانكشاف الأمني الذي يعانيه الوطن العربي.

والتعاون الأمني هو ضرورة ملحة بسبب الأخطار التي تتهدد الوطن العربي في محيطه ومن قلبه. لذلك يجب العمل على إيجار «المجموعة الأمنية»¹⁴¹ التي تتقلب فيها المصالح المشتركة على الخلافات، الأمر الذي يجعل التصود إلى القوة أمرا مكلفا وذا مردود سلبى. وفي نهاية الأمر أمرا لا يمكن تصوره. ومثل هذه المجموعة تعتمد على إجراءات والنماط والليات للتحكم في النزاعات. ومن الأفضل أن يتم ذلك على المستوى الأقليمي العربي، من خلال مؤسسة تعزز التعاون والتكامل العربي. ومن هنا الحاجة إلى إحياء دور الجامعة العربية وإعادة النظر في أدائها حتى تستطيع أن تقوم بالمهام الثلاثة على عاتقها في ظل ما يجري في العالم والمنطقة. إن تحقيق الاستقرار يحتاج إلى إقامة توازن دقيق بين المستوى الوطني والإقليمي والدولي. وهو ما يتطلب توفير القدرة لدى الدول العربية على توفير الإشراف الكازم والمناسب للحفاظ على توازن مستقر. وإقامة الترتيبات التعاونية من أجل ضمان هذا الاستقرار والحيولة دون خروج أي من أطراف النظام عليه. لأن الحلول الوطنية لم تعد ناجعة لا على الصعيد الأمني فحسب، بل وحتى على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

إن اللحظة الراعنة التي نمر بها المنطقة هي لحظة حاسمة بكل المقاييس، فهي إما أن تكون نقطة انطلاق نحو بناء، أو بالأحرى إعادة بناء، نظام إقليمي عربي فاعل ومؤثر في السياسات الإقليمية والدولية. أو ذوبان النظام العربي إلى عدة نظم فرعية متخلفة تنظم دولية وإقليمية أخرى. سواء في الشرق أو في الغرب. وبعبارة أخرى إما أن يكون هناك نظام عربي مصيغة ما - يجب البحث فيها بصراحة وعمق - أو يكون (لا نظام عربي) على الإطلاق.¹⁴²

إن على الدول العربية أن تدرك مصالحتها، وإدارتها لهذه المصالح يدفعها إلى العمل المشترك. فلكي يتم التعاون العربي - العربي، لا بد للدول العربية من أن تعمل شعورا بمصالح مشتركة على أقل تقدير، ولا بد أن يتعامل بعضها مع بعض، طالما أن هناك مظاهر تهددها من جميع الجهات.

لدينا: المطالب حيي للتحديات

إن صورة مستقبل المنطقة العربية محكومة بمستوى التصدي الذي تخنّاه الدول العربية للتحديات المطروحة عليها. فكما كانت الاستجابة العربية لهذه التحديات أعلى، كان التفاؤل بصورة مستقبل

أفضل ممكناً. وكما كانت الاستجابة متجاهلة للتحديات، فإن الوضع العربي سيكون عرضة لشكك أكبر وتكون الصورة أكثر سوداوية.

إن مثلت التحديات المطروح على المنطقة العربية، يحتاج إلى جهود جماعية كبيرة. كما يحتاج إلى رؤية واضحة للمصالح العربية والعمل عليها. والوضع العربي الراهن لا يبعث على التفاؤل بشأن التصدي لهذه التحديات.

وإذا كان من الصحيح أن التغيرات التي يشهدها العالم من اتجاهات العولمة الساحقة تؤثر على مستوى التصدي للتحديات المطروحة، فإن هذه العولمة كاتجاه نحو سيادة نظام محدد من العالم كله مع ملامحه نوع اقتصادي وسياسي، وأثر اجتماعي، ومواقع راجعة للغرب وللولايات المتحدة على رأسه. لا تقفل الباب أمام الشعوب على تحقيق مصالحها إذا أرادت ذلك. وينطبق ذلك على العرب الذين يمكن كل الفرضيات اللازمة لتحقيق هذه المصالح، الطاقات البشرية والقادية، والموقع الاستراتيجي الخاص. معاً يمكنهم في مواجهة التحديات الجديدة والنزاع المكانة اللائقة بهم^(٣٠)

ولأن المنطقة العربية لا تعيش في فراغ، فهي تحتاج إلى عمل، وإذا لم يملأها نظام إقليمي عربي فاعل، سيمتلؤها الآخرون بنظام إقليمي يخدم مصالحهم ويكون على حساب العرب. وتجربة مؤتمرات القمة العربية في عقدتها الأول ١٩٦٤-١٩٦٤، استطاعت أن توظف العدد الأدنى من الاتفاق على الأهداف القومية، خصوصاً في ما يتعلق بمصالح تهديد الأمن القومي العربي وكيفية تحقيقه، مما شكل بداية واحدة. ولكن هذه المؤسسة القومية ما لبثت أن اهتزت، فعاليها في العقد التالي ١٩٧٦-١٩٨٦، وكانت تتلاشي في العقد اللاحق. وهكذا لم نجد توجد مؤسسة عربية قومية واحدة تستطيع على الأقل أن ترسم الأهداف القومية العليا للأمة العربية. إما بسبب عدم انشغال المجتمع- وإما بسبب عدم الالتزام بما نصل إليه من توصيات^(٣١). ومن هنا لا بد من العودة إلى إحياء مؤسسة القمة العربية لأنها الوحيدة القائمة على تحديد الأهداف العربية، والقادرة على إعطاء صورة مختلفة للعرب، كما أنها تحتاج إلى نقاش صريح وواضح وسريع. لأن تسارع الأحداث يحتاج إلى استجابات سريعة.

إن ممرحات التحذير في مثل الوضع العربي الراهن لا تكفي، لذلك يجب صياغة سياسات فعلية تتعامل مع اختراق المنظومة الرأسمالية ومع التهديدات الإقليمية. فهذه الظروف تعمل

أزمة إسبانيا

بالتجاهل بحيث لا تترك أي خيار ثالث، إما التمهيد للخطر الدول العربية، ودفع ثمن كبير لعدم التصدي للتحديات، وإما العمل الجماعي العربي الذي يتصدى لهذه التحديات وينقل إلى حد كبير من حجم المخاطر التي تشكلها على البلدان العربية.

كما أن الدول التطورية لا تستطيع التصدي لهذه التحديات منفردة مهما كان حجمها وبهما كانت قدراتها. فالمستقبل للكيانات الكبيرة، ولا مكان فيه للكيانات الصغيرة لأسباب سياسية واقتصادية وأمنية والتي معروفة. حتى على مستوى الكوارث والأزمات الاجتماعية تحتاج الدول العربية إلى العمل الجماعي. فالكوارث لا تميز الحدود الوطنية، وفي بعض الظروف تحرك ملايين المهاجرين عبر الحدود. وعندما يشتد الحرج، أو تشتد الأزمات، فمن الطبيعي في العالم المعاصر ألا ينأى أحد بنفسه بعيداً عن ذلك، سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي. وهنا يكون حظ الكيانات الأصغر في وسط ذلك مهبطاً حتى باختلافها.^(١٤)

إن الأوضاع الداخلية للدول العربية تضاعف من التهديدات الخارجية للدولة التطورية. فالمديد من الدول العربية يعاني من تصدع البنية الداخلية لتعثر الدولة في إدارة مجتمعاتها واقتصادها. وهي أوضاع تجعل بعض التكوينات الاجتماعية مهيأة بشكل مباشر أو غير مباشر لخدمة أطراف خارجية. كما يعمل مثل النظام العربي وعجزه عن الاستجابة الجماعية في الدفاع عن أمنه هي حال تخرج إلى صياحه الخطر خارجي. وفي زيادة عدم الاستقرار للدولة التطورية. وترتبط هذه المراحل بفيل مشروع عربي جدي مستقبل النظام الإقليمي، وغياب أي تصور جدي للوجهات تدرية مطلوبة على المدى الطويل.

إن تضاعف أوضاع داخلية من هذا النوع، مع أوضاع إقليمية لا تعمل لصالح الدول العربية وعولمة شرسية، يجعل حجم التحديات الداخلية في كل بلد عربي في حالة ازدياد. وستكون مصادر هذه التحديات متعددة، بعضها ردم فعل داخلية لعجز الدولة التطورية عن معالجة التحديات الخارجية، مثل تآكل السيادة الوطنية وازدياد الهيمنة الأجنبية، والتهديدات أو الهجمات الخارجية، أو الضغوط الاقتصادية من النظام العالمي.^(١٥) إن هذه الأوضاع تشير بوضوح بالمقارنة مع التحارب الأخرى في العالم، إلى أن المستقبل هو لعالم الكيانات القوية. وربما تستطيع التجمعات الإقليمية المتنامية، والتي تنسق فيما بينها بقدر متطلبات أمنها الإقليمي، أن تسرع مستقبلاً لها على خريطة العالم.^(١٦)

فمن الواضح أن التحديات التي تواجهها الدول العربية تتجاوز ما مشفر عنه المفاوضات العربية - الإسرائيلية، فهناك الكثير من القضايا الإقليمية التي مشرف دون حل حتى بعد إنجاز التسوية الشاملة. كما أن التسوية تحتاج إلى وقت لاستقرارها وإنجاز الثقة بين أطرافها بعد الصراع الطويل الذي شهدته المنطقة. لذلك من المهم المحافظة على حد أدنى من العلاقات العربية العربية خلال المفاوضات للوصول إلى حلول تحقق حداً أدنى من المطالب

العربية، ولتدعيم وتطوير هذه العلاقات الاستراتيجية للتحديات المطروحة المتجاوزة للمستوية، وبما يتناسب مع التطورات التي تشهدها المنطقة، لأن فضائها كبرى تتعلق بمستقبل العلاقات العربية العربية وتشكل جميعاً عن العلاقات العربية - الإسرائيلية، فإن من الضروري معالجة العلاقات العربية - العربية في إطار أوسع من تطور مسار العلاقات الناجمة عن الصراعات السلام التي تقود إليها عملية التسوية الراضية.⁽¹¹⁾

إن الواقع العربي الراهن محملة تطور العلاقات العربية العربية بالتجاهات سلبية، كما أنه لا يدعو إلى التفاؤل بالمستقبل، فالاحتمالات تشير إلى استمرار العلاقات السلبية في المستقبل، على الرغم من ذلك هناك الكثير من البؤر التي تشير إلى احتمالات تطور أخرى إذا وجدت الإرادة الجماعية، فالمستقبل ليس أمراً مفروضاً أو محتوماً، إنما هو بدائل متنوعة تتداخل في صياغتها قوى متعددة يمكن تحليها والتعامل معها.⁽¹²⁾ إن معالجة الاختلالات التي يعاني منها النظام العربي هو المدخل لترسيم الصورة العربية والانطلاق إلى الأمام، وعلى رأس هذه الاختلالات الاختلال الوظيفي والاختلال التنفيذي، ويشمل الاختلال الوظيفي هي الاستراتيجية العربية للصناعات الخارجية على حيلة النظام العربي، مما يتطلب الوفاء بمكافئة واسعة من الأصول المتأخرية، ويعكس ذلك على قدرة النظام العربي على الأداء الواحد الوظيفية، ويتركب على هذا الاختلال ظهور النظام العربي بمستوى بالسي، ويدفع باتجاه التحلل من الالتزامات التعاقدية في إطاره من إنتاج البترول الأغنى.⁽¹³⁾ أما الاختلال التنفيذي يتمثل في الفجوة الكبيرة والتفجئة بين التعهدات التي تلتزمها الدول العربية على ذاتها وبين تنفيذها بالفعل، فالالتزامات التي حدثت بين الأطراف العربية، كانت ولا تزال كافية لتبوء النظام العربي بالوفاء بجانب كبير من وظائفه والتعدي للتحديات الداهية التي تواجه العالم العربي.⁽¹⁴⁾ فالوطن العربي لا يشكو نقصاً أو شحاً في المنظمات القومية أو الاتفاقيات أو الأدوات الموصلة بشكل عام لتكون أفضى ووسائل العمل الجماعي.⁽¹⁵⁾ وإنما تحتاج هذه المنظمات القومية أو الاتفاقيات أو الأدوات المؤهلة لأداء وظائفها على الطريقة المثلى، وهذا الإحياء يحتاج إلى إرادة جماعية عربية، تدرك مصالحها وتعمل على إطلاق هذه الأدوات لتنفيذ السياسات العربية الجماعية، التي تعمل على حماية المستقبل العربي من المخاطر المرجحة.

إن التحديات الاقتصادية التي تواجه الدول العربية تدفع لا محالة إلى العمل العربي المشترك، فلا يوجد قطر عربي واحد يحظى بما يكفي من تكامل موارده الطبيعية والبشرية، كما أن العمل المشترك، يعطي مفعلة أكبر على الشافعي، فالإنتاج الحديث هو إنتاج كبير قد زاد إلى حد أن الأسواق القومية أصبحت أضيق من أن تسمح بزيادة الإنتاج أو لحقق أرباحاً أقصى.⁽¹⁶⁾ والعمل العربي المشترك يحقق مزايا ومنافع اقتصادية، من خلال الاستفادة

الشروط الاقتصادية

من الساع حجم السوق ووفرة الإنتاج وزيادة قوة المنافسة الاقتصادية العربية، وبالتالي تحقيق معدلات نمو اقتصادية عالية للاقتصادات العربية ومعالجتها من التحديات والأخطار السياسية والاقتصادية الخارجية وضمان مستقبله⁽¹⁾. فلا خيار للدول العربية إلا أن تصبوا إلى الاعتماد على النفس في كل قطر من الأقطار العربية، الاعتماد الجماعي على النفس لجموع هذه الدول - ضمن المستحيل نجاح تنمية قطرية في ظل الظروف الاقتصادية التي يشهدها العالم، وفي ظل التكتلات الاقتصادية المتزايدة.

إن التنمية العربية بحاجة إلى علاقات تكاملية بين القطري والقومي. بحيث يجب الاحتفاظ بالأهداف القطرية للتنمية والسعي لتحقيقها، مع عدم إضلال الأهداف القومية بل الانكفاء إليها، بحيث يتحقق تفاعل وتشابك في ما بين مجموعتي الأهداف وستفيد كل من التنمية القطرية والتنمية القومية من التغذية العكسية بينهما. وبالنظر إلى تجارب تكتلات اقتصادية إقليمية كبيرة في العالم، يمكن التأكيد على أن المنطقة العربية تستطيع أن تسرع تنميتها، كقطار ومنطقة، بلحل التعاون والتكامل في مجالات التجارة والسياحة والاستثمار والعمل ضمن منظور قومي بعيد المدى للمصالح القطرية والقومية، فلا يمكن التغاضي عن هذه المعطيات على الرغم مما يشهده العالم من تطورات بارزة في مجال قيام تجمعات اقتصادية كبيرة، لا يجمع بينها ما يجمع بين الأقطار العربية من روابط ومصالح⁽²⁾. كما ينبغي لهذه التنمية أن تستفيد - المجتمع بأكمله - من شرائح الدخل المتوسط والعالي إلى جانب شرائح الدخل المنخفض. وينبغي بالتالي أن تطور مفعنها القوة الوطنية الإنتاجية لتتمكن من تلبية مجموع المطالب لهذه الشرائح⁽³⁾. إن التنمية ليست معركة كبيرة واحدة تعاض خلال زمن قصير، إنها سلسلة من المعارك المتتالية عبر فترة زمنية طويلة نسبياً يخوضها المجتمع بأسره⁽⁴⁾. إن هدف التنمية المستقلة ليس مجرد زيادة معدلات النمو، ولا زيادة نصيب الدول العربية من الإنتاج الصناعي العالمي فحسب، بل سيكون الهدف الرئيسي إعادة توجيه النشاط الاقتصادي والصناعي ليرجعاً لتحقيق اقتصادا وصناعة عربية مستقلة ومتكاملة. تحقق التشابك الاقتصادي بين الدول العربية وتستطيع أن تسد حاجات السوق العربية.

إن إقامة صناعة واقتصاد متطورين تحتاج إلى مجموعة من الشروط التي تجعلها قابلة للتحقق خاصة أنه في القرن الحادي والعشرين ستكون هناك مناجات عالية التقنية وأخرى منخفضة التقنية، ولكن غالبية المناجات والخدمات سيتم إنتاجها بعمليات عالية التقنية⁽⁵⁾. مما يجعل للتوظيف في الإطار العلمي أولوية لا يمكن تأجيلها. المجتمع المستقبل هو مجتمع المعلومات والكفاءة البشرية العالية. والوضع العربي في الإطار يحتاج إلى الكثير من العمل. فإحصائيات المنظمات الدولية تدرج كل الدول العربية دون استثناء ضمن الدول الجائعة لمعلوماتها⁽⁶⁾. هناك شروط لابد من توفرها حتى تستطيع الدول العربية التصدي للتحديات

الاقتصادية المطروحة عليها. ففي دراسة للبنك الدولي عما يسمى «معجزة اقتصادية في شرقي آسيا» صنفت أسباب النجاح وهي بالترتيب: تكوين رأس مال بشري، معدلات ادخار عالية، ومعدلات استثمار مرتفعة، وعدالة التوزيع⁽¹¹⁸⁾. وهناك متطلبات للنمو التكنولوجي لأي قطر نام يسمى إلى إحراز مستوى عال من التكنولوجيا.

- وجود قوة اجتماعية، طبقة أو نخبة قادرة على تحديد أهداف تكنولوجية واقعية، وتنظيم الموارد البشرية والمادية للقطر من أجل تحقيق هذه الأهداف.

- الوصول إلى جبهة فعالة من العلماء، ومن قوة العمل الفنية الفاهرة من أجل هذا المستوى المطلوب في التكنولوجيا والمحافظة عليه.

- امتلاك أو سهولة الوصول إلى موارد كافية على هيئة مواد خام أو رأس مال. حتى يضمن ألا يعول دون تقدمه التكنولوجي غياب المواد الخام أو رأس المال.

- وجود سوق للمنتجات التكنولوجية المنقذة⁽¹¹⁹⁾.

إن متطلبات التطوير التكنولوجي لا تقتصر على المتطلبات الاقتصادية فحسب، بل لها ارتباطات متينة مع التحدي الأمني المطروح على الدول العربية، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنمية العربية، خاصة في ظل التناغم للتسلح للأسلحة الحديثة. فهذا التطور يوفر الاتحاد العربي على الذات في إنتاج الأسلحة وبمسائل الإثارة الفكرية التي أصبحت ضرورة حاسمة من ضرورات حماية الأمن الوطني. كما تعمل على هذه الارتباط بشكل تدريجي بالدول المصدرة للأسلحة للدول العربية. ومن هنا تبرز أهمية التكنولوجيا في تطوير الأمن العربي، من خلال اعتمادها على نفسها في التطوير والتدريب، ولا شك أن التسليح والتعاون العربي في هذا المجال فائزان على إنجاز الكثير في مجالات التسليح والدفاع العربي المشترك. كما أنهما فائزان على إنجاز الكثير في الاقتصاد والصناعة وتسويق المنتجات العربية.

إن تصورات محددة حول التعاون والتكامل العربي المشترك الذين يخدمان الصلحة العربية المشتركة، ضرورة عربية ملحة في اللحظة العربية الراهنة، على ألا يشهد ثبني منظور عربي جماعي أنه تجاهل للوحدات السيادة الوطنية القائمة في الوطن العربي، بتعديدها وتخصيصيتها، وهي مصمم إثراء له، مما يجعلها جبهة بالحفاظ والرعاية⁽¹²⁰⁾ ودون أن يتم إدخالها علاقات تناقضية مع العمل المشترك. فالعلاقات التكاملية بين الدولة التطورية والعمل الجماعي، هي آلية عمل واقعية لإنتاج الانسجام وتطوير العلاقات العربية - العربية إلى مستوى أعلى.

لقد تراجع العامل الأيديولوجي في تصنيف الدول العربية بعد الثغرات التي شهدتها العالم وشهدتها المنطقة، وهو ما يشرى حدوث مرونة عالية عند الدول العربية في إنشاء علاقاتها البينية بما يخدم مصالحها، وهو ما يحتاج إلى عمل سريع وفعال. فإذا كان يحسب للدول

العربية أنها أول مجموعة دولية بعد الحرب العالمية الثانية تقرر التعاون الاقتصادي فيما بينها. بدأ من ميثاق الجامعة العربية (١٩٤٥)، مروراً بمعاهدة الدفاع لشترك، والتعاون الاقتصادي (١٩٥٠)، واتفاقية الوحدة الاقتصادية (١٩٥٧)، وميثاق العمل الاقتصادي القومي العربي (١٩٨٠)، وصولاً إلى قرار القمة العربية بإقامة منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى (١٩٩٦)، فقد أصبح يحسب عليها بعد خمسين عاماً من لتابع إصدار الوثائق أنها أصبحت غير مهتمة بتسهيل ما وقعت عليه^(١١١) إن الوضع العربي الراهن يحتاج إلى عود على بدء لتفعيل كل الاتفاقات السابقة ومواكبتها مع الظروف الحديثة. فلا عيار أمام الدول العربية مستقبلاً، إما أن يندثروا في أنظمة إقليمية شرقاً أو وسطية ومستوسطية، وإما أن يتم إحياء العمل العربي المشترك، إنشاء نظام إقليمي عربي قوي يشارك في المشاريع الأخرى من موقع معرفة مصالحه وقدره الدفاع عنها. لذلك على العرب أن يمولوا مشروعاتهم القادرة على التصدي للتحديات المطروحة على الدول العربية، بدلاً من أن يمولوا مشاريع وطموحات الآخرين.

خاتمة

إن مستقبل المنطقة العربية مرهون بأداء دولها في العمل الجماعي التكافلي المشترك، وعلى الرغم من كل المؤشرات السلبية في الواقع العربي الراهن، إلا أن المستقبل ليس مفروضاً على المجتمعات العربية، ولما يمكن للبشر أن يفعلوا تأنيهم، وأن يكون لهم دور في تدبير مصيرهم وبناء مجتمعاتهم، فإن الإرادة العربية الفاعلة القادرة على التغيير والإنجاز يجب أن تكون جزءاً أساسياً من الواقع العربي القادم، إرادة تعدد أهدافها وتعمل على إنجاز هذه الأهداف، من خلال رؤية استراتيجية متكاملة تربط بين الواقع والمستقبل الذي ينتظرنا، ودراسة المستقبل ليست هروباً من مواجهة الواقع، بل هي تلبية إلى المشكلات التي تخطى هموم الحاضر الثقيلة، والتي تفرض علينا عدم الاكتفاء بمواجهة ما هو آني ومماجل، بل نضع في حساباتنا تحديات المستقبل وإزماته ومخاطره، فإن لم نخطط استباقياً فسوف يخططه لنا الآخرون^(١١٢) والتخطيط الاستراتيجي للمستقبل يفترض أن يتشكل من عناصر متعددة سياسية واقتصادية وثقافية وتكنولوجية، إلخ طالما أننا نسمع إنشاء المستقبل على المدى البعيد، والبشر هم المصدر الرئيسي للاستراتيجية بوصفها العمل على ربط الواقع بالطموح، وهي تحتاج كل الخبرة التاريخية للمشروب واستثمارها في إنتاج صورة المستقبل على أفضل وجه.

إن المستقبل لا يقدم نفسه على طبق من فضة، وإن كل ما يخطط أن يحافظ على نفسه حتى نصل إليه، إن المستقبل يستطيع أحياناً أن يفاجئنا بأحداث وتطورات لم يدخلها المخططون في الحساب، وهذا ما يحتاج إلى مرونة عالية في الخطط التي توضع للمستقبل.

والأهم من ذلك، أن كل بديل من البدائل المستقبلية الممكنة تنطوي على ثمن وكلفة.⁽¹³⁸⁾ وأي مستقبل يختاره العرب يجب أن يكونوا مستعدين لدفع ثمنه.

وعلى العرب أن يدركوا أن التصالح للشركة يمكن في النهاية أن تقود إلى مزيد من التعاون فيما بينهم، والتخفيف من الصراع العربي - العربي. وهذا ما يحتاج إلى التشر في المشكلات العربية بكثير من العقلانية. هذه العقلانية التي لا يمكن التوصل إليها إلا بتفكيك هذه المشكلات، وتجزئة العمل المشترك إلى أهداف مرحلية صغيرة. بحيث يمكن تحقيق إنجازات متوالية منها تبعاً للحاجات الفعلية والإمكانات المتاحة.⁽¹³⁹⁾ وأن تجزئة العمل المشترك لا يعني البسط، بإنجاز المهمات المطلوبة، لأن الجميع في هذا الوقت يخضع لضغط الزمن، بحيث أصبحت عملية صنع القرار في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والتي تحتاج إلى جمع المعلومات وتحليلها، والتخاذل القرار، يتسارع إيقاعها.

وترتب على ذلك ظاهرة بالغة الأهمية، فصر العصر الزمني للأفكار والمفاهيم والإجراءات وحتى المنظمات، بحيث أصبح التحاق مرحلتنا بالقدرة على الإبداع والتجديد.⁽¹⁴⁰⁾ وفي ظل هذا التسارع، لم تعد تجدي سياسات امتصاص الصدمات واحتواء الأزمات وتأجيل للمشكلات تحت دعوى تطلب طوارئ الذي القصير على مطالب المدى الطويل، فقد أصبح في حكم اليقين أن الحلول الجزئية والتسيبة لثائق اليوم مستحيل. هذا الخرى جديدة تضاف إلى مشاكل الغد، ولا بديل للعربية إلا قبول تحديث السيقيل الرشيكة مزوجة بالآرت الثقيل الذي طلقه ماضينا، ولأن الأمر تتحرك بسرعة معينة، فهي لا تسمح لنا بممارسة عادتنا القديمة في تسدير مشاكلنا للأجيال القادمة.⁽¹⁴¹⁾

وبحكم الواقع العربي الراهن الذي لا يدعو للتفائل، فإن أسوأ صورة للمستقبل، هي تلك التي تنتج عن الموقف السلبي من محاولة صنع المستقبل، موقفه التعطل عن حرية الإرادة الإنسانية، وترك الأحداث تصنع مستقبل الناس.⁽¹⁴²⁾ فالمستقبل عرضة لإنتاج الأسوأ، ولأن هذا الأسوأ ممكن دائماً وفي كل الظروف، فإن على العرب أن يكونوا على أعية الاستعداد، ولأن التاريخ لا ينتظر أحداً، ولا يرحم أحداً، وسنجد أنفسنا بعد حين خارج التاريخ، هذا إننا لم ندخل بعد في الخروج.

- 1- إستر كرون، الصراع على الضفة، مستقبل المقايضة الاقتصادية بين أمريكا واليابان، ترجمة أحمد حواد، طبع - سلسلة عالم المعرفة - عدد 201 - الكويت، 1998، ص 12.
- 2- المرجع السابق - ص 11.
- 3- رشيد العاصدي، شكل السياسات العربية المتداخلة في العقد القادم، في كتاب جماعي بعنوان، العهد العربي القادم، الاستقلالية المدركة، - مركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصرة جامعة جازان، 1986، ص 23.
- 4- مارتن أديك، دبا وراء ثوابل القوة، جهاز أمريكا في الشرق الأوسط - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والوثائق - بيروت 1992، ص 12.
- 5- محمد السيد سليم، العرب قديماً بعد العصر السويدي، الحاضر والمزمن - في كتاب جماعي بعنوان، ظهور الاتحاد السويدي، وثائقه على الوطن العربي، - لعمرو طه، عبد العظيم - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - القاهرة - 1992، ص 23.
- 6- محمد السمك، علامة استفهام حول مستقبل جامعة الدول العربية، جريدة الشرق الأوسط 1998/11/18.
- 7- محمد السيد سليم، المرجع السابق، ص 210 - 211.
- 8- طارق أديك، المرجع السابق - ص 12.
- 9- روبرت كي، عشر، ألف من العصر، السياسة الضاربة الأمريكية في التسعينات، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والوثائق - بيروت 1991، ص 24.
- 10- محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية الأمريكية، 1994، ص 247، 248.
- 11- أحمد يوسف أحمد، الوضع العربي الراهن وسبل الخروج منه - مجلة المستقبل العربي، العدد 149 - بيروت 1992، ص 13.
- 12- مارتن أديك، مرجع سابق - ص 11، 12.
- 13- المرجع السابق، ص 28.
- 14- ريتشارد نيكسون، ماروا، السلام، ترجمة، هادي، - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان - 1998، ص 187.
- 15- حسن أبو طالب، نحو نظام أمن عربي فعال - في كتاب جماعي بعنوان، تحديات التحاور العربي في التسعينات، تحرير السيد حسن - منتدى الفكر العربي - عمان - 1992، ص 217.
- 16- مصطفى السيد، صعيد، الاختلافات الجينية في النظام العربي - قرأت من منظور تحاور أزمة الديمقراطية السياسية العربية - في كتاب جماعي بعنوان، تحديات التحاور العربي في التسعينات - مرجع سابق - ص 17 - 18.
- 17- جاري لويس ديمور، العلاقات العربية - العربية في ظل التغيرات الإقليمية - في كتاب جماعي بعنوان، تحديات العالم العربي في ظل التغيرات الدولية - مركز الدراسات العربية - الأوروبي - باريس - 1991، ص 132.
- 18- زكي كليل، مع التناول يأتي العصر - صحيفة هاريس الإسرائيلية 1992/12/19.
- 19- وليد العلم، عدوت - تحالف القواصات السورية - الإسرائيلية، مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد 29، شتاء 1998، ص 28.
- 20- جميل حيدر، مستقبل التسوية السلمية للصراع العربي الإسرائيلي، نظرة عامة - مجلة المستقبل العربي - العدد 202 - 1999، ص 17.

- ١- شمعون بيرير - على مشارف القرن ٢١ - جريدة هآرتس الإسرائيلية ١٩٩٢/١/٢٢ - نشرت ترجمتها في جريدة السفير اللبنانية ١٩٩٢/٢/٢٣.
- ٢- World Bank, gleaming the Future (Washington, D.C., 1995).
- ٣- علي الدين هلال - التحولات المعقدة في مرحلة السلام - الحلقة الأولى - جريدة الاقتصاد الإسرائيلية ١٩٩٢/١/٨.
- ٤- لشيريل روبنبرغ - إدارة يوش والعسكانيين، إعادة تكوين - في كتاب معاهي ينفوس حلسطين والسياسة الأمريكية من ولسون إلى كلفور - تحرير معاهيل طومان - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٦ - ص ٢٩٦.
- ٥- جر سورك - إدارة كلفور والتطية الفلسطينية - في المرجع السابق ص ٢٠٨.
- ٦- حسان سلامة - العرب - إسرائيل - أمريكا والمفاوضات - مجلة السليل العربي - العدد ٢٢٢ - ص ١٠.
- ٧- جميل مطر - مستقبل القضية الفلسطينية للصراع العربي - الإسرائيلي نظرة عامة - مرجع سابق - ص ٦١.
- ٨- حسان سلامة - المرجع السابق - ص ١٢.
- ٩- جميل مطر - المرجع السابق - ص ٨٤.
- ١٠- شمعون ماهر - مصدر عملية السلام - ميدان دراسات السليل العربي - جريدة الحياة اللبنانية ١٩٩٦/٩/١١.
- ١١- ويشارف تيكسون - ما وراء السلام - مرجع سابق - ص ١٢٢.
- ١٢- ويشارف تيكسون - القضية الفلسطينية - الوحدة - أحمد صبري حواد - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٢ - ص ١٢٢.
- ١٣- المرجع السابق - ص ١٢٨.
- ١٤- مارتن ليفك - ما وراء كوارث القوة - كتاب أسرار في الشرق الأوسط - مرجع سابق - ص ٢٠.
- ١٥- المرجع السابق - ص ٩١.
- ١٦- ويشارف تيكسون - ما وراء السلام - مرجع سابق - ص ١٥٢.
- ١٧- المرجع السابق - ص ١١٨.
- ١٨- خالد الحسن - حول ما يسمى بمفاوضات السلام في الشرق الأوسط - جريدة العلم المغربية ١٩٩٢/٨/٢٨.
- ١٩- حسان سلامة - العرب - إسرائيل - أمريكا والمفاوضات - مرجع سابق - ص ٨.
- ٢٠- شمعون بيرير - الشرق الأوسط الجديد - دار السليل - ص ٨٤.
- ٢١- جميل هلال - استمرارية إسرائيل الاقتصادية للشرق الأوسط - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت ١٩٩٤ - ص ٩٢.
- ٢٢- المصدر السابق - ص ٢٠.
- ٢٣- Yusef Berlin, ... A Vision of the Middle East The state of Israel: Tokyo, December 15, 1993.
- ٢٤- شمعون بيرير - مصدر جديد لأبطال الانتصار ولا يندر الحياة - في كتاب معاهي ينفوس حارة بند جامعة التحليل - رؤية مثالية لستل الشرق الأوسط - مركز الأهرام الترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٢ - ص ١٠١.
- ٢٥- المرجع السابق - ص ١١١.
- ٢٦- علي الدين هلال - الجامعة العربية والسلام العربي الإسرائيلي - مجلة عالم الفكر - العدد الثامن والعشرون - العدد الرابع - أبريل ١٩٩٢ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ص ٢٢.
- ٢٧- يوسف صافغ - منظور الشرق الأوسط و١٩٩٢ والقضية العربية - مجلة السليل العربي - العدد ١٩٩ - ص ١٤.

- ۱-۹۰. دیرامبر، دیوید. «مکانی لرزه‌های زمین». ترجمه: محمد غوثه الدوزی. «دار الفکر» - دمشق، ۱۹۹۵.
- ۲-۹۰. ویدا، مدیا.
- ۳-۹۰. المرجع السابق - ص ۲۸۹.
- ۴-۹۰. المرجع السابق - ص ۲۹۵.
- ۵-۹۰. هلم، الکساندر. «الحروب الهلنستية من رومانی إلى مقدونیة». «مؤسسة الحياة القديمة» ۱۹۹۷/۹/۱۱.
- ۶-۹۰. دیوید، دیوید. «مطالعة امپراتور اری شاپلیط». «مجله صحنه‌های تاریخی» ۱۹۹۶/۱۱/۲۹. ترجمه: سحر الهادیات الشیخ.
- ۷-۹۰. العدد ۲۹، شوال ۱۴۱۷ - ص ۹۱.
- ۸-۹۰. المرجع نفسه - ص ۹۰.
- ۹-۹۰. محمد الشافعی. «مستقبل الموروث الثقافي بين الشمال والجنوب في حوض البحر المتوسط». في كتاب: «مواهب منقوش» - اثر: مستطیل لحوض البحر الاوسط والاتحاد الأوروبي، «مكتبة الملكة الأميرة» - لیسونة ۱۹۹۵ - ص ۱۲.
- ۱۰-۹۰. حبيب الشافعی. «الاتحاد الأوروبي والغرب والجنوب المتوسطي: معالم ومستقبل». في المرجع السابق - ص ۱۵۹.
- ۱۱-۹۰. یوسف صلیح. «مطالع الشرق الأوسط و۱۹۷۹ عربیة». «مرجع سابق» - ص ۱۱.
- ۱۲-۹۰. حیدر مطر. «مستقبل التنويع المالیة». «مرجع سابق» - ص ۷۱.
- ۱۳-۹۰. تاسیفت یوسف حنی. «التحولات في النظام المالی والمناخ المالی الضخیم وامتکانه على النظام الإقلمی العربی». «مجله المستقبل العربی» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۱۹.
- ۱۴-۹۰. فی التعمید من المصروع الشرقی اوسطی. «لبنان» - «مجله المستقبل العربی» - «مستقبل العربی» فی المنطقة العربیة. «مرجع سابق» - «مجله المستقبل العربی» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۱۹.
- ۱۵-۹۰. «مجله الشرق العربیة» - «مجله المستقبل العربی» - «مجله الشرق العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۱۹.
- ۱۶-۹۰. Howard Leach. «Rethinking the Middle East». Foreign Affairs, Vol. 71, no. 4 (Fall 1992).
- ۱۷-۹۰. تاسیفت یوسف حنی. «التحولات في النظام المالی والمناخ المالی الضخیم وامتکانه على النظام الإقلمی العربی». «مرجع سابق» - ص ۷۲.
- ۱۸-۹۰. حیدر فی عالم واحد، من لیسونة لیسونة لیسونة العربیة - «مجله عالم العربیة» - العدد ۲۰۶ - «مجله المستقبل العربی» - ص ۲۰.
- ۱۹-۹۰. «مجله المصارف» - فی مستقبل النظام العربی - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۰-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۱-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۲-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۳-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۴-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۵-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۶-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۷-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.
- ۲۸-۹۰. «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - «مجله المصارف العربیة» - العدد ۱۱، ۱۹۹۵ - ص ۲۰.

- ٦٦- يوسف صايغ - المروج السابق - ص ٦.
- ٦٧- فؤاد مرسي - الرأسمالية تبحث نفسها - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - العدد ١٢ - ١٩٩٠ - ص ١٠٢.
- ٦٨- المروج السابق - ص ٨ - ٩.
- ٦٩- حال الأمة العربية - الأوضاع السياسية والاقتصادية والاقتصادية للأمة العربية خلال العام 1٩٩٦ - تقرير عبادي - مجلة المستقبل العربي - العدد ٩١٩ - 1٩٩٥ - ص ٥٩.
- ٧٠- اسماعيل مصري عبدالله - وحدة الأمة العربية - المصور والمصور - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة 1٩٩٥ - ص 1٠.
- ٧١- فؤاد مرسي - الرأسمالية تبحث نفسها - مروج سابق - ص 1٢.
- ٧٢- الأرقام مأخوذة من التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام 1٩٩٦.
- ٧٣- خير الدين حبيب وأخرون - مستقبل الأمة العربية - التجمعات - والخيارات - التقرير الثاني لشروع استشراف مستقبل الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1٩٩٤ - ص 1٢٤.
- ٧٤- حال الأمة العربية - مروج سابق - ص ٤٦.
- ٧٥- المروج السابق - ص ١٢.
- ٧٦- اسماعيل مصري عبدالله - وحدة الأمة العربية - تقرير والمصور - مروج سابق - ص 3٩.
- ٧٧- إلى الزيادة الكبيرة في عدد السكان في شريط بضعين طاء - عالية دول المدم التكتل الحالية نظيرة بعد حالة عام - نفس المستعمل أن وضع أو يكاد يكون من مصاديق دور سياسي - فؤاد أمانة هناك أعداد ضخمة من هؤلاء العدد قبل الانطلاق الوطني - ولكن أن يكون لديهم الانشطار التقييد المستويات شدة بداية استئثار الأموال التي تكون هؤلاء العدد.
- ٧٨- وتوضح هذه المشكلة أرقام مأخوذة من الاقتصاد الأمريكي - أن كل أمريكي جديد يحتاج إلى استثمارات مقداره ٢٥٠ ألف دولار لكي يكون باستطاعته دخول الاقتصاد الأمريكي بوضعه مواتقاً - عاصلاً - مستهلكاً عالياً لديه الكفاء ذاتي.
- ٧٩- وبمقابلة صيرب بسيطة يتبين أنه إذا كانت الولايات المتحدة تريد معدل نمو سكان مقداره ١ في المائة - سيكون عليها أن تضمن هؤلاء الأمريكيين الجدد أكثر من 1٠ في المائة من ناتجها القومي الإجمالي كما سيكون على الأمريكيين الوطنيين إجراء تغييرات صار في مستوى معيشتهم.
- ٨٠- وتختلف في باد الأمر الاستثمارات المطلوبة الضرورية لإظهار مستوى المعيشة الحالي للمواطنين الجدد - ولكن الشرائح في الفئات القومي الإجمالي التي ينبغي أن تكفي لهذا الجهد لا تختلف - وفي العالم الثالث لا توجد الأموال اللازمة لدعم جهود في هذا التحويل - بصرف النظر عن الاستعداد والرفعة - ذلك أن تعميمها مقداره 1٠ في المائة من الاستهلاك المحلي يتولد كلاً من المواطنين الجدد والكادحي على شفا المعاش - إ - أنه لا يتولد أية موارد يمكن تعميمها لتعويض مستهلكهم الجدد.
- ٨١- راجع لستار كور - الصراع على النفط - مروج سابق - ص ٩1٩ - 1٩٥٠.
- ٨٢- دوايت ماكدويل - أوروبا والعرب - تطور أم نهائية لرجعة - عبد البقي حسن - تقارير استوائية 1 - دار التوزيع الأدبية - بيروت - 1٩٩1 - ص 1٤.
- ٨٣- نوبار حوسبيان - مراع الولايات في العالم - القرار القومي العراقي لالاستراتيجية - ترجمة استوائية - عدد 1 - يناير 1٩٩٦ - ص 1٩.
- ٨٤- حيرار في عالم واحد - مروج سابق - ص ٥٢.

- ١٠٣- حال الأمة العربية - مرجع سابق - ص ١٠٨
- ١٠٤- فؤاد شوب، وفيصل فرج، في المؤتمر الاقتصادي، مضمومة، صنع السلام، جريدة الحياة القدية ١٩٩٦/١/٢٨.
- ١٠٥- عبد المجاد الجوالي، التغيرات الاقتصادية بشرى الوسطية - مرجع سابق - ص ٦٥.
- ١٠٦- المرجع السابق - ص ٥٢.
- ١٠٧- مريم سافمان، هوامش الأمن، الوحدة، ومن شاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر - القاهرة ١٩٩٠ - ص ١٦٩.
- ١٠٨- هيثم الكيلاني، التغيرات العسكرية العربي - العربي في ظل شاعى القدرات العسكرية الدول المواز - في كتاب: جندى، بعنوان: تحديات العالم العربي في ظل التحديات الدولية - مركز الدراسات العربي - مركز الدراسات العربية - الأزرق - باريس ١٩٩١ - ص ٢٤٤.
- ١٠٩- هيثم الكيلاني، مفهوم الأمن القومي العربي، دراسة في جندى السياسي والعسكري، في كتاب: جندى - الأمن العربي، التحدي، الرضا، والمنظمات السياسية، مركز الدراسات العربي - الأزرق - باريس ١٩٩١ - ص ٩٢.
- ١١٠- نقلا عن هيثم الكيلاني - المرجع السابق - ص ٢٢٩.
- ١١١- حسن أبو طالب، نمو نظام أمن عربي، في كتاب: جندى، داخل العالم العربي في التسعينات - تحرير السيد حسن، منشور الفكر العربي - لبنان ١٩٩٢ - ص ٩١٥.
- ١١٢- هيثم الكيلاني، مفهوم الأمن القومي العربي - مرجع سابق - ص ٦٢.
- ١١٣- حسن أبو طالب، مرجع سابق - ص ٢٢١.
- ١١٤- هوامش شوب، الأمن في الخليج، مقال في المجلة - مجلة الدراسات السياسية - العدد ٢٩، ١٩٩١ - ص ٣٦.
- ١١٥- حسن أبو طالب، مرجع سابق - ص ٢٤١.
- ١١٦- حال الأمة العربية، تحرير جندى - مرجع سابق - ص ٥٩.
- ١١٧- علي الدين خليل وأخرون - العرب والعالم - مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٤ - ص ٢٥٠.
- ١١٨- خير الدين صبيح وأخرون، مستقبل الأمة العربية، التحديات، والعوامل، مرجع سابق - ص ١٥٧، ١٥٨.
- ١١٩- المرجع السابق - ص ٢٢٤.
- ١٢٠- المرجع السابق - ص ٢١٩.
- ١٢١- علي الدين خليل - التغيرات العربية في مرحلة السلام، الحلقة الثالثة - جريدة الاتحاد الإماراتية ١٩٩٥/١/١٠.
- ١٢٢- علي الدين خليل وأخرون - العرب والعالم - مرجع سابق - ص ٦٤.
- ١٢٣- محمد السيد سعيد، الاختلافات الثقافية في النظام العربي، مرجع سابق - ص ٦٤.
- ١٢٤- المرجع السابق - ص ٢٢.
- ١٢٥- يوسف صاوي، التنمية القومية، من التنمية إلى الاتحاد، على النص في الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩١ - ص ٢٥٩.
- ١٢٦- فؤاد فرجى - الرأسمالية تجد نفسها - مرجع سابق - ص ١١١.
- ١٢٧- جندى القوي، ومبارك الصواني وأخرون، ثورة التغيرات، العالم العربي، تحديات نهاية القرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩١ - ص ٢٢٩.

- 100- يوسف صليح - منظور الشرق الأوسط ودلائله السياسية العرب - مرجع سابق - ص ٦٩.
- 10١- يوسف صليح - التنمية العنصرية - مرجع سابق ص ١٢٢.
- 110- اسماعيل صبري عبدالله - وحدة الأمة العربية - مرجع سابق - ص 4١.
- 111- لستر كرو - الصراخ على القمة - مرجع سابق - ص 1٩.
- 11٢- نبيل علي - العرب ومصر الطوفان - سلسلة عالم المعرفة - العدد ٩8٤ - الكويت ١٩٩٤ - ص 2٥.
- 113- اسماعيل صبري عبدالله - وحدة الأمة العربية - مرجع سابق - ص ٤٠.
- 114- مايكل سميجون - الأمل المستقبلية النمو التكنولوجي في المجتمعات العربية- تحليل إحصائية التقدم نحو استقلالية تكنولوجياية هي الوطن العربي في العهد القادم - في كتاب جماعي -العهد العربي القادم: المستقبلات البديلة- - مرجع سابق - ص 2٥٥.
- 115- يوسف صليح - التنمية العنصرية - مرجع سابق - ص ١٦٠.
- 116- حال الأمة العربية - تقرير جماعي - مرجع سابق - ص ٨١.
- 117- علي الدين خليل والحويج - العرب والعالم - مرجع سابق - ص 2٥.
- 118- المرجع السابق - ص ٢٦.
- 11٩- عبد الحميد سعيد - العرب ومستقبل التطور الذاتي -مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٧ - ص 2٥٢.
- 120- السيد بسون - قرأت في خريطة المستقبل العربي - بيروت الاتحاد الإسرائيلي ١٩7٨/ ١٩٧٧.
- 121- نبيل علي - العرب ومصر الطوفان - مرجع سابق - ص ١٢٢.
- 122- إبراهيم سعد الدين وأخرون - مجاز المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩8٤ - ص 1٢.

السياسة العالمية للبيئة

عرف وتعليق د. باسم الوبيد*

المؤلفة: لورين البيوت**

يستعرض الكتاب الوضع البيئي العالمي بمقدمة يتطرق فيها إلى السؤال الذي طرأ طرجه محلطلم السياسة والناشطون بيئيا والأكاديميون. بعدما عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في البرازيل (ريو دي جانيرو) في العام ١٩٩٢، هل نقتضينا الأرض؟ والأجوبة عن هذا السؤال تتراوح ما بين نعم، لا، والربما، إلا أن الوقت مبكر لإصدار الحكم.

كما يركز الكتاب على السؤال الأساسي: ألا وهو كيف ننفذ الأرض؟ وعلى ردود الفعل المتباعدة للجواب عن هذا السؤال.

يضم الباب الأول والثاني والثالث من الكتاب بتدويل برنامج البيئة. فالباب الأول يركز على حدثين مهمين في عملية التدويل، أولهما مؤتمر الأمم المتحدة البيئة الإنسان (مؤتمر ستوكهولم ١٩٧٢)، وثانيهما مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (مؤتمر ريو ١٩٩٢). وكذلك على أهم معالم العشرين سنة الممتدة بينهما، الباب الثاني والثالث يقدمان البرنامج الواسع لمشاكل البيئة وعلى مرحلتين. فالباب الثاني يتخصص ما يسمى ببرنامح ستوكهولم، ويتضمن المحافظة على البيئة عبر حدود الدولة وكذلك قضاها التلوث التي طفت على ساحة النشاط البيئي، وكذلك الخلاف والمناقشات الخاصة بذلك خلال السبعينيات والثمانينيات. أما الباب الثالث فيركز على برنامج ريو والذي يحتوي على ما يسمى ببرنامح الأرض، ويتضمن تغير المناخ، وتقص الأوزون، والتصحر.

* قسم الجغرافيا - كلية العلوم - جامعة الكويت.

** استاذة في العلوم السياسية في الجامعة الوطنية بالبرازيل.

وزوال الغابات، وفقدان التنوع البيولوجي. فبينما هذه الأوباب تعتبر وصفية للهموم البيئية والسياسة البحوث البيئية، إلا أنها تسيطر الضوء على المشاكل السياسية، وتبين التضامن، وكذلك الجدل والواضيع التي ستكون بمجموعها مصدر التركيز بالنسبة لبقية الكتاب.

الأوباب الرابع والخامس والسادس من الكتاب تركز على نواحي ووسائل وطرق المحاورات التي تدور حول إدارة البيئة بمعناها العام. وإدارة البيئة لا تعني فقط الأجهزة الرسمية والمؤسسات المدنية، بل هي الواقع تتعدى ذلك لكي تحتوي على المؤسسات الاجتماعية والتعاونية والعمادات التي تشكل الهيكل العام لأخذ القرار والتعاون البيئي. فبينما يخلق الجميع على أن هناك مشكلة في إدارة البيئة، إلا أن هناك سؤاليين حول ضرورة وجود إدارة أفضل، الأول: لماذا هناك مشكلة في الإدارة والثاني: ما هي مواضيع الإدارة الأفضل؟ والباب الرابع من الكتاب يدور المؤسسات البيئية القائمة حاليا كنظام هيئة الأمم المتحدة، بالنظر لكفاءتها أو بالنسبة للتعاون الدولي المبني على الدول ذات السيادة.

ويختص الباب الخامس بدراسة دور المنظمات غير الحكومية في إدارة البيئة. أما الباب السادس فيختص بالتحجيم البيئي، خاصة بالنسبة لتأثير تدور البيئة على المرأة وعلى المواطنين الملازمين لأرهم. والذين قليلا ما يسمع وأهم، هذا إذا سمع لهم رأي في نظام الأول.

البيان السابع والثامن يركزان على التغيرات في إدارة البيئة، وعلى العلاقة بين الهياكل الإدارية والوسائل الخاصة بالاتصال المحلي، هذا إلى التغيرات الدولية والتطور، ومعار البيئة المعقد وكذلك المشاكل المرتبطة به. لقد تمكنت العلاقة كثيرا وراثت الطوائف بسبب مناقشة الصالح بين الدول الغنية والفقيرة، وكذلك بين الأجيال والمضراء. ويهتم الباب السابع بتأزم العلاقات بين الدول المتطورة والدول النامية، حيث أصبحت هذه سمة مركزية من خصائص السياسة العالمية كبيتا. إن الاهتمام بعدم المساواة هي السببات و النتائج يجعل منها مواضيع مهمة في المناقشات السياسية عندما يتم بحث العقود والواجبات والتكاليف والموارد، وتصور معنى التنمية المستدامة، وأفضل الاستراتيجيات لإنجاز كل ذلك. وحيث إن قليلا من هذه الاستراتيجيات تم تطبيقها فإنه تم استعراض هذه الاستراتيجيات بالتفصيل في الباب الثامن. وتعد هذه الاستراتيجيات عبر نقل قدرات المنطقة للاستفادة الأفضل من وسائل التجارة، وكذلك محاولة حل مشاكل بيون الدول النامية وإيجاد الوسائل المالية على المستوى الدولي، لذا فإنه من غير المستغرب أو لافت للنظر أن تكون هذه الاستراتيجيات وطريقة تطبيقها مصدر جدل.

أما الباب التاسع فيعالج مصطلحا ظهر بعد قمة ريو، وهو كثير الاستعمال، قليلا ما يفهم معناه، وهو المصطلح الذي يشار إليه التنمية المستدامة ألا وهو الأمن البيئي. ويناقش هذا الباب بشكل خالص كيف يمكن فهم هذا المصطلح، وهل هو إضافة إلى جدول الأمن القديم أم هل هو ناتج عن تفكير في معاني الحكم المتداولة والممارسات المتورل بها نتيجة لمفهوم البرنامج القديم؟

المياه العالمية اليوم

أما الـباب العاشر فيعالج أعضائيات وسائل التطوير. فبين الرأي الكلاسيكي الذي ينشد التطوير عن طريق التحليل. وبين الرأي الآخر الأشد نقدا كوسيلة للتطوير. يدور هناك جدل كثير.

لقد انصح علما مع نهاية القرن العشرين أن النشاط الأدعي بغير البيئة بشكل مدي. ويشكل لا يمثل ما جرى في العصور الأخرى. فالتحدي الكبير والمبالغ فيها لاستغلال الموارد الطبيعية. وصرف الطاقة على أنماط غير مثبلة ولهمست ضرورية للبيئة. والتصنيع. والإسهاب في النمو الاقتصادي. كل ذلك مرتبط بدمار البيئة في حدود الدولة. وغير حدود الدول المختلفة.

لقد ازداد الإنتاج الصناعي العالمي أربع مرات منذ ١٩٥٠. وزاد إنتاج الطاقة بشكل تصاعدي وبمعدل أربع مرات ونصف ما بين ١٩٥٠ - ١٩٨٥. على الرغم من أن النمو انخفض في التسعينيات. وزاد الإنتاج العالمي للنشط ست مرات. والسماد عشر مرات في الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٩٢. ولضمايف استعمال المياه في الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٨٠. وكان نصيب الفرد من المياه في الدول النامية يعادل ثلث الكمية المستهلكة في ١٩٧٠. وقد زاد تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون بشكل تصاعدي منذ بداية الثورق الصناعية. ويصل الآن إلى ٣٦ جزءا في المليون. وقد لا يعني هذا الرقم بمفرده شيئا. إلا أن العلماء متفقون على أن ذلك التركيز المتزايد سيساهم في التدخل في نظام المناخ مما يؤدي إلى زيادة نسبة حرارة الكرة الأرضية بشكل أسرع مما كان عليه في أي وقت خلال العشرة آلاف السنة الماضية. كما سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر بنسبة ما بين ٢ إلى ٦ مرات بالنسبة للزيادة خلال المائة سنة الماضية. وكثير من هذه الأنشطة غير مستدامة. حيث إنها تؤدي إلى نضوب الموارد. وتدمير البيئة. كما تؤدي إلى تدني معيشة الإنسان. خصوصا في الدول النامية.

لقد اتسع التأثير السلبي لذلك النشاط الاقتصادي. فقد ازداد تردى التربة لدرجة أن ثلث مساحة الكرة الأرضية مهددة بالتصحّر. وازداد شح المياه. حتى إن ٨٠ دولة تعاني منه. من بينها ٣٦ دولة مطنة رسميا على أنها دول نادرة المياه. كما أصبح ثلث الهواء والمرتات المائية والمناطق الصناعية سمة أساسية لنظام البيئي للدول الصناعية والدول المتطورة على حد سواء.

ولمبات العالم سواء الاستوائية منها أو المعتدلة في انحصار. وتختفي من الوجود كلها ٥٠ نوعا من مخلوقات الكرة الأرضية في كل يوم. ويزيد تردى البيئة من مستوى القطر بالنسبة للظفراء في أجزاء العالم التي تعتمد حيالهم ووسائل معيشتهم على الأرض. والأنهار وممرات المياه والنظم البيئية الساحلية. يتنقص التصحر وتردي التربة أساس مهارات الزراعة بالنسبة لشعوب الدول النامية. كما أن ثلث الأنهار والجداول المثلثة يؤثر على ري المزارع في الدول المتقدمة والنامية على حد سواء. ويهدد من قدرة الشعوب على الحصول على الماء الصالح للشرب. ويقتل الأسماك التي تقتات عليها الناس. يلغضي التصحر على مصادر الغذاء.

والدواء. وعلى الحياة بالنسبة للغالبين البشر الذين يسكنون الغابات، ويدمر تراثهم وعقائدهم الدينية. كما يدمر أساسيات الحياة في المناطق المحيطة بهذه الغابات. ويسبب شح الأغشاب والوقود. والمياه فإن عيب التمشية يزداد على النساء في الدول النامية. أما رعي المفضلات والتضليلات السامة الملوثة فإنها تؤدي إلى الموت (كما هي بوفان) والبرص (كما هي سينيماكا وفال الحب).

ولا يمكن الفصل بين هذه المشاكل لعدم المساواة في الحكم بين السبب والنتيجة. فبينما تشكل الدول الصناعية ربع سكان العالم، إلا أنها تستهلك ٧٠ بالمئة من الطاقة. و ٨٥ هي الماتة من الأغشاب، و ٧٥ هي الماتة من المصان. و ٦٠ هي الماتة من الغذاء في العالم. إلا أن أول من يشعر بالتأثير البيئي المحلي نتيجة لتدري البيئة العالمية. وبشكل غير متناسب هم شعوب الدول التي كان لها أدنى مساهمة في الأسباب. فعدم المساواة بين الفقراء والأغنياء، في التجارة ونقل الأموال. والشح في المساعدات الدولية لدعم الاحتياجات الإنسانية. مع تضاعف ديون الدول النامية. كلها مرتبطة بالدمار البيئي بشكل معقد نتيجة لارتباط السبب بالنتيجة. وقد أصبح دمار البيئة موضوعا عالميا، بينيا، وسياسيا واقتصاديا. وهناك جعل حول مقولة إن المشاكل البيئية العالمية تحتاج إلى حلول عالمية. **وطني** وراء هذه المقولة الصاعدة عدد من المشاكل السياسية و الاقتصادية. فهي بأقل منها مشكلة هي قضية فهم معنى كلمة العالمية كصيغة لإدارة المشكلة. **فالفرق بين المشاكل البيئية المحلية والإقليمية** على أنه مشاكل عالمية قد أصبح مجرد مسألة اختلاف فياس الدرجات.

وكما ذكر رود ويزملاز: «على المستوى المحلي مشكلة كالنقص في الأشجار بشكل أولي على الفزارعين الذين يمدون الأرض الزراعية عن طريق قطع الأشجار أو حرقها. وكذلك تأثير على الصالحين الذين يسمون إلى إنشاء مزارع ثابتة الموقع. إلا أن للمشكلة مضاعفة بالآلاف المرات من خلال إنشاء المزارع الصغيرة وبكثرة قطع الأشجار تجاريا. فإن ذلك سيؤدي إلى تسارع في ارتفاع حرارة الجو على مستوى الكرة الأرضية».

فالقول بأنه لا توجد حلول بسيطة يعتبر تبسيطا آخر للمشكلة. فالتعاون بين الدول أصبح شرطاً ضروريا (وليس كافيا بعد ذاته) للسيطرة على / أو شح أسباب التدمير البيئي. وإيجاد طرق للتغلب على تأثير نشاط الإنسان. أو على الأقل لإصلاح الضرر على البيئة المحلية و المحلية. فبينما توجد هناك آلاف مؤلفة من الكفالات على الورق ناتجة عن المؤتمرات والبروتوكولات والأطوال التي تظهر النوايا. وبرامج الإدارة وخطط العمل. والبيانات. فإن تدهور البيئة في تواصل. وعليه فإنه توجد مشكلة في سعة قدرات العمل. وفشل في الإدارة. وبشكل واضح عدم وجود الرغبة في اتخاذ القرار السياسي. وللتغلب على هذه المشاكل فإن الأسئلة ذات الدرجة الأولى بالنسبة للكثير تتعلق بنوعية الأهداف والضمائم التي يجب أن تحتويها الاتفاقيات

السياسة البيئية الجديدة

البيئية، وكيف يمكن تحويل الإنجازات العلمية إلى خطط عمل. وكيف يتم ضمان تنفيذ هذه الخطط وكيف يمكن متابعة التطبيقات والتأكد منها؟ وكيف يمكن تقدير الحقوق، وكيف يتم الحاسبة؟ وهل من الواجب التركيز على النتائج أو العمليات (أو كلاهما)؟ وعما إذا كان يجب منع السلوك أو الأنشطة التي تؤدي إلى الدمار البيئي، أو العمل على التخفيفات؟ وأي نوع من المؤسسات يجب إنشاؤه لتطبيق هذه الاتفاقيات. وإدارة برامج البيئة العالمية وبالنسبة لبعض فإن هناك أسئلة أخرى من الدرجة الثانية، وأول هذه الأسئلة هي التي تركز الاهتمام على البيئة التحتية لإدارة مشاكل البيئة. فمن المهم دراسة وفهم كل نظام للعمل البيئي. فالدمار البيئي ليس منعطفًا خطًا في إدارة سلسلة برامج السياسة والاقتصاد الدولي، بل هو ناتج عن السياسة والاقتصاد المعاصرين. وعلى الأمل يجب ألا تصبح غير ذلك.

وهذا ينقلنا إلى مجموعة أخرى من الأسئلة. فعلى سبيل المثال، ما هو المستقبل لإدارة فعالة للبيئة في نظام غير مركزي هي دول مستقلة؟ فهل النظام الاقتصادي العالمي الحر يركز على حرية التجارة والتطوير مع النمو المدعوم بالصادرات يعطي الأساس القوي لوضع القواعد والاستراتيجيات لتتطلب على الدمار البيئي؟ أم أن النظام الاقتصادي العالمي الحر هو جزء من المشكلة في المقام الأول؟ وهل لنا أن نحصل على الأمن البيئي في عالم مدجج بالملاح؟ فهذه هي الأسئلة، والأجوبة عليها تشكل معبرتي هذا الكتاب. فالعرض ليس إقناع القارئ بعرضة معينة بالتفكير، بل هو استعراض وفهم الطرق التي يحاول من خلالها الأكاديميون والمثقفون والشعوب في أمور البيئة. فهم السياسة العالمية للبيئة وإيجاد الوسائل الكفيلة لإنقاذ الأرض.

الكتاب الأول: من ستوكهولم إلى ريو

حدثان يفصل بينهما عشرون سنة حددا هوية سياسة البيئة. الأول مؤتمر ستوكهولم في سنة ١٩٧٢، وهو ما يسمى بمؤتمر بيئة الإنسان، كبادرة فعالة للتعاون الدولي. وكمناسبة بدأ بعدها الحوار حول

البيئة، وكان اصطفا من كل الدول الصناعية وغيرها بأهمية لمظاهر الجهود الدولية لمواجهة المشاكل البيئية التي تتخطى حدود الدول. وبعد عقد من اجتماع ستوكهولم التمتع ممثلون حكوميون، وممثلون لجهات دولية. ومنظمات غير حكومية في ريو دي جانيرو هي اليوزيل في مؤتمر هيئة الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، والذي يسمى أيضا مؤتمر قمة ريو، ومؤتمر قمة الأرض. لقد كان المؤتمر مناسبة لبيان أن هوم البيئة بدأت تأخذ مركز الصدارة بالنسبة للسياسة العالمية.

لقد كانت المشاكل البيئية تبحث في المحافل العلمية من حيث تأثيرها في داخل حدود الدولة المعنية وليس عبر الحدود الدولية. وكانت هذه المشاكل تصنف بناء على أسسها العلمية

والفنية ومن دون الانتماءات إلى تأثيرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وكانت أغلب المناقشات تدور من قبل المختصين، ومن دون مشاركة المواطنين، وكان أغلبها ينقسم بحدود الفعل وليس للمبادرة. ومنذ 1٩٦٠ ومع توالي السنين وببطء عمل التطور العلمي والاهتمام الشعبي بالعمار البيئي على تطوير قانون البيئة العالمي. وكذلك إدخال الديمقراطية ولو ببطء أيضا في اتخاذ القرار البيئي العالمي. وخلال العقود من الزمن ما بين مؤتمر ستوكهولم ومؤتمر ريو تم التقدم العلمي، وكذلك تم معها الاهتمام الشعبي بالدعار البيئي، مع شعور بكرة على مستوى كوكب الأرض، وظهور مطالبات للمعاون الدولي لإيقاف ومن ثم تغيير اتجاه تأثير نشاط الإنسان على البيئة. مما نتج عنه توقيع معاهدات تعاون دولية ثنائية عددا مع مرور السنين.

السنوات التي سبقت مؤتمر ستوكهولم

يسمعرض هذا الجزء الفترة التي سبقت مؤتمر ستوكهولم، وما حدث خلالها من تطورات لها علاقة مباشرة بمستقبل البيئة. وقد شخص لينش كولندول اعتمادات العالم بالبيئة في المرحلة التي سبقت ١٩٧٢ والمعاهدات المتعلقة بذلك هي محاور هي: البراري والحفاظ على الحياة الطبيعية، وتلوث البحار، والمواضيع التي تتعلق **بانتشار الأسلحة الذرية**. وتعتبر هذه المحاور تسامعا لبرنامج البيئة الأرضية، حيث توجد السيطرة الواضحة لقانون الدولة على ما يحدث داخل حدودها. ويعد هذا إلى الاهتمام بما يحدث في أعالي البحار وبعيدا عن سلطة قانون الدولة، إلى التلوث النووي الذي يمكن أن يؤثر على الكرة الأرضية بأكملها. فالمحميات الطبيعية لها جنود واسعة في التاريخ. ففي سنة ١٨٧٢ اقترعت الحكومة السويسرية لجنة لحماية الطيور المهاجرة. وفي سنة ١٩٠٠ وقعت القوى الاستعمارية الأوروبية اتفاقية لحماية الحيوانات والطيور والأسماك في أفريقيا. وتمت المصادقة على اتفاقية شمال المحيط الهادي لحماية حيوانات القطعة ذات الفرو في ١٩١١. وكذلك على اتفاقية لحماية الطبيعة وحماية الحياة الطبيعية في النصف الغربي من الكرة الأرضية ١٩١٠. ومن أقدم الاتفاقيات الدولية والتي لا تزال تطبق اتفاقية صيد الحيتان التي وقعت في ١٩١٦. وهذه لم تكن لحماية الحيتان بقدر ما كانت لتنظيم نشاط اقتصادي وحماية مصدرو. وحماية الحياة الطبيعية أدت إلى أنظمة بيئية مستقلة. كمعاهدة حماية الأراضي الرطبة. كما أن هناك اتفاقيات تقع أو مكافحة التلوث البحري بالنفط في ١٩٥٥. أما قانون أعالي البحار في ١٩٥٨، وهو السابق لقانون البحار في ١٩٨٢ فهو أيضا لا يخلو من قواعد لمنع تلوث البحار. أما المحور الثالث والذي يخص بالبعد من التعاريف الذرية، أو بحمي منها، أو بعد من استعمال الأسلحة الذرية، فإن الكتاب لم يتطرق إليها. إلا أنه بالإسكان الرجوع إلى معاهدة القارة الجنوبية في ١٩٥٩ والتي حرمت إجراء التجارب على جميع الأسلحة، أو رمي النفايات النووية في القارة الجنوبية.

السياسة العالمية لبيئة

وبذلك تم تشكيل أول منطقة هي العالم طالية من الأسلحة الذرية. وبينما الكثير من هذه الأنشطة القائمة بالبيئة يدار من قبل الحكومات والدول، إلا أن المنظمات غير الحكومية أخذت تهتم بأمور البيئة، والمحميات الطبيعية، وأخذت تشط على مستوى الدولة، أو من بين الدول المختلفة كمنظمات عالمية. وأخذ عدد أعضاء هذه المنظمات ينمو سنة بعد سنة. وأخذت لتصرع إلى منظمات متخصصة ونشطة، وقد تفرع في الستينيات أحداه الأرض مما يسمى بنادي صيبرا. ومن ثم في ١٩٦٩ تأسس السلام الأخضر، والاشك أن التطور الفكري أعد المسرح المؤتمر سنوكلوالم في ١٩٧٢، فكثير من الأفكار المؤثرة أخذت تتساقط عن مدى تقييم مفاهيم التصنيع، والتحديث والتطوير لقاء علاقة ذلك كله بيئة مدعومة. وقد كثرت الكتابات والفنت الكتب التي بدأت تحركه الشاعرة وتلقظها للاطلاع على ما يؤول له الوضع البيئي في العالم. ثم دعم ذلك الجهد الفكري بالعديد من الحوادث التي ربطت بين التلوث وتأثيره على صحة الإنسان. كحوادث التلوث بالزئبق والبيدات الحشرية. وبدأ العالم يصفر هذه الأرض والدمار الذي يحل بها، وكانت الصور التي التقطت من القمر ومن سفينة الفضاء أبولو خير شاهد على الخطر المحقق بالإنسان على كوكب الأرض، حيث بدأ و كان البشرية تتركب سفينة فضاء هي الأرض والكل عليها مسافر في الفضاء.

ويطرق الكتاب إلى ذكر السكان وتأثيرهم على البيئة، والدمار غير اللقظ في عدد السكان الصعوب بعدم المساواة في الاستهلاك، يؤدي إلى خال اثنين، فاني، أمثلا إلى الخلل البيئي الذي يحدثه مواطن أمريكي واحد، يعيش في الولايات المتحدة يستوي ذلك الذي يحدثه سويدي واحد، أو ثلاثة إيطاليين، أو ١٢ من البرازيل، أو ٢٥ من الهند، أو ٢٨٠ من شاد أو من هيتي. لقد أدى تراكم الوعي البيئي، والاعتماد بالحد من الدمار البيئي ونضوب الموارد الطبيعية وتزايد السكان في العالم إلى الضغط للقيام بعمل جماعي، وعليه فإنه في ١٩٦٩ اقترح يونانت (المسكرتر العام للأمم المتحدة) بأنه لدى أعضاء هيئة الأمم المتحدة عشر سنوات لوضع خلافاتهم جانبا، والبدء بعمل جماعي دولي للحد من ميثاق التسليح، ولتحسين بيئة الإنسان والحد من الانتجار السكاني في العالم. هذه كانت الخلفية لمؤتمر الأمم المتحدة لبيئة الإنسان.

مؤتمر الأمم المتحدة لبيئة الإنسان

يستعرض الكتاب في هذا الجزء من الباب الأول الأمور الإدارية وأعمال اللجان التحضيرية التي سبقت عقد المؤتمر من خلال قرار هيئة الأمم المتحدة رقم ٣٢٩٨ و ٢٥٨١ لضمان التهمة والتشاطر في العمل البيئي، ولكني تهمز الحكومات والمنظمات العامة لإيجاد الوسائل الطمية لخدمة بيئة الإنسان. وكانت السلطان المئان سبقتا عقد المؤتمر مضمعين بالنشاط الدولي، حيث استلمت اللجنة التحضيرية أكثر من مائة تقرير وطني يعكس الحالة البيئية للدول التي تقدمت.

بها، وانسحبت دول الكتلة الشيوعية بسبب عدم السماح لألمانيا الشرقية بالمشاركة، وإصرار هذه الدول على أن مشاكل التلوث البيئي هي مشاكل تخص الدول الاستعمارية، أما الدول النامية فكانت متفردة من أن الاهتمام بمشاكل البيئة ومحميات الطبيعة سيغطي على مشاكل العنصر والتخلف.

وهناك تآزم في العلاقات بسبب مسؤوليات تدور البيئة والمستوى المقبول لدعم التنمية، والتدهور ونقل التكنولوجيا ومشاكل زيادة السكان. وأكد تقرير للطعام والتنمية من الدول النامية معارضتهم لأي استراتيجية لإبطاء عمليات التصنيع أو فرض أي قيود على مساعدات أو الاستثمار أو التجارة بحجة البيئة.

انعقد مؤتمر ستوكهولم في 5 إلى 16 يونيو 1972، بحضور 120 مندوب من 114 دولة. وكان هناك بالمقابل وجود للمنظمات غير الحكومية ومنتدى شعبي. وشج عن هذا المؤتمر ثلاث نتائج هي: بيان، وخطة عمل، وتنظيم للعمل لجباية مخاطر البيئة من خلال نظام هيئة الأمم المتحدة. وبيان مؤتمر ستوكهولم يحتوي على 36 بنداً، جميعها غير ملزمة. وكانت هذه البنود عبارة عن حل وسط يشمل اهتمامات ومصالح الدول النامية والدول المتطورة من جهة أخرى. ويوازن البيان بين أهمية تعهد الدول بحماية الموارد والمحد من التلوث، وبين أهمية التنمية الاقتصادية. ويؤكد البيان في البند رقم 9 و 10 على أهمية المساعدات المالية، والتكنولوجيا، والمساعدات الأخرى للتنمية على التنازل الذي تم إجماعه بقدر أنه السبب لأغلبية مشاكل البيئة في الدول النامية. وكان أكثر البنود اهتماماً هو رقم 21، والذي يؤكد أحقية الدول على مصادرها الأولية، وكذلك على مسؤولياتها البيئية فيما وراء حدودها، إلا أنه لا يعطي دلالة على كيفية الربط بين هاتين التوجيهين للتطمين. لقد قال يالكو (1992) عن البيان بأنه مجموعة من العمليات غير المتناسقة مع بعضها البعض، ومحصلاتها النهائية أنها غير متجانسة ذاتياً. كما تبنى المؤتمر خطة عمل أقل شهرة (خطة عمل 109) تلتخص بالسلطات البشرية، وإدارة الموارد، والتلوث، والتنمية، والأبعاد الاجتماعية لتأثير تدور البيئة على محيط الإنسان. أما النتيجة الثالثة لمؤتمر ستوكهولم فلها طابع مؤسسي، معاهد الجمعية العمومية على تأسيس برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP). فبينما أكد تكوين البرنامج على أن جهاز الأمم المتحدة سوف يكون المركز الرئيسي لدبلوماسية البيئة العالمية، والصياغة القانون الدولي لحماية البيئة، إلا أن عوامل سياسية أعاققت البرنامج من أداء مهام حماية البيئة المرتقبة، فالدول المتقدمة كانت حذرة من أي مؤسسة تحتاج إلى فعول كثير. كما أن الدول النامية كانت مترددة في قبول مؤسسة تكون قراراتها مهيمنة لتقديم هذه الدول. أما وكالات الأمم المتحدة فكانت ترمي بكل عبء سلطاتها المتعلقة بالبيئة، وكان تأسيس البرنامج (UNEP) للتعلم والتشجيع كعامل مساعد، وليس كوكالة رسمية بها طابع تنفيذي. وله مجلس إدارة مكون من

السياسة العالمية للبيئة

عدد كبير من الأعضاء (58) ومقره في نيويورك، أما ميزانيته التشغيلية فهي صغيرة نسبياً. وعليه فإنه على الرغم من أن مؤتمر ستوكهولم تعرض إلى المشاكل الأساسية كالنقص والخلف، إلا أنه كان خالياً من الضمان العملي لإيقاف تدهور البيئة أو إصلاح التدهور. وكان إنجازاته العملية الأكبر هو جمع الحكومات لتناقشة أمور البيئة، وساعد على وضع الأساس لتطوير البنية القانونية دولي البيئة في المستقبل. إذن فنتجها كان سياسياً وليس بيئياً.

هو ستوكهولم إلى يومه السنوات التي بينهما

يستعرض الكتاب النشاط البيئي العالمي خلال السنوات التي أعقبت مؤتمر ستوكهولم وسيفت مؤتمر ريو، حيث تم إحراز المزيد من التقدم العلمي حول تدهور البيئة وأسبابه، واتسع نشاط المنظمات غير الحكومية، وكذلك تم إبراز الحقيقة بأن حلول مشاكل البيئة ليست كلها متعلقة بالعلوم، بل يجب أن يكون هناك اهتمام بالأسباب الثقافية وتداخلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وعلمت الكثير من المؤتمرات والاتفاقيات الدولية، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتم إيقاف التدهور البيئي أو تحويل ميسره إلى العكس، وكل ما تم إنجازه فعلياً هو مساهمات بسيطة وصغيرة القدر. فكان هناك الكثير من النشاط والقليل من الإنجاز. ولم يهتد النضال العلمية إلى سياسي، القدر السياسي وصامتة الناس من خلال العديد من الفشرات والمؤتمرات المتخصصة. لأن خلال هذه المدة لم يهتم بشؤون حماية طبقة الأوزون، وعقد مؤتمر المناخ، ووضعت استراتيجيات للحميات، ووضع البرنامج الدولي للمحيط الجيولوجي والمحيط البيولوجي، وثلاث برنامج العامل الإنساني في تفهيم الأرض. كما تمت إثارة الرأي العام العالمي بسبب العديد من الكوارث البيئية حول العالم، كتمسك المواد الكيميائية السامة، وحرائق ناقلات النفط، وحادث الفجار شيرنوبل الذي أظهر أن التلوث لا يراعي الحدود الدولية، مما أعاد التفكير في مسؤولية الدولة ومحاسبتها والتزاماتها.

ونتيجة للتقارير العلمية وللإهتمام الشعبي، فقد تبنت الحكومات هذا من الاتفاقيات التي سمحت لإصلاح الوضع البيئي، ولتحد من الدمار البيئي عبر الحدود الدولية. فعند مؤتمر ستوكهولم في 1970 هناك العديد من الاتفاقيات التي تخلص بتلوث المحيطات (اتفاقية رمي النفايات، واتفاقية منع التلوث من السفن)، واتفاقية حماية الأحياء المهددة بالانقراض، واتفاقية الأمطار الحمضية (حماية الهواء من التلوث عبر الحدود الدولية)، واتفاقية نقل النفايات الخطرة وطرق التخلص منها، وأول اتفاقية لمنع تدهور الغلاف الجوي للأرض، واتفاقية حماية طبقة الأوزون. وفي 1988 أصبحت شؤون البيئة هي مقدمة البرنامج الدولي، مما نتج عنه اتفاقية نورثو لتطبيق اتفاقية حماية الغلاف الجوي للأرض (تطبيقات في سلامة الكرة الأرضية).

وكان قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الذي أعلن من خلاله أن تهويز البيئة هو أكبر مشكلة تواجه البيئة حالياً. وكان قرار الأمم المتحدة في 1989 هو الذي مهد الطريق لعقد قمة الأرض في ريو 1992، وهو قرار رقم 11/228. وعبر هذا القرار عن القلق لاستمرار تهويز البيئة، وتؤدي وضع النظم التي تهدد الأرض بالحياة، كما أقر بحماية المشاكل البيئية، وشخص مشاكل الاستهلاك، والتنميط الذين لا يقومون على أساس استمرارية المصادر الأولية، خصوصاً في الدول المتقدمة وعددها على أنها السبب للكثير من المشاكل. وأكد البيان على أهمية التعاون الدولي، والبحث العلمي وأهمية شيوخ التكنولوجيا، ولوجوب المساعدات المالية للدول النامية. وقد عرف القرار عدداً من المهود البيئية وهي: حماية الملأف الحيوي، والمياه العذبة، والمحيطات، والثروات الأرضية، والاهتمام بالتنوع البيولوجي، والتكنولوجيا البيولوجية، وإدارة النفايات (بما فيها السامة) وكذلك المشاكل التي تتعلق بالمستوطنات البشرية والفقر وصحة الإنسان. وعقد الأمل بأن مؤتمر قمة الأرض سيضع الخطط والوسائل لإيقاف ومن ثم تحويل مسار التدهور البيئي من خلال الجهود الوطنية والمالية لدعم التنمية المستدامة التي لا تتألف من حماية البيئة.

مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية

يتناول الكتاب بعد ذلك عمل النجلى المعنية والمؤسسات غير الحكومية، التي عملت تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة بشكل مكثف ودؤوب على وضع الوثائق والبنود المختلفة التي تم إنجازها، لكي تعرض على مؤتمر قمة الأرض أو مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو مؤتمر ريو كما كان يسمى.

عقد المؤتمر في ريو دي جانيرو في البرازيل خلال الفترة من 3 - ... يونيو 1992، وقد حضره 178 وفداً حكومياً رسمياً وكذلك 1100 منظمة معترف بها غير حكومية، وكان هناك حضور إعلامي قوي يقدر بـ 8000 مراسل. وهي الوقت نفسه كان هناك المؤتمر الشعبي الموازي للمؤتمر الرسمي، حيث قدر المشاركون فيه بـ 20000 فرد، وعقدت اجتماعاته في منتزه غلامنكو، وسمي بالمنتدى العالمي.

وقد كان عمل المؤتمر على مبلوين: الأول منها ينظر في تقارير كل دولة، والثاني كان لعمل اللجنة الرئيسية، وكانت تدور المناقشات الهمة والكثفة في اللجنة الرئيسية واللجان اقتضتة منها. وقد حضر المؤتمر ما يزيد عن 100 رئيس دولة، وتبع من المؤتمر اتفاقيات مؤتمر ريو وإعلان ريو، وأجندة (برنامج) القرن الواحد والعشرين، وكذلك بيان مبدأ المحافظة على الغابات، وثبتت الموافقة عليها أثناء انعقاد المؤتمر، أما تنظيم الأمم المتحدة لتطهير المناخ وثلاثين المحافظة على التنوع البيولوجي، فتزكا للأعضاء للتوقيع عليهما متى ما رغبوا. وقدم تقرير المؤتمر إلى الجمعية

المساهمة العالمية للتنمية

العمومية للأمم المتحدة حيث تبنته في نهاية 1992. كما وافقت الجمعية على إعلان ريو، وعلى برنامج القرن الواحد والعشرين، والبيان الخاص بالثغرات، وكونت برنامج عمل مستمر للتقيد قرارات، وتوصيات مؤتمر ريو. وفورث عقد اجتماع لا يتعدى 1997 لمراجعة برنامج القرن 21.

إعلان ريو حول البيئة والتنمية

يحتوي إعلان ريو على 27 مبدأ (بندا) لإرشاد الحكومات في مساهمهم للتنمية المستدامة. وقد تمت الموافقة عليه كما قدمته اللجنة التحضيرية. وكان الإعلان في العمل بشكل فاعلورا للأرض، إلا أن الدول النامية كانت قلقة من أن المحافظة على البيئة سيكون لها الأولوية على التنمية، مما أدى إلى تجميع الأهداف الأولية. وكان هدف الإعلان هو إنشاء مشاركة دولية متساوية من خلال تأسيس مستوى جديد للتعاون بين الدول من جهة، وبين الأجزاء الأساسية في المجتمعات والبشر من جهة أخرى. ويضع المبدأ الأول الإنسان في مركز الاهتمام في التنمية المستدامة، بدلا من التوسع في المداية بحماية النظام البيئي الحيوي في العالم، ويؤكد المبدأ الثاني الهند رقم 21 من بيان ستوكهولم الذي يوضح أن للدول الحق على ثرواتها، ويؤكد على التزاماتها عبر الحدود الدولية. والنضمت هيوم الدول النامية من خلال عدة مبادئ، فحق التنمية شمل الهند رقم 2، والهند رقم 5 أكد على مسؤولية الناحين من الفقر، كما أكد الهند رقم 6 على أن احتياجات الدول النامية يجب أن تكون لها الأولوية. والهند رقم 7 يؤكد على مسؤوليات الدول النامية والتنمية مع غارق الظروف، والهند رقم 8 يطالب بالتقليل من الإنتاج ووضع حد له وللاستهلاك غير المستدام. وكذلك التشجيع للتخطيط لمنط السبلات السكانية ويعتبر هذا تحول عن الجدول حول النمو السكاني. ويحتوي إعلان ريو على شمولية أكثر من إعلان ستوكهولم. فبالأفراد حق الحصول على الطومات، ويجب تشجيع الاهتمام الشعبي والمشاركة الشعبية (هند رقم 10)، واعتمدت النسوة والشباب والمجتمعات المحلية كموامل مهمة للنمي وراء التنمية المستدامة. وينادي الهند رقم 22 بحماية بيئة الشعوب التي هي تحت الاضطهاد والسيطرة والاحتلال. وكان هذا موضع جدل من قبل إسرائيل التي اتهمته بأنه تدخل في شؤون الشرق الأوسط، وتم قبول هذا الهند شريطة ألا يستعمل في برنامج القرن 21. وينادي هند 12 بالتعاون الاقتصادي المنفتح. ويؤكد الإعلان على أنه لا يجب استخدام التنس في المعلومات العلمية كذريعة لعدم استعمال الوسائل الاقتصادية، أو لعدم إرقام الجهة اللوثة على دفع التكاليف كاملة لإعادة تأهيل البيئة (هند رقم 16). ويشد الإعلان الانتهاء في الهند رقم 23 إلى الحرب كضابط هدام للتنمية المستدامة، ويؤكد على أن السلام والتنمية والمحافظة على البيئة يعتمد أحدهم على الآخر، ولا يمكن فصلهم عن بعض. وأخيرا فإنه على الدول أن تحل خلافاتها سلميا (هند 26). وعلى الدول والشعوب أن تتعاون بحسن نية

وروح حسنة لتحقيق المبادئ التي وردت في الإعلان (بند ٢٧)، ومن ثم يناقش الكتاب أهمية بيان ريو بالنسبة لما كان ماثولاً من المؤتمر، وهل هو دستور جديد للمحافظة على استمرارية الحياة على الكرة الأرضية أم هو تجميع لأفكار و شعارات معروضة وتبويبها، وبشكل عام فإن التقييم لم يكن إيجابياً.

٢١ برنامج التربية

وكما كان إعلان ريو فإن برنامج القرن ٢١ غير ملزم، فالبرنامج يضع خطة نفسية لتحقيق إعلان ريو و الوصول إلى التنمية المستدامة.

يحتوي البرنامج على ١٠ أجزاء مجموع كلها في مقدمة واحدة وهي أربعة أجزاء مصنوعة في ٥٠٠ صفحة، وكل جزء يحتوي على التنظيم نفسه من التعريف بالموضوع، وشرح موسع له، وشرح للبرنامج المقترح مع التكلفة المادية له.

يخص الجزء الأول بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية، ويحتوي على أجزاء تستعرض وسائل القضاء على الفقر، وتبوير وسائل الاستهلاك وإدارة التغيرات السكانية، وصحة الإنسان، والمستوطنات الإنسانية.

أما الجزء الثاني فهو التغير الحاسي بمشاكل البيئة، فتمتص العنصر العريض (المحافظة على مصادر البيئة وإدارتها) يحتوي هذا الجزء على أربعة فصول بالاعتماد على المصادر الأرضية، والتصحر، وزوال الغابات، والجفاف، والزراعة المستدامة، والتنمية القروية، والتنوع البيولوجي، والتكنولوجيا الحيوية، والمحيطات ومصادر المياه العذبة، ونواح عديدة من إدارة الغابات، ويخصص الجزء الثالث بما يسمى بالقطاعات الرئيسية وهي النساء، والأطفال، والشباب ومجموعات السكان الأصليين، والمؤسسات غير الحكومية، والحكومات المحلية، ونقابات الأعمال، والأعمال، والصناعة، والعلوم، والتكنولوجيا، والفلاحون، وفي الجزء الأخير تم استعراض طرق ووسائل تطبيق البرنامج، وهذا الجزء يشمل المصادر المائية وميكانيكية المال، ونقل التكنولوجيا، وإدارة المؤسسات، والأدوات القانونية، والمواضيع الأقل جدلاً، وهي العلوم والتعليم والبناء التوسعي. لقد تم إصدار برنامج القرن ٢١ إلى المؤتمر من دون الاتفاق على خمسة عشر في المائة منه، وكل الأجزاء التي لم يتم الاتفاق حولها، تم التعامل معها كل واحدة على حدة عن طريق لجان وهي: حماية الغلاف الجوي، وأعلى البحار، ومصادر الثروة السمكية، والصناعة في التكنولوجيا الحيوية، ونقل التكنولوجيا، وتنظيم المؤسسات، والمجاعة والاستهلاك، ومصادر التمويل النقدي. وانتهى الوقت المحدد للجنة المركزية دون حل الخلافات حول محتوى ثلاثة أجزاء هي: الغابات، والتمويل، والغلاف الجوي، وتمت الموافقة عليها فقط بعد عدة مباحثات على مستوى الوزراء.

البيئة المائية للبحر

وتم إدخال الكثير من حلول الوسط الذكية على المقدمة بناء على مشاورات مكثفة بين الوعود. فمثلاً تم الاحتفاظ بذكر الاقتصاد في مرحلة التمويل بناء على طلب الدول النامية وأزيل كل ملغون ذلك. وتمت إزالة كل ما يتصل بالشعوب المختلفة التي اعترض عليها الإسرائيليون، لكونها تعتبر دخيلاً في شؤون الشرق الأوسط السياسية مقابل إبقائها في الإعلان. كما تم التحدث على بند رقم 9 الخاص بالملابس الجوي في نهاية الجلسات الرسمية للجنة التحضيرية. بناء على إصدار الوفد اليمني (الذي كان يمثل الدول العربية) والذي كان يرى لوكيزاً مبالغاً فيه على كفاءة نوع مصدر الطاقة عامة وتركيز النقد على الوفود الأفريقية. ودارت اختلافات حول الطاقة المتجددة (عارضه وفد الطاقة العربية السعودية). وكذلك حول ذكر الطاقة الأتمة والفعالة، والذي فهمه البعض على أن المقصود به هي الطاقة الذرية. يختص البند رقم 23 بمصادر التمويل و ميكانيزماته. وقبل من الدول هي التي أوفت بعضها ودفعت ٠.٧ في المائة من الناتج العام للمساعدة في التنمية، كما أن الولايات المتحدة لم توافق على هذا فقط. وهناك صعوبات تتعلق ببعض الأمور تم التعامل بها بشكل دبلوماسي أو رجعت إلى الجانب الأخرى لمعالجتها. ومنها مشكلة الأسماك المهاجرة والمتجولة (التي تنتقل بين المياه الإقليمية وأعالى البحار). ولم يكن هناك اتفاق محدد حول نقل التكنولوجيا. حيث يذكر الجزء رقم 23 أنه يجب تشجيع وتشجيع وتحويل نقل التكنولوجيا أيضاً. أما البند من تأثير المؤسسات العسكرية على البيئة فقد أصبح أمراً محملاً للولايات المتحدة أوصت أن التصالح الوطنية الأمنية تقتضي أن على كل دولة أن تراعي حماية البيئة بناء على قوانينها الوطنية الأولية بالنسبة للمنظم من المنظمات الخطرة.

وبالنسبة للبعض فإن برنامج القرن 21 قدم الكثير للتنمية المستدامة، إلا أن الآراء تختلف بالنسبة للبعض الآخر. لم تحل كثير من المشاكل في ريو، وكانت هذه المشاكل من قبل ٢٠ سنة على جدول أعمال ستوكهولم. حيث لم تحل هناك أيضاً، بينما يتوسع برنامج البيئة في السنوات التي بين المؤتمرات، ويظهر أن الإدارة السياسية لم تساهم في سرعتها تلك المشاكل.

البلد الثاني: برنامج المشاكل البيئية التي تتخطى الحدود الدولية المحيطات والتلوث

الحماية عبر الحدود ومشاكل التلوث كانت الأساس في عملية برنامج البيئة، مما أدى إلى حماية الأنواع الحية، وحماية المصادر الحيوية وإدارة التلوث. وتأخذ حماية الحياة الطبيعية أبعاداً تتخطى الحدود الدولية حينما تعبر هذه الظروف أو تنتقل عبر الحدود الدولية. وتكون هذه الحالات دولية بالفعل لدرجة ضرورة مشاركة الدول في المشاكل الناتجة عن ذلك وإدارة حماية الحياة البرية.

وحماية الموارد الحية كموارد الأحياء المائية هي قضية تأخذ طابعاً عبر الحدود، حيث إن لا الأسماك ولا الموارد الحية الناضجة تلتزم بشواطين حدود الدولة، وعليه فهناك حاجة إلى تعاون دولي لإدارة هذه الموارد لأجل استدامتها. وكذلك يصبح التلوث مشكلة عبر الحدود الدولية عندما تنتشر التلوثات من دولة إلى أخرى من خلال الهواء أو تيارات المحيطات أو من خلال نقلها التعمد من دولة إلى أخرى، أو عبر حدود السيطرة القانونية.

ويستمرس الكتاب بتوسيع وشمول في ذكر كل ما يتعلق بموضوع الحماية ونقل التلوثات عبر الحدود الدولية، ويبين الاهتمام الدولي بالتعاون للحفاظ على البيئة عن طريق حماية الأحياء والحد من التلوث النقول عبر الحدود، ولهما يلي البنود التي شملها هذا الجزء:

١. حماية الحياة الطبيعية والحفاظ على المصادر الحيوية

أخذ هذا البند الكثير من الاهتمام الدولي، فالمحمية تركز على القيمة الذاتية للمخلوق وكذلك على الحق في الحياة بالنسبة للمخلوقات غير الأدمية. ويؤخذ قضاء الإنسان على بعض أنواع المخلوقات خاصة الأرضية والبحرية منها، وكذلك على بعض أنواع الطيور على أنه حرمان من الحياة وخسارة للبشرية. وهذا يسهو انعكس حماية المصادر التي تطالب بحماية الأحياء لأجل استمرارية الحصول على بعض أنواع الغذاء للإنسان، و ينصوي تحت العنوان أعلاه كل من:

ARCHIVE

ب - قانون الإتجار بالمخلوقات المهددة بالانقراض.

ج - حماية المصادر في المحيطات.

د - التلوث عبر الحدود الدولية: الانتشار والنقل

يأخذ الاهتمام بهذا الموضوع طابع الشلق بالنسبة للملوثات التي تعبر الحدود الدولية عن طريق الهواء، أو عن طريق التيارات البحرية، أو عن طريق نقلها التعمد قارياً، أو عن طريق الدرم غير المعلن. ويؤخذ هذا الاهتمام بما يلي:

أ - التلوث بعيد المدى عبر الحدود الدولية.

ب - قانون منع تلوث الهواء بعيد المدى عبر الحدود الدولية.

ج - تلوث المحيطات (حماية التلوث العامة).

د - إدارة النفايات الخطرة

التمسحت علاقة تلوث البيئة بمسحة الإنسان نتيجة لتأثير المواد الخطرة بسبب عدد من الحوادث التي نتجت عن مواد كيميائية وقعت في السفينيات والثمانينيات، منها حادث السفينة السمكة حيان سي (بحر خيوان) والتي قضت أكثر من مئتين ليهت عن مكان لرمي حمولتها من مواد سامة على شكل ركام مواد معروفة (وكانت الحمولة معنونة على أنها ركام سماد)، ولقد

غازات الهيدروكربون والكربون . والمصادر التي يستخدمها الإنسان لهذه الغازات هي مركبات الكربون هيدروكربون ($C F C s$)، التي تستعمل كمواد دافعة لنشر وذااد المواد البلاستيكية في الهواء، وهي غازات التبريد، ومذيبات لتطهير الطلع الإلكترونية والكهربائية، وهي صناعة المواد البلاستيكية ذات الفقاعات الهوائية الصلبة والورقة منها، كما تنتج من منبهات عضوية مختلفة ومادة الهيلون التي تستخدم في استوطنات إطفاء الحرائق. كما يمكن تدمير الأوزون عن طريق إنتاج الكربون من البراكين النشطة أو عن طريق حرق كتل المواد العضوية . وتكمن خطورة مواد الـ ($C F C s$) في طول بقائها في الجو، فممرها يصل إلى 120 سنة قبل أن تبدأ في التفسد، لذا فإن الزيادة في تركيزها في طبقة الستراتوسفير أدى إلى دمار الأوزون وزيادة تركيز الأشعة فوق البنفسجية الضارة ($U V B$) . وعليه فإن برنامج الأمم المتحدة للبيئة أعد عقد مؤتمر لحماية طبقة الأوزون ووضع قانون لذلك.

قانون حماية طبقة الأوزون (قانون مونتريال)

تمت الموافقة على هذا القانون من قبل 20 دولة بجانب دول المجموعة الأوروبية، وهذا القانون يشكل قواعد إدارية، ومكون من 26 مفا، ولا يحتوي على أهداف ثابتة أو إجرائية، بل يحتوي على التزامات عامة توجب أهمية التعاون والبحث العلمي وكان هناك خلاف حول بعض الالتزامات الدولية . وبما أن مستويات تدمير الأوزون في الستراتوسفير دمار الأوزون على الصحة غير معروف تماماً في ذلك الوقت، فإن القانون جاء خالياً من وجود الفعل التي يتضمنها عادة القانون الدولي للبيئة، ويستلزم الكتاب في شرح النواحل التي سببت بها الأبحاث العلمية، والتي أكدت دمار الأوزون ومن ثم تأثير ذلك على صحة الإنسان والأحياء على وجه الكرة الأرضية، ومنه نتج قانون المواد التي تدمر الأوزون (قانون مونتريال).

المشكلة البيئية العالمية لظاهرة التغير المناخي : تغير المناخ

يسمى قانون مونتريال القانون المستحيل، وهو لا يعتبر شيئاً بالنسبة لمشاكل تغير المناخ، فعدم المعرفة العلمية التامة، والصالح الاقتصادية مع التكاليف القليلة، والتزامات السياسية، والجدل الأساسي الخاص بالمساواة بين الدول النامية والدول المتقدمة، كلها تكاليف تشكل ثم وصفت بأنه أعقد مشكلة تواجه الحكومات.

ممازجة البيوت الزجاجية هي ظاهرة طبيعية، حيث تقوم الغازات التي توجد في الجو بشكل طبيعي، وهي ثاني أكسيد الكربون، وغاز الميثان، وغاز أكسيد النيتروجين، وأوزون التروبوسفير، وبخار الماء، وكذلك $C F C s$ ومثيلاتها من المركبات الأخرى التي لا توجد في الجو بشكل طبيعي بامتصاص الأشعة تحت الحمراء الحرارية، ومن دون ذلك فإن درجة حرارة

المسألة العالمية لبيئة

الكثرة الأرضية ستكون ٢٢ درجة مئوية أقل من درجاتها الحالية. و تظهر المشكلة عندما يكون الاحتباس الحراري ناتجا عن تزايد التركيز هذه الغازات في الجو (مساعد بخار الماء الذي لا يتسبب التشاؤم الأمي في تركيزه). وتختلف مصادر هذه الغازات. فانبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون ينتج عن احتراق الوقود الأحفوري ومن حرق الغابات، وينتج غاز الميثان الضعيف كأحد غازات البيوت الزجاجية من الزراعة في حقول الأرز ومن فضلات الماشية، وكغاز مقترَّب هذه إنتاج ونقل الوقود الأحفوري. وينتج غاز أكسيد النيتروجين عن حرق المواد البيولوجية، واستخدام الأسمدة، وحرق الوقود الأحفوري. وإزالة النباتات من التربة وإزالة الغابات.

ويعتبر من الكتاب في ذكر الدراسات والقياسات الخاصة بالغازات المذكورة أعلاه وينتقل إلى الاجتماعات العلمية والمؤتمرات الخاصة بخاصية الاحتباس الحراري وتأثير ذلك على تغير المناخ. والنظر في البدائل للطاقة الناتجة عن الوقود الأحفوري. كالطاقة الذرية. وينتقل إلى النزاعات السياسية والاقتصادية المتعلقة باستعمال أنواع الوقود بالنسبة للدول النامية والدول المتقدمة. ومسؤولية الدول الصناعية والدول النامية في ست غازات البيت الزجاجي والمسببة للاحتباس الحراري. وينتج عن ذلك قانون الأمم المتحدة الخاص بتغيير المناخ في مؤتمر ريو.

الميثاق العالمي أو الميثاق العالمي للتنوع البيولوجي

لقد تم عرض القانون الثاني للتوقيع عليه في مؤتمر ريو. ألا وهو قانون التنوع البيولوجي. ولم يكن الخلاف يدور حول أفضل الطرق للمحافظة على المخلوقات وعلى النظم البيئية. بل كان يدور حول حقوق الملكية الوطنية وحقوق الملكية الفكرية للمعلومات الجينية والتكنولوجيا الحيوية. ويتركز التنوع البيولوجي في الدول الاستوائية من العالم الثالث. فتعيش أكثر من نصف أنواع المخلوقات في ٦ في المئة من اليابسة التي تغطيها الغابات الاستوائية. ومن ١٢ دولة تحتوي على التركيز العالمي للتنوع البيولوجي يوجد ١١ منها في الدول النامية وهي: البرازيل، الصين، كولومبيا، إكوادور، الهند، أندونيسيا، مدغشقر، ماليزيا، المكسيك، بيرو، وزانير، استراليا هي الدولة الوحيدة المتقدمة من بين هذه الدول. تظهر الإحصائيات التنوع البيولوجي في هذه الدول التي تبين أنه يوجد في نهر واحد من البرازيل أنواع عديدة من الأسماك يفوق عددها عدد أنواع جميع الأسماك في الولايات المتحدة. كما يوجد في محمية صغيرة في كوستاريكا عدد من أنواع النباتات يفوق عدد أنواع تلك التي توجد في المنطقة مجتمعة.

الخطورة في التنوع البيولوجي ناتجة عن عدة أسباب منها: دمار المنطقة التي تتواجد فيها، كالتصريف الأرضي الرملية، والتلوث والدمار الذي يصيب الغابات المرجانية من خلال التواص

ومن خلال التأثير المباشر وغير المباشر لتغيير المناخ، كل ذلك يؤدي إلى فقدان التنوع البيولوجي. تؤدي الثورة في عالم التضخيم إلى فقدان تعدد الجينات في المحاصيل المزروعة، أما إدخال النباتات الغريبة إلى أراض جديدة فهو يهدد وجود النباتات والحيوانات. ويدور الجدل الحالي حول التنوع البيولوجي بما يخص استغلال هذه الأنواع، خصوصاً بالنسبة للنباتات الطبية، حيث تقدر قيمة المواد الطبية المستخرجة من النباتات أو منتجات العشرات بـ ١٢ بليون (مليار) دولار أمريكي في السنة. وتذكر منظمة الصحة العالمية أن أكثر من ٢١٠٠٠ نوع من النباتات تستخدم في العلاج الطبي القديم، حيث يُستخدم العديد من النباتات محلياً في العلاج، والتنوع البيولوجي، والتنوع ضمن النوع الواحد من النباتات مهم جداً بالنسبة للزراعة. فبينما قد تصاب بعض الأنواع النباتية بالأمراض نجد أن البعض الآخر له القدرة على مقاومتها. فلو توجدت الأنواع لكان الفشل بها سهلاً عند انتشار الأوبئة الفايضة. ويوجد في التنوع البيولوجي مخزى مخزى آخر، حيث لا يجب فقط احترام تنوع بني البشر، بل يجب احترام تنوع المخلوقات والمحافظة عليها أيضاً.

ويستطرد الكاتب في ذكر مراحل الاهتمام العالمي بالتنوع البيولوجي بداية من مؤتمر ستوكهولم ومنها مؤتمر قمة الأرض في ريو، حيث عرض قانون التنوع البيولوجي.

قانون التنوع البيولوجي

يتصف القانون بالمثول، حيث يوجد فيه ١٢ بنداً وملاحقاً، ويصف هذا القانون أهدافه على أنها حماية التنوع البيولوجي، والاستعمال المستدام لمكوناته، والمشاركة والمساواة في الاستفادة منه ومن مكونات المصادر الجينية الوراثية. وتظهر الأسباب لذلك بأن للتنوع البيولوجي قيمة ذاتية، وإكولوجية، ووراثية، واقتصادية، وعلمية، وتعليمية، وثقافية، وترفيهية، وجمالية عاطفية. كما أن التنوع البيولوجي يقوي الروابط بين الدول ويساهم في نشر السلام في العالم. ويؤكد القانون على حقوق الدولة في مصادرها الطبيعية، وأن حماية التنوع البيولوجي مصدر اهتمام إنسانية. ولم التوقيع على القانون (الاتفاقية) من قبل ١٥٠ دولة، وأصبح قانوناً في ٢٩ ديسمبر ١٩٩٢. وثلاً لذلك عدة اجتماعات ومؤتمرات لوضع الميكانيكية اللازمة لتطبيق هذه الاتفاقية.

البيان العالمي أو خطة المصادر الجينية: الحفاظ عليها

لقد تم تعريف إزالة الغابات بأنه تغيير في استغلال أرض الغابات لأي أغراض أخرى غير الغابات. ولا توجد هناك معلومات دقيقة عن الخسارة في مساحة الغابات، حيث لا توجد إحصائية ليبن ما كان موجوداً أولاً، إلا أن التقديرات تتراوح ما بين ١١ إلى ٢٠ مليون هكتار

المساحة العالمية للغابات

سنويا ، أي ما بين ١٠٨ إلى ٢ في المائة من مساحة الغابات الاستوائية. وقد اختلعت ٤٠ في المائة من غابات الأمطار خلال الـ ٢٠ سنة الماضية.

ويستعرض الكتاب كمية المساحات المزالة من الغابات سنويا حول العالم. وتتعدد أسباب زوال الغابات ، وتختلف من منطقة إلى أخرى. أولاها تحويل أراضي الغابات إلى أراضي زراعية للمحاصيل وللرعي، وثانيها قطع الأشجار للحصول على الأخشاب، وثالثها قطع الأشجار لاستغلالها كوقود. وللغابات أهمية خاصة من الناحية البيولوجية والاقتصادية والثقافية، وهي مهمة على المستوى المحلي والعالمي. فتدمير الغابات يؤثر على المناخ ويؤدي إلى زيادة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو. كما أن حرق الغابات يؤدي إلى انبعاث غاز أكسيد النيتروجين، وكذلك زيادة تركيز غاز الميثان في الجو. وفقدان الغابات يؤدي إلى فقدان في التنوع البيولوجي. وللغابات أهمية اقتصادية من خلال تجارة الأخشاب والمواد الطبية من النباتات، كما أن زوال الغابات يؤدي إلى انقراض المستوطنات البشرية التي تقطن فيها.

ويستعرض الكتاب الجهود الدولية لمنع زوال الغابات والمحاولات الدولية لإعادة التشجير، وخصوصاً تلك الجهود التي يبذلها البنك الدولي، وأعدم وجود انطلاق حول ضمانات الحماية للغابات فقد اطلق في مؤتمر ريو على أن يكون هناك إعلان مبادئ حول المحافظة على الغابات وهو : إعلان غير ملزم بالنسبة للمسؤولين على مبادئ يغطي عليها دولها لإدارة وحماية التنمية المستدامة لجميع أنواع الغابات. وكان الإعلان مبنيا على القيمة المضافة التي تترك بأن للغابات قيمة بيولوجية واقتصادية، يجب أن يحافظ على استدامتها كخدمة الأفراس الاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية والثقافية والدينية للأجيال الحاضرة والقادمة. وبأخذ الإعلان مصالح الدول وسكانها الغابات والنواحي الاقتصادية والمجتمعات المحلية والنساء وبين الاعتبار. ولا يزال الجدل قائما حول الغابات وتدميرها والمحافظة عليها.

المصالح العامة والمحافظة في الأحياء العالمية : التصحر

يظهر الخلاف حول التصحر، أسبابه وتأثيره غير الحدود الدولية. إلا أن هناك دواعي نحمل من الضروري الاهتمام بالتصحر على مستوى الكرة الأرضية. ليس لأنها مسألة المشاركة في الأعياد والمصالح المشتركة هي البيئة العالمية، فالتصحر هو حشرة الأراضي الزراعية خاصة في بيئة الأراضي الجافة. والعقل الحكيم يدل على أن التصحر في الصحار. وهو يهدد ما بين ٢٥ إلى ٢٥ بالمائة من سطح الكرة الأرضية، وما بين سدس إلى ربع سكان العالم. وأنه يؤثر مباشرة على ٢٥٠ مليون نسمة وبشكل مباشر على مليار نسمة أغلبهم يعانون من الفقر حاليا. تعود أسباب التصحر إلى أنشطة الإنسان وإلى تغير المناخ. فالتغير في استغلال الأرض والمالحة في الزراعة، و الزيادة غير المستدامة إيكولوجيا، والاستغلال المكثف للأسمدة والمواد

الكيمائية تؤدي إلى تآكل التربة ومن ثم إلى التصحر. كما أن الرعي الجائر يؤدي أيضاً إلى التصحر. أما تغير المناخ كنتيجة لتدخل الإنسان في مكونات الغلاف الجوي. أو لوجود دورات طبيعية في الأنواء الحورية والمظاهر المناخية، فتكثف تساهم بشكل مباشر في ازدياد التصحر. أما المؤثرات الأيكولوجية التي تساعد في تعريف التصحر هي الانخفاض في خصوبة التربة، وتكوينها، و فقدان التنوع البيولوجي. ودمار في الأراضي التربة لزراعة المحاصيل. وفقدان الأراضي القابلة للزراعة. أما التأثير الاجتماعي والاقتصادي للتصحر فهو خسارة الأمن الغذائي. وفقدان الحد الأدنى للبيئة، مع تفاقم مشاكل الفقر، وسوء التغذية، والمجاعة، والهجرة الاضطرابية للشعوب. و يتناول الكتاب الجهود العلمية لمكافحة التصحر، وكيف أن التصحر يتواجد في دول معينة من العالم غالبها جافة وصحرانوية في الأصل، وكيف أن إصلاح الأراضي مكلف جداً. وكيف نادت قمة ريو العالم إلى مكافحة الجفاف والتصحر بكل الوسائل. ونتج عن الجهود العلمية قانون الأمم المتحدة لمكافحة التصحر في الدول التي تعاني من الجفاف و / أو التصحر. خاصة في أفريقيا.

الباب الرابع: الدول والمؤسسات العالمية

بما أن المشاكل البيئية أصبحت ذات طابع يتعدى الحدود الدولية، بل وللمواجهة التي تتطلب معالجة، فإنها تحتاج إلى اتفاقيات دولية لضمان الحصول على المعلومات العلمية المتغيرة، ووضع

معايير للبيئة، وتطبيق هذه المعايير. والاتفاقيات البيئية يجب أن تأخذ في الاعتبار مصالح الكثير من المستفيدين منها. وهذه تحوي المؤسسات البيئية غير الحكومية، والحركات الشعبية، والسكان الأصليين، والصناعة، والمؤسسات المالية، والمؤسسات العلمية، والمنظمات الحكومية الدولية، وأخيراً الدول والحكومات. كل هذه يجب أن تساهم في الإدارة البيئية. وتعمل معاً ما فيه مصلحة البيئة العالمية. وفي ذلك يدخل الكثير من الجدل حول عدم كفاءة الدولة، و قانون البيئة العالمي، وضرورة إصلاح المؤسسات التي تهتم بشؤون البيئة، ودور الأمم المتحدة ومؤسساتها في خدمة البيئة العالمية، خصوصاً الدور الذي يقوم به برنامج الأمم المتحدة للبيئة، والأمم المتحدة الذي مر به مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، واللجنة الخاصة بالتنمية المستدامة. مما نتج عن كل ذلك تحسن في التعاون الدولي، والتأكيد على الملكية، وتخطى ذلك إلى الانتقال من بعد الإصلاح إلى الوضع الحرج للنظم بالتفرد. كل ذلك ينظر له الكتاب بإسهامه أخذاً دور كل الفئات الحكومية والشعبية والمؤسسات الدولية والمؤسسات والجمعاعات غير الحكومية في الاعتبار.

الهدف الخامس : الناشطون غير الحكوميين :

العلوم ، والاقتصاد ، والمجتمع المدني العالمي

من نتائج السياسة العالمية للبيئة نمو أعداد وأبعاد ونشاطات مجموعات من الجماعات الناشطة غير الحكومية. وهذه تتضمن المؤسسات العلمية، والصناعية، والتجارية، والمنظمات البيئية، ومنظمات الدفاع عن الحيوانات، والحركات الشعبية، والمواطنين الملازمين لأنفسهم، وكلها حاولت بشئٍ ما أن تؤثر على القرار السياسي البيئي، أو حاولت أن تكون ناشطة على المسرح البيئي.

وعلى الرغم من أن الكتاب يتطرق إلى دور المؤسسات العلمية، إلا أنه يتوسع في ذكر نمو المجتمعات المدنية العالمية من خلال المؤسسات غير الحكومية كقوى مؤثرة في سياسة البيئة العالمية.

العلوم وإدارة البيئة

تزداد أهمية العلوم والمؤسسات العلمية في توجيه الإدارة البيئية. فمور العلماء مهم في عقد الرأي العام العالمي، وتجهيز دور الحكومات في مواجهة المشاكل البيئية، وهو مهم أيضا في إظهار الحقائق التي على أساسها توضع القوانين البيئية، ومن ثم إجراء الأبحاث العلمية لمواصلة معرفة الحقيقة والتغيرات البيئية وإثراء معرفة المشرعين، بالحقائق البيئية التي يبنى عليها التشريع البيئي. ولا يسلم العلماء من النقد انتقاصهم، وشعورهم بأنهم هم الذين لهم الحق في توجيه إدارة البيئة.

التجارة والصناعة وإدارة البيئة

فيهما أصبحت الشركات العملاقة لاعبا رئيسيا في السياسة البيئية. إلا أن كثيرا من الاهتمام المالي يتركز على دور الشركات متعددة الجنسيات كمسبب للضرر البيئي. وكشركاء في الأبحاث البيئية. وهذه الشركات تساهم في دعم البيئة من خلال دورهم في اتخاذ القرار لاستغلال المصادر، ومن خلال التلويث ودعم الأرض، ومن خلال معارضةها لنظرية المعايير البيئية، ومن خلال تحكمها في الثروات العالمية، ومن ثم سيطرتها على الاقتصاد العالمي. فمثلا دخل شركة شل للنفط في 1995 يزيد على مجموع دخول سبع دول أفريقية وجنوب آسيوية والتي تمثل حوالى 10 في المائة من سكان العالم. فمساهمة هذه الشركات العملاقة في التلوث العالمي واستهلاك المصادر يعتبر مؤثرا. وقد أخذت هذه

الشركات في المشاركة والتدخل في انشطة القرار السياسي البيئي. حتى ان لها دورا استشاريا في الأمم المتحدة.

ويستعرض الكتاب في إلقاء الضوء على دور هذه الشركات في سياسة البيئة العالمية، وموافاة المنظمات غير الحكومية منها.

المجتمع المدني العالمي

يعمل الناشطون البيئيون على سد جسر التعاون عبر الحدود الدولية حول العالم للاتفاق على الطرق الواجب اتباعها، لما يرون أنه عامل مشترك بينهم لخدمة أمور البيئة في العالم. ويستعرض الكتاب في ذكر دور هذه الجماعات وتحول نشاطاتها من ضائقة إلى ضائقة مصحوبة بأبعاد علمية، واقتصادية، وثقافية، وتنقد و تعادل بكل قوة ومبراة.

المؤسسات البيئية غير الحكومية : حركة إنقاذ الأرض

لهم المؤسسات غير الحكومية والجمعيات الدولية الظروف ذات الطابع المؤسسي للتعبير عن الرأي، وتكوين القاء التي من خلالها يتم التأثير في الحركات للبيئة الحديثة ذات الأبعاد الدولية. وهي تدعي بأنها ليست فقط نشاطهم في إة البيئة، بل هي تعبر عن رأي البشر العاديين - الذين هم عادة لا يمار لهم اهتمام حين العمل على إدارة شؤون البيئة.

ويستعرض الكتاب في شرح الخلفية التاريخية لهذه المؤسسات غير الحكومية ونموها ونشاطها المؤثر في العالم.

وهي مؤثرة لكونها معقدة ومشطورة ومشحونة من الجهود السياسية والدولية، ولها تقوى سياسي وعلمي و تجاري واقتصادي وإعلامي- واستلجده بعضها ببعض دوليا، وتتنافس فيما بينها، كما تشترك في مهامها الدولية وهي إعلامها، وتقوم بأعمال بيئية نشد انتهاء العالم إعلاميا، ولربما كان ذلك مخرجها في بعض الأحيان للحوال والشركات الكبرى، ومؤثرا في اتخاذ القرار السياسي البيئي.

ويقدر عدد المؤسسات البيئية غير الحكومية بما يزيد على ١٠٠٠٠٠ مؤسسة وجمعية. وهي مؤسسات أخذت تلعب دورا مؤثرا لا يمكن الاستغناء عنه على مستوى السياسة البيئية في العالم، ولا يمكن تصور انعقاد مؤتمر عالمي حول البيئة من دون مشاركة هذه المؤسسات والأطلاع على صحيفتها التي تسمى العسدي، وأصبحت هذه المؤسسات الضمير الحي لإثارة الكثير من المشاكل البيئية، والضغط لإيجاد الحلول لها، كل ذلك النشاط بأخذ طابع النطوع وينشأه الدعم من الشعوب والمؤسسات حتى الحكومية منها.

التيار العاصي : أدوية من العواصف :

النساء والطوائف الأصلية

يختص هذا الباب بدراسة دور المرأة وسماع صوتها، وكذلك دور المواطنين الأصليين في البيئة.

النساء والبيئة بسم الله الرحمن الرحيم

يستعرض هذا الجزء دور المرأة على أنه دور الإدارة والحفاظ على الموارد الطبيعية، وعلى أن المنظمات العائلية والحكومية قد أعطت دور المرأة وحيويتها وعمرتها، وأن صوتها غير مسموع، وأن نصيب المرأة من ثروة التوزيع البيئي أكبر، وأن التفرقة ضد المرأة بسبب جنسها هو حجر عثرة في طريق التنمية المستدامة، وأن مشاركة المرأة ضرورية للتنمية المستدامة، وأن المرأة تعمل لبقاء التنوع البيئي وأبناء البيئة.

فهي تشارك في النشاط الاقتصادي لإلزام العائلة وتحمي الماء العذب إلى منزلها، وتحفظ خشب الوقود لكي تستخدمه في الطبخ، وإلى لم يوجد متدرب لجميع روث الحيوانات الجافة بدلاً منه لاستعماله كوقود، وكيف أن المرأة غالباً ما تكون محرومة من التسهيلات لائقية، وتطلع من ملكية الأراضي، كما أن النساء يكن أقل شهرة وعلى فتوات جديدة بالمقارنة بزملائهم الرجال، وأنهن ضحايا ما يصرعن من التمييز، وأن النساء في الدول النامية يتحملن العبء الأكبر من دعاة البيئة وتأثير ذلك على الوقود المنزلي، وعلى فرص اختيار مصادر المياه والغذاء.

أية النساء ؟

يبحث هذا الجزء في دور النساء في المجتمعات، فيجد أنهن لا يولين المناصب القيادية ولا الوزارية إلا في قليل من الدول، وأنهن مهملات حتى لو وصلن إلى أعلى درجات العلم، كما أنهن لا يشاركن في اتخاذ القرار ولا يشاركن في التنمية، فعليه تضيق طاقاتهم وقدراتهم همداً، وبذلك تتأخر التنمية المستدامة، إن دور النساء في الأمومة وإنجاب الأطفال وتربيتهم، يجعل النساء أقرب إلى الأرض من الرجال، لذا فإن إعلان ريو بنادي بالاعتراف بدور المرأة، وأنه يجب منحهن فرصة المشاركة في اتخاذ القرار الاقتصادي والسياسي، وكذلك يجب أن ينظر لهن على أنهن مبدعات وثالثات، ومحافظات على البيئة، ومديرات المصادر الطبيعية، وقدراتهن على التعبير في جميع مستويات المجتمع، وعليه فيجب المساواة بين الجنسين وليس فقط الاهتمام بالمرأة، ويجب اعتبار ذلك ركناً أساسياً في التنمية المستدامة.

الباب السادس : الاقتصاد السياسي العالمي للبيئة

يعني الاقتصاد السياسي العالمي للبيئة من علاقة الشمال والجنوب، ومن عدده الثقل والضعف. وإن البيئة يجب أن تدار وتعمل على أساس المشاركة حسب الظروف والدور الذي تلعبه كل دولة على الساحة البيئية.

دول الشمال والجنوب

يستعمل تعبير الدول المتقدمة والدول النامية في الاتفاقيات البيئية للتمييز بين الدول الغنية والدول الفقيرة. الدول المتقدمة هي الدول الأوروبية والدول الأوروبية الحليفة سابقا للاتحاد السوفييتي. وتسمى جميع الدول الأخرى التي لا ينطبق عليها هذا الوصف بالدول النامية. كما يستعمل تعبير العالم الأول والعالم الثالث والشمال والجنوب.

تمتاز الدول الشمالية الصناعية باستعمالها للمصادر الطبيعية بشكل غير منصف. سواء مصادرها أو مصادر الدول النامية، وهي المصدر الرئيسي لعوارق التراث البيئي. إلا أنه من دون التزامات مالية لإعادة وإصلاح البيئة المدمرة في الجنوب، فإن التعهد من الدول النامية بإيقاف التدمير البيئي وإصلاحه لن يكون كافيا.

أما الدول النامية فتقول إنها من أجل إصلاح بيئتها والمحافظة على التنمية يجب على الدول المتقدمة أن تأخذ المبادرة وتكون الفاعلة. وأن الدول النامية لا تستطيع عمل ذلك إلا بدعم مالي وتكنولوجي. ويستمرس الكتاب هي استعراض دور الدول الغنية فيها يمكن عمله للمحافظة على البيئة والموارد الطبيعية. وعن دورها في دعم الدول. وكيف أن الدول النامية هي إفريقيا خاصة. وهي آسيا وأمريكا اللاتينية عامة سوف تكون الخاسر الأكبر من جراء أي مزيد من تدهور البيئة ومصادرها. وكيف أنه لا ضرر من التعاون الدولي والمشاركة للوصول إلى التنمية المستدامة، والمحافظة على التراث البيئي. ويستمرس الكتاب هي استعراض ما دار في سنوكهولم وهي ريو بما يخص الفقر والتنمية. ودور الدول النامية في إدارة التنمية. وتربط ذلك مع السكان، وتغيير المناخ، والتصحّر، وإزالة الغابات، وتلوث المياه العذبة والمحيطات، والمحافظة على التنوع البيولوجي. وتوجه للمعرضين في الاقتصاد السياسي البيئي إلى استعمال الموثوقة: «مستأجرون في المصالح ولكن بمسؤوليات مختلفة». وذلك كمخرج لتجديد الفهم حول دور الدول المتقدمة والدول النامية و مساهماتها في تدمير البيئة والمحافظة عليها. والعمل على تغيير أنماط الاستهلاك في الطاقة والموارد الأولية. حيث إن سكان الدول المتقدمة يقدر بـ 25 في المائة من سكان العالم إلا أن استهلاكهم من الموارد الطبيعية يصل إلى 80 في المائة. وكيف أن الولايات المتحدة وحدها تستهلك ما يقدر بـ 25 في المائة من الطاقة في العالم. بينما تستهلك الدول المتقدمة الأخرى ما يعادل ثلاثة أرباع الطاقة في العالم.

والاستهلاك المتور في أمريكا من الطاقة بمعدل ٢٠ مرة عما يستهلكه نظيره في الهند، و ٨٠ مرة ما يستهلكه نظيره في جنوب الصحراء في أفريقيا. وتُجادل الدول الأوروبية بأن توقعات الزيادة في الاستهلاك ستكون مستتبلا في الدول النامية. كما أن توقعات الزيادة في السكان ستكون هيبا أيضا. ويكثر الجدل حول تغير المناخ، و مساهمة الدول في أبعث غازات البيوت الزجاجية، فضلا تطلعت الصين لتعود الاقتصادي بحلول ٢٠٦٠ في المائة مليوناً عشر السنوات القادمة باستعمال الوقود الأحفوري. وتكثر الفرائد التي سبقت من ذلك بكمة الغازات التي ستوفر أبعثها الدول المتقدمة في أوروبا. وهذا موضوع جدل آخر.

التنمية المستدامة

التنمية المستدامة مبدأ أساسي في المساهمة الدولية للتنمية. وهو مبدأ يدور الجدل حوله. وأول بنود الاختلاف هو تعريف التنمية المستدامة الذي تم الاتفاق عليه في اللجنة الدولية للتنمية والتنمية المستدامة تعني التنمية التي تلبى احتياجات الوقت الحاضر من دون الإخلال باحتياجات أبعث المستقبل، وتدخل في هذه التنمية دراسة الاحتياجات والموارد المالية على الأبعث العلمية، وكذلك المحافظة على المصادر والخصوبتها من دون دمار إيكولوجي. وتم التركيز على التنمية للتعلم على التفر في العالم الذي يعتبر مصدا رئيسيا للعلم البيئي وعاقفا للتنمية المستدامة. فالفر وعدم المساواة يمكن التغلب عليهما من خلال التنمية والكفاءة في الإنتاج. وركز مؤتمر ريو على إدارة الموارد بين البيئة والتنمية. وحل مشكلة التنمية المستدامة، وفترض أن لا تنمية مستدامة من دون المحافظة على البيئة. وعلى الرغم من أن التنمية المستدامة كمبدأ أصبح متفقاً عليه. إلا أن هناك الكثير من الاختلافات والانتقادات حول مفهومه وتطبيقه في محيط السياسة العالمية للبيئة. خصوصا بما يتعلق بإزالة التفر وبإنعاط التنمية. وتمويل كل منها. وبالنسبة للناقدين فإن طريقة تجربة التنمية المستدامة بشكل غير متساو ومختلف في مناطق مختلفة من العالم تظهر عيوب الفكرة. ويتوسع الكتاب في استعراض الجدل والخلاف الدائر حول التنمية المستدامة. إلا أنه مهما كانت المفاهيم والاختلافات في التعريف حول المصالح المشتركة والمسؤوليات المختلفة. فإنه يجب تطبيق التنمية المستدامة.

الهدف الرابع : استراتيجيات التنمية المستدامة

ركزت الاستراتيجيات التي صممت لدعم التنمية المستدامة، والأغراض والمسؤوليات للشاشة التي تعكس فدرات الدول على ميكنة نقل التكنولوجيا وتحديث الأنظمة للممول بها. على الطرق التي تتبع في الاقتصاد السياسي العالمي. وعلى استعمال الأدوات الاقتصادية لأجل حماية البيئة. وتتضمن هذه مسائل سياسية واقتصادية لها علاقة بتوزيع التكاليف والفوائد. وإدارة المصالح المتنافسة. وليس فقط مناقشة كيف يمكن لهذه الاستراتيجيات أن تطبق. بل بما إذا

المساهمة العالمية للبيئة

كانت هذه الاستراتيجيات صالحة أصلاً للتطوير، وفي هذا الباب يستعمل الكتاب في استعراض جميع الجوانب التي تتعلق بالاستراتيجيات، وهي:

أ - وضع نقل التكنولوجيا والموارد الأولية إلى الدول النامية

يبد أنه بالنسبة لهذه الدول فإن الأمر يعتمد ذلك، حيث ترى هذه الدول وجوب نقل الأموال والتكنولوجيا من الدول المتقدمة، لأنها هي المسؤولة عن الدمار البيئي نتيجة لأنشطتها الاقتصادية والصناعية، وعليها أن تقوم بدفع مبالغ كافية و متجددة لإصلاح الدمار والتعويض عن استغلالها لمواردهم الأولية.

ب - نقل التكنولوجيا

ترى الدول النامية أنها لكي تنفذ ما ورد في الاتفاقيات البيئية فإنه يجب عليها استعمال التكنولوجيا لتحقيق ذلك، ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا تم نقل التكنولوجيا لها من الدول المتقدمة، ولا يخلو النقل التكنولوجي من المشاكل، حيث يجب نقل المعرفة العلمية أيضاً، وليس كل العلوم والتكنولوجيا الموجود في الدول المتقدمة تناسب الدول النامية، كما يجب نقل الخبرات البشرية أيضاً، والجدل الذي يدور حول نقل التكنولوجيا يتضمن حواراً حول هل يتم النقل بسعر منخفض أم بأسعار تجارية، وحول الدول المتقدمة، فإن الدول النامية لا تستطيع دفع تكاليف التكنولوجيا، ولها أن تستفيد من مبرور التقدم التكنولوجي وفوائده على البيئة فقط.

ج - هل هي حلول أم اجتهاد بيئي خاطئ؟

يرى البعض أن نقل التكنولوجيا، وزيادة المساعدات المالية، ونقل العلوم والخبرات، ونقل المعلومات و المواد أن يساعد الدول النامية، من دون تغيير في الهيكل الإداري وطريقة العمل والأسلوب الحكومي والبنية التحتية لكل ما يتعلق بالاقتصاد والسياسة والإدارة والصناعة وتطبيق العلوم والتكنولوجيا، ويرون أنه بسبب ظروف الدول النامية فإن الاستراتيجيات تعتبر خاطئة ولن تحقق أهداف التنمية.

د - دور البنك الدولي في دعم البيئة العالمية

السؤال حول من سيدبر الأمور المفقولة إلى الدول النامية لدعمها هو موضع الجدل، حيث ترى الدول النامية أن البنك الدولي منحاز إلى الدول المتقدمة، إلا أن البنك الدولي لديه الأجهزة الإدارية والفنية المتخصصة لإدارة الأموال ونقلها، وله حق التصويت، فالحك أن الدول النامية عند توقيعها على الاتفاقيات البيئية قبلت باستغلالها من قبل المؤسسات المالية العالمية المتوفرة حالياً، وهنا يأتي دور وكالات وإدارات البنك الدولي المتخصصة لدعم السياسات البيئية، على الرغم من

اعتراض الدول النامية على طريقة عمل البنك الدولي التي توصف بأنها غير ديمقراطية. بجانب أن البنك الدولي متعلق على نفسه. ولا تحلو تقارير البنك المتخصصة من اقتناعات تمويله مشاريع أدت إلى دمار البيئة وتزويج السكان المحليين. وهذه الخلفية تثير الشك في مقدرته البنك على دعم المشاريع البيئية. وإدارة أموالها بشكل بناء والإصلاح البيئة وتطويرها.

د - دور الدول النامية والبيئة

يستعرض الكتاب في هذا الجزء دور الدول النامية، وكيف أنها عائق كبير في طريق التنمية، وكيف أن الكثير من هذه الدول قامت ببيع مواردها الطبيعية لعدد من الشركات الدولية، وكيف أن هذه الشركات مستعجلة للدول المتقدمة (دول الشمال)، وكيف أنه لا يمكن وجود التنمية مع الفقر والديون.

هـ - الدور مزدوج المحيطة بالطبيعة

هناك حوار ومضغوط مستمرة حول استبدال دفع مستحقات الديون بإنشاء محميات طبيعية في الدول التي تعاني من الديون. ولا يخلو هذا الاقتراح من النقد. حيث يكون مقيدا لاستقلال الأراضي، ويحد من سيطرة الدولة على أراضيها، كما أنه سيؤدي إلى رحيل بعض السكان من مناطق المحميات.

ARCHIVE

ز - التجارة والبيئة

يدور الجدل حول عدم توازن البيئة والتجارة، ويستعرض الكتاب أعمال منظمة التجارة العالمية، ودور منظمات ومؤتمرات الأمم المتحدة للتجارة والبيئة، وكيف أنه يحسن الإدارة يمكن الجمع بين التجارة والتنمية، ومن ثم المحافظة على البيئة.

ح - جواً مع ديم بلوم: البيئة حيلة أم دافع تكاليف إصلاحها

يتعلق هذا الاقتراح بالصناعة، ونقل المواد، والتجارة، ودعم الدولة للصناعة والتجارة، ويرى البعض أنه على من يتسبب في تلويح البيئة أن يتحمل تكاليف إصلاحها. وأن أي منتج يتسبب في الضرر البيئي يوجب دفع تكاليف إضافية على سعره الأصلي لتغطية تكاليف إصلاح البيئة.

ط - التمثيل المالية للبيئة على الدولة

حطمت الوسائل المالية بكثير من الاعتماد للتقليل من التدمير البيئي. ويدور جدل حول استغلال الوسائل المناسبة التي تتناسب واحتياجات السوق العالمي كتحديد الأسعار، والتكلفة الخاصة بتقدير تكاليف التدمير البيئي، والمتطلبات المالية لإعادة تأهيل البيئة، معتمداً في ذلك على الأسعار السائدة في السوق، ومن ثم الطاقية بالتعرض من الخسائر البيئية.

الباب التاسع : الأمن البيئي

الأمن البيئي هو مصطلح جديد يدور حول محتواه الكثير من الجدل، ويشتمل البيئة والأمن، والعنف والحروب كعصبية للدمار البيئي، وضرورة احتساب الدمار البيئي كالتهديد بالحروب. ويوجد تحذوف بأن التغيرات في البيئة قد تؤدي إلى حروب في داخل الدولة أو بين الدول. ويشتمل البعض من كيفية تحليل الوضع البيئي لاكتشاف أي من هذه التغيرات التي قد تؤدي إلى العنف أو الحروب. فالمجلة الدولية للبيئة والتنمية لاحظت أن دولاً دخلت الحروب لإنبات حفضها في المواد الأولية، أو لفكومة السيطرة الأجنبية عليها، أو للوصول إلى مصادر الطاقة، أو للأراضي، أو الحواض الأنهار، أو للممرات المائية، أو أي مصادر بيئة مهمة. ويتوقع أن تزداد الفنازعات كلما شحت المصادر. السيطرة على المصادر الطبيعية لأمو استراتجية متعلقة بأمن الدولة مهمة جداً لأمن هذه الدولة، ولتح هذه المصادر من الوصول إلى أيدي العدو. ويستمرس الكتاب العديد من الأمثلة الخاصة بسيطرة دول على مصادر الثروة الأولية في دول أخرى، أو الدخول في حروب من أجل هذه المصادر، ومنها دخول الولايات المتحدة في حرب تصدير الكوئيت بعدما لا تعتمد الولايات المتحدة على النفط الكوئيتي إلا قليلاً، إلا أن المخزون النفطي الكوئيتي ينظر له على أنه واداً حروباً تصالحت التي فلتهدد الولايات المتحدة. وتشكل موارد المياه في الشرق الأوسط مصدراً للعنف والحروب، حيث تتنافس عدة دول على مياه ثلاثة أنهار هي نهر الفرات، ونهر الأردن، ونهر النيل. كل في موقعه والنهر الذي يحصمه. وثقياً بطرس خالي بأن الحروب القادمة في المنطقة ستكون من أجل المياه وليس السياسة.

أما شح الأراضي، خاصة الزراعية منها، فهي مصدر آخر للزراعات خاصة بعد تدهور البيئة نتيجة للتصحر و زوال الغابات ونفهر لتناخ. وكانت الأراضي، خصوصاً الزراعية منها، مصدراً جغرافياً أو استراتيجياً للدول. ظلك أمكن الاحتفاظ بها. إلا أنه غير واضح مدى دخول الشعوب فيما بينها داخلياً أو فيما بين الدول للتجارة في حروب نتيجة لأهمية الأراضي الزراعية. إلا أن التدهور البيئي ليس دائماً السبب الوحيد للصراعات، فظلالاً شكل جزءاً من التشابك والتضام. لذا فإن تدهور البيئة والمياه ذلك على استنزاف دول العالم الثالث هو الذي يشكل خطراً على السلام العالمي. كما أن التدهور البيئي سيؤدي إلى زيادة الخلافات بين الدول الغنية والفقيرة. أما الأمن الغذائي فيسكون حتماً نتيجة لتدهور البيئي، بما يتعلق بالتصحر، وتؤدي الثروة وانحسار مساحة الأراضي الزراعية. وتعاني الثروة السمكية من النقص المستمر نتيجة للصيد الجائر و الصيد التجاري المكثف الذي يستعمل سفن الصيد التي تقتل غير مساحلات بعيدة من البحار. وبما أن الأسماك هي مصدر مهم للبروتين فإن

نقصها سيهدد الأمن الغذائي لكثير من الدول النامية، وسيؤدي إلى الصراعات حينما تتنافس الدول على مناطق الصيد البحري. من كل ما سبق فإن الدول النامية ستكون أكبر الدول تضرراً نتيجة لتدهور البيئة.

الأخطار الاجتماعية والبيئية نتيجة لتدهور البيئة

يساهم التدهور البيئي في الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، خصوصاً إذا كان ذلك ناتجاً عن الغذاء أو شح المياه كما يحدث في الدول النامية. ويعاني الآن أكثر من مليار نسمة في العالم من شح المياه الصالحة للشرب، كما يؤدي نقص الغذاء وشح المياه إلى هجرة السكان من موطنهم الأصلي إلى مناطق أخرى أو إلى المدن، مسببين في صفوفهم اجتماعية وسياسية تؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في الدولة، ولربما تطلقها إلى ما هو عبر الحدود الدولية. وأصبح الآن من المقبول اعتبار لاجئي البيئة لاحقين بيئيين. ويستعرض الكتاب الكثير من الأمثلة لحالات هجرة جماعية في داخل الدولة الواحدة أو بين الدول نتيجة لتدهور البيئي. وكثيراً ما عمن الدول النامية.

والفعل العسكري للتدبيرات غير العسكرية

من المتفق عليه أن التهديدات البيئية هي ليست تهديدات عسكرية، إلا أن القوات العسكرية للدولة يجب أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المصادر البيئية كالمياه والسيطرة على المصادر عبر الحدود، أو لمنع لاجئي البيئة من الدخول عبر الحدود من الدول المجاورة. أو لقمع الشعب الداخلي الناتج عن التدهور الشعبي نتيجة لمعاناة الشعب بسبب نقص المياه، أو موارد الغذاء، أو لإجبار حكومة مشاغبة لا تحترم شؤون البيئة المحلية والعالمية على تغيير موقفها. وهذا ينعكس على دور الجيوش بعد زوال الحرب الباردة. وعلى ضرورة حل الجيوش وإعطائها دوراً غير الأمن العسكري، لحماية البيئة، وهو الأمن البيئي. كما يستعرض الكتاب الدور العسكري في دمار البيئة بشكل مباشر وغير مباشر. فسياسة الأرض المحروقة تعني استغلال البيئة كسلاح شامل للدمار. طرس الغابات بالبيدات وحرق آبار النفط من قبل القوات العراقية أدى إلى تلوث الأرض والهواء والمياه، كما أدى إلى تدهور صحة المواطنين والبيئة الصحراوية وتدنّي درجة حرارة الجو. كما أن سكب النفط في مياه البحر أدى إلى تدمير البيئة البحرية والساحلية. وقد عانت البيئة الصحراوية من جراء حرب الخليج حيث دمار الثروة الهشة من جراء حركة الآليات العسكرية ومن جراء حفر الخنادق ومن جراء الحضر التي تركتها الشجارات القنابل، ومن

البيئة العالمية البنية

جواء مخلفات الحرب، أما الأنعام وحقوقها، فحسورها مباشرة على البشر والحيوانات البرية، كما أن انفجاراتها كان انفجار الذخائر يدمر القرية ويغير تركيبها الكيميائي.

وهناك قانون (1972) لحماية البيئة من التلوث، كنتيجة للحروب والعمليات العسكرية. وتعدى مضار الحروب بضمومها أوقات الصراعات إلى ما بعد الحروب حيث المخلفات السامة والأنعام واضطرابات التربة ... إلخ. وتعتبر الجيوش أكبر مستهلك للوقود. فمثلاً تستهلك طائرة واحدة من نوع F-16 وقوداً في الساعة الواحدة يعادل ما يستهلكه سائق سيارة في أمريكا في سنة.

كما أن دور الجيوش في تدمير البيئة يأخذ أبعاداً أخرى من طريق استهلاك المواد الأولية وصرف الهزائبات الهائلة على التسليح والحروب. كل ذلك على حساب بنود الصرف الأخرى التي تشمل على إثراء البيئة وإصلاحها والحفاظ علىها. وعلى رفح البيئة بين المحتاجين في العالم.

الباب العاشر: البيئة العالمية للبيئة

يحتوي هذا الباب على مزيج مما ورد في الأبواب التسعة السابقة، فمردود بشكل رئيسي على بعض وبالمساحة العالمية والاقتصاد والرفاهية البشرية، ويقتل الإنسان من المستقبل البشري الذي لا يزال في ترقب بعد عدة سنوات من مؤتمر ريو. ويذكر هذا الباب أنه على الرغم من وجود آلاف المنظمات الدولية والحكومية وغير الحكومية، ونشاطاتها واجتماعاتها ومؤتمراتها ومؤتمراتها وإعلامها، وعلى الرغم من وجود عشرات الآلاف من الناشطين في شؤون حماية البيئة الذين يعملون بإخلاص وبشكل طوعي إلا أننا لا نرى نتائج ملموسة لكل هذه الجهود. ولا تتقوى الإدارة البيئية الخطط أو الأفكار أو الانتقادات البناءة، إلا أنه توجد مشكلة في التفكير الإداري. ويوجد تردد في قبول الحقائق العلمية حول الوضع البيئي. ويدور الجدل ويكثر النقد وتوالي الدراسات، إلا أن البيئة تتدهر والإنسان يعاني الفقر والحرمان ويدفع ثمن ترويض البيئة بطرق مختلفة.

وحسب النظام العالمي الحالي لا يحل من الدراسة والتفكير. وينظر له بأنه غير واضح للعالم ومشكوك في توجيهاه لإنقاذ الأرض. والمطلوب من جميع الحكومات والمنظمات والشركات ذات الخطط والمشاريع أن تعمل حساب المردود البيئي لكل المشاريع. وتخصص الهزائبات ليس فقط لبناء والتنمية المستدامة، بل لإصلاح الدمار البيئي الموجود. ورفع مستوى البشر خصوصاً في الدول والمجتمعات النامية. كما يجب تحديد وتلقين أنماط

الاستشهاد والرجوع إلى العهد الذي كان الإنسان يأخذ فيه من البيئة حاجته فقط ومن دون إسراف.

الكتاب شامل متكامل ويحتوي على أبعاد فكرية عميقة، يتطرق إلى البيئة ومشاكلها بشكل متعمق نافذ بناءً، ولا يهمل رأي فئة ويحيد رأي أخرى في الصراع والجهد البشري العالمي الذي يدور حول العالم، كما يظهر الكتاب الكثير من التساؤلات التي تعكس استقلالية التفكير وخبرته حول ما يجب فعله وما يجري حالياً، مستشهداً بكل مقولة ورأي ورد في أي موضوع له علاقة بالبيئة، ويحتوي الكتاب على قائمة بمعد كبير من المراجع المفيدة.

